وول سوينكا

الحائز على جائزة نوبل
للآداب سنة ١٩٨٦

موسم الفوضى

رواية

عبدالكريم ناصيف

وول سوينكا

الحائز على جائزة نوبل
للآداب سنة ١٩٨٦

موسم الفوضى

رواية

عبد الكريم ناصيف

مطبعة زيد بن ثابت ☏ ٢٢٠٩١٦

عدد الطبع ٣٠٠٠ نسخة

- ١ -

البـــــذار

- ١ -

أمر شاذ غريب : فهذه البلدة الصغيرة القديمة كانت قد امتنت لنفسها منذ زمن طويل ادارتها الخاصة وشرطتها الخاصة ، كانت موحدة أشد التوحد حتى انها توصلت الى وضع ضريبة شاملة عن سكانها وكانت تدفع نقدا ، حتى قبل أن يرحل المشرف على الضرائب المباشرة ذاك الذي كان يعتمر قبعته الاستعمارية ففي هذه البلدة كانت الملكية مشتركة بكل ما في الكلمة من معنى ، مشتركة حتى آخر خيط من الثياب التي يلبسها كل مواطن منهم . مفارقة تاريخية كهذه أثارت عجب المجتمع المتعطش للربح والمكون من سكان العالم اجمع . كانت أوساط المفكرين اليساريين ، وايلوزا تشغل القلب منها ، تنظر اليها وتقهقه ساخرة ، وكانت ترفض آيرو هذه ، باعتبارها نموذجا مثاليا للنزعة المشاعية المضادة للعلمية ، البدائيـة والعاطفية الى حد مزعج . اما بالنسبة الى الحكومات المتعاقبة فلم تكن آيرو تشكل اي تهديـد أو ازعاج . لهذا حدث أن آيرو ، الوحيدة من نوعها ، المستفيدة ، منذ ثلاثة أرباع القرن ، من عزلتها العرضية تلك ، لم تتعرض لاي اقلاق أو ازعاج . لكن حـين اكتشفت في مرحلة الاحصاء السكاني . . بدأ الغزو : السياح في البداية ، ثم علماء الاجتماع المسلحون بكتب ابحاثهم الملأى هذرا . بل حتى الهيئة ، المهتمة دائما بتوسيع عمليتها الخاصة بتطوير زراعة الكاكاو ، لا حظت أن هناك سوقا جديدة محتملة للكاكاو ، فذهب الى هناك أوفي المسؤول عن حملة التطوير، يصحبه فريقه.

ـ لماذا يا ترى يعودون ؟ كلهم يعودون ، ودائما يعودون ؟ وكان جيل الشباب من آيرو هو الذي يقصده أوفي حين طرح هذا السؤال على البابا آهينم : « ما الذي يدفع شبابكم جميعا لان يعودوا ؟ » .

كان شيوخ آيرو ، يتبعون في ذلك حكمة موحّدتهم ، ام الآيتومو ، يرسلون شبابهم الى انحاء العالم كله لكي يتعرفوا بالتجربـة الى اخلاق النـاس الآخرين وقيمهم . كانت آيرو تستمد موردها الرئيسي من صنع الزوارق من جذوع الاشجار، لكن أولئك الشباب كانوا يقدمون جزءا من راتبهم لتغذية صندوق البلدة . من هذه الجهة ، كان ذلك الايمان هو الذي يحدو أفراد الجيل المتحرك هؤلاء للعمـل في الصناعات الجديدة حيثما كانت تنشأ هذه الصناعات وفي أي مكان من البـلاد ، على أمل أن تعود عليهم المعارف التقنية الجديدة بالفائدة والعون ، مع انها كانت

مكتفية بذاتها من قبل . غير ان الحقيقة المدهشة التي حيرت الوكيل الدعائي للكاكاو هي انهم كانوا جميعهم يعودون . أضواء المدن لم تكن تبهرهم ، فحبل السرة ، حتى وان كان يُشَد الى أقصى درجة ، لم يكن يقطع قط .

« ما الذي يجعلهم يعودون ؟ » لم يكن أوفي قد كف عن توجيه السؤال الى آهيم، الذي كان يلعب دور الوزير الاول **لسيد الحبوب** . « ما الذي يجعلهم مختلفين عن شباب جيلهم الذين يستسلمون لاغراءات الحياة الاخرى والقيم الاخرى ؟ » لكن العجوز كان يكتفي بالاجابة : « سؤالك هذا أشبه بأن تسألني لماذا جئنا هنا ، ولماذا ما نزال هنا ولماذا نعيش ، فجوابي : « لا ادري » .

بعد الانتهاء من المهمة ، أرسل أوفي فريقه الدعائي الى ايلوزا وقد صمم على البقاء لاكتشاف سر الآيرو : بقيت ايريز معه ، فبدأ بعد لأي يتساءل في سره ان كان قراره قد نبع منه أم ان هناك شيئاً ما له علاقة بالاحساس الذي يدفعه لاعادة اكتشاف هذه المرأة في بيئة تضع كل شيء قيد السؤال . فقد كانت في آيرو تعمل وتعمل ، كائناً جديداً يبحث منذ زمن طويل عن عنصره الحقيقي . وكان أوفي يتساءل عن السر الذي يجعله هو نفسه ينشط تلك الساعات الطويلة ، اهي آيرو أم هي ببساطة تلك المرأة التي بدت وكأنها قد تغيرت لدى الاحتكاك به ، هو أوفي ؟

بعد مرور اسبوعين على اقامته ، طلب **سيد الحبوب** حضوره اليه . وكان سيد الحبوب عجوزاً جاف العود ، تبدو عيناه تحت اجفانهما المرتخية وكأنهما مغمضتان باستمرار لكنهما تنفتحان فجأة لتشعا حيوية وبريقاً أشبه بشعاع الشمس بعد المطر .

ـ لقد حدثني آهيم عنك . ولقد سبق أن جاءنا زوار ، بعضهم اقام هنا مدة تماثل مدة اقامتك . أما السياح ورجال الحكومة ، فأولئك لم يكونوا يتأخرون : ذلك أن رجل الحكومة هو جابي الضرائب عموما ، وهو يجد ضرائبه جاهزة دائما ، فلا يظل من سبب لبقائه . النقود ! (قال الكلمة وهو يسحقها بين اسنانه ، ثم توقف كما لو أنه كان بحاجة لاستعادة قواه) لكن انت ، لماذا انت هنا ؟ آهيم قال لي انك لا تعمل للحصول على دبلوم . فأولئك الذين مكثوا هنا زمنا طويلا مثلك انما كانوا احد نوعين: اما أنهم ممن يأملون أن يحصلوا على دبلوم أكثر أهمية بشكل من الاشكال من النقود ، وهؤلاء يسمون أنفسهم علماء اجتماع ، على ما اعتقد ، اليس كذلك يا آهيم ؟ أو انهم من الصحفيين الذين يريدون التقاط صور ليبيعوها بعد ذلك . (وانحنى الى الامام مستندا بذقنه الى يديه اللتين كانتا تستندان بدورهما الى عصاه) فعمَّ تبحث انت ؟ لقد انقضى زمن طويل على ارسالك لفريقك الذي يقوم بالدعاية للكاكاو ، وانت باق ، فلماذا ؟ .

هنا بادر آهيم ، ضاحكا ، لكي يشرح للشيخ العجوز ان اوفي يتساءل عن السر الذي يجعل شباب آيرو يعودون دائما ، فطرق العجوز بأجفانه قائلا :

ـ حقا ! فاعترف اوفي أن هذه الظاهرة تحيره .

ـ ولم تجد التفسير بعد ؟

ـ كلا ، الحقيقة انني لم اكتشف ايضا ان كان ذلك هو الدافع الوحيد لاقامتي الطويلة هنـا ام لا .

انفتحت أجفان العجوز دفعة واحدة وللحظة من الزمن راحت عيناه تتفحصان أوفي ، بعدئذ شرع يتكلم على مهل :

ـ هل تريد أن تعدني شيئا ؟

فقال اوفي بشيء من التردد أنه سيحاول .

ـ حين تكتشف ذلك السر ، حتى وان كنت بعيدا من هنا ، عليك أن تعود في الحال لتقوله لي .

وعندما كانا عائدين باتجاه منزل الضيوف ، قام آهيم بتقديم كشف مدهش .

ـ اتود أن تعلم لماذا اراد المؤسس أن يراك ؟ باستطاعتي ان أقول لك ذلك ، فهذا لن يزعجه . ليس لانه وضع فيّ ثقته ، بل لانني أعرف تماما انه أمر عادي .

ـ أجل ، بودي أن أعرف .

ـ انه يبحث عن ذاك الذي سيكون سيد الحبوب القادم .

ـ سيد الـ . . . أتريد أن تقول انه نوع من مفوض اعاشة ؟ وزير تموين أو شيء من هذا القبيل ؟

فابتسم آهيم .

ـ كلا ، ذلك اللقب لا نستخدمه غالبا ، ان لم يكن ذلك بيننا ، زد على ذلك اننا لا نحب الالقاب كثيرا لكنها العادة في تحديد الوظائف بواسطة بطاقات . كـلا ، سيد الحبوب ، انه . . . (وابتسم العجوز ابتسامة فيها شيء من الخبث) بامكانك ان تضيف هذا الى قائمة الاشياء التي توغب في اكتشافها لدى الآيرو .

بعد يومين ، اكتشف أوفي السر وذلك بكل بساطة من خلال طرحه السـؤال على احد سكان البلدة الصغيرة ، بعدئذ ، ودون أن يصدق اذنيه ، طرحه على ثـان ثم ثالث فرابع ، فعزز اللغز ـ الذي لم يكن بامكان أحـد أن يتصوره على هـذا النحو ، بعد أن جاءه الجواب على سؤاله بكل بساطة ومباشرة ـ عزز شكوكه المتزايدة في أن هناك بزور جنون ان لم يكن في الآيرو كلها ، فعلى الاقل بين كبار السن منها . وبهيئة المترفع ، مدعيا انه لم يكتشف بعد ، السبب الكامن وراء المهمة التي كان سيد الحبوب يعمل من أجلها ، سأل أوفي العجوز ، ان كان كلامه جديا ، لكن آهيم كان اكثر ذكاء من أن يدعه يلعب به .

ــ آه ! اذن فقد اكتشفت السر ؟

الا ان اوفي انكر ذلك بشدة ، فراح الآخر يلطم ذقنه .

ــ هـ . . م . . م . اذن ، قل لي لماذا تخيفك هذه الفكرة ؟ لماذا تعتقد انني مصاب بالجنون التام . فرد أوفي :

ــ على كل حال ، من المؤكد انني سانسحب من هنا !

ــ هل وجدت كل ما كنت تبحث عنه ؟

ــ بل واكثر ، قال أوفي (ثم اضاف بنبرة رزينة) ليس بوسعي ان اقول لك كم اقدر حسن ضيافتكم ، لكن التصور ان باستطاعتي أن انجح في . . . .

فأدار العجوز كتفيه بيديه .

ــ لقد تبنتك آيرو منذ اللحظة التي راتك فيها عيوننا (وهز راسه بحيوية تامة) نعم ، نعم . . هذا صحيح . لقاؤنا معك ومع فريقك الغريب من المثلين والمتنلين كان له صفة استثنائية . وينبغي الا يمر زمن طويل قبل ان نرى انك غير راض عن عرض شفافات الصور والافلام . فتلك الافلام القديمة التي تدعي كلها انها تعلم المزارع انما تعلمه أشياء يعرفها منذ عشرة أجيال . لكن ثمة أشياء جئت بها تعلم كثيرا ، اشياء ربما جئت بها بالمصادفة وربما لا ، أشياء لساعات الفراغ !. والحقيقة أننا دهشنا حين تبينا أن رسالتك كانت مماثلة لتلك التي أدت الى ايجاد جماعتنا المشاعية قبل زمن طويل من مولدك ، فقال أوفي :

ــ ان لك الحق كله في أن تتوصل الى الرضى الذاتي . لكن حتى هذا الرضى يمكن أن يكون خادعا ، مثل اللا مبالاة أو الشعور بالاكتفاء . فحينذاك يترصدك الخمود والاسى . . وارجوك ، لا تستأ من كلامي . . فرد آهيم مطمئنا اياه :

ــ لا ، لا ، انت تعلم انني أقدر الصراحة كل التقدير .

ــ أولادكم يجوبون العالم الفسيح ، يكتسبون خبرات شخصية كبيرة للغاية، مع ذلك هم يرجعون ، ويثبتون هنا على حافة بركة صغيرة . ذلك يثير الاعجاب ، لكنه في الوقت نفسه يشجع زواج القربى ، فيبدون وكأنهم لا مبالون بكل ما راوه في الاماكن الاخرى ، في بقية ارجاء الارض بل حتى بما هو موجود لدى اخوتهم .

ــ بالنسبة الينا ، العدوان على الآخرين ليس فضيلة يا بني . والتبشير بدين من الاديان شكل من أشكال العدوان .

ــ اعلم ذلك ، لكن ، ثمة اعتراض لم أستطع التوصل الى حله بنفسي . لكن كل هذا . . . أوه ! أنا لا ادري كيف اعبر عن ذاك الذي احس به : رائحة العفونة ، الاسى الذي يطغى على كل مكان كهذا . في حالة الازمة ، يمكن أن يصبح قاتلا ، وعلى ما يبدو فان جيلنا قد ولد ليعيش أزمة طويلة .

كانا يسيران بصمت فوق الضفة ، وللحظة من الزمن ، اعتقد أوفي أنه يقرأ شيئا

من تشبيط الهمة في محيا العجوز ، انها المرة الاولى التي كان يلاحظ فيها اثرا من احساس كهذا على وجه من وجوه الآيرو . توقف آهيم ثم غرز نفسه امامه محدقا اليه في عينيه ، ثم قال :

ــ ربما خطرت الفكرة نفسها في اذهان البعض منا ، فهل فكرت بذلك ؟ لماذا تعتقد ان المؤسس فكر بأن يجعل غريبا يخلفه كسيد للحبوب ؟ ان الحبوب لا تعني التغذية فقط بل تعني التكاثر ايضا ..

فحرك اوفي ذراعيه اشارة العجز .

ــ ضمن هذا المنغلق ؟ (ثم هز براسه علامة النفي) لا ، على مياه آيرو أن تجعلها تتجاوز هذه الحدود . على الحبوب ان تجد ارضا جديدة تبذر فيها ، والا فانها ستضمر وتموت .

ــ اذن ، لتنضم الى جماعتنا هذه ، قال العجوز بنبرة تحد ، فنحن نعلم منذ زمن طويل اننا بحاجة ماسة الى دم جديد .

ــ لا ، لا ، فليس بالامكان ضمان النتائج . ان لكم ناسكم الذين يمتون اليكم .

وفي الغداة غادر اوفي آيرو .

ــ ستعود ، صاح به آهيم من على الضفة ، وسأعود أنا كي استقبلك هنا ، فوق هذا الشاطىء بالذات .

* * *

لم يستطع اوفي مقاومة الدعوة لحضور الجنازة . وكان خير ما فعل انه وصل قبل اسبوع فقد كان ما يزال في ذهنه الكثير من الاسئلة والكثير من الاحتمالات . كانت آيرو مفعمة بالوعود ، بالاجوبة وبالقوى المحرضة المثيرة . فاذا ما ترك نفسه للبحث والتفتيش ، فانه لا بد من أن يقع على شيء ما .

ولقد ترك نفسه لذلك المكان ، ملؤه الاعتراف بالجميل لآهيم الذي كان يهتم بايريز . فآهيم ، المفتون الى حد لا يصدق بتلك الجنية الساحرة القادمة من اضواء المدينة الملحدة ، كان قد قبل بمشروع خدمتها ، لا لشيء الا لكي يجذب اوفي الى آيرو . فأرسل نساء في غاية الجودة والرقة من منزله ، نساء عقدن امتن اواصر الصداقة مع الفتاة الشابة التي غدا اوفي يراها اقل فأقل مع مرور الايام . مع ذلك لم يشك ولم يتذمر قط . فحين كان يبحث عنها ، كان يجدها مستغرقة في حوارات حميمة مع عجائز غريبات لم يكن يرغب في التعرف اليهن . وذات صباح ، حين استيقظ

أوفي ، لاحظ انها لم تكن بقربه . لكن كان العجوز آهيم هناك ، يعمل لاعداد افطاره ، ومحياه كله يموج بآثار الغموض والسعادة .

ـ لا تبحث عن رفيقتك ، قال العجوز ، فهي تتعلم الاصغاء الى خفقات قلب هذه الارض التي هي أرضنا والتي تجدها انت تافهة للغاية .

عند الضحى عادت ايريز تحيط بها النساء العجائز . ثم دخلت وهي ترتدي تنورة بيضاء مغراء ، اجفانها مدعوكة بالكحل وعقد من العاج السميك حول عنقها ، كيف يستطيع الناس تمرير أشياء ثقيلة حول أعناق النساء ! احس أوفي بأنه مهمل منحى بعيدا بفعل النشوة الغامضة التي كانت تفيض من محياها المشع . ما اقل ما اعرفها ، فعلا ! ما أضأل ما اعرفه عنها ! وحين أصبحا وحيدين أخيرا ، لم تكن ترغب في قول شيء سوى هذه الكلمات : « هذا يرضيني يا أوفي ، هذا يرضيني فعلا ، أنا التي كنت أشعر بالخواء التام . الآن أرى انه لا ينقصني شيء » . من تراه علمها ان تقول شيئا كهذا ، هي التي لم تكن تحس بالرضى الا بممارسة الحب ؟

غير أن قدرتها على ادهاشه لم تتوقف عند هذا الحد . ففي تلك الليلة ذاتها ، وحين كانا في السرير ـ ولقد راوده الشك في البداية أن عالم ايريز الجديد سيقضي على نشوة لقائهما ـ كان على شفتيها تلك الكلمات البسيطة النابعة من ذلك التأمل الداخلي العميق الذي حل عليها بعد ساعات من الحب لم تكن حماستها له قد وهنت : « لا تتحفظ اكثر من ذلك تجاه قومنا يا أوفي . فأنت تمت لنا ، لنا نحن ، قبل أن تمت لاي قوم آخرين ، لنا نحن ! » .

لم يتوصل أوفي الى فهم المغزى تماما ، لكنه عرف الدهشة كل الدهشة خلال الفترة التي ظل فيها **السيد** معروضا على سريره الاستعراضي ، طوال أيام الجنازة العشرة ـ قبعات زعماء حمراء ، فيض من الريش الذي يزين الشعر ، حلى من المرجان ، عقود من العاج ، اوسمة من الحديد والنحاس والفضة ، عطور من جلود مدبوغة ، صناج من الخشب ذات رنين حزين ، رغوة حمراء لبيرة الذرة في حلوق محترقة ، روائح تخمر شديد ، عرق ، أصوات طبلات من جلد وصلصال ، قرع آلات معدنية ، صور من خشب الكام(1) والطبشور . جدران ملطخة باللحاء الرملي لخشب الكام ، أبواب وعتبات مطلية بالطبشور ، رزم كبيرة من الحكك تحت خشب الكام على ارض تنعكس عليها اشعة صلصالية ، نثار من شعير أحمر ضمن السور ، أحزمة من الجص على جذوع الاشجار الغليظة ، على الاعمدة ، أرصفة الخيزران ومستودعات الارصفة ، ثم صوت البابا آهيم الذي لم يكف عن ملاحقته بتوبيخاته الصابرة . . . لماذا تلح على تسمية بلادنا آيرووو ؟ قل : آيرو ، رو فقط . واذا كنت

---

(1) خشب يشتهر بلونه الاسمر الغامق .

قد وجدت الحياة مريرة ، لا تفرض علينا مرارتك ويأسك ، آيتيوارو . هذا هام، هذا صحيح ، هذا متوازن ، لان هذا عملنا . فغمغم أوفي معتذرا ، ثم شرع يوبخ بدوره . . . لماذا تثير كل هذه الضجة من أجل خطأ صغير في اللفظ ؟ آه ! قال العجوز وهو يلوح برأسه ، لانك اذا ما استمررت في لفظ ذلك مدة طويلة لن تغير المعنى فحسب ، بل ستشوهه ، ستثبت العكس ، وانت تقوله انطلاقا من حالتك النفسية . لقد هزمتك الحياة ، بوسع المرء أن يحس بذلك من صوتك .

ـ ترى هل حانت الساعة التي ستبوح لي فيها بأسرار الآيرو ؟ سأله اوفي اخيرا .

ـ ما الذي تود معرفته بالضبط ؟ فهي قصة طويلة ، قصتنا نحن !

ـ حسنا ، قل لي بادىء ذي بدء ، لماذا اختلفتم مع الآييتومو ؟

فصعّد العجوز آهة طويلة ثم التفت من فوق المياه ، صوب أقدم تيوقراطية(١) عرفت الحياة فوق الشاطىء ، لم تكن الآيرو قد بذلت اي جهد لانكار نسبها لكنها كانت تظل متكتمة في كل ما يتعلق بالظروف التي ادت الى قطع حبل السرة التي يربطها بها .

ـ نحن لا نؤمن بتعطيل الذاكرة . نحن هنا ، نعيش حياة طيبة ونعرف التناغم والوئام ، وهذا يكفي ، فذلك هو المبدأ الاساسي الذي نلقنه لاطفالنا . انهم يكبرون على ازدراء المعارف الميتة ، المتعفنة . هذا لا يعني القول إننا نخفي عنهم الحقائق . فكل أبناء قومنا يعلمون من أين انحدرنا ، كما يعلمون اننا اسسنا الآيرو بحثا عن الحقيقة، عن الحياة الافضل ، وكل الاشياء التي يسعى اليها الرجال ، وهم يعتقدون اننا وجدنا ذلك كله ، وذلك هو السبب في أن أولادنا يعودون الى مسقط راسهم دائما .

ـ وكذلك أولاد الآييتومو ، أبدى اوفي ملاحظة سريعة .

فالتفت العجوز اليه وعلى سيمائه هيئة المنتصر .

ـ هو ذاك ! فهل ثمة برهان اكبر من هذا على عظمة أخلاقنا وقيمنا ؟ ذلك ان هذه هي اخلاق وقيم الآييتومو . فنحن لا نعمل قط على تغيير دين احد ، كما لا نضيع أنفسنا بملامات لا طائل من ورائها . مبدأ الآييتومو انما هو هذا : اقبل ما نصنعه أو فلترحل بملء حريتك . وهكذا جاءت اللحظة التي احس فيها مؤسسنا **سيد الحبوب** الاول ، أنه لا يستطيع بعد ، السير على طريق الانبياء القدامى . فنهض في منزل الاجتماعات ثم عرض معتقده الجديد . بعد ذلك مضى لاقامة موطن جديد يتبعه أولئك الذين آمنوا به . وحين يكبر أطفالنا ويشرعون بطرح الاسئلة فاننا نقول لهم هذا ، وبكل بساطة : اجل ، الآييتومو وطننا الام ، لكن اذا شئتم أن تعرفوا المزيد فليأخذ واحدكم زورقا وليذهب بنفسه كي يرى ولسوف يستقبل هناك خير استقبال.

---

(١) التيوقراطية : حكومة رجال الدين .

ـ وهل ذلك صحيح ؟

ـ بالتأكيد ، يا بني ، فماذا تظن ؟ حتى الغرباء يستقبلون هناك خير استقبال تماما كما هو الامر هنا ، واولئك الذين يحبون الاستطلاع منا يعلمون انهم يستطيعون فعل ذلك ، لكنهم يعودون دائما الى هنا .

ـ هل يطلعون على الحقيقة ؟

ـ من يدري ؟ لكن هل هذا مهم حقا ؟ ما يهم هو أنهم يرون الفارق وأنهم يختارون . فالاعمى نفسه يرى ذلك على الفور : انه يرى اننا لا نعبد الاله نفسه .

ـ اذن . هذا هو سبب الانشقاق ؟

ـ هذا اضافة الى اشياءاخرى . لكننا لا نقول هذا لاولادنا . ما الفائدة يا ترى؟ انه قد يتخذ الكثير من الاهمية في حياتهم . واذا ما اكتشفوا السبب بأنفسهم ، كان ذلك افضل بكثير . فهناك عوامل اخرى فرقتنا : مشاكل التجارة ، مشاكل الحياة الشخصية ، الاطفال ، التعليم ، الملكية . . . اوه ! القائمة طويلة جدا جدا ، لكن الدين هو الذي أطلق شرارة المشاعية الاولى . وتلك الظاهرة ادت الى مرحلة استبدال العبيد ، نعم ، لم يكن الامر أكثر تعقيدا من هذا . كانت الآيتومو تحمي أبناءها بأفضل الوسائل الممكنة . لكن ، ذات يوم ، جاء أحد شبابنا بالفكرة التالية : تقوم حياتنا على تعاليم اله البيض ، لكن البيض الذين يحملون ذلك المعتقد يقتلون ، يحرقون ، يبترون ، ينهبون ، يسلبون ، كما يتخذون من ابنائنا عبيدا أرقاء . لقد حان الوقت لكي نعود الى دين آبائنا وأجدادنا .

كان العجوز يتكلم بفخار الرجل الذي شهد لحظة الانتصار تلك ، فقد كان بريق عينيه أبعد ما يكون عن اللهب المستعار للمؤرخ ، مؤكدا ذلك بضربة خفيفة على الصدر نبهت أوفي :

ـ انني آخر الاحياء الذين ساهموا في ذلك المشهد ، في منزل الاجتماعات . لم أكن حينذاك الا طفلا ، مع ذلك كنت أفهم . بل انني لم اذهب للتكلم مع والدي قبل الانضمام الى الرجل ذي العينين المجنونتين وأولئك الذين تبعوه على الفور . كان ذلك كشفا غريبا ، كشفا تبين لنا فيه أن كثيرا من الناس تراودهم الفكرة نفسها ، لكنه هو وحده من تجرأ على النهوض في منزل الاجتماعات والتعبير عن أفكاره .

ـ ثم أسس دين الحبوب ؟

فهز العجوز كتفيه .

ـ لماذا ينبغي أن تعطيه اسما ؟ نحن لا نفعل ذلك . اننا لا نعتبره دينا ، بل مجرد شكل من اشكال العيش . ادع هذا فلسفة ان شئت ، لكن الا تفهم جيدا شخصية مؤسسنا ؟ فهو الذي فر من مسألة الالوهية لمعارضته لها لا يمكن أن يسقط

بسهولة وعلى الفور في أشراك الوهية اخرى . لا ، يا بني ، رغبته كانت في أن نبدأ شكلا من أشكال الحياة ، شكلا قريبا من ذاك الذي عاشه في آيتومو ، لكن دون تقديم الصلوات لآلهة يشك بوجودهم .

فابتسم أوفي .

ـ وهذا اذن ، ماذاتسمونه ؟

في مكان قريب للغاية ، كانت طبول التام تام تقرع ، ومن حين لآخر كانوا يرون من بعيد جماعات الراقصين وهي تعبر الحقول ، كما كانوا يسمعون أصوات الاقدام الحافية وهي تضرب الارض ، ويرون الحلقات المعدنية وهي تلمع تحت الشمس .

ـ نحن لدينا احتفالاتنا ، اعترف آهيم ، ولدينا طقوسنا ، كما اننا نحن الفلاحين وصيادي الاسماك ، نعرف أيضا ما ندين به للارض والبحر ، وحين يموت كبير من كبارنا ، مؤسس مثلا ، فاننا نقدم له فروض الولاء والطاعة . واذا أردنا أن نضيع سنة كاملة من أجل دفنه ، فان ذلك أقل مما يستحق ، ذلك أننا نحن الذين نملك كل شيء على نحو مشترك ، فان كل ما ننفقه يعود أخيرا الينا .

ـ كما هو الامر بالنسبة الى الارض ؟

فتجمد العجوز ، محدقا اليه بعينين متأملتين . كان في نظرته شيء من الفرح او على الاقل لم يكن فيها شيء من دهشة . أخيرا قال له :

ـ كرر تلك الكلمات .

فعقد أوفي حاجبيه ثم كرر الكلمات ، فسأله العجوز سؤال صاحب السلطة .

ـ من اين تعلمت هذا ؟ فأجاب أوفي بالنغمة نفسها :

ـ وهل يتعلم المرء هذا ! لا تنس لقاءنا الاول . لقد جئت الى هنا حاملا رسالة اتذكر ؟

ـ آه ! نعم ، بالتأكيد . الارض لمن يفلحها ... البحر لمن يصطاد فيه ..

ثم حك العجوز ذقنه وهو يبتسم .

ـ أجل ... ويومها قلت ذلك لمؤسسنا المرحوم ، قلت له : ها هو ذا رجل يحمل الينا اسلوبنا الخاص الذي نرى فيه الاشياء ، فأجاب بكل بساطة : افتح له الطريق الى منزل الاجتماعات ... كم هو غريب ...

ـ ما هو الغريب يا بابا ؟

ـ حين أدارت ألآيتومو ، جماعتنا الام ، ظهرها الى العالم ، فان الشيخ الذي كان قد اسسها قال ان واحدا مثله سيأتي بزي غريب عن البلاد ، غريبا سيحمل رسالتنا الى العالم . لكن بدلا من الذهاب الى هناك ، ها انت ذا قد جئت الى هنا ، الى عندنا ، نحن الفسيلة الفرعية لا الارومة الاصلية .

فشرع أوفي يضحك .

ـ اجل ، لقد جئت هنا بحثا عن اتباع . أتيت بنماذج معمول بها في أوربا ، في حين أن الآيتومو والآيرو يعرفونها هنا منذ زمن طويل ... طويل ...

فأوقفه آهيم

ـ لا ، لقد كان في قدومك الينا الكثير من الخير ، انت الذي جئت مندفعاً كل الاندفاع لأداء رسالة ، فقد كان مفيداً لنا أن نعرف أن اسلوبنا في العيش كان دائماً حلم الانسانية عبر العصور ، وانه يشاركنا فيه اناس بعيدون عنا ، أقوام متباعدة بعضها عن البعض الآخر . فالشعوب تختلف في مظهرها أيضا كما تختلف لوزة الهند عن درنة النيام (١) ، انهم ياكلون أشياء مختلفة ، يشربون أشياء مختلفة ، يعبدون آلهة مختلفة لكنهم مع ذلك ...

* * *

خلال الساعات التي سبقت الفجر ، تبع قادة الفناء في بيت **سيد الحبوب** المتوفى خطا آهيم عبر المدينة النائمة ، وهم يأتزرون أزراً ارجوانية تشق الظلمات . كان لا بد من المرور على الطرقات كلها قبل بزوغ الفجر ، الرؤوس مطرقة الى الارض ، ودون النظر الى أحد . آهات عميقة كانت تتصاعد ، مرتعشة عبر الهواء الساكن كما كانت الارض تردد بنبرة مرتعشة الصوت الثقيل الذي كان ينطلق بالنشيد الجنائزي للارض المستحمة بالنعاس ، وكذلك الحركة الخفيفة من الاقدام الحافية وهي تضرب الارض بتوافق مع النغم .

كانت الظلال الغامضة تميل الى الوراء ، تستتر بغشاوة الليل الرقيق ، تفك التفافاتها مثل ثعبان يثب من رقاده ، لتنطلق بالاغنية الحزينة . بعدئذ كانت تندفع من جديد ، مرسلة نغماتها الرقيقة على طول الطريق .

الدم ، الزيت ، جوزات الكولا الحمراء والبيضاء في أصص الآجر عند تقاطع الطرق ، الحمامات المذبوحة في كل مكان مرّ به المؤسس ، وقد قدّمت اضحيات او اسلمت اخيرا الى كل مكان وجه فيه الاسلاف الاولون رسالتهم . كان الاحياء يقدمون الاضحيات لتهدئة ارواح المتوفين ، لتبجيلهم ، للاحتفاء بهم ، للتأثير فيهم لاستدراجهم الى صفوفهم ، وكان المتوفى الجديد في الطريق .

اخيرا غمر الفجر الايدي الداعية ، فانسحبت الظلال مخلية المكان الى موجة من الزوارق التي جاءت فوق المياه ، من المدينة الأم آيتومو . انفتحت الحواجز ذات اللون الاصفر وفي الحال اندفعت موجة من الناس المتجمعين حسب السن ، ثم انضمت الى المواكب ، بعدئذ مضت من هناك لتقديم فروض الولاء والطاعة لبيت الموتى . فالبلدة كانت فخورة بزينة عيدها .

---

(١) النيام : نبات درني كثير النشويات ، يستخدم في الطعام كالبطاطا .

طلقات وصاص ، رائحة بارود شديدة ، حدآت تطير خائفة ، وجماعات الصيادين يملؤون بنادقهم من جديد بالمعدن المجنون ، يضربون الفصون ، يفتتون الياف الجذوع ، ومن جديد يملؤون الهواء بالحصى وهم يصيبون بطلقاتهم زوايا الجدران .

جوزة هند تفتتت ، فتطايرت نثارا أبيض فوق السقوف . ثمرة من عنب الهند تحولت الى عصيدة حمراء ، فيما حامت الحدآت فوق الصيادين ، خارج مدى البنادق ، ثم اختفت لتنقض على مزق السحالي ذات الرؤوس الحمراء ..

مشاعل في الليل . فدادين من حلقات ملتهبة ، غزوات ليلية لصيادين لا يتعبون ، قصاصون يحكون عن الماضي ، مرددين مزاميرهم ، مغنين ، مقلدين بالحركات الايمائية المجرى الدامي لتاريخ الاسلاف المقدسين ، فرش تفرش ، أقنعة تتحرك في رقصات الامتلاك على ضوء اللهب ... والكل يسير باتجاه المشهد الكبير الوضاء ، مشهد فتح القنوات الحمراء .

مال آهيم صوت ابنه بالتبني هامسا : « في المرحلة التي حدثتك عنها ، لم يكن هناك فريق صيادين في الجماعة الام . كان السمك هو المصدر الغذائي الرئيسي . حينذاك طرح المؤسس السؤال التالي : كيف ندافع عن أنفسنا اذا ما جاء صيادو العبيد ؟ لقد سألتني ماذا كان ديننا واجبتك ، دون كذب أو مواربة ، انه ليس لنا دين ، لكننا نعطي أوغون(١) مكانة الشرف بين الآلهة . لقد رأيت حدادينا وهم يشتغلون . فانظر الى هذه البنادق ، انها تأتي من كل مكان نطلبها منه ، انها من أفضل البلدان .

على كل حال ، قال أوفي لنفسه وهو يتطلع حوله ، كل هذا يعكس النفسية المستنفدة ، فعلى السرير الضخم ، المعد للعرض ، ذي القوائم والمنتصب داخل تحويشة من جدار خارجي ، كان **سيد الحبوب** ممددا معدا للعرض ، ووجهه موجه نحو سقف من الحديد وأسل الآيرو . نظر أوفي ، وهو يسلم نفسه لاحساس داخلي بأنه يعوم ، الى الجثة ثم ارتقى بنظراته الى بيوض النعام الاربع المذهبة التي كانت تعتلي قوائم السرير . بعد ذاك وقف في مواجهة الميت ، الذي كان يغوص عميقا في فراش من الريش ، واثنان يهوّيان كي يطردا الذباب عن وجهه ، فيما كان المرء يسمع من بعيد دندنة الاغنية الرئيسية للآيرو . كانت الاشجار تنوء بالكتل البشرية ، وكان الناس يتدافعون لالقاء النظرة الاخيرة على وجه السيد ، متعلقين على الاسيجة ، متدلين من الاعمدة ، غائصين في القش . وفي البعيد ، كانت قرعات التام – تام والاصوات النسائية تعلن عن دنو جماعة قادمة جديدة . لماذا تسدون القطن مناخر الموتى ؟ آه ، نعم ، لمنع الذباب من النفاذ الى هناك ووضع بيوضه .

---

(١) اله الحديد عند قبائل اليوروبا ، أي اله الخلق والتدمير

اذ حتى وجه المؤسس ليس في مأمن من التعفن . أما الكوة داخل الجدار فقد كانت تغص بروائح الكافور . كانت الجماعات الجديدة تقترب ، ترقص ثم تنسحب، تاركة موجات متلوية بين الميت والثيران النبيلة الاربعة عشر التي ربطت في المقدمة ، ثور للمؤسس العجوز الذي توفي لتوه، وثور واحد لكل من الاسلاف الثلاثة عشر الآخرين الذين سبقوه . ثيران ذات قرون كبيرة ، وحدبات مهيبة ، صدورها العاجية تتموج تحت الشمس . في وسطها ، كان البهلوانات المتحمسون يقدمون العابهم وهم يقفزون ، وكانت الراقصات على عكازاتهن يقفزن فوق ظهور الثيران ، قائمات ، حين يرتفعن في الجو ، بحركات التفاف والتواء تثير الاعجاب ، مائلات الى أن تلامس اثوابهن المصنوعة من الرافية(١) حدبات الثيران ، مشكلات أشكالا من القباب ، قاذفات بأنفسهن من فوق القطيع ، ثم يعدن ليرشقن بأعينهن الكبيرة الفاترة نظرات من اللوم الخفيف . دوامة الازر الملطخة بالمغرة والكلس والنيلة الزرقاء كانت تدوّم في الساحة التي لم تعد في تلك اللحظة إلا ممخضة لبن كبيرة تدور وتدور . أخيرا ، اعطى آهيم اشارة خفيفة من راسه لقادة الفرق ، وشيئا فشيئا بدأت الساحة تخلو من الحركة . وعلى مهل ، دفع راس **سيد الحبوب** الى داخل الكوة ، ليترك الجسم المكفن بالبياض وسرير الجنازة الابيض الخالص كي ينظر اليه الناس. توقف الغناء ، كما حل محل الصرخات غمغمات خفيفة : انها المقدمة القداسية للمشهد الكبير الوضاء ، مشهد فتح الاقنية الحمراء .

رعدة التوقع سرت على طول ذراعه ، فالتفت باتجاه ايريز التي كانت اصابعها تبحث عن أصابعه فرأى نظراتها ساهمة الى البعيد وذهنها شاردا تماما مع أسرار ذلك الفجر الذي كان يغمر تلك البلدة على نحو اسرع واسرع في تلك اللحظة.

كانت الاعين جميعا قد التفتت باتجاه آهيم ، فنهض ، وأصابعه اللدنة هي الاخرى ، أصابعه الداكنة والحساسة ، ترتسم على الازار الابيض المشلوح فوق كتفه . كان يتقدم إلى الساحة ، وسط اقواس العاج ، بلطافة شبه أنثوية تحيط به الروعة الفحولية للثيرا ن ، بعدئذ رفع يده الاخرى اشارة قداس سريع في الوقت الذي كان الحشد فيه ينحني الى الارض . ترك آهيم الصمت يسود لحظة من الزمن ثم أعطى الامر الذي كان الجميع ينتظرونه .

« اغرزوا القرون ! » .

وفي الحال اندفعت مجموعة من الشباب في حالة من الهرج والمرج ، لموا الحبال التي كانوا يمسكون بها ، ثم بدأوا الجر مخلين فسحة وسط الثيران . وما ان انجزت الحركة حتى رفع العجوز ذراعه من جديد . كان آهيم قد صار الفنان الذي يعلم أن العيون ترقبه وهو يقود جوقة الموسيقى في مشهد عظيم ،

---

(١) سعف النخيل .

ابيض لا شائبة في سترته وإزاره الابيض . كانت السلسلة المتدلية من عنقه تطلق لمعات الفضة وهو يلف ويدور للاشراف على وضع كل ثور في مكانه . عند ذاك جاء الرجال ، اثنان لكل ثور ، ونظرتهم مثبتة عليه . من حين الى آخر كان يصدر خوار من هـذا الثور او ذاك ، لكن الثيران كانت قد أسلمت قيادها للآخرين وفي أعينها نظرات الاهتمام والاستفسار الغامض ، وحين بدا كل شيء وكأنه صار على النحو الذي يرغب فيه ، خفض آهيم ذراعه ، وهكذا ، ودون نظام دقيق ، بل بصدمات شديدة ترج الارض وتهز اقدام الرجال حتى آخر صف من صفوف التجمـع ، بدات الثيران تنطرح أرضا ، واحدا تلو الآخر .

تلك العملية نفذت بمهارة فائقة ، وعلى نحو غير مرئي تقريبا . فكانت أشبه بتجل متعدد الاشكال لحركات سريعة ومتكاملة من حبل وحيد يلتف على قوائم الثور وراسه ، فيما كان بامكان المرء ان يرى للحظة عابرة من الزمن الدهشة والمفاجـأة في عيني الثور وهو يرى الحبل يموج باتجاه هدفه . بعدئذ تحدث هزة محكمـة للرأس الثقيل وفجأة يجد الثور نفسه وقد انقلب على ظهره ثم انغرز القرنان بشدة في التربة وفي الحال ينقض الاختصاصيون في لفة الحبل هذه على الثور المنقلب بطناً على ظهر ليقيدوا القوائم بحركة رشيقة محكمة .

بعد ذلك ، وباشارة من رأس العجوز ، غادر الجميع الساحة ، فبقي آهيم وحيدا واقفا بين الاعناق العاجية الاربعة عشر التي تواجه السـماء ، وخطوط الاوردة الدموية المشدودة وأوتارها تتخذ شكل الاقواس ثم تغوص في الكهوف الواجفـة التي تصنعها صدور الثيران ، في تلك اللحظة باتت العيون المنفتحة على أقصى اتسـاع لها ، تشي بالخوف الذي ظل بلا صوت وعلى نحو يثير الاستغراب . أما آهيـم فكان أشبه بقصبة للحياة وسط ذلك الجماد الابيض ، ظلا من حركة بين تمـاثيل من مرمر ، كاهنا يدرك بالحدس ، هكذا كان آهيم وهو يحرص على عدم تشويش الهيكل قبل أن يطفىء حواريوه ظمأهم تاركا قداس الموتى الثقيل يبعث أنغامه ، انغام الوفرة ، القدرة ، التجدد ، عاقدا نبضات قلبه ، مكرسا قوة الحياة ضمن دائرة الساحة الى أن حكم بأن لحظة التحرير السحري قد حانت . حينذاك ، كان بامكان المرء أن يراه وهو يتلمس طيات ازاره تلمسا رفيقا ، ثم تخرج كفه بخنجر دقيق النصل . كان يبدو أشبه بكائن غير عادي وهو يتجه نحو الرقاب المعدة للذبح التي كانت أشبه بالاعمدة .

ظلت ايرييز ، الواقفة بجوار أوفي ، جامدة دون حراك ، ساهمة الى البعيد . كان عقدها العاجي قد اختلط بحركات اخفاء سريعة بأعناق الثيران المتشنجة . كارياتيد الابدية الخالدة ، وحدها حرارة الاصابع كانت تؤكد له انها ليست تمثالا ، انها لحم حي وتؤكد له حضورها الطوعي الى المعبد .

تقدم آهيم ، وبحركات رشيقة اعادت يده الى كتفه طيات ازاره الذي كان قد انزلق عندما انحنى فوق الثور الاقرب الى الكوة ، لكن الازار انزلق من جديد ، حينذاك أمسكه بذراعه اليسرى ثم ضغطه هناك على جسمه . اما اليد الممسكة بالسكين فلم تضرب سوى ضربة واحدة ، ضربة غاصت عميقا في العنق قاطعة اوردته وأوتاره . بلا ألم انفتح الجلد المشدود ، كاشفا عن غشاء رقيق كشف بدوره عن العروق التي انطلقت منها الابخرة الحمراء الاولى . ثم فجأة غرق بياض الغشاء بالنبع الذي تفجر متصاعدا الى الاعلى اكثر فأكثر ، منبثقا نحو السماء المتوهجة بالشمس . بكل حيوية ونشاط ابتعد آهيم لكنه لم يستطع الابتعاد الى حد يكفي لتجنب شيء سوى الزبد الذي عاد الى السقوط دون أن يلمسه . وهكذا أزهرت زينته البيضاء فجأة ببتلات ورود دقيقة حمراء . بعد ذاك ، صعدت آهة طويلة ، ثم انخفضت مالئة الهواء بغمغمة الريح والبراعم التي تفتحت . حينذاك أصبحت حركاته سريعة والآهات المنطلقة تندغم بالابخرة المنتشرة وآلاف النظرات تلاحق حركات الكاهن الذي كان نصله يقوم بحركة واحدة تتكرر فوق الاعناق العاجية المقدمة لابتهالات عودة الربيع . بعدئذ راح الرجل ذو الاصابع التي تشبه أصابع المدلك ، وقد فتح الطريق للاكسير الغني ، ينحني على كل قناة من القنوات الحمراء بالتتالي حتى غدت ذراعاه تيارين لطيفين يعرفان طريقهما الى وسط الاثلام الفارقة بأشعة الشمس المائلة . بدفعة واحدة كان يوقظ جداول الاثلام ثم يخلط دفقها بالمصدرالرئيسي وايمان عميق بالبركان يطبع حركة اليدين وهي تفتح قنوات الدم الحمراء بغية تجديد قوى الارض .

كانت الينابيع تتدفق ، متصاعدة عاليا وكأن مصادرها لا تنضب . لكن أخيرا ، حتى تجوفات القلوب لم يعد لها ما تعطيه . الفرع الاخير من الدم انفتح فترة وجيزة وبعد ذاك انتهى الدفق . حينذاك سمع الحشد الحشرجات الاخيرة من الافواه ، ارتعاشة الحب الاخيرة وهي تنطلق مغادرة الارض الساكنة دون حراك ، لكن الاجسام الهابطة التي كانت تسبح فوقها رائحة البخر كانت في اعين الحشد ما تزال تحتفظ بقوتها المشعة . وكان آهيم يسير عبر الساحة مشع الوجه متألقا ، فيما راحت الاكف الخاوية تمتد محاولة لمسه ، وبدورها تلمس تلك الاكف اكفا اخرى ووجوها اخرى ناقلة روح التضحية الى صفوف التجمع الاخيرة .

دخول الجزارين المسلحين بأنصال حادة وبلطات وقطاعات ضخمة ، في اثرهم نساء يحملن أحواضا واسعة كبيرة وقدورا ضخمة ، غيّر الجو في الحال ، غير أن اصوات المزامير والطبلات وكذلك الاصوات التي ارتفعت من الحشد كانت ما تزال مستمرة في توزيع اكسير الثيران حتى عندما بدأ البعض يقطعون لحومها ، ويضغطون على أحشائها لاخراجها ، وحتى عندما امتلأت الساحة بالروائح النتنة التي تصدع

الراس ، رائحة الدم والفضلات التي اختلط بعضها بالبعض الآخر . كانت الرؤوس، الملطخة بالزبد والدم ، تكدّس ، واحدها فوق الآخر وأفواهها الى الاعلى وكانت البرك الملأى بالدم قد بدأت تتخثر شيئا فشيئا تحت شمس الاصيل الذي كانت ظلاله قد بدأت تستطيل ، وكانت النسوة يشعلن النيران وهن يرين أمام أعينهن الليل الطويل الذي ينتظرهن دون أن يخيفهن ذلك ، بل كان بدلا من ذلك ، يبهجهن. بعد ذاك بدأت القدور الاولى من البيرة بالوصول الى رؤوس الاطفال ، كما بدأت قطع الخشب ترافق وصول قدور الآجر والحديد وأواني الزيت المعدنية . ثم بدأت أصوات ضائعة في غبشة الفسق ، تتضرع الى **سيد الحبوب** :

استيقظ ، اوه من أجلنـا استيقظ
نحن الذين سنبكي زمنـا بعـدك
نحن الذين مهدنا لك الطريـق
أنت يا من رحلت عنـا الآن

ثم وكانها تلاحقه الى المناطق البعيدة لسكناه الجديدة ، تتغلغل اليه بكل ما تملك من قدرة على التعاطف ، من وعد بالشفاء والتجدد المولود من اتحاد الارض والثيران ، ذاك الاتحاد الذي شاهدوه لتوهم ، كانت الاصوات تتابع التوسل اليه **والوعـظ** :

اغمس يديك في حوض الصلصال الاحمر
ذاك الذي تأكل الآلهـة منـه
ضـع يـدك فـوق أرضي
أغرقنـي بالمطـر

ضـع يدك فـوق سقفي
أشبـع لي اطفـالي
ضـع يـدك فـوق جسـدي
باركني ، هبنـي الصحة والعافية . . .

وبصحبة الاصوات التي كانت تبتعد ، كانت روح أوفي تبتعد هي الاخرى عن الحضور المباشر للميت ، عن أصوات العظام التي تسحق واللحم الذي ينتزع ليملأ الساحة . فجأة ، بدت الاغاني وكأنها تنبثق من مكان امامه مباشرة ، فرفع عينيه. كانت جماعة من النسوة قد غادرت العاملين في الساحة وأحاطت بايريز كي يغنين ويرقصن أمامها ، وحين رأين في عينيه انه قد رآهن ، شرعن بالضحك ثم توقفن ، وبعد ذاك عدن الى الساحة وهن يرقصن ، ساحبات ايريز معهن .

ذلك المساء نفسه قال أوفي لايريز أن تعد حقائبها للرحيل في الصباح الباكر فاكفهر وجه الفتاة لكنه وعدها : « سنعود ، أما في الوقت الراهن فلدينا عمل » .

* * *

أسرع العجوز لملاقاته ، فيما كان أوفي يربط القارب ذا المحرك الذي أخذه من الهيئة ، ويساعد ايرييز في النزول .

ـ لقد رصدت الصوت ، قال العجوز (وهو يلقي نظرة ماكرة باتجاه ايرييز) هل هذه المرأة هي التي جاءت بك من جديد ؟

فهز أوفي راسه بحركة نافية ، ثم أعلن :

ـ لقد جئت وفي جعبتي مشاريع ، مشاريع رسمية .

ـ لن أسالك المزيد ، حتى ولو كنت أجهل ماهيتها ، فهناك أناس لا يتوجب عليهم البوح بقضايا تخص عملهم للآخرين

ـ انت عميق للغاية بالنسبة الي يابابا آهيم . فهز آهيم رأسه .

ـ نحن أناس بسطاء ، هنا في آيرو . أهلا بكما كليكما .

كان واضحا بالنسبة الى أوفي ، حتى قبل ان يكون بالامكان معرفة نتائج التحليلات المقارنة ـ اذ كان قد عاد الى قاعدته وهو على معرفة تامة بأرض آيرو ـ ان التربة الرطبة والقوية التي تبدأ على بعد بضعة أمتار فقط من الضفة مناسبة تماما لزراعة الكاكاو . والفكرة التي كانت وليدة لقائه الاول بهذه الجماعةالسكانية الصغيرة لم تكن الا واحدة من أفكار كثيرة أخرى أراد منها أن يجرب التخلص من العالم الزائف ، عالم الاغاني الدعائية ، والتخلص من استغلال الكارتل(١) الشره الجشع . كان بالامكان قلب النظام ، فحيلة الاعادة الى الوضع السابق يمكن تطبيقها أيضا على المعدات التقنية ، ليس فقط لكي يستفيد الكثير من الناس من الوضع الجديد بل أيضا من أجل خلق جيل جديد . زراعة جديدة للجماعة تعمل فيها وتتقاسمها : من البذرة وحتى الغرسة ثم الشجرة فالثمرة . كان أوفي يرى بعينيه صورة لتقدم مماثل للفكرة الجديدة ، لولادة الانسان الجديد انطلاقا من البذرة نفسها التي تشبه بذرة لوز الهند ، ثم ينتشر عبر البلاد ـ وبفضل جهاز الكارتل الدعائي القوي نفسه ـ نموذج الآيرو المثالي في العيش بغية استعادة الشبان الذين يهاجرون وملء الفراغ في تراثهم المنتقل اليهم بفضل تلك النبتة الرائعة .

في دار الاجتماعات في آيرو ، حيث راح البعض يتفحص المشاريع الجديدة كلها ، دهش أوفي لنظرة آهيم الذي كان يرقبه بنوع من الفضول . كان طلبه قد صيغ على نحو بسيط تماما : ارض في الغابة من أجل تنفيذ مخططه فيها ،واستعداد سكان آيرو وكذلك صبرهم ، خاصة حين تبدأ آلات التصوير المفشية للسر بالتجوال، مهددة بتدمير ذلك المنعزل الذي كان منذ زمن طويل كنزهم .

---

(١) اتحاد شركات غالبا ما يتصف بالقوة والسيطرة والاحتكار .

كان آهيم ، غارقا في التأمل والتفكير ، يشرف على النقاش دون أن ينحاز الى اي جانب . وكان الناس يستمعون ، يناقشون دون هدى ، يطرحون الاسئلة ، يقدمون الافكار ، ويصفون مرة اخرى . اما ايرييز فكانت تجلس بين النساء ، فحضورها يثير موجة من الصور السينمائية ، كان هو يترجمها للمجتمعين ، ببساطة . اخيرا ، أعطى سكان آيرو موافقتهم ، ثم انتقوا بضعة هكتارات من الارض البكر لينفذوا فيها مشروعهم ، بل حتى هيئة الكاكاو أعطت موافقتها .

بعد ذلك بدأ العمل ، البعض يقطع الغابة ، البعض يبذر ، البعض يغني اناشيد تأسيس الآيرو ومجموعة جديدة من أغاني العمل انبثقت عن فكرةالطليعة . فيما تخلت ايرييز عن جولة الاضواء في ايلوزا ، فأرض الآيرو كانت أشد جاذبية من فرش الريش جميعا .

كانت ايرييز ترتدي ازارا وغطاء راس شأنها شأن النساء الاخريات ، وكانت كتفاها وذراعاها عارية جميعا وهي تدور وسط النبتات الصغيرة ، تضفر أوراق النخيل لحماية الفراس الصغيرة ، ثم تحمل الخمرة الى الرجال الذين كانوا يكدون ويتعبون في كفاحهم المرير ضد الغابة العذراء . مرات عدة ، أحس اوفيبمتعة الانبهار وهو يرى تلك التحولات ، تلك القدرة التي لا تنضب على التعلم . فهي التي لم تكن تفعل قط سوى ان تغني المدائح « للون الكاكاو » كانت قد تفتحت عناتجاهات لم يتوقعها أحد . ها هي ذي الآن باتت تعلم كيف تميز ، على النبتات ، الحبيبات السوداء الناتجة عن حروق الشمس البسيطة ، كما باتت أصابعها الرقيقة تصنع الاربطة للغراس الصغيرة المجروحة ثم تقدم لها التمنيات من الساحرة الشافيةالتي ولدت من جديد . كان حضورها يملأ النساء بالفخار ويوحي بالامطار .

لكن بعد ذاك ، بدأ جواسيس الكارتل يشمون رائحة جذور خفية ، ثم اكتسحت أصابع مجهولة مشغل أوفي لتترك وراءها حلبة من أوراق وأشرطة مغناطيسية مخربة ، بعد أن نقلت الافلام الى خبراء انكبوا على كل كلمة واستفسروا عن كل عبارة وحرف .

ففصت حلوقهم بأغاني العمل .

« سيد اوفي ، ذلك لا يدخل البتة في نطاق ما اقره اجتماع المجلس ، قصة لوز الهند من البذرة حتى النضج . . . » .

« وحياة جماعة المشاع ، الحياة الشبيهة بحياة طفل منذ البزرة ــ وفي النهاية ، بالتأكيد ، بقدر ما يمكن للمرء أن يعيد روايتها حتى . . ــ حتى سن النضج .

مع ذلك ، سيد اوفي . . . ! » .

كانت كلاب الكارتل الشرسة المتصلبة قد استعرضت للمرة الالف افلام اوفي ، وهي مقطعة ناقصة ، كما استمعت الى الشريط المسجل واعادت الاستماع اليه عشرات المرات . . .

ـ سيد أوفي ، تفكر هيئتنا بأن عليك أن تطلب الاحالة الى الاستيداع . رحلة دراسية . سنعد لك خط رحلة يتضمن اكبر قدر ممكن من البلدان : بحيث يمكنك أن ترى كيفية العمل في الاماكن الاخرى من العالم وربما تعود الينا ببعض الافكار ... أمريكا ، اليابان ، ألمانيا ... الخ . فالامريكان أعظم اختصاصيين في العالم بمهنة الدعاية . انهم يعرفون هذه الصنعة حق المعرفة ، وهذا يفسر لماذا نجد بلادهم في غاية الازدهار . سيعطيك أمين السر كافة التفاصيل ، كما نود أن نجعلك تفهم أن الهيئة راضية ، بالاجماع ، عن عملك كل الرضى . وكل ما نرغب فيـه هو أن نستفيد أكبر الفائدة من مواهبك . اذهب صباحا لرؤيـة المحاسب ، فلديه التعليمـات لـ .. أوه ... لجعل رحلتك مريحة ما أمكن.. ان الهيئة تود أن تسهر على راحة موظفيها وسعادتهم ضمن النطاق المتاح لامكانياتها . هل فهمت ؟

لقد فهم أوفي . فالكارتل كان يأمل أيضا أن يكون رحيله نهائيا .

ـ وماذا سيحل بالافلام التي صورت من قبل ؟

ـ أوه ، سنحفظها في صندوقنا الخاص ، وهناك ستجدها عند عودتك في حرز حريز . ما من شيء ملح أو مستعجل بالنتيجة . بل يمكنك أن تبدأ من الصفر عندما تعود ، أو تصور فيلما وثائقيا آخر ، فيلما جديدا تماما . الفكرة بالغة الاهميـة بالحقيقة ، لكن ، هناك اراض اخرى وجماعات مشاعية أخرى كجماعة الآيـرو ، يمكنك اخراج أفلام عنها ، فاذهب ، قال الرجل وهو يبتسم ، قم برحلة ممتعـة سيد أوفي » .

* * *

- ٢ -

المهلة انتهت والزورق عاد .

في اعماقه احساس يضغط عليه كي يتصرف ، احساس يقوم اساسا على ذلك اللقاء الذي حدث في المطار بينه وبين ذلك الرجل المنفرد الذي كان ذهنيا ، قد بدأ يدعوه بـ « طبيب الاسنان » . هذا الاحساس هو الذي جعله يسلك الطريق الى آييرو في اللحظة نفسها التي حطت فيها الطائرة على الارض عائدة الى البلاد ، كما لو انه كان يشك تقريبا . لا ، ليس بأن عزيمته ستضعف ، بل بأن قوة مشؤومة من قوى الكارتل يمكن أن تحول وتتدارك الاحتمالات التي لم تكن موجودة الا في ذهنه . فهواء ايلوزا ، حيث حطت الطائرة ، بدا مباشرة وكأنه مفعم بالروائح الفاسدة للكارتل وحلفائه التابعين العديدين . ودون أن يعلم ، حتى في تلك اللحظة ، الشيء الكثير عن الاستراتيجية التي تقتضيها المواجهة الجديدة ، فقد وضع ثقته في الالهام الذي لم يكف عن توجيهه باتجاه الضمان الاكيد الذي تشكله الآييرو ، لكنه كان يتساءل كيف يمكن للعجوز آهيم أن يفهم طبيب الاسنان ، ذلك الكاهن المخلص للعنف الذي كانت مهارته قد أعادت الحياة لارادته المترجرجة . ثمة شك واحد كان ما يزال مقيما في ذهنه : هل بالامكان الاستفادة يوما من الايام من قوة كهذه ؟ لم يكن بالامكان مقارنة لقائهما غير المتوقع الا بمغامرة أخرى لم تكن لها علاقة ببرنامج رحلته الدراسية ، قصته المنعشة مع تايبلا ، اللغز الآسيوي . فقد بدا الامر وكأن طائرات العالم قد بدلت المواقع لا لشيء الا لكي تلتقي روحان ضالتان .

شرع أوفي يبحث عن المصطلح المعقول الذي يمكنه أن يصف على أفضل نحو طبيب الاسنان لآهيم ، دون أن يثير معارضة هذا العجوز الشديدة لذلك الشاب الذي كان يعتبر في تلك اللحظة حليفا ضروريا لا بد منه . محترف اغتيالات انتقائي ؟ لا ، هذا المصطلح يبدو وكأنه بلا معنى ، فالاغتيال هو انتقائي بالضرورة . منفذ عقوبة ؟ دعم وقائي ؟ هذا المصطلح الاخير بدا أقرب للمبادىء التي أعلن عنها طبيب الاسنان : أبطل اذى الحية قبل أن يتاح لها الوقت للدغ . وبغمغمة متشككة ، تصور أوفي مسبقا رد فعل العجوز على تلك الجهود الشفافة للغاية والهادفة جميعا الى محاولة التخفيف ما أمكن من التخوف من دور الطبيب . اخيرا توقف عن البحث . فالكارتل لديه قتلته المحترفون الذين يخدمون في هذا المجال أيضا ، والطبيب يعيد تحقيق التوازن ، على الاقل ضمن مدى معين . وحينما كان قاربه ذو المحرك يقترب من آييرو ، كان أوفي يستعيد في ذهنه الحجج التي رتبها من قبل .

لكن السؤال الذي طرحه قبل كل شيء على آهيم ، بعد العناقات وعبارات الترحيب ، انما كان التالي :

ــ ما الذي كان في ذهنه ، تماما ، مؤسسكم المرحوم . عندما قدم لي ذلك الاقتراح الذي لا يصدق ؟

فهز العجوز يديه قائلا :

ــ لماذا يا ترى رايت وما تزال ترى انه لا يصدق ؟ فحتى الطفل لدينا يمكن ان يكون سيد الحبوب .

ــ أجل ، لكن الطفل ، بذلك الاغتراب الكلي الذي ينتج عن نوع الحياة التي يعيشها لا يفسد مثلما افسد انا حين اصل ، فعندما جئت الى آيرو اول مرة ، كنت خارجا من قذارة ايلوزا ، من جوها الملوث مباشرة .

ــ اذن ، لماذا انت هنا ؟ لماذا تعود الينا دائما ؟

واجه اوفي النظرة الصريحة للعجوز ، ثم اعترف بكل بساطة :

ــ لان آيرو تقدم لي شيئا انا بأمس الحاجة اليه .

انتظر آهيم دون أن ينبس ببنة شفة ، فاستأنف أوفي :

ــ لندخل أخيرا في لب الموضوع ، ما عساك ترد اذا ما قلت لك الآن انني احترم اللجوء الى العنف ؟

فعبرت نظرة آهيم لمعة المفاجأة والدهشة لكنه اكتفى بهز كتفيه ثم قال :

ــ قصة تأسيس آيرو تضرب جذورها في العنف . فرد أوفي مطمئنا اياه :

ــ لا ، ليس هذا بالعنف الذي جئت أبحث عنه . مع ذلك ، في أيامنــا ، اذا ما اراد المرء زرع فكرة ، أيا كانت هذه الفكرة ، فعليه أن يقبل بضرورة حمايتهــا كما تحمي الفرسة الصغيرة ، وبوســائل العنف اذا اقتضى الامر . فقال آهيــم بنبرة ضاغطة :

ــ هيا ، قل لي ما الذي تنتظره منا بالضبط .

فهز اوفي كتفيه .

ــ قبل كل شيء ، أود ان أراك تقبل هذه الفكرة . مثال على ذلك ، ضرورة تشكيل جبهة مشتركة مع قوى ... لنقل بعبارة صريحة أساليبها ليست سلميــة تماما . حتى وان كان هذا يحمل الخطر في أن تلك القوى لا تنطلق من عقالها ولاتهدد بالخطر الاساس الهش ...

لكن آهيم قاطعــه :

ــ هذه الافكار جاءتك كلها من رحلتك ، اليس كذلك ؟ من الكتب الجديدة التي ربما قرأتها أم من المجتمعات الجديدة التي درست فيها ؟.

ــ كلا ، بل هي بالاحرى من مخالطة نوع جديد من الناس التقيت بهم .

ثم شرع يصف لقاءه بطبيب الاسنان وكذلك منطلق ذلك الشخص . استمع آهيم بصبر شديد ثم علـق :

ــ انت تتكلم عن بذر فكرة جديدة ، لكنك بالتأكيد سمعت أيضا القول المأثور: من يزرع الريح يحصد الاعصار .

ــ الريح هي ما زرعه الكارتل يا بابا آهيم . واذا لم نتوصل الى ردها عليه اعصارا يحصده ، فسنكون نحن الخاسرين .

اطرق آهيم يفكر صامتا . أخيرا عاد الى السؤال الذي كان يشغل باله اكثر من اي سؤال آخر .

ــ وهذا ، ما تراه سيجر علينا ، نحن ، هنا ، في آيرو ؟

ــ لا شيء ، اذا شئت التحدث عن نشاطات الطبيب بشكل خاص. فآيرو قطاعي انا . وانا أجهل ما هو جوهر الاوراق أو القشور التي تدخلها في تركيب اطفالك عند ولادتهم. ما اعرفه هو انها تحصنهم ضد السم المنبعث من امكنة مثل ايلوزا ، ضد ذلك النوع من الاغراءات التي يقدمها الكارتل . انا أؤمن بآيرو .

فلم يستطع آهيم كتم لمعة انتصار خفيفةفي عينيه .

ــ اذن لماذا لا تقنع بالبقاء معنا ، هنا ؟ ما هي الاشياء الاخرى التي تبحثعنها ؟

فهز أوفي رأسه :

ــ الجوهر الشافي الذي يهدىء الفرد والا لا أدري أي كلب ضال يدخـل بالمصادفة الى آيرو ولا يكتفي بشفاء جروح الشخصيات الاخرى التي أعرفها . انها بحاجة الى شكل آخر من الشفاء ، شكل مختلف تماما .

ــ وما الذي تعرفه عن ذلك يا ترى ؟ رد العجوز . ثمة مواد جوهريـة لا يراها احد ، علاجات يمكن أن تعطي مفعولها بعد زمن طويل . ترى ، لماذا برايك ، نولي الكثير من الاهتمام للتضحيات الطقسية ؟ فقال أوفي بعنف مفاجىء :

ــ تماما ! أنتم لم تقطعوا الاواصر كلية مع ارومتكم الام . أنتم تستمتعون أيضا بهذه الاوهام العظيمة . أنتم تشبهون الى حد ما أولئك الرهبان الذين يبقون في صوامعهم ، معزولين عن شرور العالم ، يقدمون النفحات الضئيلة من الشفقـة من شموعهم لمكافحة الجوع الفظيع الذي يعاني منه الاحياء ، بل ، وحسب ظنهم، حتى ، الاموات .

ــنعم ، نحن تماما كما وصفتنا هنا ، اعترف آهيم ضاحكا . نحن لا نهمـل قط موتى آيرو .

ــ كلا ، بالفعل . فانتم تطلبون شفاعة أناس ماتوا ودفنوا ، شأنكم شأن أولئك الرهبان تماما . هل تدري كيف وصف هذا الامر واحد من أصدقائي ؟ انـه بالحقيقة طبيب الاسنان ، وكان يتكلم عن فتاة قابلتها في الوقت نفسه الذي قابلته

فيه . كانت لدى تلك الفتـاة رغبة شديدة في أن تجعل من نفسها راهبة ، فأثار هذا معركة ، لكن لا ، لا بد لي من أن أحدثك عن هـذا ذات يوم . فأنا لو كنت أؤمن بالخرافات لاعتقدت أنها أرسلت الي بمعجزة لكي تنقـذني من طريـق اللعنـة الذي كان يجسده طبيب الاسنان . اي كما تعلم ، الملاك من جانب ، والشيطـان من الجانب الآخر .

ـ وماذا حدث لهـا ؟

فشرع أوفي يضحـك .

ـ لا ، لم يحدث شيء . لكن ما تود معرفته يا بابا آهيم ، هو ما حدث لايرييز خلال تلك المغامرة . حسن ، لاقول لك الحقيقة ، ايرييز لم تتعرض قط لاي خطر حقيقي . انا لا أدري كيف ، لكن هذه المراة باتت مرتبطة في ذهني ، ارتباطا لا فصام له بأرض الآيرو ، أما تايبلا فعلى العكس .

لكن آهيم ، وقد تعب من الانتظار الى أن وجد الكلمات المناسبة ، ذكّره بأنه كان على وشك تكرار راي الطبيب بالفتاة الشابة .

ـ أوه ! ليس رايا عميقاً . الهية بسيطة عن رغبتـه في ادارة مصلحة لتبادل التحقيقات والتحقيقات المضادة بين الأحياء والأموات . بجد يا بابا آهيم ، آيرو هكذا أيضاً الى حد ما . لكن هذا الدور لا يكفي . اذ لا يمكنها أن ترضي حاجات أولئك الذين قابلتهم وجهاً لوجه ، الحاجات التي رأيت من أجلها أناساً ينزفون دماً ، أناساً يقضون نحبهم لأنهم كانوا عاجزين عن تأمين قوتهم هناك .

ـ البعض أطلق علينا كل الأسماء المعقولة ، قال آهيم بمسحة من سخرية ، من هذه الأسماء اسم أوتوبيا الجيب (١) .

ـ هل تدري ما تود قوله ؟

ـ اجل ، اجل ، أولادنا يأتون الينا بكل الكتب والمنشورات من جميع الأصناف ؛ وانا اقرأ . فليس لدي الآن ، عملياً ، اي شيء أفعله سوى القراءة . وانا ما فتئت أصل الى الاستنتاج نفسه وهو أنـه : لا جديد تحت الشمس (ثم قهقه بخبث) أو بعبارة اخرى . عقول الناس تجتاز المسافات البعيدة وتتلاقى ، للأفضل أو للأسوأ لكن معرفة ذلك يعلمك في الآن نفسه التواضع والتكبر .

ـ اتظن ان هذا ما يكشفه أولادكم بأنفسهم ؟ وهذا هو نفسه ما يعيدهم اليكم ؟

ـ أوه ! ما تبرح تصدع رأسي بهذا اللغز ؟

ـ ترى الم تطرح عليهم هذا السؤال ، أنت نفسك ، ابداً ؟

ـ ولماذا أطرحه ؟ قال آهيم بشيء من الدعابة ، ذلك يعني اننا لا نتوقع ان يعودوا مع أن هذا ليس صحيحاً البتة .

---

(١) اي الصغيرة على غرار كتب الجيب التي تصدرها دور النشر لسهولة حملها .

في منتصف الليل استيقظ أوفي واثباً من فراشه . فقد خطرت له فكرة قضت على كل أمل لديه بالنوم . لبس بنطاله على عجل ثم اجتاز بأقصى سرعة البلدة الصغيرة النائمة الى أن وصل حكرة آهيم . كانت الساعة الثالثة صباحاً على الأقل ، لكن حتى لو أنه لم يلحظ الضوء ينبعث من احدى النوافذ فقد كان سيدق الباب ويعكر راحة العجوز .

كان آهيم هو الذي فتح له الباب .

ــ ادخل ، أوفي ، أرى أن النوم قد جافاك .

أراد أوفي أن يعتذر لهذه الزيارة المتأخرة لكن آهيم حال دون ذلك .

ــ أنا لم أكن نائماً . بل انني لا أنام أكثر من أربع ساعات طوال الليل . ففي سني ، يغدو النوم ثانوياً شيئاً فشيئاً . (ثم وضع الكتاب الذي كان يهم بقراءته) يعجبني ماوك هذا . علق العجوز . ها انت ذا ترى انني أقرأ أشياء كثيرة كي أكون واثقاً من قدرتي على مقابلتك وأنا على مستواك نفسه. انه خارق للعادة ، هذا الصيني، أليس كذلك ؟ حقائق بسيطة كلياً واطار تجريبي عظيم . للمرة الأولى أشعر بالرغبة في أن أقوم برحلة اذهب فيها لرؤية شخص التقيت به على صفحات كتاب . وبعد كل شيء ، انا في السن التي يقوم فيها المرء بالترحال ....

لكن أوفي قاطعه :

ــ بابا آهيم ، فالتفت آهيم ثم تفحص وجهه .

ــ آوه ! أرى أنك لم تأت هنا لتمضية الليل في مناقشات عديمة الفائدة . حسن، لنجلس ولنأخذ راحتنا .

فجلس اوفي في احد المقاعد مواجهاً العجوز .

ــ لقد جئت هنا كي أقدم لك اقتراحاً .

هز العجوز رأسه على مهل وفي عينيه التوقع والانتظار ، فاستأنف اوفي :

ــ أنتم لديكم رجال في أنحاء البلاد جميعاً ، في المدن الكبرى كلها تقريباً ، في كل مكان ، في المعامل ، المصانع ، أعدهم لي مدة سنتين . بعد ذلك ...

فرفع آهيم كفه :

ــ لا ، بلا أي شرط . قل لي فقط لماذا تريدهم .

فبسط أوفي يديه : إما هذا أو ترك المبادرة لوسائط مختلفة كليا أو وسائط جذرية . والهدف واضح ، الحلم ، المفهوم الجديد : العمال يجتازون الحدود المصطنعة ، والوجود المحسوس الفعال للآيبرو في أرجاء البلاد كلها يلغم البنية الفوقية للكارتل : بسرقاته ، باختلاساته ، بتحدياته ، بقتلته ، بغية وضع نهاية للعبودية الجديدة . ثم اظهر التعبير المرتسم على وجهه بأنه يأمل أن يكون ذلك واضحا بالنسبة الى الحكيم آهيم ، فقال هذا :

ـ ما اريد معرفته ، ليس ذاك الذي تضعه في مخططاتك لجعلهم يفعلونه ، بل لماذا رجال آيرو بالذات ؟

ـ لانهم يعيشون حياتهم على فكرة واحدة ، حياتهم تتمحور حول فكرة وحيدة . وانا اعتقد انه ما من أحد يستطيع افسادهم ، ولا التأثير فيهم .

فوافق العجوز بحركة سريعة من رأسه .

ـ انهم لك .

طرف أوفي بأجفانه ثم سأل :

ـ لي ؟ هكذا ، بكل بساطة .

ـ أوه ! سأقول لامين الصندوق ان يقدم لك لائحة بالاماكن التي يمكنك أن تجدهم فيها . فنحن نعرف أماكن تواجدهم في كل وقت : وذلك من خلال العنوان الذي أرسلوا منه الفائض الاخير من راتبهم .

ـ لكن ليس باستطاعتي أن أقدم لهم نفسي ، هكذا مباشرة ، لاقول لهم . . .

ـ اذن تريد أن تقول إنني أنا الذي أرسلتك ؟ لا ، بالتأكيد لا . لانني لست أنا الذي ارسلك . ولانهم جميعا رجال احرار يعيشون ، كما سبق وقلت على فكرة ما . فاذا تطابقت خططك تطابقاحقيقيا مع هذه الفكرة ، فان كل ما عليك أن تفعله هو أن تذهب للبحث عنهم . انا اشك في أن يكون أي منهم قد انتسب الى حزب سياسي يوما من الايام ، حتى ولو بدافع الفضول . انهم يعرفون تلك الاحزاب معرفة تامة وهم يعيشون على مقربة كافية منها لهذا الفرض . لكن اذا كانت فكرتك تتطابق مع استعدادهم لـ . . .

فنهض أوفي :

ـ أنا أعد بـ . . . فقاطعه العجوز باصرار :

ـ لا ، لا وعود . لنفرض انك وافقت في هذه اللحظة على أن تكون سيد الحبوب وأن تبقى معنا في آيرو ، ترى من سيمنعك من فعل ذاك الذي تريده من هؤلاء الرجال ؟ من سيمنعك من العمل حسب تصورك الخاص الى أن تقنع كل فرد من أفراد جماعتنا هذه بالسير وراءك وأن تستخدم كما يحلو لك مواردنا وثرواتنا لتحقيق فكرتك ، أو حتى لتحطيم وحدة الجماعة كي تقود أولئك الذين سيتأثرون بتصورك للمجتمع الاكبر الذي نمت اليه جميعا ؟ والحقيقة كما ترى ، هي أن ما تطلبه مني ليس الا جزءا ضئيلا من ذاك الذي عرضناه عليك .

ثم رافق أوفي الى الباب مستأنفا :

ـ بعد معارك العالم كلها ، يشعر المرء بحاجة لمكان راحة . كما يشعر أيضا بمثل هذه الحاجة بين المعارك نفسها . من أجل هذه الحاجة خلقت آيرو ، أو لنقل على

الاقل ان بامكان آييرو أن تلبي هذه الحاجة . اوه ؟ كنت سأنسى ، عندما تتكلم مع الرجال ويكونون لك ، قل لهم ان هذا الذي يرسلونه عادة الى آييرو ، يخص القضية الآن . وسوف يدركون أننا أعطيناك موافقتنا . حسن ، ذلك هو كل ما أراه في الوقت الراهن .

* * *

في الخارج ، توقف أوفي بضع لحظات ، شارد النظرات في عتمة الليل . فعفوية الدعم الذي قدمه له آهيم حملت له ما يرضي حب الاستقلال لديه ، بل ان تلك المناقشة كانت أكثر اقناعا من تكون الاستراتيجية ذاته . بعد ذاك ، التفت نحو العجوز ثم سأل :

ـ الا تشعر بأي شك حقا ؟

ـ الشكوك ، الشكوك لا تنتهي قط ، انها أشد كثافة من الليل الذي يلفنا . (واضاءت أسنانه البيضاء وجهه) لقد قلت لك لتوي الجواب الذي قاله لي مؤسسنا ، عندما طرحت عليه ، وكانت قد انقضت سنوات على تأسيس آييرو القوية الراسخة ، اقول عندما طرحت عليه السؤال نفسه الذي طرحته انت علي .

فافتر ثغر أوفي عن ابتسامة ثم قال :

ـ طابت ليلتك ، بابا آهيم .

ـ طابت ليلتك ، يا بني .

بعدئذ سمع أوفي الباب يطبق خلفه بكل رقة ولطف .

* * *

- ٢ -

البــراعـــم

« ٣ »

في البدء كان شراب الجنة والرحيق .
تحويهما لوزة هنـد عسجدية . . .

لكن غيظ الرئيس كان قد توقف . بات باستطاعته أن يسمح لنفسه بمباركة جوقة الموسيقى بابتسامة . . . استمروا ، هيا ، استمروا ، أيها الحمقى . يضحك كثيرا من يضحك أخيرا . ونحن من سيضحك أخيرا ، نحن من سيضحك أخيرا .

فلتبـارك الآلهـة
التي لونت الكون بأشـد الالوان ورديـة
ثم مسحت اللعاب عن لحاهـا
وفي الحال سمعت شخرات مدويـة
فحتى الآلهة حمل لها الاكسير النشوة والنسيان .

تا ـ را ـ را ـ را ـ تا ـ تا ـ تا ـ تا ـ تا ـ تا . ردد الرئيس في ذهنه الخاتمة نفسها . في البداية كان الامر مختلفا : اذ كان يحنق ويثور ازاء خيانة كهذه . لكنـه الآن يمكن أن يسمح لنفسه بأن يتسلى . وهكذا مرر كفه على ذقنه كما لو أنه يقدم لاصابعه شرابا من رحيق عظيم قبل أن يتلاشى تلاشي صورة من خيال . نواحون حمقى . حثالة يتآكلها الحسد والغيرة ، قمل ! بالنسبة الى أوفي ، الأمر واضح ، فهو لم يتعلم شيئا . خسارة به المال الذي أنفق عليه ، فقد عاد من رحلته فاسدا تماما وغير قابل للاصـلاح .

قد صارت لوزة الهند رغبتهم الوحيـدة
غذاءهم الوحيد الذي يعتمدون عليـه
قرص عسل أصفر ، وهم يغنون على ربابة مذهبـة
بذوراً ممتلئـة برحيق نقـي
منبع شراب ـ أوه ! يا لأغاني الحرب الفرحـة
ربات الفن العزيزات هن النبع الذي يلهمكم اغانيكم

كان هذا ، بالنسبة لمن لا يدري الحقيقة ، شيئا لا ألطف ولا أرق ، أجل ، لا ألطف ولا أرق . انه متوافق كل التوافق مع هذا المهرجان . لحسن الحظ ، لم يفهم المدعوون شيئا . . . بل بدا الامر بسيطا كليا وعاديا تماما ، كما لو أن المغنـين ينشدون مدائح تقليدية ، مع ذلك ، لم يسبق لي قط أن رأيتهم مفعمين بمثل هـذه

الروح الغنائية امام لوز الهند . أمام نبيذ النخيل ، نعم ، أو ربما أمام النيام المكدس لكن ليس ابدا أمام رموز تجارية للوز الهند ... أجل ، هو يعلم شغله تماما وهو يعلم كيف يعض اليد التي تطعمه ... أوه ! الافضل أن تضحك الآن ، لا تفشى سرك قط .

كان زاشي قد انهى عزفه المنفرد على الساكسوفون فأدرك أن هذه هي اللحظة المناسبة لمغادرة المنصة ، وهكذا انسل متغلغلا بين الحشد الى أن وصل الى الرئيس ثم قدم له احتراماته .

ــ اسمح لي أن اقدم لك اعجابي ، زاشي ، فجوقتك تحقق تقدما جديدا في كل مرة أسمعها بهـا .

ــ هذا لطف كبير منك ، سيدي الرئيس .

ــ والاغنية التي كنت تعزف لحنها هذه اللحظة ...

ــ هل اعجبتك سيدي الرئيس ؟

ــ رائعة ... لا بد اننا كنا نسمع اسطوانة ...

ــ أنا سعيد أنها أعجبتك . لقد ظننا أنه لا يوجد مكان خير من حفلك هذا كي تغنيها لاول مرة .

ــ أوه ، هذا لطف شديد منك يا زاشي ، لطف شديد حقا . هل أنت الذي كتبتهـا ؟

ــ أوه ! لا ، سيدي الرئيس ! أنا أصب عليها المرق حين تنتهي . انه أوفي من يستحق الشكر على كل شيء . اننا نتشارك في المطبخ كما يقال ....

فبدت على الرئيس هيئة المندهش .

ــ آسف ... انا لم ...

لكن زاشي بدأ يضحك كما لو انه يعتذر .

لقد نسيت أنك بعيد كليا عن شؤون الكلام والكتابة ، سيدي الرئيس . ما أريد قوله هو أن أوفي يضع الاساس وانني لا اتدخل الا في مسألة الترتيب قليلا . الكلمات والموسيقى هي بكاملها من وضعه ، سيدي الرئيس ، وما افعله بالحقيقة هو ان أضع بعض البهارات والتوابل .

ــ أوه ! نعم ، نعم ... وانها لحسنة البهارات والتوابل يازاشي ، حسنة البهارات والتوابل . أنا متفق معك كل الاتفاق . بالمناسبة ، ارجو أن يكون هناك من يهتم بجوقتك .

ــ أوه ! أجل سيدي الرئيس ، لا أحد يحتاج شيئا .

ــ حسن ، حسن جدا ! تذكر أن البيت بيتك ... تصرف كما لو انك في بيتك .

ــ شكرا ، سيدي الرئيس ، لا أحد ينقصه شيء .. علي أن أعود ...

ـ بالتأكيد ، بالتأكيد . أنا لا أريد تأخيرك .

لكنــه وهب الخالدين سحنــة جديــدة
كما لو أنــه بصــدأ الذهب لطخهم
والى المـآدب السماويــة أجرى الشراب الجديــد
حين خفضوا نظراتهــم وتطلعوا الى الانسان
ببشرتــه الوضاءة ، كلون الكاكاو
فمن تراه ، من تراه لم يرغب بعدوى قاتلة !

حك الرئيس رأسه ، دون أن يفهم كلمة واحدة . فعلى الرغم من الدروس الخصوصـ ـة المحشوة بالامثلة التي أعطاها اياها **حاصله الذكائي** ، الحاصل الذكائي الذي هو في خدمة مجلس الادارة ، الى حد أنه توصل الى الاقتناع بأنه قادر على اصلاح الاساءة أو الفكرة المدمرة التي أخفيت بأشد أنواع البراعة في أغاني الحملات الشعبية الوجدانية ، الا أنه كان يحدث له أحيانا ان يقف حائرا ازاء هذا التعبيـر او ذاك ، غير ان الرموز انكشفت أمام عينيه الآن (مثلما كان يرغب بكل تواضـع في اعلام الكارتل) وشيئا فشيئا صارت لديه القناعة بأنه لم تكن هنــاك كلمــة واحدة ، رمز واحد ، صورة واحدة ، من كل ما استخدموه في الحملة الشعبيــة (بكلفة عالية وعلى حسابنا نحن أيها السادة) لا يحوي جرعته الخفية من الســم والتحريض .

بهذا الموجز السريع ، لاحظ حاصله الذكائي الذي كان يشق طريقه بعنــاء شديد عبر الحشد المختلط من الشعور المستعارة ، الاوسمة ، وكؤوس الشمبانيا . رجل الساحة ! لعله كان يصغي للمقطع الاخير . لكن الحاصل الذكائي لم يدع لــه حتى امكانية طرح سؤاله . فقد لوح بيده التي كانت تمسك بقطعــة من الورق مستطيلة الشكل ، فاطلق الرئيس آهة وهو يرى انه كان يلوح بواحدة من تلـك الملصقات الشيطانية . أما الحاصل الذكائي فكان يلهث دائما .

ـ أرأيت هذه ، سيدي الرئيس ؟ لقد كانت ملصقة على أعمدة بابك ، واحدة على كل جانب .

تفحصها الرئيس ، وبسرعة شديدة كافح ذهنيا لاكتشاف الرسالة قبل أن يقدمها له محلله . فقد كانت الملصقة تمثل شدق الشره ، فما كبيرا مفتوحا لالتهام شريحة هائلة من لوزة هند . وفي الاسفل ، كتابة تقول : الحصة الذهبية . وبسخط لم يستطع اخفاءه ، شرع يصغي لشرح الحاصل الذكائي الزائف كل الزيف .

ـ انه زعيم الجيكو ذو الخطم الكبير الذي بلغ به الغرور ان يفكر بأن تكون له حصته الذهبية من المكاسب الوطنية ...

ـ أجل ، أجل ، أفهم جيدا ما تريد قوله . لكن ما أود معرفته هو : كيف استطاعوا لصق هذه على باب قصري . فقد وضعت هناك اثنين من حراسي ، كما أن هناك قوات من الشرطة والجيش . فنحن ننتظر كما تعلم . . .

ـ أجل ، سمعت كلاما عن ذلك ، فهل هو صحيح ؟

ـ طبعا ، طبعا . وكم هو مزعج أن يجد المرء شيئا كهذا يستقبله وهو آت الى الحفـل .

ـ أوه ! انا لا أعتقد أن التلميح صدمه ، رغم أنهم ، يا سيدي الرئيس ،صاروا وقحين تمامـا .

دعك الرجل الضخم الجثة الملصقة بيديه فيما أسرع الحاصل الذكائي لاخذها منه ثم أعطاها للخادم الذي كان يمر وعلى يده صينية من المرطبات .

ـ لا يهم ، قال الرئيس أخيرا ، سوف نتخذ القرارات التي ستفرض وتنفذ بالنتيجـة .

بعدئذ ابتعد كي يسهر على راحة مدعويه ، غير مبال بقطرات شراب الجنـة والرحيق التي كانت تتساقط من مقطع شعري جديد .

هواة الحلاوة ، والأسفـاه ، فقدوا كل معيـار
وما مـن قانون بشري يستطيع ايقافهم
لقد استنزفوا شجرة الكاكاو
امتصوا رحيقها حتى آخر قطرة ، كشطوا الذهب
فشاخ الشجر المستنزف قبل أوانـه
ولم يبق للاجيال القادمة أخضر ولا أصفر .

تـا ـ را ـ را ـ را . تا ـ ت ا ـ تا . . . عندئذ التقط الحاصل الذكائي كأسا من البراندي لدى مرور الخادم به ثم عبها عبا كي ينعش نفسه ، متسائلا في سره عما سيساعده بهذه المرة في تغطية المعاني المكشوفة التي قصدها أوفي . فقد كان من المستحيل تماما انكار التلميح المقصود . مع ذلك ، هو لم يدع هذا تحذيرا ضد المزارع الواسعة الشاسعة . . .

وفيما كان الرئيس يتسلل ببراعة بين قفازات الاكف وفرقعات الضحك ،كان يستعيد في ذهنه جدول الضباط حسب رتبهم : نجمة واحدة ، نقيب ، نجمتان ، مقدم ، ثلاث نجوم . . . أوه ! يا الهي . . . ليست هكذا أبدا . نجمة واحدة :ملازم، نجمتـان : نقيب ، ثلاث . . . ترى اين تبدأ التيجان ؟ ثم ، أليس هناك قلنسوة في جهة من الجهات ؟ بعدئذ أين موضع أولئك الرقباء الاولين ؟ في كل الاحوال يمكن للمرء دائما أن يكشفهم من هيئتهم : ثيران وجاهزون لتقديم التحية عند اقـل اشارة . . . التاج هو . . . أوف يا للعنة ! الرئيس بيفا ! خسارة أن المرءلا يستطيع

ابعاد اناس مفسدين كالرئيس بيغا ابعادا كاملا . كيف يستطيع نموذج كهذا اكتساب ذلك القدر من السلطة ؟ انه جميل وعضو أكيد من أعضاء الكارتل . **الحاصل الذكائي** لا يشك بذلك . أهو رجل باتوكي المصنوع من قش أم انه هو الذي يحكم باتوكي ؟ ترتيبات الاول تكمل غباء الآخر . بيغا يحب شهرته كمشاغب . وهو غليظ كمثانة خنزير ... تاج ، تاجان ... لكن ، أهذه هي التيجان ؟ أم أنه أكثر من مقدم ... لنقل انه عقيد ...

ـ مر ... حـ ... با ، عزيزي الجنرال ، كم هو لطيف منك أن تأتي .

ـ لا ، بل كانت سعادة كبيرة بالنسبة الي أن أتلقى الدعوة .

ـ أبدا ، أبدا ، بل أنتم مشغولون كثيرا بقضايا الدولة ، مشغولون بتحريك مركب الدولة الثقيل ، مشغولون بمحاولة فرض النظام على مركب الامة ، أوه ! يا الهي ، باستطاعتي أن استمر هكذا الى ما لا نهاية ! لكن هذا لاننا نعلم ما تفعلونه واننا لفخورون بانجازاتكم .

ـ هذا اطراء لنا يا سيدي الرئيس . ما نحن الا جند ، لا اكثر ، أما من يقومون بكل شيء ، فهم أمثالكم ، انكم أنتم العمود الفقري للبلاد ....

ـ عز ـ يز ـ ي !

ـ أرجو أن تعذرني يا سيدي الجنرال ، أعتقد أن زوجتي بحاجة الي ، هناك . هيا ، عدني الاتتردد في طلب كل ماتحتاج اليه ، **كل** ما تحتاج اليه . واني لآمل أن تسلي نفسك جيدا هنا يا سيدي الجنرال .

ـ هذا وعد .

كانت امرأته قد دعته ، لكنها لم تتوقف عن هذرها الى أن وصل حد تصعيد زفرة ، حينذاك كانت غير قادرة على تذكر أي شيء من حديثهاالذي كانت تريد أنتسمع موافقته عليه ، أو تذكيره به ، فعاد أدراجه يتفحص الصالة الواسعة ، وابتسامته الصغيرة تشع على الناس المهذبين الذين كانوا يحيطون بزوجته احاطة السوار بالمعصم . كانت الصالة قد غصت بالضيوف سريعا . لاحظ الرئيس ابيور ، النذل ، الفضاح . تماما في اللحظة ، التي كان يدخل فيها الباب الخارجي ، فكشر ضاحكا . هذا الصحفي وقح صفيق لكنه مفيد . انه يعلم بالضبط ما هي المصطلحات التي سيستخدمها ابيور لوصف الحفل : حفل باهر . والله وحده يعلم ماذا سيقول أيضا . لكنه ، عن سوء قصد ، سينسى أن يتكلم عن التدشين الرسمي لمنهل الماء المبني من الرخام وعن خطابه بهذه المناسبة ، وهو أهم الاحداث فيها . ربما سيورد اشارة صغيرة تافهة على شكل ملاحظة ، وسيكذب بلا شك ، قائلا انه شارك منذ البداية لكنه اكتشف لاحقا أن المنهل الجديد الذي دشنهالرئيس انما كان قد دشنه الجنرال أنتيل ، وحينذاك سيعلم العالم كله أن هذا المنافق ابيور لم يغادر الحفل مطلقا الى أن اشرقت شمس

الصباح ملقية ضوءا كاشفا على آخر زجاجة فارغة . الحسد ! انهم بشكل من الاشكال يشفقون عليه . انظر اليه هناك ...

كان ابيور قد التقى بزاشي في ناحية من نواحي الصالة شبه الخالية ، اثر ملاحقته لخادم كان يحاول ايقافه قبل اختفائه خارج الردهة حيث كانت صينيته الملأى قد افرغت .

ـ ابيور !

ـ زاشي ، كيف الحال يا عزيزي ؟

ـ على الحد تماما .

ـ ما من سر ؟

ـ على البلاطة .

ـ وما من صفقة أيضا ؟

ـ الكثير من النشارة المذهبة ، يا عزيزي . أما انت فلن ترى شعرا مستعارا واحدا يقتلع من مكانه هذه الليلة .

ـ اعتقد ذلك . نشاء لامع ...

ـ اجل ، سيدات لعينات ، آنسات ، سادة ، الكل خارج وسطهم الطبيعي . والعالم كله يراقب .

ـ على كل حال ، أنت في مكان مناسب تماما للرصد ، من عل . واذا كشفت ما يجري ...

ـ أعطيك اشارة ، هذا مؤكد ، وداعا يا ابيور .

حينذاك قام ابيور بنصف دورة ثم اتجه بخطوات لا مبالية نحو الشرفة . نسيم عليل كان يهب من البحيرة . وكانت الدولة قد استصلحت قطعة كبيرة من الارض ، فلاحظ في طرف الحديقة ما ينبغي أن يكون موقع زورق . اي شيء يمكن أن يفعله بزورق ذي محرك في حين أن كل ما هو أصغر من باخرة يوحي له بالريبة ؟ هو ، بالتأكيد ، لا يكن الا الازدراء لكل وسائل التسلية التي تحمل في طياتها أدنى خطر ، وكانت تلة من القماش المشمع ترتفع وسط الحديقة مخفية وراءها روعة المنهل الذي كانت اعادة تسميته تحتكر كافة الافكار وكافة الاحاديث في طول البلاد وعرضها منذ شهر كامل . لم يكن الرئيس يعتقد أن من المستحسن انارة الغابة الصغيرة من أسفل . بخطى واسعة قام ابيور بالدوران حول التلة ، وقد أدهشه أن يرى ذاك الذي احتل جزءا كبيرا من المكان ، بعدئذ تذكر أن المنهل قد اندمج مع حوض السمك أما الحديقة نفسها ، التي كان يحيط بهاجدار عال ، فقد كانت تنحدر انحدارا سريعا باتجاه البحيرة ، الامر الذي أعطاه فجأة انطباعا بأنه وقع في متاهة داخل هرم حته الزمان فانقلب على جانبه وانفرست قمته في الرمال المتحركة . من الجانب

الآخر للشرفة ، كانت ظلال الناس تغادر أو تنضم فتتلوى الكتلة الاساسية من المدعوين المجمدين داخل أقنعة للزينة أكثر غنى من كل ما كان يحلم به أشد رجال توت عنخ آمون حماقة . كان صقر اللبناني يمتلك ثلاثة أرباع هؤلاء الزبائن ، صقر صاحب المحل التجاري الرائع بكل ما فيه من مهربات ومذهبات لامعة . . . أيها الاله العظيم ، لماذا ينبغي أن تبعث هذه المومياءات من تحت التراب ؟!

دخلت ايريز ، بمزاج فظيع لكن بسيماء جميلة الى درجة تغري قديسا . « أجل » ، قالت بصوت واطىء ، « التفتوا جميعا وانظروا ! انتم ، أيها الرجال ، ليسل لعابكم ، وانتن ايتها النساء لتمتن غيظا ! انا لا اشعر بكن وانتن تتمزقن غيرة وحسدا ، عدن فادخلن في حاملات أثدائكن المحشوة ، تقوقعن داخل أدمغتكن الرخوة ، هذه أنا ، سيليست ! هذه أنا يا سيدة ك يا ذات الشفتين الاشبه بحواف مبولة ، أيتها الحولاء ، الرئيسة المزعومة لنادي الاحد للسيدات . أتريدين أن أقول لك أين يمضي السيد لياليه كل اربعاء حين يقول لك انه في نادي الروتاري ؟ ليس عند اريد يسنت ، أؤكد لك ، بل عند قدمي . انه راض بثمن العزاء الذي أقدمه له ، وهذا لا يضر أحدا : فالكل يحذو حذوك ، حذوك . . . » .

ـ اهدئي ، همس أوفي في أذنها .

ـ أشعر بمزاج فظيع .

ـ اهدئي ، أقول لك .

ـ زد على ذلك أنهم يدينون بكل ما يملكون لصقر اللبناني .

ـ وما دخلك انت ؟

ـ لماذا كان ينبغي أن نأتي ؟

ـ انت تعلمين السبب جيدا . . . فهذا جزء من واجباتك .

ـ انا لن أرفض . احذرك سلفا ، حتى لو جاء الرئيس بذاته وطلب مني ذلك راكعا على ركبتيه .

ـ سنتجاوز هذه العقبة حين نصل اليها . هيا . . .أوه ! انظري ، لا فظاظة ، آ ؟

ـ على الرحب والسعة . . . على الرحب والسعة . الملح والجمال في حملة الاعلانات يجتمعان . الآن بلغنا الكمال حقا .

ـ شكرا ، سيدي الرئيس . انها لامسية رائعة .

ـ بحضور أميرة الكاكاو بلحمها وعظمها ، يتوقع المرء أن تكون أمسية العام كله . تفضلي ، تفضلي فأقدمك الى الجنرال . لكن أود كثيرا أن أحذرك أيتها الاميرة ، غالبية الرجال الحاضرين هنا متشوقون لرؤيتك في واحد من تجلياتك الشخصية المشهورة . .

ـ آمل أن لا تشجعهم أيها الرئيس . قالت المراة بصوت فيه نوع من الصفير .

لكنها كشرت الما وهي تشعر بأوفي يغرز أصابعه في ذراعها . ثم شرعت ، مبهوتة ، بالاحتجاج حين غادرهما الرئيس كي يعترض صينية محملة بالمرطبات .

ـ مع ذلك ، أنت لا تريدني أن أرقص في أمسيته الخاصة ؟

ـ لست متأكدا من ذلك ،غمغم أوفي .

ـ كان عليك أن تنبهني سلفا .

ـ أقول لك ذلك . أنا نفسي لا أعرف .

وبدت عليه هيئة الانزعاج ، فاستغرقت ايريز في أفكارها . لم يكن هناك الكثير من المفاجآت . كان اوفي قد توقف فجأة عن املاء الخزان ، عن فرض أفكار جديدة عليها ، تماما قبل التجلي الشخصي ، عن القيام بتكرار التلحين الايقاعي لها حتى اللحظة الاخيرة . لم يكن عليه الا أن يضعها في الحالة الروحية المطلوبة ، بتشكيل الوجه والجسد طبقا لمقتضيات اللحظة التي تعرض فيها نفسها للجمهور. أما بالنسبة الى الجولات ، فقد تعلم زاشي أن يحمل معه كل ما تحتاجه الجماعة من ادوات مساعدة وملابس ، لم يكن عليها أن تشغل نفسها بما يجري ، بل كل ما عليها هو أن تسلم جسدها وروحها لخيال زاشي وتصوراته . وكانت لوزة الهند العملاقة تنشق بالطول أو بالعرض ثم ينفتح القسم العلوي كما ينفتح غطاءصندوق. وكما لو أنها تنهض من سبات عميق ، كانت ايريز تنهض من سرير من البذور الضخمة ثم تمد الذراعين . تبدأ الجوقة بالعزف فيمد لها زاشي عادة كأسا من الكاكاو ، راكعا بركبته على الارض فتضع قدمها على ظهره ، وسط حشد من تسريحات شعر ، نصفه مستعار ونصفه على شكل شجيرات ، تلك التسريحات التي كان أوفي يدعوها موسمية : النساء فيها يستخدمن أطنانا من اللون الاخضر والاصفر ، البني والذهبي والطحيني وكميات من المزائج الاخرى . وهكذا ، ضمن اطار من المناظر الحسنة الاعداد ، كانت لوزة الهند تنبثق من التربة أحيانا عبر فتحة خاصة ، وقد انغلقت على ايريز في الداخل .

الاحساس الغريب حدث هناك في ميدان الالعاب عند سد « شاج » « ليلة المرح » تلك التي نظمها العاملون في يوم من أيام العطل . كان أوفي قد أصر بالهاتف، قائلا لها أن تجعل نفسها في أحسن صورة ، ذلك أن شاج هو المقدمة لتنفيذ فكرتهم الجديدة في « كروس ريفر » . فغالبية العاملين هم من الآيبرو . وقد عملوا طوال النهار لصنع فتحة ، مستفيدين من رافعة محرك من المحركات العديدة ، وقت الاستراحة في مشغل من مشاغل البناء . كل شيء سار على ما يرام . بعدئذ جاء انقطاع التيار ووجدت ايريز نفسها في قلب قوقعة هائلة معتمة ، طيلة فترة من الزمن بدت لها بطول الابدية . لم يكن هناك بصيص من ضوء يتسرب عبر شقوق التهوية ، ولم يراودها أي احساس سوى أنها دفنت وهي على قيد الحياة ، لكن دونما الم ، لحسن الحظ ، فلبثت في مكانها ترتعد بانتظار الضوء والحياة ، وقد

جاءت لحظة الانبثاق من التربة ، اذ ظهر الضوء أخيرا من شقوق أشبه بتلك التي تحدث في رقصة اقراص النعناع .

شيئا فشيئا كانت ترتفع لوزة الهند ، تدفعها قوى غير مرئية . ظهرت مقدمتها اولا ثم شرعت بالتشقق من كل جانب كي تتخذ شكل شرائح رقيقة من البرتقال . وهكذا ، كما يجر زورق على مهد من زيت النخيل احست به على بشرتها ، خرجت ايرييز تماما ، ثم خطت خطوة واحدة فوجدت نفسها على أرض منبسطة ، وسط تصفيق مدو . تلك كانت رقصة النبتة الصغيرة وسط تلك الفسحة المحاطة بالاشجار الخضراء التي كان البعض قد علقوا عليها مصابيح كهربائية على شكل أقواس فيما كان البعض الآخر من عمال المشغل وسكان قرية شاج قد صعدوا الى ذراها سعيا وراء المنظر الافضل . لكن إيرييز لم تر عينا واحدة من آلاف العيون التي كانت تحيط بها . بالنسبة اليها ، لم يكن هناك سوى الليل الذي كان يداعب أطرافها وذلك الاحساس الهائل بالعظمة ، بالقدرة على دفع أوراق وبراعم جديدة من عنقها ، من اصابعها ، على هز رأسها للتخلص من الاوراق الميتة والتراب ، على عب الهواء والضياء بكل سم من مسامها . كانت إيرييز ترقص ، دون أن تسمع شيئا من كل ما تطلقه قصبة زاشي ، وكانت الحلزونيات الخضراء تفر من شعرها المستعار مدوية في الليل ثم تتساقط تساقط المطر على المتفرجين . كان زيت النخيل يجري حرا في عروقها الى أن تغدو اخيرا مستعدة للوثبة الاخيرة ، فتذهل الجميع بأن تسقط من جديد في منتصف المنصة الصغيرة تماما حيث تنطلق دائما من هناك الشرائح الرقيقة على شكل زوارق من جذوع أشجار تنتشر كالاشعة من باب الفتحة . حينذاك ، يعود الباب الى الانغلاق ، ويطلق الميكانيكي ما يشبه الآهة التي يسمعها حتى الجالسون في الصفوف الاخيرة من المسرح نصف الدائري ، اما سجينة القوقعة التي تعود الى حبسها من جديد ، فلا يبقى لديها من انطباع بالعرق المتصبب منها ، بل بنوع من الزيت الاسود وهي تنتظر تحررها من جديد . . . .

سمعت ايرييز صوت أوفي وهو يهمس في أذنها .

ــ ماذا ستقدمين لنا هذه الليلة : ابتسامة ايريد سنت المزدوجة ، لمعات الزجاج للسيدات وبسمات الحب للرجال ؟

ــ هل تبدو عليّ هيئة الابتسام ؟ سألته بصوت امتزجت فيه العذوبة بالتهديد .

ــ من الصعب تحديد ذلك .

ــ حسن ، انا لست مبتسمة وانا لن اغفر لك انني لم أكن كذلك حينما رقصت هناك في شاج .

ــ آه ! نعم . زاشي قال انك لم تكوني قط بمثل تلك الروعة .

لكن ذلك لم يفعل سوى تأكيد احساسها بالاحباط .

ــ لا بد أن ذلك قد فاتك ، فأنت أبدا لم ترني أقدم أفضل ما لدي . هـذا لانك تعتقد أنني لا أصلح الا لــــ . . . (ثم بوزت شفتيها مفعمة احتقارا لنفسها) للتجليات الشخصية أمام كبار خنازير المجتمع .

ــ اخفضي صوتك و . . .

ــ اجل ، اعلم .. اعلم ما ستقول .. اهدئي ، لا استطيع ، أنا لم أرغمك على ذلك . انظري ، لماذا لم تعودي تقدمين جديدا . لكني أقول الآن : لوزتـك الهندية تتمزق نتفا . لقد سبق لها وتفتحت بعشرين وجها مختلفا ، لكن ذات يوم ستنفتح من كل مكان في آن واحد . وحين يأتي ذلك اليوم ستتخلص مني وليحالف الحظ لوزتك الجديدة ، سيدة الكاكاو .

كان أوفي يراقب بانتباه شديد أولئك الذين اعترضوا طريق الرئيس خلال مطاردته لصينية المشروبات ، فعرف في واحد منهم الذراع اليمني لقائد المنطقة ، ذاك الذي كان يعرفه كل الناس بوصفه **مصلح** الكارتل . كان شابا ممتلئا قوة واباء شأنه شأن الآخرين جميعا ، لكن بدرجة أعلى . في تلك اللحظة كان مشغولا كل الانشغال مع الرئيس ، وهو يحدثه همسا . اذن ، هو قائد المنطقة بعينه من سيقص شريط حوض السمك بيديه ذواتي القفازين ؟ لا بأس ، لا بأس ، حتى ولو لـم يكن سوى قائد منطقة . جال أوفي بعينين نشيطتين في الحشد مدققا النظر الى ان استقرتا من جديد على ايرييز حين حدث أن كان الرئيس والمصلـح ينظران باتجاهها . فأحس ، لسبب لا يدري كنهه ، بشيء من الضيق .

ــ الم تسمع ، آ ؟ قالت له ايرييز وفي صوتها نغمة اتهام .

ــ لقد سمعتك . لكن متى تتعلمين كيف تجاملين هؤلاء الناس ؟ انك تدعينهم يتجاوزونك باستمرار .

ــ لا . . . لا . . .

ــ لا تقولي لا .. فأنا أعتقد أنني أثبت لك ذلك مائة مرة .

ــ اذن لماذا يجب أن تجعلني أرقص لهم .

ــ أنا لم اقل انني أريدك أن تفعلي ذلك . لكن ربما سيكون ضروريا، اذ ينبغي الا يتصوروا أن احدا من الناس لايعرف ذاك الذي يدبر في الخفاء .

فقطبت ايرييز حاجبيها .

ــ أوفي ، عم تتكلم ؟

ــ أوه ، لا شيء ، لا شيء (وبدا من صوته ان هناك ما يريد البت به) اذهبي فاستعدي . هذا المساء ، ستقدمين صندوق البندور(١) . هيا ، قولي ذلك لزاشي.

---

(١) البندور : آلة موسيقية تشبه القيثار.

ثم اختفى داخل الحشد .

« لا ، ليس حفلنا هذا هو مجرد حفل في منزل مواطن بسيط » ، قال المضيف الفخور بنفسه يشع وجهه بهجة . « أوه ؟ كلا .. وأؤكد لكم ذلك ، سيداتي سادتي . ايها المحترمون ، انتم لم تأتوا لكي تشاركوني بتدشين هذا ... أوف ... هذا .. لا ، ما كنتم لتحضروا هذا الحفل الرائع لو انه لم يكن الا هذا فقط . كما ان رجلا كثير الاشغال كالجنرال لم يكن ليأتي ، شخصيا ، ليشرفنا بتدشينه . اجل ، إنه لحدث عظيم برموزه كما سترون بانفسكم . فبلادنا مدينة بازدهارها لما تقدمه لنا نبتة هامة . انها هناك في حقلها الصغير ، تكد بلا صخب ، بلا ضجيج، لا تنشغل الا بشؤونها ، لا تلحق الضرر بأحد ، هي ليست واحدا من الـ .. الـ .. الـ .. اقول المحرضين ؟ (ثم نظر الى مستمعيه الذين احسوا أن عليهم أن يكافئوه بضحكة تأييد) انها حقا زنبقة الحقول الصغيرة ، لكنها تكد بصمت ، تغذي الملايين والملايين من ابناء الشعب » .

ثم ارتفع التصفيق واشتد الى حد مذهل تماما حين رفع الرئيس راحتيه : « هذا هو السبب في انني طلبت احضار ذلك الشيء الصغير الى هنا .. فقد قلت لـ .... أوه ... لذلك الذي ينبغي ان يقوم بالعمل ، أريد أن اقول للفنانة ولقد قلت لها : هذا احتفاء بشجرة الكاكاو ، مناسبة لتقديم عرفاننا جميعا لها ، اذن، أيا كان الشيء الذي سيظهر لكم فتاكدوا انه سيظهر امام اعينكم ، خالصا تماما كما أراكم الآن . لكن ينبغي الا أطيل عليكم ، فلست انا من سيكشف الستار ، بل هو نصفي العزيز الذي ترونه هناك مستعدا منذ زمن طويل (وترك الضحكات تنطلق منهم ، بعدئذ مد يده باتجاه الجنرال الذي كان ينتظر) والآن اتوجه الى الجنرال الذي ترونه هناك والذي كان من اللطف بحيث شرفنا بقدومه لرفع الستار عن هذا الينبوع ، هذا الينبوع الرمزي للكاكاو الذي نأمل جميعا الا تجف مصادره الارضية الى الابد . سيداتي ، سادتي ايها الضيوف الكرام ، سيادة قائد المنطقة : الجنرال » .

وباشارة من زاشي الى جوقته ، انطلقت رنات الآلات النحاسية ودقات الدفوف التي تغيرت الى ايقاع عسكري متوافق مع خطوات الجنرال الموقعة بكل دقة وهو يتجه نحو مقص فضي وضع على حشية من مخمل ازرق ، كانت السيدة الاولى تمدها له وهي تقف بجانب شريط قرب حوض السمك . عشرات من آلات التصوير بدأت العمل وطوال نصف ساعة لم تتوقف اجهزة اضاءتها عن الفرقعة . انحنى الجنرال ، ثم أخذ المقص ، بعدئذ أمسك بيد السيدة طابعا عليها قبلة وسط عاصفة مدوية من التصفيق . هذا الجنرال شخصية باهرة لكأنه تكون وفق الطراز الفينيسي في القرن التاسع عشر . وقد تأكد ذلك ، كما ينبغي القول ، حين سقط الستار

وانكشفت روعة الرخام الايطالي لاعين المتفرجين الجهلة . وحده تعليق الرئيس الذي راح يشرح نقطة نقطة ، كان يزعج من حين لآخر تأمل المتفرجين لذلك النصب الفلورنتي القائم في قلب قارة متعفنة فاسدة .

جاء خدم ذوو سترات بيضاء فرفعوا الستر ثم سحبوها على مهل الى المؤخرة فبدا حوض الينبوع ، وهو حوض سمك بالحقيقة ، وقد نحت تماما على شكل لوزة هند ، ارضيته وجوانبه مغطاة بمربعات صفراء صغيرة . في الوسط ترتفع قاعدة رائعة ، ذراع من رخام تخرج من بحيرة مسحورة ، على شكل اكسكاليبر(١) ، لتدعم منصة من الرخام الازرق ينتصب فوقها تمثال فارس يمتطي صهوة حصانه وهو مدجج بالسلاح ، وعند قدم الفارس يلتف تنين هائل ، حراشفه من الفضة ولسانه من البرونز وعيناه من العقيق وهما تقدحان شررا . وهناك عربة من الفضة ثقيلة الوطأة تخترق جسده فيما تطأه الحوافر الحديدية للحصان النبيل .

« كلنا نعلم قصة الخضر والتنين ، على ما اعتقد » ، شرح الرئيس بعد أن انطلق التصفيق المدوي ثم تلاشى على شكل صيحات تعجب : أوه !! .. آه !! .. هدأت فيما بعد . « لكن ربما ليس هذا بالضبط الاستخدام الرمزي الذي أردت أن اقدمه لكم هنا . وهذا هو السبب الذي وددت من اجله أن يجيء قادتنا الجدد شخصيا لتدشين هذا الانجاز . فالخضر ، وهو ممتط ظهر حصانه ، كما ترون ، انما يجسد النظام الجديد الذي سيصرع التنين رمز القوى الاشد عداء لوطننا وامتنا : الفساد ! » .

« مرحى ، مرحى ، مرحى ، مرحى .... » .

فتجمدت كأس ابيور الذي كان يصغي ، وهو واقف تماما داخل كشك الموسيقى ، على بعد سنتمترات قليلة من شفتيه ، فيما التفت صاحبها نحو زاشي على مهل ، ثم انطلقا معا بضحكة مدوية وهما يختفيان خلف طنفسة فيما كانت عدة أعين تتجه نحوهما .

كانت نظرة الخضر تتجه نحو البعيد ، الامر الذي أوحى بأنه يحمل رسالة لا تعني الحاضرين . وكالعادة ، كانت الخوذة تغطي رأسه ، لكن العينين والانف البارز كانت معرضة لنظرات الجمهور . ان كان هذا هانيبعل أو الاسكندر ، أو

---

(١) اكسكاليبر : هو في الاسطورة البريطانية سيف الملك آرثر الذي كانت ضربته لا تخيب . تقول الاسطورة انه كان مثبتا في صخرة لم يستطع احد سحبه منها سوى آرثر الذي كان ما يزال فتى صغيرا ، وحين وافته المنية أوصى الملك آرثر أن يلقى سيفه في البحيرة حيث امتدت يد امسكت به قبل أن يصل الى الماء ، لوحت به ثلاث مرات ثم اختفت .

حتى بواديسي(١) ، فأمر غير ذي بال قط . لقد كان هناك على ظهر حصانه المصنوع من الرصاص ، شخصا رمزيا لا يحس بأهمية الناس الذين جاؤوا لتدشين مولده المدجج بالسلاح . حينذاك ، انطلقت ، مرة أخرى ، أصوات دفوف مجنونة ودوي البوق ، فيما كان أحد الخدم يدير صنبورا خفيا والرئيس يصيح بحماس شديد : « ابتعدوا قليلا ، سيداتي ، سادتي » . في تلك اللحظة انبثق الماء فجأة من عشرات الجروح التي يفترض أن التنين أحدثها في خاصرة الحصان ومن لسان التنين البارز ايضا ، فيما راحت المصابيح الكهربائية تضفي على تلك المياه الوانا باهرة . كان الرئيس يشرح لضيوفه أن دماء التنين زرقاء ، لكن صوته غاص في لجة الاصوات المؤيدة الصاخبة التي تبعت المشهد ، ولم يبق لديهم سوى القليل من القوة التي يتطلبها التصفيق حين لاحظوا الاعجوبة الاخيرة : فعندما بلغت المياه المنبجسة المستوى المطلوب ذاك الذي تحدده آلية موضوعة داخل القاعدة ، بدأ الفارس ، التنين والمنصة كلها تدور فوق القاعدة باتجاه عقارب الساعة . في تلك اللحظة وجد حتى المحنكون الخبراء الذين يقولون دائما « رأينا ذلك من قبل » وجدوا أنفسهم ينبهرون ثم ينضمون لحشود المصفقين .

« سيداتي ، سادتي ، أيها الضيوف المبجلون » قال الرئيس وهو يضاعف من انحناءاته أمام هتافات الاستحسان التي لم تكن قد انتهت بعد : « سيداتي، سادتي، البار في خدمتكم ، ولنرقص أيضا على موسيقى فناننا المشهور زاشي وجوقته ، رقصة « بزور الكاكاو » لكن ... انتباه ، من فضلكم ، انتباه ، سيداتي ، سادتي .. فأنا أعتقد ان لدينا الفرصة لان نعدكم ، حالا ، بواحد من التجليات الشخصية لأميرة الكاكاو ، في واحد من عروضها المشهورة والذي سيبقى عنوانه ، مع أسفي الشديد ، سرا حتى اللحظة الاخيرة .

تركت قصة « علبة البندور » ، التي أفسدت العناية الالهية نهايتها بما أرسلت من غيوم وتيارات هوائية ، تركت لدى مبدعها ، أوفي ، احساسا بأنه نفاية زائدة ، ولدى أولئك الذين شاهدوها انطباعا بأن هناك دليلا على وجود خطر يهدد الكون. ذلك أنه بعد أن ظهر الشريرون في البداية وبعد ان خرج أولئك الاشخاص الاخلاقيون ، المألوفون جيدا لدى متفرجين من أصول ريفية ، أقول بعد أن خرجوا من لوزة الهند المصبوغة باللون الاسود ، تلك اللوزة الخالدة الشديدة التحمل وذات الاستخدامات المتعددة ، حدث ما لم يكن بالحسبان . فقد ظهرت دمى تمثل أربع شخصيات معروفة ، وقد علقت الى بالونات ، شخصيات لم يجرؤ أحد على التعرف الى هويتها حتى من كان حاضرا منها . انه أوفي من وضعهم في الاعلى :

---

(١) أوبوديكا وهي : زوجة براسوتاغوس ملك الآسينيين احد شعوب الجزيرة البريطانية ، عاشت في القرن الاول الميلادي وقامت بثورة ضد الحكم الروماني انتهت الى هزيمتها فانتحرت بالسم.

وهم من يهمس الناس بأسمائهم خوفا ، حتى في منعزلات قطاع الطرق واللصوص . . تلك الشخصيات عناصر القوة الحقيقية في الكارتل ، ظهرت اذن للعيان ، وانقلبت رأسا على عقب حين ارتفعت البالونات وتصادمت الخيطان . واثر التحركات غير النظامية لحاجز البالونات ، بدت وكأنها تؤدي رقصة جنائزية بطيئة ضمن دائرة سحرية وهي تدير رؤوسها من هذا الجانب وذاك وكأنما تتأمل العالم المنبسط تحتها . ونظرا للقوة المتصاعدة الكبيرة لبالوناتها الضخمة فقد تجاوزت بسرعة المخاطر الاقل ريبة ، تلك الاشكال الميكروبية المتفلسة القاطرة ماء والتي بقيت معلقة بكسل وتوان فوق الحديقة في الوقت الذي كان فيه زاشي ، وهو يعرض أفضل مواهبه كمهرج ، يتكىء مبهور الانفاس على الغطاء الذي كان قد أغلقه بسرعة . لكن وجهه المذعور لم يعد بعد ، وجه ذلك الممثل حين لاحظ الفزاعات الاربع . فقبل أن تنبثق اثر الاعشاب الضارة ، الحمات الراشحة ، القدم المتورمة والآفات الاخرى التي تهاجم زراع الكاكاو لم يكن قد شك لحظة واحدة بأنها موجودة داخل الصندوق .

كان التصفيق ضعيفا ومترددا . فالمتفرجون كانوا مترددين بين رفضهم لمعرفة الشخصيات الاربع المعلقة معا ، ذلك « الرباعي الفظيع » كما كانوا يدعونهم في حلقاتهم الارستقراطية الخاصة ، وبين ادراكهم أن عدم استحسانهم للنجاح التقني للمشهد هو ضرب من الاعتراف بأنهم لم يميزوا تلك الشخصيات . بعدئذ بدأت غالبية الحضور بالتساؤل ان كانوا سيشاركون أيضا في حفلة من حفلات الحدائق . اذ حتى في منزل واحد من كبار خدم الكارتل ، قد يجد المرء انه ليس في مأمن من المأزق . . . .

كانت إيرييز تقبع في القسم الاسفل بانتظار أن يعطيها زاشي اشارة البدء ، ثم بدأت تناديه بصوت دافىء متوسل : « دعني أخرج . . . دعني أخرج » لكن زاشي كان قد جمده الخوف من المكائد الاخرى التي ربما أعدها أوفي لاختتام هذا التغيير في البرنامج . ظلت ايرييز مقرفصة وسط الضباب المصطنع المعد لها ، وسط البزور المعدة لغلال اضافية ، وسط سماء ورايات مدرجة معلقة ببالونات . كانت قد سمعت التصفيق المشتت الضعيف الذي بدا لها غير طبيعي ثم السكون الذي خيم على الحديقة . الموسيقى نفسها ، كانت قد تضاءلت لتغدو الحان بضع آلات ثم تلاشت بدورها . البوق الثاني خمد فجأة وهو في أعلى الحانه ، وغيتار الغناء باتت الحانه ضربا من الفمفمة . أخيرا ، توقفت الآلات كلها ، فأحست ايرييز بنوع من التجمد القاتل ، ثم تجمدت دون حراك في جوف لوزة الهند .

غير أن البرودة التي حلت بالحديقة لم تنجم عن ظهور الفزاعات وحسب ، بل ربما بدأ ذلك منذ قدوم الرجال المسلحين ، اذ كان قائد المنطقة قد جاء برفقة

حرس لا يقل تعدادهم عن الاربعين ، وكان أولئك قد اختلطوا بالضيوف والمدعوين: اصبع على زناد الرشيشة والاخرى على هدوء الحفل الذي كانت الانظمة تقتضي عدم تعكيره . هؤلاء الرجال المسلحون ، الذين كان الموت تجارتهم وصنعتهم ، ونتيجة لذلك كانوا خرافيين أكثر من أي كائن آخر ، اقول هؤلاء الرجال كانوا أول من لاحظ واشتم رائحة ظاهرةتحدث في الجو في وقت أبكر قليلا لكنهم ظلوا ساكنين لا يلحظهم احد الى أن ارتفعت في الجو دمى الكارتل الاربع . توشوشوا ، تبادلوا الهمسات ثم لم يبطئوا في تبادل استيائهم وكشف السبب . أما العيون الاخرى التي كانت تلاحق الدمى فقد كشفت المشهد الذي ادهشهم في البداية ثم شيئا فشيئا أحيا في نفوسهم تذكارات ، بعد ذاك اغرقهم في ضرب من الرعبالمتجمد . لا ، لن يستطيع أحد من الحاضرين أن ينسى ذلك اليوم الذي استيقظت فيهالبلاد لتعلم أن مصيرها بات في أيدي رجال الجيش الذين لم يكن أحد قد رآهم منقبل. ذلك اليوم ، اكفهر الجو فجأة وكان باستطاعة الكثير من الناس أن يقسموا ان الضباب الصباحي للبحيرة قد تكشف عن قطرات سوداء كان بالامكان رؤيتها بوضوح على أوراق الاشجار . أما العقلانيون الاكثر خبرة وحنكة فقد كانوا يرون أن الوابل العنيف الذي هطل انما كان في غير موسمه . كما أن حجاب الظلام الذي رافقه والذي لم يستطع أحد تحديده ، أهو ضباب ام كسوف أم أمواج من الغبار ، كان كثيفا الى درجة ارغمت الناس على اضاءة مصابيحهم وهم يتوجهون الى العمل في الجانب الآخر للجسر الذي لم تكن العين تستطيع تمييزه فوقالبحيرة الا بجهد كبير .

كانوا واقفين حول ينبوع الكاكاو . وقد خلخلت جراتهم المشروباتالكحولية التي تفلفت فيهم مطريّة قوقعتهم الواقية من الريبة . لم يكونوا قد اجترؤا اهانة لوزة الهند بعد ، ولم يكونوا اي شيء آخر سوى متفرجين هواة لنذر الشؤم . عقولهم كانت مشغولة بمسألة محددة : انكان غروب الشمس الذي وجدوا انفسهم في مواجهته لا يخفي سرا مشؤوما ذا صلة بذلك الشروق الذي حمل القوةالمسلحة لهؤلاء المدعوين المطمئنين قليلا والذين وجدوا انفسهم في وسطها . يمكن للمرء أحيانا أن يرى في المناطق الاستوائية حالات غريبة لغروب الشمس لكن ابدا لم ير أحد مثل ذلك الغروب . فداخل السور المحيط بذلك الهرم المقلوب بدا الجميع ،رجالا ونساء ، يحسون انهم سجناء ، معزولون ، كتل عجينية بلا اية حماية من ذلك الفرن الذي فتح فاه فوق رؤوسهم . حينذاك نسوا الخدر الذي كان قد سرى في رقابهم ، فيما كانت جلودهم تتشرب الخوف الذي راح ينتقل بينهم شيئا فشيئا . كانوا عاجزين عن التخلص من ذلك المشهد المغناطيسي المنوّم ، مشهد اشكالجنينية ينتجها ويلقيها فرن الافق ثم تنقلها تيارات لم يكونوا يحسون بها داخل الهرم . تلك الاشكال كانت تتقدم نحو قبة السماء الى الوسط تماما ، صفوفا متراصة

منتظمة . وفي لحظة قصيرة تجمعت على شكل قطيع من خراف هائجة ثم صفوف من دواجن منسقة داخل واجهة للعرض . بل غدت أشبه بصفوف منسقة من لوز الهند ، لكن من جديد ، وبغير لبس أوغموض ، تخلصت السماء من تلك الشوائب الرعوية وقررت أخيرا استحضارا فاخرا لاهوال توراتية دامية كانت تتأرجح حول نجمة تقودها ، تتقدمها ، وتسير بها في اتجاه بالغ القسوة : جروح وانتقامات ، مجزرة أبرياء .

كانت الدمى التي تجسد رباعي الكارتل قد اختفت منذ زمن طويل ، بعد أن اندفعت وهي تهز برؤوسها حتى النهاية حين غاصت في مقرها الاخير ، فيما كان السرب المتشرب بضوء الغروب قد أصبح تماما فوق الحديقة ، وشرعت أجزاءثانوية من أجساده تحمر ، شبكات شفافة من شرايين وأوردة دقيقة ، أما الوجوهالطرية الرخوة الخيالية فقد انكفأت على سّراتها ومثلما البطون الاكثر رقة والاطراف المطوية ، كانت الجباه البارزة قد تلونت بضياء بنفسجي متقلب .

كان نصف المساء المرئي قد احتجب . حينذاك ، من جديد ولزيادة الضيق المتضخم الذي كان يحيق بكل منهم ، حينما بلغ النسق الاول كله ذروة السماء ، قبالة المتفرجين الذين كانوا يسمعون جلبة الاجنحة السوداء ويحسون بالخط المعادي يكاد يصل مستوى الخط الفاصل بين فصوص أدمغتهم تلك التي فككها الخوف ، حينذاك تماما هدأت الريح فجأة وتجمد السرب . الحركة الوحيدة التي ظل المتفرجون يرونها حينذاك انما هي حركة الشمس التي كانت تغوص خلف الافق لتختفي فيه ، ولينعكس زوالها المهيب أطيافا من الفتور والاسترخاء فوق رؤوسهم . كانت عيونهم ما تزال ثابتة ترصد ردود أفعال تلك الاشكال ، ترصد تغيراتها الوعائية ، ترصد خفقات أجنحتها البنفسجية المشدودة وهي تخفق بالايقاع نفسه ، كما لو انها تستمد دماء قلوبها من مصدر واحد وحيد . أما الجهة المقابلة للشمس فكانت قوسا من عمود فقري ، هو أيضا يجسد التماثل المطلق : الرمادي الفاتح والازرق المبقع . في حين غدا خفق الاجنحة ، وهو مصدر الاضطراب الوحيد ، ضعيفا واهيا الى حد يكاد يبلغ درجة التوقف ، بينما كان الفسق المتباطىء يحط على عاصمة تنتشر فيها أضواء النيون التي لم يحمل لها المشهد أية راحة في ذلك الممر الغائر الذي عاد الى الانغلاق .

* * *

استعاد زاشي رباطة جأشه بعد الصدمة التي سببها له ظهور رباعي الكارتل لكنه ظل جاهلا ما يجري فوقه في السماء . تذكر العادة المتبعة في عمله منذ اللحظة التي اختفى فيها الرباعي تماما فوبخ رجال جوقته ثم أمسك مكبر الصوت بنفسه وشرع يغني :

في البدء كان شراب الجنة والرحيق
تحويهما لوزة هنـد عسجديـة
فلتبارك الآلهـة التي لوّنت الكون
بأشـد الالوان ورديـة

وكما هي العادة ، حين تتغير البرامج على نحو مفاجىء وسريع ، وتبقىايريز مختبئة داخل القسم السفلي من لوزة الهند ، كانت ما تزال هناك لا تعلم شيئا عما يجري . بدأت تحك الغطاء حكا رفيقا لكن حين لم تلق جوابا ، بدأت تدق دقـا عنيفا . أما صوتها الرقيق الذي كان دورها يقضي بأن يكون كذلك دائما فقد اختفى كليا حين بدأت تصرخ :

« دعوني أخرج ، دعوني أخرج أيها السكيرون العربيدون » .

« ٤ »

اكتمل النصاب وبدأ الاجتماع .

فجرب المصلح دعابته لذلك اليوم « آه ، لو ان منسقنا يمتثل للنظام بسهولة نفسها ، ها ... ها » ، غير ان احدا لم يضحك . ولعل السبب الاعمق في عدم الضحك هو أن الهيئة كانت ترى فيه عقابا لها وكان حضوره يثير السخط . اذ أن قرار الكارتل بارسال مندوب عنه لمحاسبة مستخدم عمومي أحمق ، إنما كان يدل على أنه فقد كل ثقة بالناس ، رغم أن فكرة الخطر ، أيا كان ، لم تراود ذهن أحد من الاعضاء ، فمن تراه يستطيع تهديد الكارتل ؟ ورغم أن الرئيس لم يستطع فهم الاهانة التي وجهت الى الكارتل في الاسبوع الفائت وفي عقر داره ، لكن بالنسبة اليه ، كان للمسألة جانب شخصي . ولايمانه الشديد بالدبلوماسية الخاصة ، التي برهنت على أن من تعرفه تملك أذنيه ... فقد بعث عبر أحد الوسطاء رسالة بخط يده ضمنها صرخة احتجاجه الخافتة الى الكارتل « اسمح لنفسي ، أنا رأس الدولة والمسؤول عن الادارة القائمة ، أن أذكركم بكل تواضع أن هذا الموضوع يقلقني أشد القلق ، ... الخ » لكن كلمته عادت بجواب مع الوسيط نفسه ، يحمل ملاحظة ملأى بالاحتقار تصفه بكل وقاحة .. بأنه رأس الدولة الذي لا رأس له والذي ينبغي دفنه بأسرع ما تسمح اللياقة بذلك ... الخ كذلك كان في سلوك المصلح ما يوحي تماما بذلك النوع من الموظفين الخدومين الانتهازيين المهووسين بالسلطة ... الخ .. القادرين على ارسال مثل هذه الملاحظة الوقحة والغبية .

لكن ما يثير الدهشة هو : كيف صارت هذه الملاحظة الوقحة التي سلمت باليد ، مصدر النظرات الشزراء والقهقهات الساخرة في علب الليل والكازينوهات حيثما ظهر هناك أحد أفراد الجيش مع صاحبته ؟ العزاء الضعيف هو أن الدعابة ارتدت بسرعة بالغة الى أصحابها . بقي الاسم . فقد وصلت الى جمعيات الكاكاو ، الجهات الاقليمية المتفرعة من الكارتل ، عبارة الجيش الذي بلا رأس . وهكذا بين عشية وضحاها ، أصبحت شخصيات كانت رهيبة من قبل موضع سخرية واستهزاء . لكن مع ذلك لم يكن الكارتل موضع سخرية ، وقد رفض الرئيس أن يسمح لنفسه بالتبسم ابتسامة بلهاء لم تكن لتنجح بتغطية غطرسة المصلح الذي جاء يمثل الكارتل .

كم هو متبجح ! قال الرئيس لنفسه ، كم هو متغطرس ! هو الذي يعمل لاناس أجلاف يبقون أنفسهم على مبعدة ، هو الذي يستغل السلطة ، مسلحا بكارتل يملك زمام الامور . راح الرجل يبدل موضع أوراقه دون أن تكون ثمة حاجة لذلك ثم تكلم

وكأنه يقرأ من كتاب « لقد أعطيت لنفسي الحرية في أن انسخ نسختين من كل تقرير من هذه التقارير وكذلك من مخططات البيع . وبذلك يمكن للمنسق أن يشرح كافة الوثائق اثناء طرح الاتهامات . فنحن لا نريد أن يشكو من عدم معاملته وفق انظمة القضاء والقوانين المرعية أو وفق العدالة الطبيعية » .

اغمض الرئيس عينيه ثم صلب يديه على بطنه ، فأكمل السكرتير تلك الحركة للصبر الذي لا ينفد برفع حاجبيه ومط عضلات فمه . لقد تعرض للهزيمة في المناوشات الاولى : حين جاء المصلح بنفسه الى صالة الاجتماع للاشراف على تطبيق التعليمات واصر على الجلوس في الكرسي الشخصي للرئيس تماما في منتصف طاولة الاكاجو (١) : « حيث يمكنني أن انظر بعيني الى هذا الانسان الخطر » . ألمح السكرتير الى أن هذا هو كرسي الرئيس ومكانه الخاص لكنه رد بنظرة الموظف الجليدية : « أنا لم أجيء كمراقب ، بل للاشراف على تحقيق جدي » . الآن كان يشرح بالعواطف نفسها تقريبا لاعضاء الاجتماع « ان تكرمتم ... أوه ... أعطيكم اليوم نوعا من موقف المراقب ، ايها السادة ، أثناء المحاولة التي سأقوم بها لتطبيق طرقي الخاصة في هذا التحقيق الحاسم ..... » .

أبعد الرئيس عن بطنه يدا محملة بخواتم ثقيلة من صليب الشهيد ثم دل على لا مبالاته بحركة غامضة مرحة .

ــ تابع ، تابع ، كما تريد ، قال الرئيس وعيناه ما تزالان مطبقتين خروجا على الأدب .

ــ لن انسى ذلك ، وعد الشاب .

ثم القى نظرة من حوله وقد داخلته الريبة في أن هؤلاء الناس يمضون جل وقتهم اثناء الجلسات النادرة التي تعقد وهم يشخرون في نومهم أو يقضمون الكولة (٢) ، بعدئذ قرر أن يقلع عن التفكير بهم . الف توصية وتوصية تتعلق بمستقبل الرئيس كانت تدور في رأسه وتحمل له شيئا من العزاء . أخيرا التفت الى السكرتير :

ــ دع المنسق يدخل .

فاستدار السكرتير المخلص باتجاه الرئيس أولا .

لم تكن عينا الرجل المبجل مغمضتين تماما ، كما أراد من المصلح أن يظن ، فانحنى بكل جد :

ــ أجل ، أعتقد اننا جاهزون . دع السيد أوفي يدخل .

بعد ذلك ، أمسك المصلح بزمام الاجراءات تماما .

---

(١) خشب لمين يميل لونه الى الاحمرار .

(٢) نوع من الشجر ثماره تحتوي على مواد منبهة .

دخل اوفي الصالة في الوقت الذي كان فيه السكرتير يفتح البـاب ، ثم توقف لتسليمه مغلفا فالتفت السكرتير باتجاه رئيسه كما لو انه يسأله عن امكانية تقبل هذا الانحراف الصغير عن خط الاجراءات المألوفة ، لكن الرئيس كان قد عاد لاتخاذ وضعه السابق ، وكانت عيناه هذه المرة مغمضتين فعلا . اذ سبق له أن رأى أوفي بما يكفيه بقية حياته ، بل بما يكفيه ويزيد . أغلق السكرتير الباب ، ثم ألقى نظرة على المغلف للتأكد من انه لا يحمل عبارة « رسمي » او « عاجل » بعدئذ عاد الى مكانه في طرف الطاولـة .

ـ اجلس ، سيد أوفي .

ثم انتظر الى أن كف المقعد عن الصرير .

ـ من الواضح ، انك لا تعرفني . لقد كلفت بهذه المهمة من قبل المكتب المركزي . وانا هنا بمعرفة الحكومة العسكرية وموافقتها التامة وانني سأقدم تقريري لمجلس الوزراء حين انتهي من تحقيقاتي . قائد المنطقة مهتم شخصيا بهذه القضية . وهو يعتبر أن من واجبه أن يتدخل حين تهدد اية أزمة الاطراف المعنية مباشرة . وانـه ليؤسفني ان اعلمك ان هذه هي الحال في الوقت الحاضر . فالوضع الاقتصادي في البلاد مهدد وغير سليم . ونشاطاتك ، يا سيد اوفي ، بدأت تثير الكثير من الهموم لدى المجتمـع وكذلك لدى الحكومـة .

بعدئذ وضع حدا لاستقباله المشع هذا ، باختياره مخططا مصورا وتقديمـه لأوفي .

فتفحصه اوفي وهو يتساءل في سره اذا كان لم يرتكب خطأ في تخليه عن فكرته الاولى في عدم حضور الاجتماع . لكن تحول الممثل الشخصي لقائد المنطقة (الذي كان اوفي يعرفه تمام المعرفة) الى مصلح الكارتل كان قد خدعه . فبعد أن وضع كتاب استقالته بين يدي السكرتير ، طغى عليه حب استطلاع شديد في أن يعرف موقـع المصلح الحقيقي . أما الآن فقد كان يتساءل ان لم يكن قد رمى نفسه بيديه في شرك من الاشراك . بدأ أوفي يتلاعب بالمخطط البياني ثم انتظر .

فتابع المصلـح :

ـ يمكننا القول إن هذا المخطط يمثل واحدا من الموجودات في دفتر حساباتك (ثم كشر مبتسما وهو يلقي نظرة على من حوله) هـذا اذا سمحت لي باسـتخدام الاستعارة التي يعرفها كل منكم بالتأكيد . انه يكشف عن الانخفاض الشديد في النفقات العامة مذ أصبحت القيم المسؤول عن حملة الكاكاو لصالح الهيئة . كما أفهم انـك الغيت من المراكز اكثر مما ينبغي وانك أردت شخصيا أن تقدم كتابات دون أجر اضافي . وبالطبع ، فانك بحرمانك أولئك الناس كلهم من متعة انهم في وظائف بلا عمل ، خلقت لنا ، ولا بد ، الكثير من الاعداء . تلكم هي طبيعة البشر والعالم كله يعلم ذلك . لهذا

السبب بالذات ولمدة طويلة من الزمن ، لم نشأ ان ننشر قضية التقارير المشؤومة التي وصلتنا عن نشاطاتك . . .

قطع أوفي الصمت .

ــ ان تسمحوا لي بتقديم اقتراح ، لا أهدف منه الا الى اختصار الجلسة . . .

ــ لحظة سيد أوفي ، انني انا من يقود التحقيق وانا لا أجهل اجراءات الدعاوى قط ، كذلك اود أن أؤكد لك أنه لا مصلحة لي البتة في أن أجعل الجلسة تدوم اكثر مما ينبغي .

فاعترف الرئيس على مضض ، هو الذي كان يجلس بجوار المتحدث ، ان السلوك الذي كان يسلكه مع أوفي الذي كان في نظره أدهى موظف قابله في حياته ، هو سلوك جليل حقا . بعدئذ تابع ممثل الكارتل :

ــ انني ادقق في هذه التفاصيل على نحو خاص لكي أؤكد لك أن لدينا تفسيرا كاملا عن نشاطاتك خلال الحملة الاعلامية التي شنت في البلاد وهي نشاطات بعضها صحيح وبعضها مشكوك فيه فعلا . وانا اعتقد أن من واجبي أن أقول لك لماذا لم نأخذ بالحسبان حتى هذه اللحظة معظم هذه التقارير . فالنتائج كانت ايجابية والبلاد استجابت لحملة الكاكاو بفضل روحك العملية . لكن منذ الآن فصاعدا ، لن نعتمد بعد على الاسواق الاجنبية التي تفرض علينا أسعارها . بل للمرة الاولى في تاريخ مزارعينا ، قمنا بتنظيم سوق داخلية كبيرة . (ثم توقف ، مقلبا أوراقه ، مخرجا بعد ذلك مخططا تأخرى قدمها الأوفي) . ولعلك تود أن تلقي نظرة عليها سيد أوفي . فهنا ستجد الاثبات على كل ما قلته الآن .

غير أن اوفي دفع المخططات بعيدا بحركة من يده ثم أعاد له المخطط الاول .

ــ لا لزوم لذلك . فنحن جميعا نعلم قصة الكاكاو بيكس والكاكاو ويكس (١) .

هنا لوح المصلح براسه .

ــ انني اتساءل ، سيد أوفي ، ان كنت تعرف الابعاد الحقيقية للصناعة الكبيرة التي تطورت انطلاقا من مائة من منتجات الكاكاو في طول البلاد وعرضها وكذلك المئات الاخرى التي هي في طريقها للانتاج في هذه اللحظة التي أحدثك فيها .

ــ انا أعلم ذلك كله . بل أعلم أيضا أين تذهب الارباح كلها ، لكن ما نجهله هو أين يختفي العمال ، المحرضون المزعومون .

ابتلع الرئيس لعنة من لعناته على عجل ، سرعان ما تحولت الى نوبة سعال شديد خيم بعدها الصمت . ارتد المصلح الى الوراء في كرسيه ثم شرع ينقر انفه بقلم الرصاص بحركة متكررة لحظات من الزمن كان يعيد فيها التفكير بتكتيكه . خلال ربع دقيقة كان قراره قد اتخذ ، فقال بابتسامة باردة :

---

(١) من مشتقات الكاكاو .

ـ سيد أوفي ، يمكن لتحقيقنا ان يتكشف سريعا عما لا يرضيك ، فاسمح لي ان اطرح عليك مباشرة هذا السؤال :

ـ هل انت نفسك ، وحسب تعبيرك ذاته ، واحد من المحرضين ؟

ـ كلا .

ـ بالتأكيد كلا . فما من أحد يعلم قط انه متمرد . اذن دعني اطرح عليك السؤال بصورة اخرى : هل انت شيوعي ، أم ماركسي ؟ أم تقول فقط انك اشتراكي ؟

ـ انا قرأت ماركس . . .

ـ انا أيضا قرات ماركس يا سيد أوفي ، قاطعه المصلح ، فلا تلف حول السؤال .

بعد ذاك خيم الصمت بضع لحظات من الزمن .

ـ بما انك تقر بمعرفته ، فأنا لا أرضى أن يدس المرء النشارة المعطرة في الكاكاو . .

هنا خرج الرئيس عن الصمت الذي فرضه على نفسه وانفجر قائلا :

ـ ما هذا الذي تقوله أيها الشاب ؟ من يدس النشارة لمن يا رجل ؟

ـ الكاكاو بيكس والكاكاو ويكس . هذا ان تركنا جانبا الكاكودين الذي لم يكن الحصول عليه الا واحدة من مئات المنافع المحسوبة على الهيئة .

هنا خفض المصلح زاوية شفته محملا اياها أكبر قدر يستطيعه من السخرية .

ـ أنا أعلم أن الناس يعدونك عبقريا في قضايا الاعلام ، سيد أوفي ، كما سمعت أنا نفسي اشياء كثيرة عن أغانيك ، عن ألحانك الاخاذة فعلا ، لكنني كنت أجهل مواهبك التي تمتد حتى علم الغذاء والدواء .

ـ لا ، قال أوفي ، لكنك تدرك جيدا أنني كلفت نفسي مشقة استشارة الاخصائيين الذين أجروا التحليلات والذين تقول تقاريرهم كلها . . . .

فدق مندوب الكارتل بجمع يده على الطاولة . .

ـ يجب أن أذكرك أننا نحن أيضا لدينا كيميائيون منتقون ، مجربون وموثوقون لدى الحكومة . واننا لنفضل تقاريرهم على تقارير أصحابك البائسين أولئك الذين ربما جاؤوا بشهاداتهم من موسكو !

هنا ساد الصمت مرة أخرى ، بعد ذلك علق أوفي :

ـ الاحظ انك لا تكف عن قول « نحن » . هل يمكنني أن أسألك لماذا ؟ فقد كنت أعتقد أن هذه القضية لا تهم الا جهة خاصة ، هيئة الكاكاو . ألست هنا وبكل بساطة مجرد . . . اوه . . . حكم بعثته الحكومة للحد من الصراع بين المستخدمين والمستخدمين ؟ أليست لديك مسائل أخرى ينبغي حلها ؟

هذه المرة ساد صمت اطول من كل مرة ، شرع المصلح في نهايته يرتب أوراقه في مصنفاتها ، ودون ان ينظر الى اوفي قط التفت نحو السكرتير الجالس في الطرف الآخر من الطاولة ثم قال :

ــ انتهى التحقيق . يمكن للمنسق أن ينصرف .

فنهض أوفي ثم أشار بحركة من يده الى كدسة الاوراق أمام السكرتير ثم قال : « استقالتي موجودة لدى السكرتير » . بعدئذ هم بالانصراف ، لكنه لم يتجه نحو الباب الذي فتحه السكرتير على مصراعيه . بل شرع يلوح بيده للعيون المندهشة التي كانت تلاحقه وهو يسير في الاتجاه المعاكس اشارة احتجاج رغم انها لم تظهر اكثر من محاولة أولية مطوطة .

بعد ذاك اضطرب هدوء الصالة فجأة : فقد عاد السكرتير على عجل متجها نحو الطاولة كي يأخذ كتاب الاستقالة فيما انتصب الرئيس في كرسيه وعليه سيماء الذهول اكثر من سيماء الاحتقار بينما كانت عيناه تلاحقان أوفي وهو يبتعد . كان ازدراء المصلح ينصب على سبب هذه الكارثة كما كان يتساءل لم تحاك الكثير من القصص من أجل حركة معروفة مسبقا من قبل انسان من ذلك النوع الكلاسيكي كأوفي . اخيرا وجد الرئيس ما يقوله :

ــ ليس باستطاعتك أن تدخل هناك يا صديقي . استخدم الباب الرئيسي .

لكن أوفي كان قد وضع يده على مقبض الباب الخاص بقاعة الاجتماع .

ــ ان لم يكن في هذا ازعاج لك ، سأستخدم اليوم هذا المخرج .

ــ قف !

جاء الامر هذه المرة من المصلح . غير أن أوفي لم يعره أي اهتمام بل مضى في طريقه الى أن اختفى .

هنا جاء دور محقق الكارتل كي تبدو عليه علائم الجنون . فقد وثب من كرسيه ، دار حول الطاولة بسرعة البرق ثم فتح الباب الرئيسي وراح يجري . سمع الحاضرون جلبة خطاه وهي تقعقع على الدرج ثم صوته وهو يرعد عبر الردهة الخاوية في الطابق الاسفل :

« أيها النقيب ! أيها النقيب ! »

أما حول الطاولة فقد أصر الاعضاء المذهولون ، الذين كان بعضهم قد افاق قبل قليل على مجريات الاجتماع غير الاعتيادية ، على أن يعرفوا ما الذي يجري كما كانوا يتساءلون ان كان سيحدث اطلاق نار . . .

بعدئذ ، دخل القاعة بسرعة الريح ضابط يرافقه جندي مسلح برشيش ، ثم سأل بهيئة تهديدية :

ــ من منكم السكرتير ؟

وفي الحال اشارت ثمانية ازواج من الاكف الى الشخصية المرتعشة ، فسدد الجندي رشيشه عليه فيما صرخ الضابط قائلا :

ـ أرني باب الخدمــة !

ـ نعم سيدي ، قال السكرتير بصوت أبح ثم اسرع الى الباب الذي كان أوفي قد استخدمه . بعدئذ سمعه الحاضرون وهو يكرر « نعم سيدي ، نعم سيدي ، نعم سيدي » ، دونما توقف وهو يعبر القاعة الطويلة ليخرج من جديد عبر المخرج الآخر . استعاد الرئيس هدوءه ، وقد أدرك أخيرا ما يجري ، رادا ذلك الى الفعاليــة التي ما فتىء الكارتل يبرهن على امتلاكها فوجد في ذلك بعض العزاء . . . دخل المصلح بخطا سريعة ثم عاد وخرج من باب القاعة ، اثر الضابط والجندي ، بينما اتخذ الرئيس وضعا جديدا ، وضع الراضي هذه المرة ثم تنفس الصعداء قائلا :

« لا ضير في الانتظــار » .

* * *

كانت الملصقة تفقأ له عينيه : « أفيقوا بلون كلون الكاكاو » . انها من عمله وهي تثير في نفسه الرغبة في التقيؤ . فأسوأ ما في الامر أنه كان هناك طيف ايريز وهي تخرج شبه عارية من سرير النوم . وهكذا ، بدات أصابعه باللاشعور ، تفتش في جيوبه بحثا عن تلك الشرائط من الورق التي كان يحملها معه عادة للصقها على الكلمات الاربع ، تاركا عبارة مقطوعة يمكن للمرء أن يفسرها على شكل رسالة تخريبية . وفي سمعه تردد صوت مدير الذاتية الذي سخر منه خلال محاولات سابقة :

« كنت أعلم أننا اخترنا الرجل المناسب لهذه المهمة . بامكانك أن تسأل أيا مــن الحاضرين حول هذه الطاولة : ولسوف يقول لك الشيء ذاته . الحقيقة ، كنا نرغب بأفلام ملونة جميلة كي تقول للناس كم هي جميلة حضارتنا ، حضارة الكاكاو . كنا نرغب بنساء جميلات جميلات وهن يرقصن على موسيقى جميلة جميلة . وأسرة سعيدة وجميلة جميلة تجلس الى الطاولة في ردهة جميلة جميلة . لقد سبق وصنعت مــن الكاكاو « الواجب اللازم » لكل أسرة . الآن ، حتى زوجتي تستيقظ في الصباح وهي تغني وفي يدها كأس يتصاعد منها البخار : أفق بلون كلون الكاكاو ولسوف تكسب لنا النقود ها ها ... ها ها ها . . » .

وحين تذمر لآهيم من أنه يحس بنوع من الامتهان لمواهبه ، لم يحصل منــه الا على هزة كتف .

ـ الغذاء مقدس ، والكاكاو غذاؤنا .

ـ والكاكاو بيكس من الغذاء ؟ تساءل ساخطا ، فقد خلق لدى البعض من الناس تعلقا خاصا بهذا المنتج وبالنشارة الاخرى المعطرة بالكاكاو . وما يجنيه المزارع يأخذه الكارتل مقابل النشــارة !

من جديد ، التفت باتجاه الملصقة ثم قال لنفسه ان ايريز تشبه الغذاء الذي يأكله والذي ينتجه بمعنى من المعاني . ثمة ضوء وحيد في جناح طويل من المقصورات ، فاتجه نحو المقصورة التي تشغلها . لا ، لا يمكن لجواسيس الهيئة أن يفكروا بالبحث عنه ، فهي تسكن خلية من خلايا قفير عميق الغور لديه تجربة طويلة في نظام الانـذار السـريع .

المحاولة الاكثر صعوبة التي كان باستطاعته ان يقوم بها للتأكد فيما اذا كان مطاردوه قد لحقوا به ، هي ان يقوم ببضع خطوات ، يجتاز بهـا الممـرات المعتمـة والساحات التي تنتشر فيها رائحة البول كي يختبىء في زاوية من الزوايا بانتظار مرور الخطر . ايرييز هي ملكة القفير . وعندها سيجد الامان ، تحميه متاهة مـن الاشـارات والممرات التي تعرفها العامـلات .

تصوره لذلك الوجه الشاحب هو الذي جعله يشعر بالغثيان . انه وجه ذلك الرجل الضخم الجثة مسؤول الذاتية : « آه ! نعم . نحن نعلم جيدا انك تجمع بين شؤون العمل والمتعة الشخصية ، لكن أترانا نلومك على هذا ، سيد اوفي ؟ اترانا نتهمك بمحاباة الاقارب ؟ كلا ، مطلقا . فهذه هي النتائج التي يواجهها رجال مثلك ذوو مواقف ايجابية . النتائج ، يا سيد أوفي ، النتائج ! من تراه ينكر ، وهو بكامل وعيه ، أنك ، خلال بحثك في طول البلاد وعرضها ، لم تستطع أن تختار اميرة الكاكاو الافضل ؟ الناس يعرفون ذلك في كل مكان ، اذن ، من تراه يبالي بالعلاقات الخاصة التي تربطك بالورقة الرابحة الافضل في المجتمع ؟ لكن مرة أخرى أسألك : اترانا نتهمك بمحاباة الاقارب ، سيد اوفي ؟ بالحقيقة ، كثيرا ما أفكر بالاتهامات التي سقتها ضدنا ! وتلك التي سقتها ضد أناس محترمين كأعضاء مجلس الادارة أولئك الذين يجلسون حول هذه الطاولة . . . » .

حين وصل الى حدود القفير الذي تعيش فيه ايرييز ، بدأ أوفي يسير بخطوة اكثر نشاطا ومرحا . كما بدأ يدندن واحدة من الاغاني التي اخفق أشد جواسيس الكارتل حماسة في تعقب أثرها في حينها والتي عجزوا بعد ذلك عن القضاء عليها ، فقد حققت في الحال انتشارا شعبيا واسعا ، يعود بمعظمه لايقاعها السريع والعدواني وكذلك لكلماتها السهلة الحفظ . اجتاز أوفي الجدول واثبا ثم عاد واجتازه من جديد محاولا أن يضفي على نفسه الشجاعة والطمأنينة وهو يغني تلك اللازمة المرحة ، في رأسه زاشي وجوقته ، جوقة بزور الكاكاو ، وقد انطلقت بالحانها ترافقه .

من هو صديق المـزارع ؟
مبيـد الحشـرات .
ما الذي يقضي على الطفيليات ؟
التدخـين .

قدم منتفخة ، بطن منتفخة
انك ترشف كل ما تعد للشــراب
والارض دنست ، والافعال أنتنت
لا ، لا بد من حرقهم جميعا !

« لماذا القدم المنتفخة ، سيد أوفي ؟ سنوات طويلة مرت قبل أن نزيلها ، ولـم يعد على الشاطىء الغربي كله قدم منتفخة واحدة ، ولا قدم على الاطلاق . فمنظمة الصحة العالمية نفسها أعلنت ان شاطئنا تخلص نهائيا من هذا المرض ، اذن لماذا نرعب المزارع المسكين دون ضرورة لذلك ؟ » .

استعارة بسيطة كان أوفي قد استخدمها لطمأنة الهيئة . فالقدم المنتفخة أضحت المصطلح الشائع الذي يستخدم لاي طفيلي من الطفيليات يزعج المزارع .

« حقا ســيد اوفي ؟ »
ما هي قوة المــزارع ؟
الســاطور والمجرفــة .
ما عــلاج الاعشــاب الضــارة ؟
الاجتثــاث .
انتزاع المعرشات المدادات القذرات .
فهي لا تنفع في شيء ، بل تأخذ كل شيء .
لذا ، الحصيد الهاجع في مهــده ،
انتزعــوه !

« وهذا المقطع سيد أوفي ؟ ثمة أناس يقولون إن . . . . » .

اجتاز اوفي ممرا بين سياجين عاليين ، ممرا ضيقا الى درجة لا يستطيع المرء المرور فيه الا مواربة . ذلك الممر كان يؤدي الى ساحة مكشوفة ، انها المكان الوحيد الذي يمكن أن يشكل خطرا داخــل القفير . توقف أوفي ثم تفحص حبل الغسيل . ثمة منهدة مزخرفة بالدانتيل الاسود معلقة قرب دعامة من خيزران ومألوفة لديــه . عد الملاقط التي تمسكها : انها ثلاثة فدخل الساحة دون وجل وهو يصفر اللحــن نفســه بأعلى صوت لديــه .

* * *

« ٥ »

في اليوم الكبير ، يوم الذروة في ذلك الاستعراض العام للحم البشري، للتجعدات المجملة ، لخصلات الشعر الاصطناعية ، لمسام الجلد المطرة للمساحيق الملمعة ، ولفروات الراس الميتة (وفي هذا المجال استفاد زاشي من الشعر المستعار لديه). في ذلك اليوم الذي فتح فيه التفاؤل الصدور ، لم تكن الاثيرة ، محبوبة الجماهير ، هناك . لا ، ليست الاثيرة العادية ، بل النعمة الالهية الوحيدة ، هكذا كتب ابيور ، النعمة الالهية الاولى والاخيرة التي احال غيابها المعرض الى اشد شيء مخز على وجه الارض . مع ذلك ، حتى ابيور ، بعد سنوات من الاحتقار الصارخ المبثوث في اعمدة جريدته الصفراء ، « ضد تبرجات المراة السوداء » تلك ، حتى ابيور كان فريسة للحمى المسعورة ، ولقد بدأ ذلك منذ مباريات التصفية الاولى ثم استمر حتى مباريات نصف النهائي .

« انني أصر على التساؤل من جديد » قال وهو يصرف بأسنانه ، « لماذا ينبغي أن نقلد تبرج النساء البيض ؟ » لكن صوته لم يكن قويا كعادته . والآن ها قد صار نافذا من خلال معرفته ما كان يقوله لنفسه في عالم المهربات حيث كانت مهنته تقوده للتفكير مليا ، للاستمتاع مع الرجال العزب ، لاكتساب الدرع التي تلبسها حشرات الجلالة « أين سيليست » كان صوته يهتف .

بلا انذار ، بلا سبب ، كانت « سيليست اليقين » قد اختفت ، وهو مشهد اوحى له في الاعماق ، باز دراء تحول الى شعور بالخزي والشؤم .

لقد ندبها في أعمدته الصحفية ، ملأ صفحات كاملة بسطور دقيقة سوداء زعم فيها أن الجمال قد قضى نحبه ، ثم بلغ ذروة الغنائية الصحفية النواحة التي كانت من اختصاصه حين كتب : أين تراه ذلك الوجه المشع الذي ينيرنا في اغوار القبح الكوني ؟ وفي أسفل صورة حزينة وحلوة لوجه الملكة الفنائية كتب : « سيليست اليقين ! » .

متصيدو سيارات الادغال ، رجال الاعمال ، الموظفون المتكتمون ، الدبلوماسيون وأصحاب الحوانيت ، كلهم كانوا يقولون الشيء ذاته : اين المشعة (١) عبارة واحدة كانت تتكرر . الحمالون ، باعة الصحف ، العملاء المأجورون ، نساء السوق ، الباعة الجوالون ، عقداء الجيش ، المهربون ، الوعاظ ، باعة الطرق العامة ، الطلاب ، كلهم

---

(١) اي ايريديسنت : احد القاب ايريز

كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون ان وراء الاكمة ما وراءها . والكل كان يشير باتجاه ابيور ، فهو الذي خطط ودبر لقول ما يقال ، اذ كان أول من لفت الانتباه اليها ، وهو المشهور بعدائه للمراة . فمقالاته الروحية والعاطفية ، المتوقعة لكن العاطفية قبل كل شيء ، هي التي أطلقت العبارات التي غدت اساسا للاسطورة .. « انا احتقر النساء » ، هكذا كتب ذات يوم ، ومن واجبي أن أحتقر النساء لسبب واحد : هو ما هن عليه ، لكن حدّث لي أن التقيت بامرأة ليست ككل النساء . وحين اختفت اقسم لقرائه أن يبلغ أساس ذلك السر حتى ولو أنه لم يفلح في بلوغ أساس فاتنته . لكن في المرة الاولى التي دخل فيها مشرباً بعد كتابته مقالته تلك كي يطفىء ظمأه الصحفي ،اخذه ثلاثة طلاب الى حقل وعاملوه أسوأ معاملة . اذ ينبغي الا يجعل سيليست موضع عبث ولهو .

بعد ذاك ، وعلى نحو مفاجىء ايضا ، عادت ايريز وظهرت من جديد ، دون أن تقدم تفسيرا أو ايضاحا ودون أن تبدي أي دليل على أنها كانت على معرفة بالضجة التي احدثها غيابها . « أين كنت ايريز ؟ » كانوا يسألونها فتكتفي بأن تجيب : «ها انا ذي أمامكم » . تقبلت ايريز فروض الولاء المعتادة . وكما كان يحدث صار السكون يسود حين تظهر في بارات الفنادق وكما كان شأنها في السابق ، كانت تدفع الدبلوماسيين لارتكاب الحماقات .

« لكن اين كنت يا ايريز ؟ »

من حين لآخر ، وازاء استثارة خفيفة أو مقصودة ، كانت تنطلق النمرة المحبوسة التي تسكنها من عقالها ، النمرة التي كانت تقاوم فوج مكافحة الشغب أو رجال الاطفاء وهم يضربون الحصار الذي كان يدوم طوال الليل ولا ينتهي الا في اللحظة نفسها التي تصل فيها الى السلم ، او كرسي المرحاض ، أو حتى السرير حيث تغرق في سبات عميق . انهم رجال الاطفاء الذين أطلقوا عليها اسم براندون ، وقد بقي الاسم ثم اندمج بالرصيد الوجداني لاسطورتها .

« أين كنت يا ترى ؟ »

فاستندت الى مرفقها ثم حدقت النظر الى أوفي النائم بجانبها ، اذ لم تكن تتوقع منه ذلك السؤال .

ــ انت مضحك ، مثلك مثل كل الرجال ! أبعد هذا الزمن كله ...

ــ اين كنت ؟ وانا لست من اولئك الرجال .

ــ لكنك تريد ان تعرف ؟ تريد أن تعرف كل شيء .

ــ قولي لي اين كنت ؟

ــ الشمس اشرقت فتبخرت كما يتبخر الندى .

ــ أعلم انك كنت تلميذة جيدة ، لكن أجيبي على سؤالي .

ــ كنت اعيش اسمي (١) .
ــ انسي الندى على الاقداح وأجيبي على سؤالي .
ــ والندى قام بنصف دورة ثم اختفى ...
فصعد اوفي آهــة .
ــ اقر واعترف انني أؤخذ أحياناً بسحر اسمك الذي يحوي الكثير من العذوبة لكن ...
هــزت ايريز راسهــا فجــأة فــوق وجهــه فأحس في الحــال بقطــرات من البلــل .
ــ وها هي ذي بضع قطرات من ندى البرداء عسى أن تهدئك بعض الشيء . ذلك الجهــد استنفذ كل ما لديها من طاقــة على ما يبدو ، فسقطت على الســرير من جــديــد .
ــ لكنك ترتعشين . أهو البراندون الذي يشعل من جديد اللحم الميت بشراراته المتطايرة ؟
ــ أعتقد أنني مريضة ، أعلنت ايريز .

وفي الحال اسرع أوفي الى راسها يخبئه تحت ذراعه ، ثم سحب الى صدره جذعها المبلل وطوى ركبتيها بين فخذيه ، شيء ما كان يجعلها ترتعش ، شيء مــا احس به اوفي فأدرك انه ليس بالبرداء قط . مع ذلك كان لا بد من أن تمر بضع لحظات قبل أن يفهم ما قالته اثر ذلك مباشرة :
ــ يريدون قتلي يا اوفي .
وحين استوعب ما قالته ، سألها :
ــ من يريد قتلك ؟
ــ الرئيس بيغــا .
ــ ذلك المقامر ؟ انه رجل الكارتل القوي . لكن ما تراك فعلت له ؟
ــ لاشيء . لقد هددني بأن يحرق وجهي بالحمض ، فقلت له الافضل أن يقتلني .
ــ لكن لماذا ؟ كفي عن التكلم بالرمز . ما الذي رآه لديــ ... ؟ (ثم لطم جبهته) طبعــا ، طبعــا ، انه الرهــان ؟

أحاطها بذراعيه ثم غطاها بغطية كاملة . فأحس بارتعاشتها تزداد وبجسمهــا ينكمش ويتشنج .
ــ ما الذي جرى تماما ؟
ــ لقــد اكتشفت في وقت لاحــق أن ذلك حدث لانه خسر آلاف اللــيرات في القمار . في تلك اللحظة تماما كنت أنا ، خاتمة ملكات الجمال ، أمر ، وكان الناس

---

(١) في لغة اليوروبا : ايرييز تعني : « الندى الذي يتبخر »

جميعا على ثقة تامة من أنني سأكسب . على هذا النحو جاءته الفكرة على ما اظن . اذ كنت في الفندق فجاء احدهم يدعوني قائلا لي ان القائد الكبير يريد أن يراني فذهبت اليه . كان الرئيس بيفا في شقته الانيقة يحيط به اربعة او خمسة من عملائه . فهل تدري ما قال ؟

ـ تابعي .

ـ بسط احدى كفيه ثم قال : « هاهي ذي ! مائتا ليرة نقدا » ، بعدئذ فتح الكف الاخرى ثم قال : « هاهي ذي ! تشوهك مدى الحياة » وكان يحمل في تلك الكف زجاجة صغيرة كل الصغر . بعدئذ ابتسم تلك الابتسامة الدبقة التي تعرفها وقال : « سيليست أريدك ان تغيبي فترة من الزمن . سيارتي البونتياك تنتظرك في الخارج كي تقلك الى نزل خاص أملكه في الكروس-ريفر ، انه تحت تصرف الاميرة . لقد دفعت كل شيء لمدة شهر . الشراب والطعام » .

فأدركت في الحال وبكل وضوح ما يجري . اذ لم يكن علي الا ان أتذكر اي مقامر لعين هو .

ـ لكن لماذا ترتعشين ؟ فهذا كله قد مضى وانقضى .

ـ انا خائفة يا أوفي . قل لي أن لا اقوم بهذه الجولة الجديدة .

ـ ايريز ... !

ـ قل لي أن لا اذهب الى هناك . فأنا لا اريد المزيد من الغياب .

ـ حسنا ، لا تذهبي .

ـ أبدا لم اشعر بمثل تلك الوحدة من قبل . لقد وضع حراسا على بابي لا يفارقونه ليل نهار . كان ينبغي أن يكسب الملايين من اللعب . ولم أكن اخرج قط . لم أكن ارى انسانا قط . وها انا ذي قد اطلعتك .. فقد كنت أشتهي الموت .

ـ حسن ، حين يصل أعضاء الجوقة سأدعهم يدخلون . اذ لا يمكن لامرىء عاقل أن يراك في مثل هذه الحال من المرض والحمى ويطلب اليك الذهاب الى العمل . فمهما يكن جاهلا يمكنه أن يرى أنك تعانين من التهاب رئوي ، من ذات جنب وما لا ادري ايضا .

ـ وما ذات الجنب هذه ؟

ـ لا يهم . كل ما أعرفه انك أشد مرضا من أن تسافري .

بعدئذ سمعها توشوش بصوت واطىء تماما : « لا ، مرتاعة كثيرا فقط » . ثم أحس بها ترتعش من جديد . ولم يكن ثمة مجال للخطأ ، فقد أحس في داخله بخوف أعمق بكثير من خوف الذكريات . كان يشعر أنه أعزل . وخلف ذلك ، تملكته رغبة شديدة مفاجئة في أن يهدهدها ، أن يغني لها أغنية كما لو انها طفلة صغيرة ، لم يكن يدري كيف يصد الليل الذي كانت مخاوفه قد أثارته والذي كان يقف كالحاجز بينها

وبينه ، مشؤوما مفعما بالمخاطر والويلات . الكلمات التي يمكن أن تهدئها غص بها دون أن يستطيع قولها لها . حبه ، ذلك الترس الواقي ، تكشف عن عدم فعاليته ، محولا اياه الى مجرد رفيق للمعاناة ، تلك المعاناة التي كانت محسوسة الى درجة كان باستطاعته أن يلمسها في كل مكان حوله ، هي التي كانت تقلق ايرييز على نحو خاص اذ رغم ان مزاجها كان شديد التقلب ، لم تكن تعرف يوما مثل هذه الهواجس. كانت عيناها اللتان ضخمتهما الحمى وجعلتهما أكثر اشعاعا ، تحدقان اليه تلك التحديقة الثابتة التي بدت له وكأنها تغور الى الاعماق ، تتفحص لب حدث لم تكن تستطيع الامساك بتفاصيله . بعدئذ أحس أوفي بأصابعها تنغرز في ذراعه فيما غدا صوتها ناعسا تماما :

ـ لاتنم يا أوفي .

ـ أعدك بذلك يا ايرييز .

كانت بشرتاهما تتلامسان فأحس برطوبة العرق ، وكانت قد غدت اصغر واصغر وهي تتكور حاشرة جسمها في جسمه . ثم رآها تسكن ، تختفي مخاوفها فتعود مرة اخرى ايرييز التي يعرفها ، ايرييز اللامبالية ، ايرييز التي لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها .

كانت الغرفة ، الواقعة في واحد من تلك الادوار الاكثر انخفاضا من الشارع البعيد في مأمن من جلبة السيارات وضوضاء المرور ، وكان يفصلها عن ذلك الشارع عدة منازل ومرمى للقاذورات . كانت خلية ايرييز هذه تختفي هناك في أعماق واحد من أقراص القفير الواسعة ، ذلك القفير الذي كان باستطاعته ، هناك في بعض زواياه الصماء ، أن يمنحك ساعة في الصباح كان أوفي يدعوها **سكون مستخدمي المكاتب** . كانت تلك الساعة تبدأ بعد أن يغادر العمال بيوتهم متوجهين الى أعمالهم وقبل أن تنطلق ربات البيوت في رحلة التبضع ، ودوامة تسريحات الشعر ومطاردة الجواهر والحلي . في وقت أبكر يكون ثمة سكون آخر ، أوفي يحبه كثيراً أيضا : انه **سكون جماعة الشوارع** . في البداية يكون عبارة عن جلبة خفيفة ، حركة سلال وبضائع يتم تجميعها وانتقاؤها ، بضعة نقود تسقط في علبة من فولاذ ، غلاية تبدأ بالغناء ، قدر على موقد يطهى ما فيه على مهل ، وبعضهم يأكل في صمت ، حركات عقاقير ، حتى عند أولئك الذين يتناولون افطارهم البسيط ، صوت المياه الملوثة وهي تغيب في المراحيض الصباحية ، يبدو أشد جلبة مما هو في الساعات الاخرى ، فكل الاصوات تأتي مصفاة كما لو أن المرء يعلم أن الجيش الهائل من النائمين في المنزل أو الجوار يطالب بل يستحق ساعة اضافية من النسيان ، بعدئذ تتقدم الظلال ، على نحو خفي وجنباً الى جنب مع درج الحصر ونصب المقاعد التي يجلس عليها الباعة قرب بسطاتهم . وفي الطريق يكشف البعض عن اهرامات متدرجة صنعت من علب وصناديق مرزومة أمضت الليل بطوله ، السنة بطولها ، كي يخرج أصحابها من زواياها الواسعة وغير المعقولة منتجات تعرض على طبقات النضد الخشبية .

ملكات تجارة الشوارع الصغيرة هؤلاء يكن كالاثير مع اشعة الصباح الاولى قبل أن يتحولن الى مخلوقات مبتذلة وهن يواجهن عالم المساومة والتجارة ! انهن يتقدمن في الازقة كالاشباح محملات ببضائع النهار اشبه بكائنات من عالم آخر بأشكالهن السمجة التي ضخمتها عدة طبقات من الازر تلتف حول الاجسام ، وزنانير عريضة يخفين نقودهن فيها .انهن يغادرن منازلهن بهدوء تام ، المفاتيح في أقفالها يدرنها بهدوء ، بل حتى مصاريع النوافذ يغلقنها بأيد بارعة كأيدي المشعوذين ثم ينطلقن مع مولد الفجر ، يمسسن الارض مساً خفيفاً ، ساحبات اللفات الاخيرة من الزنانير حول خصورهن ، والطيات العديدة من أزرهن ماضيات لقضاء حاجات لمجهولين وفي البعيد يتلاشى وقع خطاهن .. وبعد مغادرتهن ، فان هذا السكون الذي اضطرب واختلج يعود فيخيم مرة أخرى قبل ان يغرقه السعير العام لضوء النهار الباهر .

صباحا تلو صباح ، كان اوفي ، الذي يعرف هذا كله ، يتساءل أي مرحلة من هذه المراحل الصباحية شهدت طفولة ايريز. مرات عدة حاول أن يتصورها ضمن عالم من الضجيج القادر على إثارة منزل لموظف عالي المرتبة . جوقة يقظة الصباح ، انزلاق الستائر على قضبانها المعدنية ، الصرير الصدىء لمغالق النوافذ وهي تنفتح ، ماء حوض الاستحمام وهو يسيل ، عنين آلات الحلاقة الكهربائية ، الصوت الصباحي لسيدة البيت ، وهو ينطلق حاداً وزاجرا ، رنين النقود على البلاط ، المرآب ، والبوابون الذين يفتحون ويغلقون الابواب ، ربما . لكن لا يبدو لهذا اية اهمية . لو أن ايريز نشأت في بيت للقطاء لما غير ذلك الا في التفاصيل ، لما غير شيئا جوهريا قط .

سمع اوفي رنين جرس دراجة ، رن قليلا ثم توقف فخيم على الصباح اخيرا سكون مستخدمي المكاتب . صعد اوفي آهة رضا عميقة ، كأنما يحملها كل ما في صدره من هموم . لكن على الرغم من قصرها ، كانت تلك اللحظة أشبه بلحظة رتيبة . كانت الضجة تصل من بعيد بعيد عبر الجدران ، عبر اغوار النشوة الآتية التي كان قفير ايريز مفعما بها ، ثم يصغيها شعرها الاسود اللامع ، وتنفسها العذب الذي كشف له انها رقدت أخيرا ، آه ، لو كان باستطاعتها أن تنام ساعة اخرى ، ساعة واحدة فقط من هذا النوم المريح قبل أن يصلوا ، لو كان باستطاعته أن يوقفهم قبل أن يتغلغلوا داخل المنزل .. لكن ليس ثمة من فرصة لتحقيق ذلك الا في ذهابه اليهم ، وحدها من بين كل السيارات غامرت ودخلت هذه النواحي ، السيارة البرمائية الامريكية الطويلة مجازفة بواقياتها ودهانها وهي تلف تسعين درجة حول زوايا الجدران الضيقة والمنعطفات التي كان عليها أن تمر بها قبل ان تتمكن من الوصول الى الساحة. قادها السائق الى جانب النافذة تماما ثم اعمل منبهه نغمتين «لا» عادية و «سي» مرتفعه ، كان زاشي قد عاهده ، لكن ان جاءت النغمات منخفضة فسيحكم أن المدخرة مفرغة من شحنتها الكهربائية .

قرر اوفي ان يتخلص من ايرييز كي يسرع الى الساحة حالما سمع منبه السيارة لكنها تحركت ، نادته باسمه ، فتجمد آملا في سره الا تكون قد استيقظت تماما . وقد كان الامر كذلك ، لكن سرعان ما تخلت ذراعها عن جذعه ، حيث كانت تستقر ، ثم طوتها وصعدت بها الى أن انزلقت كفها بين أذنه وعنقه فشدته اليها اكثر فأكثر . بعد ذاك شرعت تتنفس بايقاع اكثر عمقا ، ايقاع أشبه بايقاع النوم ، بعد ساعة استيقظ فراى راسها فوق صدره . كانت تنظر اليه ، وقد استندت الى مرفقها :

ـ لقد نمت .

ـ الذهن كان متيقظا لكن السكون كان عميقا !.

ـ ما الذي شغل ذهنك فجأة ؟ لماذا طرحت ذلك السؤال بعد هذا الزمن الطويل ؟

فرفع الرجل كتفيه .

ـ لا ادري . أوه ! اجل ، ادري . ثمة أغنية تخطر في بالي (ثم صفر لحنا قصيرا) أوه ، أين كنت يا ايرييز ؟ أين ـ أوه ـ أين ـ أوه ، أين كنت ، اجل ، اعتقد انني سأطلب من زاشي أن يشتغل قليلا به .

ـ ليس هناك شيء آخر ! هذه الحجة تبدو لي ضعيفة قليلا .

ـ لا تحاولي أن تتلاعبي . حين تنتهي الاغنية ستسمعينها ، لكن ليس قبل ذلك بدقيقة واحدة .

فغرزت أصبعها في صدره المرة تلو المرة ثم قالت :

ـ انك انت ، انت وحدك من يحاول التلاعب . فأنا أعلم لماذا تفكر بذلك اللحن . انا ذاهبة في جولة ، وانت باق هنا ثم انك تخشى أن تنتهي رحلتي عند واحد من رجال الاعمال الكبار في الشمال .

ـ أنا لا احب النساء اللواتي يجادلن ، هناك في الشمال .

ـ سنرى . لكن قل لي الآن مع من تتوقع أن تنام منذ اللحظة التي اديـر فيها ظهري ؟

ـ مع صفوة صديقاتك بالطبع .

ـ شيء لايسر . لكن حدد ، من هي التي تضعها في راسك ؟ لا تظن أنني لا اعرفها .

رفع أوفي كتفيه وهو يستعد لسماع المحاولة الاخيرة لتصنيف صديقاتها المزعومات ، ضربته بكل قوتها ضربة الملاعبة ، فاستسلم لها .

ـ أوتعتقد أنني لم اسمع ما يقال عن الآنسة ديبلومات دى كاريير ؟

ـ أعتقد انها أقدر مني على فهمك . اهو صحيح انها تحمل دبلوما في إدارة الاعمال أو شيئا من هذا القبيل ؟

فاحتج لكنها قاطعت احتجاجه .

هز أوفي راسه بالايجاب دون أن يتاح له الوقت للتفكير بالامر ، فقد ادهشته كل الدهشة رؤيته لحب الاستطلاع لديها يمتزج بالترفع الذي كان يتخلل صوتها ، بعدئذ وثبت فوقه غاضبة ثم شرعت تشد شعره وتنتفه الى درجة خيل اليه انهـا ستتركه أصلع تمامـا .

ـ هكذا اذن ! ثمة واحدة أخرى ! عرفت في الحال عمن اتكلم !

اخيرا أمسكَ بقبضتيها محاولا تهدئتها .

ـ انت محمومة . ايريز . . توقفي !

ـ انت تستعد للذهاب لمقابلتها ، بل انك لقادر أن تأتي بها الى هنا ، أنا اعرفك .

ـ اهدئي قليلا ، اسمعيني فأنا لا أستطيع الذهاب معك لانني استقلت ، أنا لم اعد عضوا في فريق الدعاية ! لكن قبل كل شيء ، علي أن اذهب لانذار عجوز الآييرو ، علي ان اعمل لانذار جماعتنا .

ـ انت تكذب ، انا اعرفك . هذه عملية مدبرة .

ـ للمرة المائة . . . اقول لك : علي أن اذهب الى آييرو .

ثم امسكها من قبضتيها مرغما اياها على أن ترقد متمددة فوق السرير . لكن في اللحظة التي لامس جسدها جسده احس بأن جلدها يرتعش رغبة واشتهاء .

ـ ايريز ، انت تتأججين نارا .

ـ لا عليــك .

وهكذا رغم البرداء ، رغم الحمى والعرق أخذها أوفي . امتزج عرقهما معا فبلل الاغطية . وحين ولج فيها أنشبت أظافرها به . بعدئذ لبثت جامدة . موقفها ظـل غريبا . كان يعتقد أنها ستقول له : « جدير بهذا أن يهدئك الى حين عودتي ، لكـن ما أنت الا زير نساء » . أو تردد تبجحه بأن رائحة عطره ستصرع كل النسـاء اللواتي سيلامسنه خلال غيابها بل هي لم تسـع حتى لان تجعله يقول بأنه ما من امـرأة ، « من نوعها » تلبي رغبتها على هذا النحو . كل ما فعلته هو أنها دفعته جانبا ثـم نامت بنصف جسمها فوقه .

كان شعرها المشعث يداعب منخريه . وحين فتحت فمها ، فعلت ذلك بكل هدوء وبعد ادراك لما كانت تبتغي تأكيده .

ـ أنا لا اريد أن أموت الآن .

فغر أوفي فاه وقد جاءه الانذار فيما كان يحاول عبثا أن يلحق بها مرة اخرى وأن يشاركها أفكارها .

ـ أنا لا اريد أن اموت الآن . (ثم بدت وكأنها عادت اليه ، منكدة المزاج لكنهـا جادة) ورغم انك افسدت حياتي ، فأنا لا أثق برجل قط مثلما أثق بك ، لا أعتمد على رجل كما أعتمد عليك ،أبدا . (ساد الصمت لحظة من الزمن ، بعد ذاك ، استدارت وهي تصيخ السمع الى أصوات في الخارج) أعتقد انهم جاؤوا .

انعطف المركب الضخم ، راجا الزوايا الحادة العمارة منتزعا بضع حبيبات من الاسمنت كالمعتاد ، فاقدا بدوره ، خمسة أو عشرة سنتمترات مربعة من دهانه ، فيما مزق منبه مدوٍّ سكون الصباح الباكر في الساحة المرصوفة . وقبل أن تتوقف السيارة تماما ، كان طيف بشري يخرج مترنحا متمايلا قليلا وقد انفتحت أزرار سترته. توقفت السيارة توقفا مفاجئا فكاد الباب يقلب زاشي أرضا . نظر زاشي الى السائق نظرة لائمة لكن هذا اكتفى بهز كتفيه قائلا .

ـ ذت يوم ستقتل نفسك ، يا سيدي .

ـ حينذاك الق التهمة على السيارة . (وكان قد صار على بعد أمتار قليلة ، يطفى الانفعال الشديد على وجهه الملائكي) .

ارخت ايريز الستارة من يدها فسقطت ، ثم عادت ورفعتها على نحو مفاجيء . طيف بشري آخر ، شخص ذو لحية شيطانية ، هزيل كحقيبة أوراق ، كان أيضا قد نزل من السيارة ، وهو يلبس قبعة بترولية مزينة بريشة وردية . بعد ذاك أرخت الستارة تماما حين سمعت الباب الخارجي ينفتح ثم سحبت غطاء السرير عليها وعلى اوفي .

ـ هل الباب مقفل ؟

لكن زاشي دخل بسرعة الريح فصاحت به ايريز :

ـ أقفل البـــاب .

ـ ما الذي يجري ؟

ـ اقفل بسرعة ! (ثم قالت لأوفي) هذا الاحمق جاء بأرسطو .

لكن الوكيل التجاري كان قد فتح الباب وانتهى ، مبتسما ابتســـامة خفيفة ، فاتحا ذراعيه لتلقي آيات الترحيب .

ـ ايريديسنت ، أين هي ؟

مدت ايريز ذراعها الى ما وراء السرير فأمسكت أصابعها بفردة حذاء ، فيما بدت من زاشي اشارة العجز .

ـ أعتقد أن على هذا الصنف من الناس أن ينتظر في السيارة . هاي ، ارسطو . .

وعبر الحذاء البنفسجي الهواء مارا على بعد مليمترات قليلة من القبعة البنفسجية . في الحال انطلق أرسطو فارا ثم اختفى خلف الباب الذي صفقه زاشي . حينذاك هبت عاصفة خارج السرير ، اذ راحت ايريز تتصارع مع قميص نومهـــا ثم لبسته وهي تندفع نحو زاشي قائلة : « يرتب هذا فيما بعد » رافضة الاستماع الى احتجاجاته رامية بجملة من الاشياء في كل الجهات أخيرا توصلت الى ايجاد سلاح . سحب أوفي على جسمه ، وبكل هدوء ، غطاء السرير الذي تخلت عنه . وقبل أن تخرج ايريز مباشرة ، سمع الثلاثة صوت ارسطو يحتج خلف الباب : « لكن لماذا ترمينني بالحذاء

يا سيليست ؟ » هنا امسك زاشي براسه بين يديه ثم صرخ : « أيها الابله المأفون ، اما تزال هنا ؟ » بعدئذ فتح الباب فجأة ، ثم سقطت علاقــة ثياب ضخمة على فــم ارسطو الذي أخذ على حين غرة .

ــ تظن أن بامكانك أن تسمح لنفسـك بدخول غرفتي دون أن تدعى ؟

ــ مــدام . . . .

بعد ذاك قام ، وقد غدا فجأة أكثر نباهة ، بنصف دورة على نفسه ثم مر مسرعا في الممر ، تطارده ايريز .

هز أوفي راسه ثم قال :

ــ هذه الفتاة ستنهار بين يديك ، أثناء الجولة .

فيما كان زاشي يفتح علبة آلته الموسيقية ويبدأ باخراج ساكسوفونه .

ــ من ، براندون ؟

ــ انها مريضة .

ــ انها صلبــة .

لكن صرخة من النافذة جعلتهما يديران رأسيهما ، فالرجل المطادر كان يطلب الرحمة ، وكانت ايريز قد حشرته بين الجدار والسيارة الا أنها لم تكن قد توصلت الى ضربه بالعلاقة .

ــ تلك الدمية مريضة ؟ أرسطو ليس من رأيك .

ــ ماذا يفعل هنا ؟ هل ستأخذه معك في الجولة ؟

ــ لا أحد يأخذ احدا . كل ما في الامر انه جاء . وقد أوقف سيارته الليموزين قريبا من هنا . كيف يتدبر أمره ويحصل على سيارة الهيئة الفاخرة كلما أراد ، أمر لا أدركه بالحقيقة . ترى لماذا ذلك البخشيش كله ، ذلك الربح الحرام كله ؟ بعدئذ صاح فجأة ملء صوته : هاي ، براندون لا تمزح أنت تعلم . واذا أصابته ضربة على أم راســه . . .

ــ هو الذي سعى لذلك .

ــ يا لله ! لكننا سنخسر امير المبيعات ! اذن . من المستحسن أن ينسحب .

ــ ايريز لا تحب الرجال الذين يدبجون القصص . ان فعلت النسـاء ذلك ، كان الامر مختلفا .

ــ ايــة قصـص ؟

ــ على مسؤوليتي ، لا شيء جدي ، بل بعض الاشياء الخبيثة .

ــ ليس لها علاقة بالجيش ، آمل ذلــك ؟

ــ أجل . . أجل . . هو أبله وهذا كل ما في الامر .

ــ اية قذارة ! (انفجر زاشي) . لكأن المرء لا يلقى من خنازير الهيئـة هؤلاء ما يكفيه من ازعاج . لا بد أنه يأتي بالحماقات ، يا للقذارة !

ــ انه أبله وهذا كل ما في الامر . فهو يعتقد ، ان لم أكن مخطئا ، أن باستطاعته ان يبيعهما لاصدقائه أصحاب القبعات الكبيرة . هكذا هــو يحاكم الامور . أحمق مسكين .

ــ ياه ! هو يريد أن يدفنك . هل لديك شيء من الكاكاوين ؟

مد زاشي يده داخل الخزانة وهو يطقطق بلسانه نغما ، « صب اثنين . واحد . اثنين . صب . واحد . اثنين ... » أخرج الزجاجة ، ثم نكش كأسين من بين الركام الموجود على طاولة زينة ايريز ، فيما كانت الاصوات تصل من الســاحة حيث كان بقية الموسيقيين قد نزلوا بسرعة من السيارة كي يدافعوا عن حياة ارسطو . سحب زاشي بسرعة كبيرة الستارة ثم قال لهم أن يهدئوا المرأة . « ربما لديها اسبابها المعقولة لان تفعل ما تفعله » . بعدئذ دار على عقبيه ، رفع الكأس ورشف رشفة طويلة .

ــ يا فتاي . . هذا في محله تماما .

ــ من المصدر مباشرة .

وفي الحال دق أحدهما قدحه بقدح الاخر وشربا . فجأة راح زاشي يلعن .

ــ انه هو ، آ ؟ حتى قبل أن يعرف ما هو الكاكاوين ، ذهب ليقول لأولــئك الخنازير ان هناك من يتناول المخدر . يا فتاي ، قسما لأغطسن راسه في برميل مليء اذا تركني الرفاق أفعل ذلك .

فابتسم أوفي وهو يستحضر المشهد في ذهنه : زاشي الرقيق يهم بتغطيس رأس ارسطو في برميل من خمر الكاكاو ...

ــ آه ! أنت لا تريدني أن أصدق ، آ ، اسأل الرفاق . أنا ساخط مثلك والى درجة يمكنني ان اقتله ، ذلك القذر (وعلى نحو مفاجيء بــدأ يتفحص الزجاجــة) هـ . . ي ؟ ! أنت لست سريعا أنت وسيليست . لكن أظن أن لديكما ما هو أكثر أهمية لتفعــلاه .

ــ إلام تلمــح ؟

ــ أليست هذه هي الزجاجة التي جئت بها من آيبرو ؟

ــ بلى ، بلى .

ــ لم تمسها الا بالكاد . أنا لن أنسى أبدا ذلك العيد يا فتاي . لقد كان نوعا من الرؤيا ، آه لو أن أحدهم قال لي مسبقا إن ضربة من جمع اليد تصرع عجلا متجمعا على ذاته داخل ثمرة من ثمار الكاكاو ... بالمناسبة ، كيف هي أمور الكاكاو ؟ هل ستستطلع الحكومة الانتــاج ؟

ــ الحكومة لا تغامر بالذهاب الى هناك .

ــ بعد اغاني المديح كلها تلك التي ادهشت الكيميائيين ؟

ــ انت تنسى لمن تمت تلك المساخر كلها ذات الاسماء الاجنبية ، يا زاشي . هذا ان تركنا جانبا تجارة المشروبات الروحية المستوردة .

ــ ياه ! يا للغباء ! لكن عجبا ، هذا يجعل الانتاج منتقى أكثر بالنسبة الى الكونغو سنتيين . . . ماذا ؟ ترى لماذا تضحك ؟

ــ من أين جئت بتلك الكلمة ؟

ــ من التقرير . فهي هناك مؤشر عليها : الكونغوسنتيون يعرفون كيف يتحققون من الارض التي هي منشأ مختلف خمور الكاكاو .

ــ كونغوسنتيون .

ــ أوه ! ما الامر ؟

ــ يا للأنماط الخبيرة التي تعرف !!

ــ ماذا ؟ أوه ! يا الهي ! حين أفكر أنني كنت أعتقد أن أولئك هم حرس الحدود الكونغوليون أو شيء من هذا القبيل . لماذا يا ترى يخترعون مثل هذه الكلمات ؟ انهم يسعون لتخويف المزارع المسكين الذي سيقرأها . هذا هو الامر .

ــ صب لي واحدة أخرى .

ــ في الحال . صب لي واحدة ، واحدة ، واحدة . (وبضربة سريعة ، زلق الستارة جانبا) . هيا يا صغيرتي ، اقتليه ، ذلك المسخ اللعين .

أخيرا غامر ارسطو بكل شيء اذ فتح فجأة أحد الابواب وغاص داخل سيارة ، جارحا عظم الشظية في ساقه حين اصطدمت بعدد من الادوات المبعثرة . ثم فتح الباب الآخر وتدحرج لكنه سقط عند قدمي ايريز تقريبا وكانت مفاجأة كبيرة له اذ داسته بقدميها أكثر من مرة قبل أن يستطيع النهوض والاندفاع نحو مخرج الساحة الوحيد ، فيما كان يلاحقه وابل من اللعنات والسباب .

مسح زاشي فمه ثم بدأ يصعد سلم الانغام في ساكسوفونه .

ــ سأعزف لك فقط الاغنية الاخيرة كي تعطيني رأيك بها .

لكن قبل أن يتم الجملة الموسيقية الاولى دخلت ايريز .

ــ فر الجرذ . وانت يا زاشي ، لماذا تأتي به الى هنا ؟ يدخل غرفتي كما لو انه صاحبها ، أو ند من الانداد .

ــ هذه غلطتي يا صغيرتي . لكننا تأخرنا ، فمتى تنتهين من حمامك ؟

ــ وبقية الفرقة ؟ أنا لم أر الا أربعة غلمان منهم في السيارة .

ــ انهم يتناولون افطارهم . يريدون أن نلتقطهم ونحن في طريقنا .

ــ أوه . . . أوه ! اذن تريدني ان أقوم بدور البوليكاجا (١) ، اجمع لك أوباشك في الصباح وانا في طريقي . . .

ــ يا صغيرتي ، يا صغيرتي ، يا صغيرتي !

ــ انا لست صغيرتك . اذهب فابحث عنهم وعد كي تأخذني .

ــ هم يعرفونك يا صغيرتي . يعرفون انهم ان وصلوا الظهر سيجدونك ما تزالين في السرير . لهذا اصروا على أن أضعهم قريبا من هنا يشربون وينتظرون الى أن تصبحي جاهزة . لا شيء يمكن أن يجعلهم يتحركون خطوة واحدة الا حين يرونك بأعينهم ، بالنسبة اليهم يا صغيرتي ، هذا سيكون أشبه بطلوع الفجر تماما . فهم لا يعتقدون أن الشمس اشرقت الا حين يرون سيليست . . .

ــ لا تحاول أن تتملقني . . .

ــ ولم لا يا صغيرتي ؟ انت تعلمين أن ارسطو هو الذي عكر لك مزاجك . اذن لماذا لا احاول أن اجعله رائقا من جديد بأن اقول لك بعض الملاطفات ؟ أوه كم من المفيد أن يستطيع زاشي توجيه هذه المواهب المقدسة . . . هـ . . ي ؟ هـذا جديد تماما . . . لحظة واحدة . . . (ثم عزف جملة موسيقية سريعة على ساكسوفونه) اتعلمين ما هـذه ؟

فتيقظ فضولها في الحال .

ــ انها المرة الاولى التي اسمعها بها .

ــ بالتأكيد . . اسمعي قليلا أيضا . ثم انك لم تسمعي الكلمات ، اذن أنت لا تعرفين شيئا .

ــ من كتبهـا ؟

لن أقول لك . انها تتكلم عن ام أحدهم . انها هائلة ، هائلة ، هائلة . بالامس وصلت لي الاغنية فحاولت وضع الترتيبات لها . ربما الجوقة ستجعلك تسمعينها هذا المساء . ربما نعم ، وربما لا .

ــ ما الجدوى ؟ قالت ايريز وهي تلقي بنفسها على السرير .

ــ لا ، ما كنت لتقولي هذا لو علمت من هو كاتبها .

ــ ثم توقف ، وبجهد ظاهر بدأ يدندن :

أبدا ، لم تعد أم الفجـر
أبدا أوه ، أبدا لم تعد بعـد
لكن لا تتخلوا عن الصياد قط
فالاقـزام يحتقرون الشمس . . . .

---

(١) سيارة أدغال تلتقط المسافرين من على الطريق في بلاد اليوروبا .

ـ ياه ، اوفي ، ها هو ذا البيت الذي اردت أن أحدثك عنه . فيه شيء غـير مناسب . وعليك أن تغيره أو . . .

ـ اذن انــه هــو .

هنا لطم زاشي فمه مطلقا آهة : « أوه بابا زاش ! »

فانقلبت ايريز بتراخ على جانبها .

ـ انها جديدة على كل حال ، اذا حكم المرء من هذه القطعة الصغيرة . لكــن لا يمكن للمرء ان يعلم ما يخفيه في الداخل ما داموا لم يأتوا لسؤاله عن التفسيرات .

ـ هـ . . ي . . أنت لا تعتقدين . . .

لكن زاشي توقف مباشرة ثم توجه نحو أوفي بعينين ملؤهما اللوم .

ـ أنت أيضا لا تعرفه ؟ سألته ايريز منزعجة .

فهز زاشي رأســه .

ـ لا ، هذه استقامة . وأنت ، أصبحت جبانة يا براندون . لقد قرأت الابيات كلها وليس هناك كلام أكثر استقامة وشرفا منها .

ـ أنت ساذج . ترى هل رأيته من قبل يكتب شيئا فيه شرف واستقامة ؟

ـ أوفي . . .

ـ أوه ! اخرسا كلاكما . وأنت ، اخرجي من هنا وخذي حمامك .

ـ انا امــوت .

ـ سأعد حتى الثلاثة : واحد . . . اثنان . . .

ـ أوه ! حسبك ، أنت !

ثم لمت أدوات زينتها واستحمامها وخرجت بسرعة الريح . بعدئذ فتحت الباب من جديد ثم أخرجت رأسها وقالت :

ـ أخيرا ستقع بين أيديهم ، ولا تقل إنني لم أحذرك .

صب زاشي كأسا أخرى من الكاكاو ثم جرعها دفعة واحدة .

ـ هـ . . ي ! انت ، أيها الصديق ، الرفيق . . .

ـ اخرس ، زاشي ! ليس هناك من عيب في هذه الاغنية .

ـ ان كنت متأكدا . . . .

ـ لقد قلت ان فيها استقامة وشرفا . هيا ، اعزف لحنها كاملا .

فبدا على زاشي الانفراج والاندهاش . ثم شرع يعدل مفاتيح ساكسوفونه .

ـ هذا لا يعني انني لا أريد عزفها . لكن ليس فوق ! آه ! ، ليس فوق . أنت تعلم يا فتاي ، هم ليسوا اناسا شجعانا ، خنازير الكروس ـ ريفر هؤلاء ليسوا شجعانا على الاطلاق . هنا ، على الاقل ، أصدقاؤك يعرفون ما يحل بك قبــل أن تمضي الامور بعيدا جدا .

ـ هيا ، اعزف هذه القطعة ، إي ام لا .

ـ سأعزفها يا سيدي ، سأعزفها . فأنتما في وضع مشكوك فيه هذا الصباح يا عزيـزي ، أنت وسيليست .

بعد ذاك عزف زاشي برقة شديدة ، متباطئا عند كل جملة ، مداعبا الإنغام . وعندما انتهى سحب الآلة ببطء بعيدا عن فمه ثم تركها معلقة في عنقه وبدأ يلـوح براســه .

ـ انا لا ادري لماذا سمحت لايرييز باخافتي هكذا . لا ، ليس هناك من مزعجات قط ، ليس من لحن مشابه . في لحن الرحيق يا فتاي ، لا شيء الا شراب الجنـة والرحيق ، كما تقول في القطعة الاخرى .

فشرع اوفي يضحك .

ـ تريد أن أغير الكلمات ؟

ـ كيف ؟ أوه ! كلا . فتلك ليست سوى كلمات ولدغات ... ليست سوى لحن رقيق ومثير وكل شيء ... لكن هذه .. هـ .. ي ! يا عزيزي ، لمـاذا لا تبقى معنا ، هكذا بكل بساطة ؟ اريد أن أقول : بدلا من ان تكون ضدهم . كن بكل بساطة معنا . وليذهبوا الى الجحيم جيمعا ، وهم على كل حال سيذهبون الى الجحيم .

ـ ليس الامر بهذه البساطة ، يا زاش ، قال له اوفي وهو يهز راسه بهيئـة الاسى والندم ، فالامور لا تنفصل بهذه السهولة .

ـ ان أردت ، كان الامر بغاية البساطة . فال سي المرتفعة هي سي مرتفعة ، ادعها « دو » إن أردت لكن حين يقول زاشي انها « سي » مرتفعة فانها لا يمكن أن تكون شيئا آخر . ان اردت يمكنك ان تبقي الامور واضحة وبسيطة تمامـا ، لكنك تحب كثيرا اقتناص الناس ، يا عزيزي . انت وإيبور أخوان توأمان . كلاكما قناص . يجلس واحدكما طوال النهار والعدسة مشدودة الى عينه .

ـ كلنا شركاء في الحال نفسه يا زاشي ، فحين يتنفسون ، ينشرون العدوى أيا كانت المســافة .

ـ أوه ! تبا ، يا عزيزي ! لننتقل الى الامور الجدية (ثم توقف فجأة وخرج كالسهم ثم عاد بعد لحظة وهو يجر وراءه ايرييز) اريد ان تسمعي هذا . سيليست ، ستغنين هذه الاغنية كأفضل ما تستطيعين .

ـ وحمامي ؟

ـ فيما بعد يا صغيرتي ، فيما بعد . فالآن ، ثمة مشكلة .

ـ ماذا هناك ايضا ؟

ـ لا ، لا ، اسمعي ولسوف ترين ، (ثم شرع يقلب بين أوراقه إلى ان اخرج ورقة منها) أنا لم أجد هذه الابيات بعد . آه ! ها هي ذي ! اسمعي سأعزف لحنها لك وانت تغنين : ليس ابدا كما في ليلة مرتبة . هل أنت جاهزة ؟

(فكررت ايريز الابيات) حسن لنبـدأ .

وهكذا بدأت ايريز تغني الكلمات فيما كان هو يرافقها بالانغام .

ـ مرة اخرى يا سيليست ، فقط مرة أخرى .

وحين انتهت ، صلب زاشي ذراعيه ثم وجه الى أوفي نظرة متسائلة ، فردهـا هذا نظرة ملحاحة ، ثم ابتسامة كبيرة بلهاء وقال :

ـ انا لا ارى شيئا يا مايسترو .

ـ كيف تراك لا ترى شيئا ؟ ما أسألك اياه هو ما الذي تقدمه لك ، ما الانطباع الذي تتركه في نفسك الكلمـات .

ـ هيا قل لي ما العيب الذي تجده فيها .

ـ العيب الذي أجده فيها ؟ من تكلم عن العيب فيها ؟ أأنا قلت إنني أعيبها بشيء ما ؟ سيليست . . .

ـ حسن ، تأوه أوفي . لماذا تلف وتدور ؟ أهي أدبية كثيرا ؟

ـ لا ، لا ، من تراه قال إنها ادبية كثيرا ؟ أنا لم اتحدث عن هذا . لكن من تراه سيغنيها ؟ الليلة مرتبة . كلا يا عزيزي ، لم يخلق قط الفم الذي يمكن أن يغنيهـا حسب اعتقادي . أخيرا ، انها شيء من الاوبرا أو ماذا . . . ؟

انحنى اوفي كي يمسك بالزجاجة ثم صب كأسا .

ـ حسن ، سأغير هذا . سأجد شيئا آخر .

ـ قبل ان نرحل ؟ فأنا اريد اطلاق الاغنية خلال الجولة . هـذا سيذهلهم يا فتاي .

ـ في الحال ، للتو ، ان شئت فقط أن تغلق فمك .

ـ حسن ، موافق .

ـ يا للعنة ! لو كان باستطاعتك فقط أن تتوقف عن اللف والدوران ، بحصافتك هذه ، حصافة الفيـل .

ـ من الذي يتكلم الآن ؟ احتج زاشي وكأنه لا يخاطب شخصا معينا .

ـ هـ . . ي . . ايها الرجلان ، اتريدان أن تفطرا ؟ سألت ايريز . ذلك انني سآخذ حمامي مباشرة ، وبعد الحمام لن أطأ المطبخ بقدمي .

ـ من يريد أن يفطر ؟ أنا ؟ انني واقف مذ غادرت النادي ، وأنا أتعذب بهـذا اللحن اللعين وهذه الكلمات الخرقاء . لم هذا ؟ انه سواء لدي . انني أعلـم كيف اتعرف الى فعل الحب « واذا كان الحب يتغذى من الموسيقى » فقد تغذيت .

ـ بيضتان ام ثلاث ؟ أم تريدان أن أرسل السائق يبحث لنا عن أكارا (١) في الشارع الواقع على الشاطىء ؟

---

(١) فطيرة تصنع من عجينة الفاصولياء .

ـ قهوة يا سيدتي العزيزة ، لا شيء سوى القهـوة يناسب خمسين سنتيما من الاكارا . ان حدث وقليت لنفسك بيضا ، فسوف نكون اثنين . لولا هذا ، ما أرى من حاجة للافطار يا سيدتي (ثم ساعدها في الباسها بابوجها ، بعدئذ فتح لها الباب .)، قبل أن تتكلمي عن ذلك يا صغيرتي لم اكن أدري بالحقيقة انني أتضور جوعا .

خرجت فأغلق أوفي الباب ثم استند بظهره اليه ، ماسحـا عن جهبته عرقـا غـزيـرا .

ـ أوه ، لا يمكنك أن تعلم تماما ان هـذه السيدة بجانبـك أم ضـدك يا عزيزي. هل سمعت هذا ؟ لقد اقترحت أن تعد الافطار . . .

ـ لكنها دائما تعد الافطـار . . .

ـ نعم . هذا صحيح ، وهذا ما أعتقده فعلا . لكن ليس بعد مشهد مماثل . ليس بعد معركة مع جرذ مثل أرسطو . لقد تغيرت ، أقول لك ذلك يا عزيزي ، ايرييز تغيرت . اسأل الآخرين ان كنت لا تصدقني . وقبل أن ترسلها الى غرفة الحمام أتجرا على الاعتقاد أننا لن نغادر قبل الغد . أنت متواضع يا عزيزي ولسوف تكون متصنعا فعلا ان اعتقدت ان هذا ليس بشيء .

ـ أتريد ان اغير لك هذا المقطع الشعري ! إي ام لا ؟

وفي الحال اتجه زاشي ، على أطراف أصابعه ، باتجاه كرسي ثم أطبق بأصابعه على شفتيه . هناك صب القطرات الاخيرة من الخمر ، وترك نفسه يتهاوى في زاوية من زوايا الكرسي رافعا ساقيه الصغيرتين على خرقة من جلد . بعدئذ شرع يدندن وقد رفع الكأس باتجاه ضياء النافذة .

تحية لك أيهـا الضرع الذهبي
يا ضرعـا يسكن الذاكرة
يجعل فمي كفـم الطفـل
وهو يرضـع الكاكـاوين

بعد ذلك راح يقهقه نشوان .

ـ انني بريء من كل ما يقولون يا عزيزي . انك انت صاحب العبقرية الفذة. فقل لي بحق الله ، جماعة غبورو او هل حملوا لك البضاعة ؟

ـ انها هناك ، تحت السرير . سأحمل معي شيئا منها الى آيرو .

فعاد زاشي وانتصب ، ملؤه الحيوية .

ـ ماذا ؟

ـ اخرس واجلس . لدي أخبار سيئة لهم . لذلك أود ان اهدئهم بشـيء كهـذا .

فتأوه زاشي .

ـ اوه ، يا الهي ، يا الهي . اوفي ، عدني انه سيبقى شيء منها حين نصل الى هناك . عدني الا تترك أولئك الاسلاف المتوحشين الذين تبنيتهم يرسلون الشحنة كلها .

ـ سيبقى شيء منها هناك .

ـ دعني الق نظرة ، اوفي ، مجرد نظرة سريعة .

فرفع أوفي كتفيه .

ـ ان وشيت قبل أن تغادر المدينة ، تعلم ما الذي سيجري .

ـ انت تتكلم ، نعم انا اعلم ، ثم جعل غطاء السرير يطير .

ـ ايه .. بي .. بي .. اوفي .. ايه .. بي .. بي .. بي .. بي .. أنا لا يمكنني ان اصدق انه يوجد هناك اي شيء ، ضمن تلك القوارير كلها .

ـ شم ، ان كنت لا تصدقني .

ـ بهذا ، يا عزيزي ، يوجد هناك ما يوقظ الميت . بل حتى عجائز آبيرو المحرومون من الشراب المسكر لن يأتوا على هذا كله خلال اسبوع . ولسوف يكون بامكان المرء أن يتوقف هناك في طريق العودة ويقدم تمثيليته .

ـ ذلك ما كنت أقوله لك باستمرار . والآن ، أغلق فمك أو أنك ستسافر بمقطع شعري أقل .

ـ عفوا ، عفوا ، لقد نسيت . لكنني اعترف أنه كان لدي سبب وجيه لكي اتحمس .

ثم انسل من جديد الى مكانه ولم يتحرك الى أن رماه أوفي بقطعة من الورق .

ـ هاهي ذي ، كتبتها على عجل ... هـ .. ي ... هل ترى ما أرى ؟

كان أسفل النافذة يصل الى مستوى الساحة ، وكان وجه أرسطو قد ظهر فجأة بين الستائر ، كذلك كان ظله ظل رجل مقرفص وذراعاه تتمايلان بقرد من قرود الغابات ، شرع في الحال يحك القضبان حكا رفيقا . هز زاشي رأسه بهيئة من لا يصدق .

ـ اتراه ؟ هـ .. ي .. ما الذي تمسك به يا أرسطو ؟ تعجز عن المرور من الباب فتجعل القرد يمررك من النافذة ؟

ـ لقد اغلقت الباب ، قفلته بالمفتاح .

ـ وماذا بعد ؟

ـ دعني أكلم أوفي ، فربما يتوصل الى تهدئة غضبها ، اذ علي أن اذهب معكم في هذه الجولة ، لهذا ينبغي أن أصالحها ، الا تفهم ؟

ـ من قال ذلك ؟

ـ دعني أكلم اوفي .

ـ فر بجلدك (ثم أغلق الستارة وامسك بساكسوفونه .) اقرأ النسخة الجديدة عندما أصل الى المكان المنشود (ومن جديد دق ارسطو على القضبان فسحب زاشي الستارة) . اسمع يا فتاي ، قضيتك مع ايرييز ، وعليك أن تسويها معها ، تدخل فتدبر نفسك معها . لكن ان قاطعت جلستنا مرة اخرى فلسوف القي بهذا الانبوب في حلقك .

ـ ألا تريد ان تفتح لي الباب ؟

ـ يا لله ! أنت رجل تفتخر بأنك صلب همام ، أليس كذلك ؟ كما كنت أعتقد انك تحب المعشوقات وهن غاضبات كما تحب الافطار .

ـ أجل ، مع النساء ، الامر مختلف . فأنا لا أرد على سيدة غاضبة ، خاصة ان كانت تدعى ايرييز .

ـ اسمع ، يا سيد ، ايها الخطم الكبير ، أنا مشغول . فاما أن تنقلع على الفور أو تعود بريشتك الصفراء الى مقود سيارتك ثم تعود بعد ذاك وتدق الباب لتصلح ذات البين معها . أنت ملك الممثلين ، أليس كذلك ؟ اذن بامكاننا أن نرى كيف ستتصرف مع الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يلطخ سمعتك أثناء الجولة .

فشرع اوفي يضحك .

ـ مسكين ، انه متضايق حقا .

ـ بل هو أشد استعارا من الجحيم . . رد الآخر . ذلك أن سيليست ستفسد له اوراقه كلها أثناء الجولة ، هذا أمر اراه منذ الآن ولسوف يعود دون طلبة واحدة . الناس تتكدس بالعشرات في سيارة شفروليه مخلعة ، والهيئة الحمقاء لا تريد حتى أن تزودنا بعربة صغيرة حتى وان كنا مستعدين لدفع ثمن البنزين والاصلاحات . لكن هذا السيد ، يعطونه سيارة مرسيدس ضخمة ، له وحده . لهذا ، كما تعلم ، سألت هذا المسخ ان كان يود أن يأخذ واحدا أو أثنين من فتيان الجوقة كي يخفف الزحام قليلا . فهل تعلم ما قال لي ؟ (هنا غير صوته الى صوت نشاز حاد مضحك) . . هـ . . ي . . نعم . . الامر هكذا يا زاش . انت ترى ، قد يحدث لي أن التقط فتاة على الطريق ، شخص زيادة في السيارة سيضر بي ، هل تفهم ؟ اثنان ، ذلك يعني أننا من الحملة اما ثلاثة فذلك يعني جمهورا . أليس كذلك ؟ ذلك ما قاله لي .

ـ لا تفكر به ، لا تفكر به . اتريد أن تجرب هذا الشعر ؟

ـ بالتأكيد ، بالتأكيد . أنا لا أدري لماذا ازعج نفسي بسبب هذا المسخ ؟

انفتح الباب مع صوت شيء يقلى ثم دخلت ايرييز ، في احدى يديها المقلاة وفي اليد الاخرى صينية ، فأسرع زاشي يساعدها ، مفرغا الطاولة من كل ما عليها ، ملقيا على الارض بعلبة ساكسوفونه ، رافعا الزجاجة الفارغة .

ــ انتبه ، لا تقلب القهوة ، قالت له ايرييز .

حدق اليها ، فابتسمت ثم مضت الى الحمام . هناك ، اختفت ، غابت دون أن تترك أي اثر من مخاوف الصباح أو توتره ذاك الذي كان يتخلل كلماتها المحمومة . اما الحقد الذي رآه في عينيها حين كانت تطارد ارسطو حتى خارج المنزل ــ ذلك الحقد الحقيقي في تلك اللحظة بلا أدنى شك ، لانها أحست بالخطر الذي يتهدد أوفي ، كما أحست بالخطر الذي يتهدد حياتها نفسها ــ فقد زال كليا ، دون أن يبقى منه شيء . الآن يمكن أن يعود ، ولسوف يستقبل بازدراء جليدي ، بالتأكيد ، لكن هذا كل شيء ، من المؤكد انها لن تفتح فمها بكلمة واحدة معه طوال الرحلة كلها ، ولسوف تعامله ، هكذا وبكل بساطة ، وكأنه غير موجود . ان لديها موهبة حقة وهي أن تقطع بكلامها أشد الناس صلابة وثقة بالنفس دون كبير جهد ودون أدنى حيلة . هنا ابتسم اوفي في سره ثم شرع يأكل .

انتهى الافطار ، فشرع زاشي يدندن على ساكسوفونه راضيا كل الرضى حين انفتح الباب دون صوت . قطعت ايرييز الموسيقى ثم انضمت اليها بالالتفاف حول نفسها وهي تلبس ، فقهقه زاشي دون أن يتوقف عن العزف ثم غير موقعه فيما كان أوفي يضع كفيه خلف رأسه ، منبهرا كل الانبهار ازاء ذلك التجلي لإلهة من إلهات الجمال ، في الضوء البنفسجي الذي كان يتسرب عبر الستائر ويغرقها ، فقد خيل اليه أن كل ما في الغرفة تجمد على نحو غامض ، وأن الزمن تجمد في لحظة من لحظات الكمال .

فوق راس ايرييز كانت قبعة الاستحمام الكاوشوكية البيضاء المنعشة قد تحولت الى مزهرية حبوب بيضاء مجردة من قشورها ، جثوة جامدة . أما عيناها فلم تكونا تحملان أي انتباه لوجودهما ، بل تتوجهان الى الداخل تستغرقهما طقوسها الخاصة بالتحول . زلقت ايرييز طرفا من البرونز خلف اللوح المصنوع من الزجاج والاكاجو في خزانتها ، وبحركات طرية هادئة لدنة منه راحت تختار ثوبها وحليها . بعد ذاك ظهر وجهها ، وهو يتأكد من اختيارها على جسمها نفسه ، دونما اي تعبير ، ثم انتقلت الى ما وراء حاجز ، لكن ظل حضورها يملأ الغرفة مجمدا كل ما فيها . بعد ذلك طافت مزهرية الحبوب في الهواء لحظة من الزمن لتحل محلها مباشرة جمة من الشعر الملمع ، اهداب ذرة حريرية سوداء انشبت فيها ايرييز مشطا من عاج . سرحت الاهداب ثم ضغطتها لتضعها في المكان المناسب ، بعدئذ عادت وهزتها من جديد .

اخيرا ، عادت الى الظهور قالبا محكم الصنع في ثوب من قماش وطني ، ثم توقفت بين مرايا ابواب الخزانة يتكرر ظلها فيها ألف مرة والى ما لا نهاية .

ــ وبعد ؟

فاستدارت ايرييز صوب الرجلين ، ذراعاها تتأرجحان ، وراحتاها باتجاههما ثم ضمتهما اليها بكثير من الحميمية والمرح .

كلمات من سحر ، تعاويذ ورقى بدات تطوف على شفتي أوفي . أخيرا نهض من السرير ، ملفوفا بفطائه ، ثم تقدم نحوها . فحاول زاشي ، وفم الساكسوفون مبلل تماما ، أن يحدد المشهد الذي كانت عيناه تريانه في تلك اللحظة : ايرييز التي كانت عيناها وحدهما تتحركان وهما تتبعان حركات أوفي ، وأوفي في الإزار الابيض الناصع تماما الا من البقع المتخلفة عن ممارسة الحب وهو يدور حولها بخطا أرشق من خطا سنّور ، الكاهن والكاهنة في عبادة مشتركة . لم لا ؟ فكر أوفي ، فالرؤى هي دائما من ميزات الإنسان المبدع . قبول المراة ، مشاركتها في رؤيا الرجل للحياة لم تكف يوما عن أن تنتج تلك التعاويذ الدورية للارض والمثل العَليا ، ليست المسألة مسألة جمال أو كمال ، بل بكل بساطة ، رغم قصر اللحظة وسرعة الزوال التي كانت كخاتم الحقيقة عليها ، هي أن ايرييز تجلت بشخصها عن رؤيا باهرة لا تنال .

بلل زاشي شفتيه ، وهو يقدم للجو لمسته الاخيرة .

ــ أيتها السيدة العذراء . . . أيتها السيدة العذراء . . .

ــ أجل . . أيتها السيدة العذراء ، ردد أوفي دون أن يبعد عينيه عن ربة الجمال الماثلة بين ذراعيه .

* * *

« ٣ »

الاستطـــــالات

« ٦ »

« الطفل الذي يقسم ان أمه لن تنام ، عليه هو أيضا أن يقضي الليل ساهرا » ، تلك كانت كلمة باتوكي ، نقاش الامثلة . لقد لخص الرجل قرار الكارتل ثم استدار لينام . فالكارتل الذي أصبح بالغ الحدة ، اشبه بالمجنون بعد أشهر من السهر ، عرف أخيرا أولئك الذين كانوا يعذبونه ثم نظم مضايقات انتقامية .

كانت الضربة متوقعة فاتخذت الاجراءات المضادة . لكن لم يكن آهيم ينتظر الا هذا النوع من الانذارات كي يرسل سعاته الى المراكز الامامية لآيرو . كان الرجال ينتظرون أن يطردوا من منازلهم ، أن يضطروا لدفع ضرائب جزائية ، ان يفقدوا أعمالهم بل وأن يسجنوا سجنا تعسفيا ويتهموا اتهامات باطلة . كانت الاستراتيجية بسيطة : عليهم ان يغادروا المناطق التي صارت اشد اضطراما لمتابعة العمل ، أن يغيروا أماكنهم الى أماكن أخرى ، فوجود آيرو قد تدعم . وهكذا ربط أوفي قاربه الى وتد ثم صعد الى الضفة .

كان ، في أعماقه ، يسر كثيرا حين يفكر أن آيرو ، أوتوبيا السرور أيام زمان ، قد صارت الشوكة الواخزة في جسد الامة . فطوال المدة التي بقيت فيها هادئة قرب مياهها الراكدة تلهي السياح بسحرها الباطل القديم لم يكن ثمة ما يقلق الكارتل أو يعكر صفوه هو وحلفاؤه فيما كانت السلطة تنتقل من يد الى أخرى لتعود وتنتقل من جديد . خسارة ، أن البعض تسلقوا الى أن بلغوا مصدر الحركة ، الى أن بلغوا آيرو ، الى أن وصلوا منطقة متميزة من البلاد . التكتم كان أكثر فعالية لكن لم يكن بامكان المرء أن يأمل أن تبقى هوية الكوادر سرا الى الابد ، بل الحقيقة أنه كان أمرا مفاجئا أن تظل مكنونات الحركة خفية ذلك الزمن الطويل . في البداية كانت للكارتل استطالات طويلة ، بعدئذ اندمج اندماجا تماما بالسلطة العسكرية الجديدة ، فتضاعفت مصلحة الاستخبارات لديه . كان التحالف الجديد قد بات واضحا تماما ، وكان يتسم بالصفاقة الى درجة لا تخطئها العين .

وصل أوفي الى حظيرة ثيران التضحية فراى ظل آهيم يقترب منه ، عينا العجوز كانتا تحدقان الى عينيه ، وكانت المعاناة تنعكس منهما .

ــ ماذا هناك ؟ هل سمعت النبأ ؟

فهز العجوز رأسه .

ــ على كل حال ، وصل متأخرا اكثر مما هو متوقع .

فتفحص العجوز وجهه ثم قال :
ــ انا لا اعتقد انك تعلم ما يجري .

كان يتكلم على مهل وبنبرة من الرزانة والصرامة أشد بكثير مما كان أوفي يتوقعها .

ــ ما الذي يجري يا ترى ؟
ــ الم تسمع الاذاعة ؟

فهز اوفي رأسه :
ــ لقد ظللت طوال الليل في البحيرة .
ــ تعال معي .

داخل منزل الاجتماعات ، توقف العجوز ، ثم كشف له عن الكارثة بكل أبعادها ، فتجمد وجه أوفي وكأنه وجه مخبول .

ــ ثمة قبس من أمل ، قال له آهيم لمواساته ، ففي الامس وقبل اخبار الاذاعة ، وصل رجل من شاج . هناك تم انذار الناس من قبل رفاقهم العاملين في السد ، من قبل اناس من كروس ريفر نفسها ، فعقدوا اجتماعا ، وقرروا ايقاف العمل الى أن تتوقف الاضطرابات . هذه هي النصيحة التي قدموها للعمال الاصليين في كروس ريفر . فهناك ، على الاقل ، نحن لم نخفق ، هنا غمغم أوفي :
ــ ان كان هذا كل شيء ، فما هو الا نثرة ضئيلة تماما .
ــ ربما لا ، قال آهيم . لكن حتى لو كانت هذه هي الحال فان جماعة شاج هي ذات الاهمية الاكبر ، أم تراك لم تعد تؤمن ، أنت نفسك ، بكلماتك ؟

حاول اوفي أن يوبخ نفسه ، فأقر بأن شاج حيوية تماما من أجل تغلغل الآيبرو تغلغلا محكما داخل البلاد حيث القرى القديمة كانت قد اقتلعت من جذورها ، اغرقت بالمياه ثم اعيدت زراعتها ، لتبرز من جديد انجازا محسوسا يجمع بين المادي والمثالي .

في الوقت الذي كان السد يرتفع فيه والوعد بالطاقة الكهرمائية يصير شيئا فشيئا حقيقة واقعة ، كان رجال الآيبرو يلقون بذورهم في تربة الكينونة الاجتماعية الجديدة . فشاج تقع في مكان استراتيجي ، مستعمرة شبه نموذجية في جهة كروس ريفر ذاتها . آه ، لو كان الموقع هناك حصينا على الاقل ، بما يكفي لان يتمكن عمال الكروس ريفر من أن يقذفوا خارجا بالاجانب الذين يعيشون بينهم ....

« أحب التحدث الى هذا الرجل » .

حينذاك انفجر في داخله الخوف الآخر الذي راح يعذبه مذ كشف له آهيم الهجوم الضاري للكارتل في حملته التي شنها لتدعيم قوته : فايريز في طريقها الى كروس ريفر ، وزاشي مع جوقته ....

خيل اليه انه يمر بغسق لا نهاية له قبل أن يدخل به آهيم ساحة منزل الاجتماعات ، ثم جعله يعبر غيضة كثيفة محاطة بأعمدة من تماثيل نساء كانت مفاجأة بالنسبة اليه . الطريق الذي عبره الى هناك وصل فجأة الى منتهاه ، كتلة من أوراق نباتات معرشة انفتحت أمامه كاشفة عن فتحة في الجدار . حذره العجوز ، وبتحذيره هذا ، استطاع أوفي أن يتفادى الانزلاق على منحدر سريع مغطى بالطحلب ينحدر حتى بركة ماء محاطة من كل جانب بشجيرات مستنقعية لا منفذ فيها ظاهريا . قارب طويل ولامع ، مزود بمجذافين ومحرك ، كان مربوطا هناك ، مقدمته على الحافة والبركة المظللة بقبة الاغصان هادئة ساكنة حتى بدا له وكأن ذلك القارب ليس الا سعفة سقطت من نوع منقرض من أشجار الكابوكي والبركة نفسها ليست الا بحيرة تحت أرضية ، ربما لم يعكر سطحها انسان ولا سمكة منذ آلاف السنين .

كان الصمتُ الذي يحيط بهما مطلقا لا شائبة فيه . وكانت عينا أوفي اللتان اعتادتا ، شيئا فشيئا ، الظلمات الزمردية قد انتهتا الى تمييز فتحة البركة ، فتساءل ان كانت تؤدي الى البحر نفسه أم فقط الى نفق آخر يعيش في حمى من الزمان والايام . لم تكن هناك ورقة ولا ساق شجرة مخالفة لتناسق الاوراق والاغصان ، بل كانت كلها بساطا من ثنيات مضغوطة تحيط بها من كل جانب مغلقة عليهما المكان في منطقة للاشباح ، معتمة ، هادئة وواقية .

حرر أوفي نفسه من سحر المكان .

ــ لماذا جئت بي الى هنا ؟

ــ كي يتاح لك قسط من الراحة والتفكير على مهل . واذا ما شعرت بحاجة خذ القارب لكن ليس من الحكمة أن يراك أحد بعد اليوم في منطقة الهيئة ، اودعه هنا ، وسنرى بالتأكيد ما ينبغي فعله .

ــ اذن ، أنت تعتقد أنني سأعود الى ايلوزا ؟

ــ اكثر من مؤكد ، فأنت سترغب في التسلل الى كروس ريفر لكن لا تنس أنني قلت لك هذا . سأرسل لك رجل شاج كي يتكلم معك . لكن ما من انسان آخر سيأتي هنا ويقلق راحتك .

ــ أنت سريع للغاية في سبر حاجات الآخرين ، لاحظ أوفي بحب استطلاع واضح .

ــ هل الامر غامض كثيرا حقا ؟ انك بحاجة الى مكان هادىء يتيح لك التفكير . تعال وانضم الي في منزل الاجتماعات حين تنتهي .

ــ لا تبعث رجل شاج مباشرة . اسمح لي ببضع لحظات من العزلة .

اتخذ آهيم هيئة الارتياح قليلا ثم رفع كتفيه ، بعد ذاك سمع أوفي خطاه الخفيفة وهي تمس مسا رقيقا طحلب الممر .

الخيبة . هل هذه هي رائحة الخيبة ؟ لونها ؟ طيفها ؟ كانت الظلال تحيط به من كل جانب ، فانتابه احساس جديد بالفضول دفعه للتفكير بحصافة آهيم ، هي المتوقعة كثيرا منه : لم يكن امتيازا أن يتركوه وحيدا في هذا المكان الذي كان الملجأ الخاص القديم للمرحوم سيد الحبوب . انه أشبه ببئر ذات طاقات متجددة ، لكن ربما كان قد استنفد في لحظات الشكوك التي لا تنتهي تلك التي كان آهيم قد كشفها له في الليلة الماضية .

بعد ذلك ، وبصورة غير قابلة للتفسير ، راوده نوع من اليقين في ان هذه الامكنة كانت تستخدم كنوع من الملاذ لشخصيات أخرى في الماضي ، ذلك الذي لم يكن بعيدا كثيرا . جلبة غارات الزنوج عبر الصمت والسكون، وحضور اللحم القلق المتكدس انبثق مثل هبة ريح عبر الزمان ، ثم جاء يصدم بشرته . أحس اوفي بنظرات الفارين، لاجئي آيرو ، وهم ينتظرون ويسهرون بين قناطر الاشجار المستنقعية وقبابها ، ممتزجة بهبات العنف والاغتصاب والموت في كروس ريفر .

ايرييز ، زاشي ، الكل سادر في جهله وهو يسير نحو المجزرة الكبرى التي كانت قد بدأت . . .

تقدم أوفي ، بمحاذاة الحافة ، كالسائر في نومه الى أن وصل القارب ثم دفع وعاء الزفت والفلين فوق البركة وجلس على مقعد التجديف ، فشرع القارب بالتحرك ومقدمته باتجاه القناة الصغيرة التي لاحظها من قبل . احس أوفي وكأنه محمول على سائل قديم العهد ، على قوة الماضي ، أحس كما لو أن السكان القدامى لهذه المواطن قد وضعوا اكفهم عليه . أية أجوبة تنتظرون مني ، أيها المحققون الغاضبون الراكبون مهادا من حمأة الطين ! كيف تتحول عظامكم المتفتتة الى شيء نفيس غريب ؟ ومذ وقعت نظرته لاول مرة على اللمحة الازلية تلك ، كانت تراود ذهنه هذه الابيات:

على بعد خمسة باعات يرقد أبوك
من عظامه نبت المرجان
ومن عينيه تفتح اللؤلؤ

كانت تفوح من البركة رائحة التاريخ ، العبيد ، الذهب ، الزيت . حروب الماضي . جماجم الموتى ، الدم ، العرق والعظام ، الآلام الراقدة تحت مهد البحر ، الصرخات المختنقة في قبضة الصمت دون أن تمتزج بالطمي الاسود قط . طاقات الماضي وقواه الماثلة دائما ، المحاجر الخاوية ثابتة النظرات التي تتطلب عيونا حية ترى وتتعلم من الرعب وحلقات الماضي الجوفاء . الرؤى الباطلة ، أكف الهياكل العظمية وقد ملأ راحاتها الطين ، بصمات التجربة وهي تشير الى الواجبات المتجددة . . . تلك الطاقة المستنفدة ، ذلك الخطأ المستنفد ، تلك الحلقة المفرغة التي هي في غير أوانها ، حلقة القوى المهدورة التي تصوغ مقتضيات التحول الجديدة .

ترى ما الذي يرفع مجاذيفه ان هو غرزها عميقا في هذا المهد المفعم بالتاريخ؟ ما الذي يرفعها من هنا هي التي تجسد المادة وعناصرها ؟ هي التي وضعت في حال من التحدي على الروح تتنبه . فتجارة الزيت تحولت الى أمواج من رائحة الموت ، من الفوضى والدمار ، كما تحولت بعد ذلك الى ناقلات نفط تحمل الزيت الجديد . غذى أوفي هذه الصورة بصور المنقبين عن النفط الذين سبق له وعرفهم ضمن فرق العمل التي واجهها بالمصادفة ... الايطالي الذي اقعدته عضات البراغيث من كل الاشكال والالوان ، والمهندس ذو الجسم العضلي والاوتار كأوتار الاشجار المستنقعية وهو مغطى بالندوب ، يتقدم في صمت مع امتدادات الدلتا لتحطيم سيرورتها الرؤيوية . على وجه الايطالي ، خزانات كروية مطلية بالكروم ، تدفع تآليلها ، وعلى الوجه الآخر عروق منتفخة تغوص في اللحم الاغبر ثم تعود الى الظهور ، ثم تغوص من جديد مثل أفاع بحرية ، ثم تتلوى وتنحني من جديد ، كخط أنابيب يمتد الى السطح قبل أن يختفي في التربة . أما العيون فمتحركة سريعة الاندفاع نحو الكنوز السائلة بين مقابر المجهولين ، والمفاصل تطقطق على ايقاع الثقابات والمفجرات وهي ترسل أمواجها الصارمة عبر عروق الحجارة والصلصال ... عبر الاوراق وأشجار الغابة ، عبر الترب والنضيد ، حينذاك ، كان التحول الكامن قد بدأ . شرع أوفي ، وهو يرفع عينيه باتجاه جمة الانبجاس الاسود ، تلك الموجة المتغيرة الشكل التي سدت ألف حاجة ، يتساءل أية أجوبة ينبغي أن يقدمها للموتى المتحيرين وهو يسعى بين الاحياء لتبديل أعمالهم الفاسدة ، أفكارهم ، قيمهم ، دموعهم ، مرارتهم ، ذكرياتهم الماضية التي هي في طريق التحلل ، وهو يبحث عن تحول يشبه ذاك الذي يحدث للحم يدفن في التراب ، فيتعفن ليعود فيولد من جديد بترول حياة . منذ استخدام العنف ومنذ الهزيمة ، أي تغير تحت القبة الزرقاء حدث يا ترى ؟ أي كيان جديد يمكن للمرء أن يستخلصه من الطاقات السائلة والزنخة للاجابة على ملايين الاسئلة ؟

لا تزعجني بعد الآن باتهاماتك ، غمغم الرجل لنفسه . اطرح أسئلتك على الكارتل الذي يصرّف البترول كما يصرف حليب الكاكاو .

لقد سقط في شرك من الخدر راح يغلفه شيئا فشيئا بغلاف أسود فوق سطح الماء الذي كان يطبق عليه ، اطباق الجلد على الندبة . كان يجدف ناعسا فاتر الهمة ، وقد تسرب قليل من الماء عبر رفات القاع فيما كان يناور للخروج بالمقدمة من الفتحة التي راحت تتسع داخل سترة الغابة الكثيفة . جاء عقب الهدوء قلق أشد ، فأخبار كروس ريفر كانت تعود الى السطح ، أفاعي تكتم أنفاسه بحلقاتها ، بالفكرة القاتلة وهي أن كل تفكير ، كل عمل هباء تماما : فكلاهما ، التفكير والعمل ، كانا يبدوان مكرسين للعودة الى نقطة البداية . كان رفض التغيير يقود الى لحظات من اليأس . وخلف القارب ، كانت البحيرة نفسها تتآمر لانتاج أنواع ذلك الشلل واليأس ، مغلقة

ندبة الانتقال ، قاضية على التحدي في نفس المسافر ، مستبدلة حتى طقس الانتقال البسيط هذا باعلان الثبات والاستقرار . تمويه ! غمغم أوفي ، فقوى التجديد كامنة بعناية شديدة داخل البركــة ، مخفية لكن يمكن الوصول اليها ، لا تنتظر الا أن توضع بصورة شرعية قيد التحدي . لا ينقصها الا الفصـال (١) المناسب الذي يجعلها تتحرك مطلقة قوى مدها التشنجية الحادة فتفجر الصخور .

كشر أوفي بشيء من الازدراء لنفسه ، وهو يبعد أوهام الامل الخيالية . فتلك البركــة كانت تضج بالنكران حتى أعمق أعماقها ، وهي تقدم اللون الاردوازي الخالص للهدوء الابدي . فاعترف المجذف بحسده لها .

كان المحرك الآلي متكوما في مؤخرة القارب ، مثل علجوم عدواني ضخم ، تحديا آخر من تحديات الايقاعات الطبيعية للمكان ، تحديا فظيعا بغيضا بكل ما فيــه من طاقة كامنة ، عاش معه أوفي احساسا جديــدا ، اذ احس غريزيا بأنه مجبر على المشاركة في الدفع الاكثر نقاء الذي تقدمه المجاذيف ، لتحقيق توافقه شبه السري مع الظلال النفسية للزمان والمكان . كان آهيم يشبه ذلك المجذاف الى حــد كبير بخلقه نوعا من الحركة في نفسه وما حوله دونما أثر من جهد ودون اخلال بأي من التوازنات القديمة . كان ذلك يبقيه في حماسته الاولى تلك التي تجعله يسرع ورأسه مطرق ثابت لا يتزحزح . ماذا ستغير ؟ ان مات رجال الآيرو ، ما عساك تفعل ؟ ان أحاق بهم الخطر ، كيف ستساعدهم يا ترى ؟ انني أحب ايرييز كما لو أنها فتاتي انــا ، لكنني ابدا لم أمسك بمصيرها بين يدي ، كما لم أمسك بمصيري أكثر .

مع ذلك ثمة رجل ، جماعة من الرجــال جاهزة تماما للتآمر على مصيره ومصير الآخرين . أما هو فلا . . . في ذلك خطر ، رغم صور الرعب التي تتخلل روحه كلها ، خطر لن يعرض نفسه له . لا ندم ، لا توبيخ ضمير ، لا احتجاجات واهنة ضده . على الاقل . . . آه ، بالطبيب الاسنان ! على الاقل لم يكن لدى طبيب الاســنــان سبب ، بالنتيجة . طبيب الاسنان بمنطقه الذي لا يرد عليه والذي يقول اقلع السن قبــل العدوى . اقلع السن المنخور قبل أن يعدي الاسنان الاخرى . لقد تقبل طبيب الاســنـــان قيادته ، هو اوفي ، ثم حمله المسؤولية . ترى اي حل آخر يمكنه استخدامه للحيلولة دون انتشار العملية الغادرة ، عملية عدوى الجماهــير المعرضة يوميــا ، نتيجة القرب والجوع والحاجــة والضعف البشري والحرمان ، للانزلاق أمام المغريات ، لان يسيل لعابها أمام قطع الحلوى الفاسدة في حقيقتها . اتراه قام بالاختيــار الدقيق ، سأل أوفي البركة الاجاج ، ثم شق بمجذافه الماء فقاومته الامواج وهي تبتلع الآثار ضمن حاجتها لحماية ذاتها ، لاستعادة الركود .

---

(١) اداة فصل بين قسمي آلة التفجير .

تحت المياه ، تلك المرايا السحرية ، كانت بلورات الدوائر الصادمة للزمان قد بقيت تقاوم الزمان . ذات يوم كانت ايرييز قد ظهرت له عبر تموجات الراسب الكثيف في قعر كأس من النبيذ فقطع الحركة اللا مبالية لاصبعه . كف ببساطةعن تحريك الكأس كي يجعل النبيذ يدور في الضياء ، مندهشا كل الاندهاش من الخيالات العجيبة التي تصنعها كأس من النبيذ الكثيف العادي .

غرز نظراته في المرآة الكبيرة التي كانت تزيد من عمق الكهف القاتم وطوله ، ذاك الذي صار ممرا لانتقال المسافرين ، وبفعل سحر السمع كانت موسيقى تافهة من الحان ميتة تطفى على هدير الطائرات تلك التي كانت ما تنفك تقلع وتحط في مكان قريب للغاية . دخلت تلف نفسها بفرو ثمين وتنتعل حذاء باليه ، أما نظراتها ، فكما هو الشأن دائما ، مفعمة بالنعاس ، ملقاة في أمواج محيط . لماذا تراها اهتمت به ؟ أهي الحاجة للقاءات مختلفة تماما ، لمعارك تنتظرها على بعد ستة آلاف كيلو متر ؟ لقد تحولت المجهولة : لا ، ليست هي سوى ايرييز ، رغم الفارق في البشرة ، فلون الكاكاو هنا أفتح قليلا وأشد لمعانا في الضوء الخافت المهدىء ، اما خطواتها فأقل تكاسلا مما يتذكر لكن ربما كان ذلك طبيعيا فوق السجادة السميكة . وهكذا أصر : برغلة الجلد هي نفسها : انها عند اللمس تشع ارتعاشة مخملية حارة في قلب العتمة . تطلع حينذاك الى الانعكاسات الاربعة للشراب المذهب في كهف المرايا . انزلق شال الكتف ، فامتدت ذراع نحيلة تمسك به ثم تضعه من جديد حول العنق ، فغمغم : ايرييز ، ماذا تفعلين هنا في عالم اللهو الاوربي هذا ؟

بذلك تحول البار الخاص بمسافري الترانزيت الى قطعة من ارض الوطن ، فتلك الساحرة لم تكن غريبة عليه . اهو الحنين الى الوطن ؟ لقد شجع ذلك الوهم الدافىء : كان وحيدا معها ، وكانت كلمة السر قد قيلت ، ليقاد بعد ذلك ، ضيفا ليليا موحشا الى كهف عذراء . فكما تصور ، كان كل ما في وجهها ، كتفيها الهشتين يعلن عن عذريتها .

لا يهم ، فالسحر كان طاغيا : لكن حتى العاطفة التي امسكت ببلعومه لم تستطع منعه من أن يشير للساقي بأن يصب له كأسا من النبيذ . الحنين والهروب كانا يتصارعان في داخله ، مخلفين وراءهما آلافا من الشظايا التي انغرست في لحمه. فجأة انفتحت الابواب الخارجية ودخل مزعج مجهول ، مزعج مصنوع من لحم ودم . كشر أوفي ، فقد كان أسود مثله ، وكان هناك الكثير مما يدفعه لان يراهن انه سيخاطبه .

كانت بشرته من لون النحاس وشعره مثل ظلة من غبار . في الحال رآه أوفي يلقي نظرة لا مبالية الى المرآة . هل كان يتطلع الى العذراء ؟ حضور هذا المجهول الجديد أعطاه دفقة جديدة من الحنين لارض الوطن . وكان ثمة حفيف خفيف غير

مفهوم تقريبا ، مع ذلك التقطت اذناه ذلك الحفيف الخفيف الذي أمتعه بادىء ذي بدء ، انه حفيف الشال وهو يسقط على الارض . نهض ، لم الشال ثم تلقى كلمة الشكر مع الدهشة من العينين الكبيرتين المشعتين على نحو لا يصدق . هندية ؟ لكن للحوار فن وفن الحوار تخلى عنه في تلك اللحظة الحاسمة ، فعاد الى مكانه متلعثما يتمتم .

بعد ذاك شرع يدير بين أصابعه قاعدة الكأس ، فيما كان المزعج يراقبه من تحت أجفانه الخادعة . بدأ أوفي ، الذي بات ساخطا من ضيقه وتردده ، يلعن أولئك الذين فرضوا عليه تلك الرحلة . لماذا ينبغي علي أن أضل وانا أبحث عن المعرفة فوق هذه الشواطىء المجدبة المتعجرفة ؟ ما تراها تسمى هذه ؟ آه ! نعم أساليب التخلص . دق اوفي كأسه بالطاولة وهو يهمهم : « أنا عائد الى الوطن » فتحطمت الكأس بين يديه. رفع المجهول ناظريه وكذلك العذراء . فيما أسرع النادل المتألق المنشى ، في يده خرقة وفي عينيه نظرة صارمة ، فطلب أوفي كأسا أخرى من النبيذ .

مع ايرييز المحررة ، المكتشفة ، المستعادة ، المتحولة ، المصنوعة من جديد ، تبلور مشروع عظيم لحملة الكاكاو ، انبثق كاملا على ضوء لقائهما الاول من دماغه المتوهج . الهة ، أميرة ، كريزاليد بزور الكاكاو ، كانت ، ومن حولها انبثقت ألف فكرة والف ابتكار، حشد من التملقات والتحولات السفينجالية(١) واضعة النهاية لعدم نضجه، لابتذال شخصه . وها هو ذاك رجل حكم عليه منذ البداية بالنفي ، فرضت عليه رحلة دراسية لمدة ستة أشهر ! مفعما بالمرارة ، رشف الخمرة ثم استدار من جديد ليلقي نظرة متمهلة على الكتف شبه العارية ، كتف العذراء الواقفة على مقربة من البار . غريب ، ربما هذه ايرييز ، فلها لون البشرة ذاته . في تلك اللحظة تماما علا صوت المكبرات المختفية هنا وهناك .

لكن رد الفعل لدى الفتاة الشابة ، التي ألغيت رحلتها الجوية، هو الذي جعل قلبه يخفق من جديد . فقد استدارت باتجاه مصدر الاعلان، مرتابة شاكة، فمها يعبر عن كارثة ، كما بدت وكأنها على حافة البكاء ، بعد ذاك لمت شالها وحقيبة سفرها وتوجهت نحو الباب فنهض أوفي بوثبة واحدة لاحقا بها .

لكن المجهول سد طريقه

ـ المعذرة ، هل أنت من . . . ؟

ـ كيف ؟ (قال مفعما بسخط لا ارادي نفذ حتى الى صوته ، ثم استدار باتجاه المتطفل كي يصبح في مواجهته) ماذا تريد ؟

---

(١) نسبة الى سفينجالي : بطل رواية « تريلبي » للكاتب البريطاني جوزيه دي موريير وهو الشخص الذي يحاول عادة ، مدفوعا بسوء النية ، أن يقنع أو يرغم شخصا آخر على الخضوع لاوامره .

ــ ارجو ان لا أكون قد ازعجتك . . . لقد سمعت ماصحت به للتو ، حين حطمت كأســك .

ــ نعم ؟ (شخص مزعج فقط) .

فتابع المجهول دونما احساس بالاضطراب ودون أن يعير أدنى انتباه لنفاد صبره .

ــ هل يمكنني أن أعرض عليك كأسا ؟ فقد ظننت أنك من ابناء بلدي وحــين سمعت الهتاف الذي هتفت به ، مرت لحظة . . .

ــ من أي بلد أنت ؟

لكنه لم يتوقف لسماع الجواب ، اذ طغى عليه احساس بالحدة والانضغاط لقناعته المفاجئة بأنه تأخر كثيرا ، فانطلق في اتجاه مواطنته : « لحظة واعود ! » ثم فتح الباب ولم يتوقف الا حين وجدها في مكتب الشركة .

هناك ، لاحظ للمرة الاولى ساقيها الطويلتين ، كساقي عارضة أزياء ، الجزء الوحيد من جسمها الذي كان متطورا كامل التطور . كان يحدق اليهما وهما تبتعدان ببطء ، بخطا رفيقة ، على ماء البركة حيث كانت تتشكل الامواج التي تصارع روحه ، فتذكرانه بصورة إيريز .

حين بات على مقربة منها ، رفعت ناظريها :

ــ أوه ! هل كنت أنت الآخر على الرحلة الجوية التي الغيت ؟

فكذب مومئا برأسه بالايجاب وعلى وجهه علائم الانتصار .

حين عاد ، كان المجهول ينتظر ، جالسا صابرا ، غير أن نشوته قضت على الاحساس بالذنب الذي أحس به لتركه اياه على ذلك النحو المفاجيء .

ــ دعني أقدم لك كأسا ، اقترح باسلوب من يود الاعتذار .

فابتسم المجهول بدوره .

ــ اغفر لي ، فأنا لم أحسب حساب . . . أرجو انني لم . . .

فطمأنه أوفي ثم سأل :

ــ منذ متى غادرت البلاد ؟

ــ ست سنوات ونيف . لقد درست طب الاسنان (ثم تردد ، توقف ، بعدئذ سأل بدوره) وأنت ؟

ــ ثلاثة أشهر فقط ، لكنني أشعر بها وكأنها سنوات .

ــ كيف هــذا ؟

ــ أنا ضجر تماما . (بعدئذ دهش حين سمع نفسه يقول :) هذه الرحلــة الدراسية المزعومة فرضت علي فرضا . وانني لاحتقر نفسي لانني لم اقاوم حتى النهايــة .

انتظر المجهول ، دون أن يبذل ادنى جهد في اخفاء رغبته ، فرفع أوفي كتفيه .
ـ أتريد أن تعرف كل شيء ؟ الامر معروف تماما ، فوضعنا لم يعد سرا على أحـد .

ثم غدا الآخر متوترا مشدودا حين بدأ أوفي يرسم له بخطوط عريضة حملة الكاكاو الاعلامية ، الى أن انتهى عند ايقاف تصوير فيلم الآيرو . حينذاك فقط ، علق طبيب الاسنان وهو يبتسم بقدر خفيف من التنازل .
ـ الارض السوداء الخصبة ، أو الاوباش السود الاغنياء ، فليس باستطاعة المرء أن يتناول الا واحدا منهما (بعدئذ شرح الرجل فكرته ، فرفع أوفي عينيه وقد لمس في صوته نغمة القلق) أخيرا ، لو أن المرء يعمل بمفرده . أو لو أن لديه نوعا مختلفا من التقنيين الذين يساعدونه لكان باستطاعته ان يتناول الاثنين معا ، وهما يعملان معا . يعملان معا ، (كرر المجهول عبارته وهو ينهض) أنت باق بعض الوقت ؟ أقصد ، هنا في هذه البـلاد .
ـ بامكاني أن اغير خط سيري ، اذهب حيث أشاء ، اعترف أوفي بشيء مـن المـرارة .
ـ حاول أن تبقى هنا بضعة أيام فقط . فالنشر عمل مزدهر هنا أيضا (ثم قام باشارة من الرأس في اتجاه الباب) وصديقتك الشرقية ؟

فابتسم اوفي ابتسامة ملأت وجهه .
ـ امراة فاتنة . لقد حاولت أن أجعلها تنظر الى القاء رحلتها وكأنه من تدبير العنايـة الالهيـة ، ثم اضاف بهيئة المغتم ، فبدت وكأنها تعتقد ذلك فعـلا ، لكن ليس بسببي .
ـ باستطاعتي أن أقدم لك غرفتي ، قال طبيب الاسنان ، فلماذا لا تبقى هنا ، بضعة أيام على الاقل ؟ هناك الكثير مما يمكننا أن نتحدث عنه .
ـ حسن ، موافق ، وشـكرا .

✶ ✶ ✶

بخار متصاعد فوق مشعات حرارية تعمل على الغاز عند الغسق ، أنخـاب واحلام يقظة في الصباح والمساء ، وظل شخص ضعيف متناقض ظاهريا ، شخص فتي ورزين ، يبحث عن طريقة يجربها العالم الى السلام الداخلي الذي يعيشه .
ـ اريد أن امتلك العالم كله هنا ، في داخلي ، لكن قبل كل شيء ، لا بد لي من اخضاع وجداني للكـون .
ـ اسمعي اير . . يو . .
ـ آه ! لا (وتصلبت عيناها الفتيتان بالغضب ، للمرة الاولى منذ أن تعارفا .)
ـ ما الامر ؟ سأل وقد بدا عليه الاضطراب فعلا .

ـ لا تذكره بعد الآن . في البداية ، لم اكن متأكدة ، اما الآن فقد اعترفت أنت بذلك ، وأنا لست منزعجة . لكن لا تلفظ هذا الاسم بعد الآن .

ثم مرت اللحظة وزال العالم الخارجي من جديد : لم يعد في محله شيء سوى عينين كبيرتين تملآن الصالة ألفا ، مصباحين نذريين يتقدمان فوق خطوط شعاعية غير مرئية باتجاه مركز الكون . استدارت تابيلا نحوه ثم حدقت اليه ، فأدرك ما تريد قوله في تلك اللحظة : كانت تدعوه للانضمام اليها ، هز أوفي رأسه :

ـ لقد قلت لك الا تنتظريني .

فصعدت آهـة .

ـ نحن نلاقي ونتلاقى ، لكنك لا تريد الخروج عن طريقك الدائروي . لقد انغلقت على نفسك في دائرتك ، دائرة العنف ، يا أوفي ، فلماذا ترفض الاستراحة ؟ الحمأة والطين ، بالنسبة الى البعض ، هذان هما طريق الجمال والسلام . لكن ربما ، سنتلاقى من جديد في نقاط التقاء عدة ، أنت وانا ، العذراء الغامضة في البار الخاص بمسافري الترانزيت ... ثم تقدمت وأمسكت بيده :

ـ لكنك لا تصدق أن هذا هو المصير الذي كنت أرغب فيه . انت تعتقد أن هذا كله حدث بمحض المصادفة ، اخي الطبيب في بلادك ، رحلتي الجوية تلغى وأنا على وشك المغادرة لزيارته ، وانا وانت وحيدان في البار . الا تعتقد أن هذا كله جرى بمشيئة القدر ؟ الا ترى انني هنا لانقاذك ؟

فحاول أوفي أن يضفي على صوته كل الاخلاص الذي كان يحس به .

ـ صدقيني ، أنا احسدك ، أنت ورؤى الانقاذ التي تتراءى لك . أجل ، فعلا . لكن علي أيضا أن أفكر بهمومي الخاصة ، فدعيني أتتبع آثار خطاي على الدروب الجانبية ، يا تابيلا . ثم أضاف بعد لأي : منجهة اخرى إن كانت مشيئة القدر أن نلتقي ، فان مشيئته أن التقي بطبيب الاسنان أيضا .

كانت أجراس الكنائس تدق احتفاء بالثلج الجديد ، وكان الجو قـد تحـول الى موسيقى خالصة بأفقه المسود بقباب الاجراس والمداخـن المتطاولة في سـماء الشتاء الحية . داس أوفي بقدميه الهموم والاشغال كلها ، ثم رافقها حتى مركز مراقبته لتأمل الرتل الطويل من الراهبات السائرات نحو أجراس صلاة العصر ، وهو يبحث في الضباب اللا نهائي ، متقدما بكل مشقة على رؤياه للطرق الشعاعية التي كانت تتلاقى في قلب الهدوء الاصـم .

كان المتسكعان يخترقان عالـم الثلج ، يغوصان في الآفاق البيضـاء لسكونه اللا نهـائي .

ـ لنمض ، اقترح أوفي ، حذائي تبلل بالماء ونحن نقف هنا دون حراك .

ـ أهذا هو السبب الوحيد ؟

ـ لماذا ؟ ما عساه يكون السبب الآخر اذن ؟
ـ انت لا تحب ان تراني انظر الى الراهبات .
ـ انت غبية ، قال أوفي بنبرة توبيخ ، كل ما اريده هو ان أنشط ساقي ، لا اكثر .
ـ وانا ، كل ما اريده هو ان أنشط روحي . أريد أن تمتد روحي الى أن تشمل العالم .
ـ اسمعي ، يا اخت . . .
ـ لا تقل لي يا أخت (ادارت ظهرها مبتعدة بخطا سريعة ، زامة شفتيها وقد ارتسمت على وجهها الخيبة) لم اتوقع أن تحاول الهزء بي .

في البداية لم يفهم الامر ، لكن بعد ذاك لمعت الفكرة في ذهنه فحاول أن يشرح موقفه .
ـ لا ، لم اقصد ان اقول : اخت ، بمعنى الاخت المبجلة ، بل ببساطة قلتها كما أقول يا أخ .

فارتسمت ابتسامتها على المنظر الكئيب .
ـ ادري ، ادري . لكنني احب أن اراك نادما .
ـ وأنا أحب أن اضربك على قفاك .

بعدئذ عادا الى البيت بخطا بطيئة .
ـ كان ينبغي أن تكون طبيبا ، اعلنت تاييلا . الحاجبان المعقودان ، الرزانة ، لكأنك تفكر أعمق التفكير بمعضلة من المعضلات . أنت جميل جدا ، هل تعلم ذلك ؟ انني ارى فيك قدرا كبيرا من الجمال .

شكرها أوفي بنغمة ساخرة ، فتابعت المرأة بهدوء .
ـ أوه ! أنت جميل جدا ، خارجيا أيضا ، لكن هذا ليس مهما . الاطباء الحقيقيون هم الذين يثبتون مصداقيتهم في شفاء الناس ، ومن يشف الناس يشع جمالا ، فما يشفي ، كما تعلم ، انما هو الجمال الذي يشع من شخصياتهم .

كانا قد عادا الى الشقة ، وكان هو يدفيء يديه على مشع الغاز . بعدئذ التفت فرآها واقفة خلفه ، قريبة كل القرب ، تتأمله باكتئاب . رفع أوفي باتجاهها ، وهو ينقر باصبعه على ذقنه ، محياه ، جملة المتناقضات ، مزيج المراهقة والخبرة ثم قال :
ـ انت مفعمة حكمة ، أنا واثق من هذا ، وجميلة من الداخل مثلما أنت من الخارج ، واذا كنت هذا كله ، فلماذا الافتتان بالحياة الدينية ؟ ترى هل فكرت مليا حقا ؟
ـ المتدينات هن أيضا نوع من الشافيات ، والشفاء هو الجمال وحده .

ـ ثمة أشكال عديدة للشفاء . الشفاء بالنار مثلا ، الشفاء بالريح التي تقتلع القذارات وتلقيها في الخواء . بل حتى لو كان النور قويا جدا أو باهرا جدا فانه يكشف الحقيقة الداخلية . أنا أيضا أبحث عن الجمال لكن عن ذلك الجمال المجرب والمختبر ، فهذا هو وحده الذي يدوم . كوني متدينة ان كنت تؤمنين بذلك ، لكن كفي عن القاء المواعظ علي .

ـ أنا لا أثق بالناس العنيفين !

ـ أنت ينبغي الا تسترقي السمع على الابواب حين تكون هناك مناقشات خاصة .

ـ لم أستطع منع نفسي .

ـ اذن ، عليك أن تنسي ما سمعته ، (وأمسك بيديها ثم تكلم بعذوبة أشد) من جهة أخرى ، لا تنسي أنك استمعت الى مناقشة ، مجرد مناقشة لا أكثر . لكن عليك أن تعلمي من القليل الذي سمعته أنني أنا نفسي لا أؤمن بالعنف ، لكنني أراه وأعرفه ، وعلي أن أواجهه هناك .

دارت تايبلا على عقبيها ثم جلست على عتبة النافذة . فأحس أوفي أن كيانه يغرق في آهة مشبعة بألم المحيا الرقيق للفتاة الشابة . بعدئذ شرع يتكلم ، عيناه نصف مغمضتين والرأس مرفوع باتجاه السقف :

ـ هذا النوع من اللقاءات ينتهي بدمارك . انه يسد طريق النور ، طريق الجوهر ، أتفهمينني ؟ أحاسيسي غير مترابطة . لقد قابلتك وتقربت اليك وأنا أفكر بالسر نفسه الذي جمعنا ، كما أن لدي أيضا احساسا بالوهم حيث انغلق على نفسي لانك لا تجسدين الا جزءا من رغباتي ...

ـ الجزء السار ؟

ـ اجل ، الطمأنينة .

طغى على محياها فجأة نوع من الالق ، فرشقها أوفي بنظرة اندهاش .

ـ أنا أعلم أن بامكاني أن أساعدك في الوصول الى تلك الطمأنينة ، ذات يوم . كما أعلم كل ما أنت متعلق به ، وعلي أن أؤمن به ، بل أرغم نفسي على رؤية مجمل الصرح ، كذلك أعلم أنني سأبلغ حالة من التجرد الواعي يمكنني فيها ان اقطع عن بعد وأن أفهم كل شيء في لحظة واحدة . لكن حتى ان كانت تلك اللحظة قصيرة للغاية فانها تكفيني ، ولسوف تكفيك انت ايضا ، أجل ، ستكفيك أنت أيضا . وهذا نفسه ما يجعلني سعيدة .

ـ أنت فتية تماما ، لكن ما تبحثين عنه انما يفتح لك باب الموت .

مدت تايبلا عنقها الطويل عبر النافذة ، ساعية لرؤية موكب الراهبات الذي كان يبتعد ، فجعلته حركتها تلك يفكر باوزة تسبح في بحيرة عند الغسق ضمن اطار من الجليد الخفيف .

ــ ليس هناك ما يضاهي جمالهم ، غمغمت المرأة ، وهن يمضين حياتهن كلها استعدادا للحظة التي يواجهن فيها الابدي الخالد . انهن يرين ، يفهمن ، ويعشن في سلام . قل لي يا أوفي ، هل يمكنك أن تتصور لحظة من التناغم أكثر شمولية ؟ ترى اليست الحياة شيئا لا يحتمل ان كان المرء لا يؤمن بلحظة كهذه اللحظة ؟

طرق احدهم الباب ، فأمسكت المراة انفاسها ، ثم تطلع واحدهما الى الآخر .

ــ ضيفك ، طرق الباب برقة بالغة ، قالت بهيئة من يفكر ، لكن المرء يحس بالعنف خلف تلك الرقة ، حتى وإن كنت لم أقابله قط ، حتى وان كنت لم أسمع كلمة منه ...

واسرعت باتجاه الغرفة ، مغلقة الباب خلفها بيد مطمئنة .

ــ ادخل ، قال أوفي بصوت قوي .

فدخل الشاب ، رجل المطار نفسه ، وفي يده حقيبته . وعلى الرغم من أنها كانت حقيبة صغيرة ليس فيها الكثير ، الا أنها صدمت الارض بصوت جاف كصوت المعدن حين وضعها على الارض .

ــ كل شيء في داخلها ، أعلن الرجل ، متى تفكر بالمغادرة ؟

ــ غدا ، ان كانت هناك طائرة .

فرفع الضيف كتفيه دليل المفاجأة ، ثم لفت رأسه لحظة من الزمن ، والتساؤل في عينيه ، باتجاه باب الغرفة التي اختفت فيها تاييلا .

هز أوفي رأسه ، فطمأنت السائل المستفسر ابتسامته الكبيرة ، رغم أن الحسرة كانت تضعفها قليلا ، بعدئذ نظر باتجاه الباب ، نظرة لم يرد منها سوى التحقق من أنه لم يكن مفتوحا ، ثم قال

ــ الا تعتقد البتة أن هناك مأزقا خطيرا ؟

ــ لست متأكدا من ذلك .

ــ هذا غريب ، قال أوفي ، لكنها هي نفسها لا تفكر عمليا الا بالقدر . كل شيء من صنع القدر . لقاؤنا في صالة المطار ، وصولك في اللحظة نفسها . انها تنسج الخيوط كلها وترتبها على هواها ، أما خارج ذلك ... فلا يوجد شيء . لاحظ ، أنا نفسي غير واثق ... فلو انك لم تصل في تلك اللحظة (ثم رفع كتفيه) لقد كنت في مرحلة يشفق المرء فيها على نفسه ، فاما كل شيء سلبي أو ... لا أدري ماذا بعد . لعلك مررت أيضا بتلك المرحلة التي يتساءل فيها المرء : وما الفائدة في نهاية المطاف ؟ (ثم أشار بيده الى الكرسي) ويسكي ؟ أوه ! لقد نسيت ...

ــ لا ، لا ، ماشي الحال ، أنا لست أكثر ... أوه ، أنا في مأمورية .

فرشق أوفي الحقيبة بنظرة سريعة .

ــ اجل ... من أجل وضع عنوان للرواية : هل نفذت المهمة ؟

فابتسم الشاب وكأنه يعتذر .
ـ آسف ، لكن عالم الروايات ليس مألوفا بالنسبة الي ، بل هو بالحقيقة يثير في نفسي الكثير من الاشمئزاز .

فأجاب أوفي، وهو يحاول عبثا أن يخفي الازدراء الذي نفذ الى صوته .
ـ الا تبالغ قليلا يالينيين ؟
ـ لا . . . لا . . . .
ـ انك ترى اخطارا تهدد في كل مكان . كما أنك لا تشرب كحولا حين تكون في .. حتى في قضية ليس فيها خطر مباشر . اما بالنسبة الى النساء ، الفن ، الموسيقى . . . فرفع الشاب كفه .
ـ انها عادة النظام التي اكتسبتها مع الزمن ، لا أكثر من ذلك . لينين ؟ كلا لقد احترس من الفنون فقط باعتبارها توهن العزيمة ، احتياط عادي ، (وابتسم ابتسامة مثيرة للتأثر) من جهة أخرى ، لماذا ترانا نختلف ؟ ذلك لانك قلت لي عن شغلك ، عن موسيقاك مثلا ، فكيف يمكنني أن أكون ضد ذلك ؟ لقد كان الخطر كافيا الى حد ان كارتل اللصوصية والاجرام المنظم ارسلك الى الخارج للقيام بهذه الرحلة بملء موافقته . أما بالنسبة الى النساء ، آه ، حسنا ، انني أنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سألتقي فيه بايريز الشهيرة . . . .
ـ لنشرب نخبها (هتف أوفي صابا الويسكي) ، نخب نجاح هذه الحقيقة فكلتاهما اساسيتان ، الاولى والثانية . . . ولكن هذا يعتمد ، قال متمهلا مؤكدا على كل حرف يقوله ، هذا يعتمد على الموقف الذهني .

وشرب الرجلان ، فيما خيم صمت ثقيل على الجو . بعدئذ ، وعلى نحو مفاجيء تماما ، شرع الشاب وقد ثار بغتة ، يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، اخيرا انفجر فجأة :
ـ هل فكرت بما يمكنك أن تفعله اذا فتش احدهم هذه الحقيبة ؟

فمد أوفي يديه .
ـ بشرفي انا أجهل ما تحويه .
ـ انا آسف لاضطراري أن أطلب اليك هذه الخدمة . لكن زمنا طويلا مر علي مذ غادرت البلاد دون اي اتصال بعائلتي على الاطلاق . . و . . . انا لا أجرؤ أن اعود ويداي فارغتان !
ـ اسمع ، لنفرض أسوأ الامور ، فان موقفي واضح . لقد قابلت بالمصادفة رجلا طلب مني أن انقل له هذه الحقيبة ، وقد دفع لي أجرة زيادة المتاع أيضا . تلك هي قصتي ، ولا تأكل هما ، فلن يحدث شيء .

غير أن عيني الشاب بقيتا مفعمتين مرارة ، ثم بدأ يسب وهو يصرف بأسنانه .
ـ أولئك القذرون ! انهم لاغبياء قاصرو النظر تماما ! يضعون ملفاتنا في أيدي الد أعدائنا .

ودهش أوفي من الشدة التي عبر بها عن احساسه ، كان المخطط مألوفا كثيرا الى درجة أنه بات مملا . تغيير الحكومة بالعنف ، القادة الجدد يسعون للتعرف الى رجل السلطة في الدول المجاورة بتملقهم وابداء الاعجاب بهم ، وثمنا للاتفاق يعرضون عليهم اللاجئين الفارين من تلك المنطقة التي تعاني من القمع ، بل يقدمونهم احيانا مغلفين موسقين كما هي الطرود البريدية ، اضافة الى ملفات كاملة تحوي الاسماء المستعارة ، الصور الشخصية ، النشاطات واللوائح بأسماء الاقرباء . صفقات تثير الاشمئزاز ، المقايضة القديمة باللحم البشري ، تجارة العبيد التي كان يقوم بها أمراء القارة السوداء ، استمرار دورهم التاريخي في الخيانة المربحة ، خيانتهم للحمهم ودمهم . الى هذا الحد وصلت الحال ، لا أكثر ولا أقل ، دعم السلطة المتفككة بصفقة من صفقات اللحم البشري ، فتح طريق العبيد الى داخل افريقيا ، وكل هذا مغلف بفلسفات وحكم صفيقة وقحة .

ـ على كل حال ، بامكانك في حينه أن تتخلص وتفر بجلدك ، قال له أوفي مواسيا .

ـ آه ، هاأنذا مجرد ، عار ، محروم من الرفاق ، من اي اتصال بالاهل ، من اية وسيلة للعمل . ايديولوجيا فقط ، يالله ! كم هي جميلة الكلمات التي يوجهها اولئك الحكام ـ الدمى لحركات التحرر ! لماذا هذه الخيانات ؟ أجل لماذا ؟ اذا كنا نجسد مثل هذا الخطر ، فلماذا لا يدعوننا ، وبكل بساطة ، نغادر الى موزامبيق ؟ ان كنا نتدرب ، فذلك لكي نذهب الى هناك ، الى موزامبيق أو غينيا بيساو (ثم شرع ، وقد هدأ شيئا فشيئا ، يرشف من كأسه بهيئة تأملية أكثر فأكثر) . لكن لعلهم ، بعد كل شيء ، قد قدموا لي خدمة . اذ أن باستطاعتي أن أستفيد من هذا التدريب في بلادي ذاتها ، في اقليمي نفسه . انما كان لا بد من مرور وقت طويل قبل أن أتقبل هذه الكليشيه ، لكن ، بالحقيقة ، فعل الخير يبدأ من تلقاء ذاته .

ـ أنت لم تنس ما اتفقنا عليه .

ـ كلا ، وأنا بالانتظار . انني ملزم بمجريات الموقف . . . وأنت تزودني بالمعلومات الاضافية . لكن سوف أعطي نفسي مهلة زمنية لدراسة كل شيء دراسة ميدانية . فأنا أحبّ أن أرى الوجوه ، أتعرف اليها ، اتعرف حتى الى أولئك ، ثم توقف بغتة ليفرغ كأسه بجرعة واحدة .

فتفحصه أوفي بالضيق ذاته الذي احس به في البداية .

ـ ينبغي ألا نعمل باتجاهات مختلفة . . .

فواجه نظرته بنظرة مستقيمة مباشرة .

ـ هذا أمر لا أستطيع أن أضمنه لك .

ـ مهلة زمنية ! أصر أوفي . مهلة زمنية كي نعلم الناس ، نثقفهم على نطاق واسع . فالمرء لا يحقق شيئا بالعمل الافرادي ، لا بد من التنظيم .

لكن كلماته لم تثر سوى نوع من الهمهمة نصف الموافقة .

ــ بالتأكيد ، لكن لا يمكن للمرء أن ينسى الاعداء الذين لا يمكن اصلاحهم قط ، الاعداء الرافضين لكل تعليم أو ثقافة ، شأنهم شأن أولئك الذين نتتبع آثارهم مذ وجدوا أنفسهم في سدة السلطة ، شأن البورجوازية القذرة التي سارعت في الحال الى تقديم الاطباق لهم والى احس أحذيتهم علنا ! ترى ما الذي كنت أفعله خلال هذه السنوات الطويلة من التشرد ؟ ما الذي كنت أفعله سوى تأمل ذلك الامتداد ، ذلك التحول الى وباء منتشر فوق القارة كلها ؟ عسكريون جهلة متغطرسون يتمسكون بالسلطة الى أن يسقطوا كالثمار المتعفنة ! ومستغلون مهووسون بالسلطة يجهلون أين تقع حدود بلادهم ويتجرون بنا مع الغرباء ، يتآمرون ويتآمرون ، وخطب طنانة رنانة توجه الى الحركات الثورية لكتم صرخات القمع في الداخل . قل لي يا صديقي، ما تراهم يبيعون ؟ ضمن هذه التعريفة كلها ، ضمن صفقات السوق السوداء هذه ، ترى ما هي السلعة التي يبيعونها ؟ انها نحن !

راح اوفي يدير ويسكيه في كأسه شاعرا بالانزعاج أكثر واكثر ، متسائلا اي جزء من هذه العاطفة الشخصية يمكن أن يدخل في حساب الخيانات . فتابع الشاب وكأنه قرأ أفكاره :

ــ لا يشغلنك همي . واذا رأيتني أتكلم على هذا النحو فذلك لانني أحس بالاحباط نتيجة العطالة الطويلة (وعادت الابتسامة الصبيانية للظهور) وكذلك نتيجة الويسكي . لهذا السبب بالذات انا لا اشرب قط حين أكون في مهمة عمل . ففي لحظة العمل ، الآلة تؤكد على البديل ، والقرارات تكون متخذة سلفا ، وأنا لا أستطيع السماح لنفسي بترف الشك . فلا يشغلنك همي ، لا يشغلنك همي . . . راح الرجل يكرر .

* * *

وكما في حلم من الاحلام ، راح القارب ، وهو يسير مع التيار حول البركة ، يقترب من القناة من جديد . كانت الاقواس التي صنعتها الاغصان تتدلى على الممر الضيق ، اخيرا أدى تغيير في حركة المجاذيف الى قيادة القارب الى هناك ، فتلقى أوفي بوجهه مداعبة الاوراق التي تنضح نسغا ونضارة . لم يخفض أوفي راسه لتجنبها . الخوف من الموت . . . لا ليس الموت غرقا ما يخشاه أوفي بل الموت الناجم عن خطأ ما ، خطأ ليس خطأه بل خطأ الآخرين ، خطأ ناجم عن قرار طائش . وان كان ذلك القرار قراره ، اذن سيكون أسوأ من موته ذاته ، لان ذلك سيكون موتِ فكرة ، امتدادا للممر الذي ينفتح على هلاكه ذاته ، أيا كان الاسم الذي يمكن أن يطلقه عليه الناس . فقدان الايمان ، ذلك تعريف جيد .

لقد شرح لآهيم ذلك كله من قبل : « لا ، أنا لا أريد أن أموت مباشرة » . فلوح العجوز برأسه ازاء ذلك الذي اعتبر نوعا من الهذيان . « اذهب الى هناك . انه الجري الى الموت وانتظر ريثما تهدأ ثائرتك فليس باستطاعتك ان تساعد أحدا . واذا ما قدمت لرجال الآيرو تضحية من التضحيات ... فان ذلك سيكون من أجل قضيــة عادلة » .

« هذه ليست تضحية » ، فكر اوفي بكثير من المرارة ، « هذه ليست سوى تقدمة لاكباش محرقة اضافية تستخدم لتضليل مقتفي الآثار ، لتحويلهم الى هيكل الـه الملحدين ، مامون . كلا ، هذه ليست تضحية . وآهيـم ، الكاهن الذي يحمـل سكين الاضاحي ، لا بد من أن يعلم أكثر من أي شخص آخر كيف يتجنب تلويـث هذه الكلمة » .

كان آهيم هو الذي قاده الى البركة ، فقال أوفي في نفسـه ، « أيـا كانت العظام التي ترقد تحت المياه ، فالارواح التي غادرتها ما تزال عطوفة رفيقة ، انا واثق مـن ذلك . هنا ، جالسا فوق الضفة ودون أن أقوم بأي عمل ، سأبقى طوال النهار ، وفي النهاية سأحس بالانتعاش ، سأعود الى الشباب . وأيا كانت المحن التي قادتني الى هنا ، بحثا عن السلام فلسوف تختفي ، آه ، لكأن وحيا يوحي في أذني » .

كان الصوت الوحيد الذي وصل اليه انما هو نداء ايريز ، نداء لم يأت همسا بل صرخة كمناناة عالية . وكذلك أصوات مخنوقة ، اصوت الآيرو الذين انطلقوا تلبية لندائه ، طليعة الفكر الجديـد ... فجأة انفتحت القناة على منسبط واسـع مـن الماء ، فاتجه القارب نحو ضواحي المدينة التي رآها من بعيد . نهض أوفي ثم وضع المحرك مكانه في مؤخرة القارب . بعدئذ امسك امساكة قوية بالحبل ثم سحبـه ، فهدر المحرك .

بعد ذاك ، وعيناه مثبتتان على الماء الذي كانت تشقه مقدمة الزورق ، رفض أوفي النظر الى العجوز الناحل الذي ما ان سمع صوت المحرك حتى وثب خارج منزل الاجتماعات . ثم أسرع الى الضفة حيث لم يلاق الا زبد الماء ذاك الذي كان القارب يخلفه وراءه وهو يبتعد . لكن ، قبل أن يخفيه منحنى الضفة التالي ، رفع اوفي احدى ذراعيه تحية للعجوز فيما ظلت عيناه محدقتين الى الامام دون أن تنحرفا قط .

* * *

« ٧ »

كانت أرض ايرلو ترتفع على شكـل حلزونات من صدأ ، وكان الرجل الذي اقترب مغطى الرأس ، وحشا هادئـا ذا شعر من نحـاس ، بل حتى لون وجهـه كان اشبه بزنار من صدأ ، مهدا ناعما من غبار على آجر مشوي صلب . من ذلك البعد ، كانت النـدو ب ، وهي ثلاثة خطوط أفقية على كل وجنة ، تبدو وكأنها من عمل واشم يشم بلمسات بالغة الدقة ، اذ كـان الجلد قد اندفع هناك طاغيا عليها فلم يبق منها سوى أثر بسيط . لاحظ أوفي ذلك الرجل الذي نهض من بين مجموعة صغيرة من الرجال الجالسين في الصالة الخلفية للمطعم ، كما لاحظ بأية ثقة مطمئنة اقترب من طاولته ثم اقتعد الكرسي الفارغ . فبسط أوفي الجريدة التي كان يحملها لكن الآخر أخذها منـه ، تأمل تاريخها بسرعة ثم أعادها اليه مشيرا الى صورة القاضي الذي اغتيل ، قائلا :

ــ انا الذي فعلت ذلك .

لم يكن في صوته نبرة تفاخر ولا غطرسة ، لا توبيخ ضمير ولا ندامـة ولا حتى رضى ذاتي ، بل مجرد اعـلان للحقيقة ، جعلته نبرته يبدو أكثر تفاهة . دهش أوفي الى درجة ظـل معها فترة من الزمن هادئا لا ينبس ببنت شفة ، فبعـد كل شيء ، كانت تلك هي المرة الاولى التي يجلس فيهـا وجها لوجه مع قاتل محترف يقر بذلك .

ــ الشرطة لم تقدم وصفا دقيقا للرجل الذي تبحث عنه .

ــ كلا ، قال الرجل ، فليس لديها أدنى فكرة عن ذلك الذي تود القبض عليه .

هذا الرجل اندمج على نحو سيء بمخطط العنف الوحشي الذي بـدأ ينتشر منذ بعض الوقت بين صفوف الشعب ذاك الذي كان أوفي ، شأنه شأن الكثـير من الناس ، قد أساء الحكم على شخصيتـه ، فقد تحصن بسهولة كبيرة ضد الصدمات . مع ذلك راوده احساس بأنه ينظر الى قطعة جديدة كليا خرجت لتوها من مسبـك أولو كوري . فيها عيوب ، أم هي مصوغة هكذا لا لشيء الا لتلبية مقتضيات اللحظة الراهنة ؟ في وقت آخر ، ربما كان سيبحث عن جواب ، لكن في الوقت الحـاضر ، كان الاوان قد فات .

ــ كيف تراك تسرحه على هـذا الشكل ؟ قال أوفي مشيرا باصبعه الى شعر الرجـل الذي سحره . لقد صـار نحاسيا أكثر منذ ان عدت . الأنك تعرض نفسك من جديد للشمس ؟ لكن لعل هذا يجعل كشفك أمرا أكثر سهولة ، أليس كذلك ؟

ــ أوه ، يمكن للمرء أن يلبس قبعة على رأسه . أو يمكن أن يصبغه ان كان ذلك ضروريا . ليس علي أن أفعل ذلك الا مرة واحدة .

بعدئذ خطر في ذهنه أن هذا الشعر الغريب يمكن حتى أن يكون ميزة . فالقلة القليلة من الشرطة يمكن أن تفكر بوضع الشعر النحاسي ضمن أوصاف الرجل المطلوب .

لفترة من الزمن خيم الصمت عليهما . أخيرا حطمه أوفي مطلقا آهة مريرة ، قائلا :
ـ انت لست متمسكا بعملك .

فبدا الآخر وكأنه مشتت الذهن ، وهكذا تابع أوفي :
ـ أوه ! حين بات واضحا أن ثمة شخصا بمفرده ينظم الامور .. على هذا النحو ، لم يعد ممكنا بالنسبة الي التظاهر بالاعتقاد بأنني أجهل ما يجري .
ـ لكن أرجو أن تتذكر أيضا أنني لست مرتزقا .
ـ كلا ، فأنا مقتنع أنك دائما في صف الملائكة .

هذا التعليق جعل الآخر يبتسم .
ـ ان أردت التكلم عن ملائكة يحملون بأيديهم سيوفا لامعة ، فهذا صحيح .
ـ يجلس واحدهم بصورة قاضٍ فرد فوق البشر الادنين ؟
ـ تلك ضرورة تفرضها المرحلة .

وقرأ اوفي في عينيه القبول التام بدوره . التكملة المأساوية لتمرد شعب حيث تترابط العاطفة والعقلانية . كانت له هيئة الشاب ، لكن عزيمته الفريدة الموجهة نحو العمل كانت تضفي عليه نوعا من الجد والرزانة وشيئا من الهرم . كانت صورة القاضي القتيل هناك ، بينهما ، وكان قد نظر اليها مطولا ، متفكرا .
ـ كان لا بد من مرور ثلاثة أشهر للاعداد لهذه العملية . ثلاثة أشهر ، مدة طويلة حين تشعر بضغط الزمن كما هي الحال الآن .

عملية ! بالعادة ، تستخدم هذه الكلمة من قبل عملاء مأجورين أقسى قلبا ، من قبل عصابات وحشية ومسلحة تسليحا شديدا تكتسح المدن ، تحتل القلاع المعادية . لكنه كان قد لفظها بنبرة الطبيب المشخص للدواء : ذلك هو الاجراء الحتمي لمعالجة المرض بعد أن اجتاز مرحلة المعالجة بالادوية العادية . لم يعد من شيء يجدي الآن ، سوى طاولة العمليات ، بغية اجراء عمل جراحي خالص وجذري . حتى التجار ، التجار الخبراء بمفهوم « السلام » ، كما يقال ، كانوا قد توصلوا الى الاعتراف بفشل أدويتهم البديلة . واحدا تلو الآخر كانوا قد جربوها بصمت وهدوء ، ثم عرفوا عجزها جميعا عن شفاء المريض .

حتى الكنائس ، الجوامع ، المعابد القديمة كانت قد كفت عن دعوة أتباعها المخلصين لاسبوع من الصيام والصلوات ، ترياقها المفضل ، متعبة كلها من اللا جدوى التي انتهت اليها دعواتها ، بأصواتها التقية الورعة .

عملية ! على بعد ثلاثين كيلو مترا من ايرلو ، جرّت امراة من سريرها ثم بقرت بطنها . لم تكن قد ماتت حين تركوها ، بل كانت أحشاؤها مندلقة بين فخذيهما كمشيمة مثيرة للاشمئزاز . كان جهاز المراقبة ، وهو يمتثل بطواعية شديدة لاوامر الكارتل ، قد حوّل دون شفقة ، قدرا كبيرا من الناس الى البأساء وفي واحدة من القرى البعيدة حيث لا يوجد من يدافع ، كان ثمة رجل لم يستطع أداء الضريبة المفروضة في اللحظة المحددة فراى أشجاره من لوز الهند وهي تصادر ، أي بالتحديد، يطوّح بها أرضا ، بعد ذاك ، عمد المعتدون الى حشو فمه بلفافة من الاوامر الميدانية التي تدل عليهم ، ثم أشعلوا ذلك السيجار الغريب .

قدم الوعل ، وهي رمز الجيكو أي الحزب الذي يسيطر عليه الكارتل ، هي التي أوحت بفكرة بتر الاعضاء في آرو ــ أوك . فطوردوا الواحد تلو الآخر . احدهم قطعوا قدمه من العرقوب ثم حشوها في فمه . بعدئذ قطع المتمردون لضحيتهم عكازا من أقرب شجرة اليهم ، وراحوا يتطلعون اليه وهو يحجل على قدم واحدة ثم قالوا له : احرص على ايصال الرسالة التي في فمك الى الرئيس باتوكي .

عائلة من عشرين شخصا ، هم ثلاثة أجيال تماما ، صفيت ظهيرة ذات يوم ثأرا وانتقاما . عميل فر من الجمهور المندفع بعد أن جره مطاردوه كالمخبّل فضرب اثنين منهم ثم التجأ الى بيته يتحصن فيه . وكان يبحث أيضا عن ذخيرة أخرى حين انقض عليه الجمهور ، موجة هائلة دفعها الالم والغضب . سكان المنزل كلهم كانوا قد جروا الى الطابق الاعلى معتقدين أنهم سيجدون ملجأ هناك . لكن المهاجمين أشعلوا النار في السلم ثم انهالوا ضربا وذبحا بكل من حاول القفز من المنزل والزحف الى الدغل بحثا عن الحماية فيه . وللمصادفة ، كانت ابنة أخت ذلك العميل ، وهي ممرضة ، عائدة من عملها بسيارتها ، فوقعت بين أيديهم ، هم المتعطشون للدم . كانوا يعرفونها ، ولم يكن تعطشهم للثأر قد ارتوى بعد . وهكذا راحت تنتقل من يد الى يد الى أن ألقوا بها في ألسنة اللهب ، ثم ظلوا يدورون حول المنزل ، كزوبعة من دم ، صارخين سخطا وغضبا الى أن أتت النار على المنزل تماما . كانوا ينتظرون خمود اللهب ، وحين خمد انقضوا على البقايا يقتلعونها ، وهكذا اقتلعوا الآجر واحدة واحدة بأيديهم المسفوعة والمحترقة ، اقتلعوا حتى قضبان الحديد وألقوا بها بعيدا ، لا شيء كان ينبغي أن يبقى من ذلك المنزل ذي السمعة السيئة ، لا شيء سوى الارض المتكلسة سوى العظام ومستطيل الاسمنت المسود ، لا شيء سوى الاثر الاصهب لوحش التمرد الذي استيقظ .

عملية ، كلمة مطاطة طبقت على طفل عمره سبع سنوات ، هو ابن مدير منفذ من أتباع الكارتل . كان الاب المتهور قد ترك ابنه في سيارته التي أوقفها أمام المكتب ريثما يذهب مع الحراس الى الرئيس باتوكي لاستلام قطعه الذهبية العشر . وحين

عاد لم يجد الا الهيكل المتفحم لسيارته وجثة ابنه المتفحمة وحشدا متراصا من الناس يراقب من بعيد . كان يمسك بيده الملف المشؤوم المتلىء بقطع لعينة من ذوات الخمس ليرات ، وتركه الجمهور ينجو بجلده .

كل شيء بدا بمجزرة الابرياء التي نفذتها جماعات الكارتل شبه العسكرية ، وحملات الترهيب التي شنت على الاسواق والمدارس ، ذابحة كل من يقع بين ايديها، ملطخة جدران الصفوف بالادمغة المتقدة بالعلم . بعدئذ حدثت قضية أولئك القتلة المرخصين الذين انقضوا بكل طيش وتهور على احدى القرى التي بدت مسالمة فوجدوها مقفرة . وهكذا دمروا الاكواخ ، حرقوا الفلال ، ثم عادوا الى سياراتهم كي يعلنوا عن تنفيذ مهمتهم . لكن جلودهم بدأت ، وعلى نحو غامض ، بالاحتراق تحت بذلاتهم الرسمية وحين استندوا الى مقاعدهم ، بدا ألم قاتل يمزق ظهورهم. لم يكن باستطاعتهم ان يتحركوا . ما من احد كان باستطاعته أن يخلصهم من بزاتهم الرسمية تلك . فمع قماشها كانت قطع من جلودهم تنتزع وكانوا يموتون وسط آلام فظيعة فيما عجز كيميائيو الحكومة عن تحديد الصمغ القاتل الذي طلى بعض المجهولين مقاعدهم به حين كانوا مشغولين بتدمير الغلال والمحاصيل .

ـ حتى في حالات القتل الاشد جنونا ، يكون ثمة مخطط ، قال القاتل المحترف، أجل ، كل ما علينا أن نفعله هو الامساك بزمام ذلك العنف وتوجيهه حسب خطة بناءة . جماعتنا يقتلون لكن عليهم أن يمتلكوا حسن الاختيار ذاك . انهم يركزون على الرجال الهامين الا أنهم يقتلون أيضا طبقا للرابطة البسيطة . عميل يتم التأكد منه ، فيموت . مخبر يقضى عليه . وليس بوسعنا أن نفعل شيئا حيال ذلك ، حتى لو شئنا لا بد من أن يكون هناك بعض الشوائب في هذه الانتقامات العادلة . لكن علينا أن نضع خطة ابادة ، وهذه هي المهمة الاصعب ، اختيار الركائز الحقيقية للعمالة ومن ثم القضاء عليها . علينا أن نضرب رأس الافعى بالذات كي لا يعود بامكانها أن تؤذي . . . أمر بسيط .

ـ ماذا يسمونك هنا ؟ سأل أوفي بلا مقدمات . انا أعلم أن الشرطة تطلق عليك مختلف أنواع الاسماء .

ـ طبيب الاسنان ، اعترف وهو يكشر مبتسما .

ـ وبعد ؟ سأل أوفي ، ماذا تتصور بعد ؟

ـ اتصور ؟ قال بنبرة احتجاج ، لماذا تريد أن أتصور أي شيء ؟ هل هذا اختصاصي ؟ كنت أعتقد أنه اختصاصك أنت ؟

ـ مع ذلك ، حين . . . تقضي على أحد ، لا بد من أن تفكر بما سيتبع ذلك ، تفكر بالبديل الذي سيحل محل من تقضي عليه . ما عدا ذلك يكون عملك سلبا ، نوعا من العبث .

فأطلق طبيب الاسنان آهة .

ـ لماذا أنتم ، أيها المثقفون ، أو أيا كان الاسم الذي تطلقونه على أنفسكم ، تفرضون علينا أعباء لا نستطيع تحملها ؟ أنا مثلا ، نشأت على فن القتل، وباستطاعتي ان استخدم ما نشأت عليه من أجل بلادي . فعلى أي فن نشأت أنت ؟ لقد تابعت حملتك الاعلاميـة الخاصة بالكاكاو ، رأيت جماعتك وهي تعمل فاستنتجت منها أن مهمتك هي التثقيف . صحيح ؟ أنت تثير وجدان الناس ، تحرك وعيهم على نحو خطر ، اذن ، الجماهير هي التي اخترتها كميدان للعمل أليس كذلك ؟ هذه هي المهمة التي حملت نفسك مسؤوليتها . لكننا تكلمنا عن هذا من قبل ، وانت تعرف موقعي في هـذا الكفاح . انا غير قادر على كشف المشاكل وتحديدها أو توجيه الطليعة . وجهة نظري بسيطة ، لكنها ناجمة عن تجاربي وخبراتي . انت تعرف ذلك . لقـد وافقت على أن نلتقي لانني أود ان أسألك عن أمر هام . رأي ، ان أردت . لكننـي لست مستعدا للاجابة على اسئلة ليست من اختصاصي ، فلا تسألني عما أتصوره ، ذلك انني ، خارج القضاء على أولئك الناس الذين أعلم أنهم سيئون ، مدمرون ، لا أتصور شيئا . ان ما يجري بعد ذلك ، هو من شأن أناس مثلك .

ـ حسن ، ماذا تريد ؟

فنهض الآخر .

ـ قبل كل شيء اريد أن نقوم بجولة صغيرة معا (قال وهو يبتسـم) ، جولة في البلاد هذه المرة ، انني أحاول ان أجعلك تدخلها لا أن أطردك منها . المشهـد سيكون مألوفا لديك لكنني أعتقد ان القلة منكم تفهم ما الذي سيحـدث بعد قليل . انني أود أن أعرّفك بمنطقة عملي من الوجهة الوحيدة الممكنة بالنسبة الي . انـا واثق من فعاليتك ، وعليك الآن أن تقبل حقيقة أساسية هي اننا حلفاء دائما .

ـ عن أية فعالية تتكلم ؟

ـ لقد زرعت أناسا من الآيرو في طول البلاد وعرضهـا . انك ذكي جدا ، ترى عن بعد فعلا لكن هذا لا يعنيني . انني أعرف تماما ذلك النوع من المفارقة التاريخية (وهز كتفيه) . برأيي ، أنتم جميعا مثاليون ، غامضون ، لكن مع ذلك يمكننـا أن نعمل معا للقضاء على الجيكو . دوري أنا هو ازالة العقبات أمامك .

كانت هيئة الرجل تشبه هيئة موظف كبير أكثر مما تشبـه هيئة قاتـل ، وكان يأتمر بأمره فريق من أولئك الاتباع المخلصين الذين نهضوا في الصالة الخلفية في اللحظة نفسها التي نهض فيها لكن نظرة سريعـة منه جعلتهم يعودون الى أماكنهم . وحدهـا نظرة الخبير يمكن أن تلحظ التنسيق بين حركات أولئك الرجال ، وللتو أحس أوفي برعشة من أمل وتفاؤل . ظاهريـا ، لم يكن الطبيب يعمل كجزء مـن مجموعة ، غير أن تماسك نصف الدزينة هذا من الرجـال الذين نهضوا ثم عـادوا

وجلسوا أمام كؤوس البيرة وبقدر كبير من الدقة والحنكة، كان يشهد كل الشهادة على تقدم التنظيم الذي يشرف على محترفي الاغتيال . شيئا فشيئا أحس أوفي بالرعب والثقة . لكن ظل في نفسه ذلك الاتهام : انهم الرجال الثانويون من يهلكون ويقتلون ، اما الرؤساء والزعماء فيبقون في امان تام لا ينالهم أحد ، يتنقلون بسرعة من مخابئهم هذه الى مخابئهم تلك ، يلعبون الدور المتوقع ، يكسبون الزمن على حساب البشر الذين يقتلون بالمئات .

ـ سوف آخذك بجولة في مدينتنا وسأجعلك تزور مدنا أخرى . بعدئذ سنصل الى مدينة منع التجول ، فما رايك ؟

ـ كيف سنفعل ذلك ؟ سأل أوفي ، كيف ننتقل وهناك منع تجول ؟

ـ لا تهتم بذلك ، فقبل كل شيء ، هي قاعدتي . انها مدينتي ، مسقط رأسي .

ـ أنا أجهل ذلك .

ـ هل هناك مكان آخر يمكنني أن انتقل فيه بمثل هذه الحرية؟ ان غدر بي أحدهم هنا . . . لا ، من يفكر بفعل شيء كهذا .

مثل هذه الثقة بدت قاتلة الى درجة أحس معها أوفي بنوع من الدهشة أشد من أن يحول بينها وبين الظهور ، فقد بدا طبيب الاسنان وكأنه يعرف الطبيعة البشرية على نحو أفضل بكثير مما يظن . لكنه تابع :

ـ كان والدي في زمن الملوك رجل سياسة ، أو شيئا من هذا القبيل ، هل تفهمني ؟ في ذلك الزمن ، أن تكون ملكا شيء هام بالفعل والناس لا ينسون تاريخهم كما تعلم ، نتيجة لذلك لا تحدث كثير من الخيانات هنا .

ثم رفض أن يقول المزيد .

كانت المدينة مبنية بالآجر الذي بدا واضحا أنه صنع من تربتها الفضارية الصلبة الحمراء . وكان يدهش المرء أن يجد نفسه فجأة أمام شجرة صنوبر ضخمة مغطاة بالاوراق والثمار وسط تلك الارض الغبراء المحمرة والجفاف العام لفصل الحرور . سار به طبيب الاسنان على طريق متلو سرعان ما التقى بطريق غير مزفت اجتازاه فوصلا الى ممر تحيط به سنابل عشب الفيل من كل جانب .

ـ الحرور ، علق طبيب الاسنان ، انه الفصل المناسب للثورة . فالحرائق تتقدم بسرعة أكبر والرياح تكون أكثر جفافا وغضب الناس يتصاعد على شكل حلزوني متسارع ضمن زوابع الغبار اللعينة تلك التي تبدو وكأنها أعاصير تكنس الظلام والمضطهدين . أنا أحب الحرور .

ــ وانا ايضا احبه ، اعترف أوفي ، لكن فقط لانه يهبني نوعا من الاحساس بالنشوة ، لماذا ؟ لا أدري ، انه تدفق الضياء والغبار على ما أظن . فحين لا يدخل في العيون ، وأنا هنا أتكلم عن الغبار ، أحس بخدر وتنميل في جلدي كله . يكون جسمي أخف بعشر مرات .

ــ ذلك لانك تفقد الرطوبة . انظر ، هاهو ذا المكان الذي لا يحس بفصل الجفاف فعلا . آه ، لو تعلم كم من الدماء سال في هذه البقعة من الارض قبل خمسين سنة . ترى هل لاحظت التغير في الجو ؟

فجأة ، احس أوفي بأن الحر القاتل الذي تتميز به ايرلو يتحول الى شيء من الاعتدال والرطوبة ، فشرع يستنشق الهواء بنهم شديد ، متطلعا أمامه عله يكشف عن وجود مجرى مائي قريب .

ــ هذه المنطقة بالغة الخصب الى درجة أنه طوال فترة من الزمن ظلت القريتان تتصارعان لامتلاكها : كيجاسي تؤكد أن الطريق الذي اجتزناه لتونا هو الحد الفاصل بين القريتين ، وايرلو تدعي العكس وهو أن هذا الحد موجود في منطقة أعلى بكثير من الجدول الذي يعبر الوادي . نزاع غبي ، عقيم . فقد كان هناك الكثير من الماء والارض بحيث يكفي سكان القريتين معا .

ــ وكيف حلت المشكلة اخيرا ؟

فابتسم طبيب الاسنان :

ــ بعمل رباني . على كل حال ، هكذا فسره البعض ، لكن ان كان هناك من شيء ، الناس هنا يتمسكون به كثيرا فانما هو ايجاد الصيغة التي لا تدع احد الخصمين نهبة للغيظ والحنق . أما اليوم فوا أسفاه عليهم ، وا أسفاه على أولئك الذين يشغلون الاماكن المقدسة ، هذا ما ينبغي قوله ، أليس كذلك ؟ فالعاملون على تفسير الاشارات ، النذر ، الوحي ، أو القانون المكتوب ، أولئك هم الجهاز الذي أوجده المجتمع لحماية العدالة التي تضمن وحدها تماسكه وترابطه . هل أنت موافق ؟ لهذا ، حين يقوم من عهد اليهم المجتمع بتلك المهمة بخيانة تلك المهمة وبيع ضمائرهم لقوى الفساد . .

ــ كالقاضي مثلا ؟

فتوقف الطبيب :

ــ بالتأكيد . لكنني لم اكن أفكر به على نحو خاص . ترى هل تعتقد انني احاول تبرير نفسي أو البرهنة على أنه كان لا بد من القضاء عليه ؟

ــ أنا أعتقد ذلك . نعم .

ــ لقد قلت لك انني سآخذك في جولة تفتيشية . ولتعلم أن الماضي موجود دائما ، حاضر دائما ، تاريخنا تحفظه هذه الانهار المدماة ، لهذا قل لي ، عندما

كان ملك من الملوك في تلك المرحلة يخون الثقة التي وضعها بـه شعبه ، ما تراه كان يحل به؟ الم تكن العادة في تلك الايام هي أن يستدعوه ويقدموا له حقا من السم ثم يطلبوا اليه الاعتزال في جناحه الخاص ؟

ـ كم أحب أن أراك تدعو باتوكي لاخذ قبسة من السيانور .

ـ لا ، ها هو ذا السبب في أن من الضروري جعلهم يبتلعونه بالقوة ، أيا كانت الوسيلة المتاحة لنا (وهنا عبرت محياه رعشة اشمئزاز) لكنهم لا يتخلون عن أمكنتهم بقدر كبير من الكرامة .

كان القاضي قبل أن يدفع الحساب النهائي قد سيطر عليه الرعب تماما ، اذ كان يرتمي تحت المقعد لدى سماعه سيارة تفرقع امام المحكمة . ولم يكن المسدس الذي أعطوه له قد طمأنه الا قليلا . كان يضعه باستمرار في درج مفتوح قليلا من أدراج مكتبه لكنه كان يخاف كثيرا وهو يتصور أنه مهدد بالخطر واذا ما حاول الامساك به أخفقت اصابعه في فعل ذلك . هذا الخوف جعله يأمر حتى بتفتيش المحامين والنواب العامين لديه . في البداية ألغى عادة الذهاب الى لعب التنس ثلاث مرات اسبوعيا ، بعدئذ ألغى صلاة الاحد . فيما بعد أقلع عن عادة الذهاب الى العشاء في نادي الروتاري لكن حتى هذه التضحية الفائقة لم تكن التضحية الاخيرة التي اضطر لتقديمها . في البدايات ، حين شرع يبارك في المحكمة الجرائم وأعمال القتل نفسها امتثالا لامر يأتيه بالهاتف أو غمغمة من زعيم الجيكو ، استحق اللقب الذي التصق به منذئذ وهو : بابا رعاة البقر ، وقد سقط مسدسه في احد الاحتفالات العامة مما جعل المدعوين ينفجرون ضحكا وهم يرونه يحاول عبثا استعادته ووضعه في جيبه من جديد . مرت الشهور ولم يعد أحد يرى بابا رعاة البقر في الاحتفالات الرسمية أو في أعياد المحبة ، بل وصل به الامر أن بات يأمر بتفتيش حرس الشرف عند افتتاح الجلسات ، وهي الوسيلة التي اختارها لتدمير أعداء الجيكو واثراء عملائه بتثبيت تصاعد الخسائر والفوائد بمعدلات غير معقولة . . .

ـ في نهاية المطاف ، كان الامر بسيطا لكن كان لا بد من الانتظار والمراقبة طوال ثلاثة أشهر ، فالآخرون اصحاب فطنة ايضا .

وصل الرجلان الى منحنى من منحنيات الجدول . هناك كانت شجرة قد سقطت عليه فقامت بدور الجسر . عند الشجرة توقف الطبيب .

ـ هو ذا العمل الرباني . ففي لحظة معينة من لحظات صراعهم الغبي ، هبت عاصفة أسقطت هذه الشجرة على الجدول . حينذاك قام كاهن كيجاسي باتصال مع نظيره ، كاهن ايرلو ، ليسأله ان كانت ثمار لوز الهند التي يستخدمها في التنجيم قد قدمت له المعنى نفسه الذي قدمته له ثماره التنجيمية . بالطبع ، كان الامر كذلك ، عند ذاك التقى شيوخ الجانبين ثم وقعوا اتفاقا مفاده أن السماء أظهرت

ارادتها بأن جعلت هذه الشجرة تسقط لتشكل جسرا يصل بين البلدتين ويوفق بينهما ، فكانت تلك نهاية الحرب . والآن ما يزالون جميعا يعملون على نحو مشترك . وعلى الرغم من مرور ثلاثة اجيال ، وعلى الرغم من تعدد الزوجات وتزايد معدلات الولادة ، ما يزال هناك هكتارات وهكتارات من الارض لم تفلح بعد (وبضربة من قدمه قذف حصاة الى ماء الجدول) فيالغباء الطمع البشري !

اجتاز الطبيب ، وهو يتقدم أوفي ، الجسر الذي كان يؤدي الى كيجاسي ثم اراه ما تبقى من مديرية الشرطة ومحكمة المقاطعة . اذ كانت النار قد دمرتهما وكانت ظلال المبنيين العاريين ما تزال ماثلة ازاء أراضي القرية الخصبة . هذا النوع من المناظر بات مألوفا كثيرا . فالناس الذين يسكنون مثل هذه القرى لم يكونوا كأولئك الذين يسكنون القصبات التجارية . اذ حتى عواء كلب ، بالنسبة الى سكان هذه القصبات ، كان ذا نوعية محزنة فهم لا ينامون قط لعلمهم أن القوارض الليلية تتحرك وتدور ، كانوا يحرسون وعيونهم مغمضة وكان رجاؤهم الوحيد هو ان يغادر اللصوص السلابون منازلهم بلا استخدام للعنف وبأسرع ما يمكن ، أن يسلبوا أمتعتهم دون أن يمسوا احدا منهم . وهكذا حين كانت الخطا تقترب منهم مهددة بالخطر ، كانوا يسمعونهم شخيرهم الكريه الفظيع ، عند ذاك يتجرأ اللصوص السلابون اكثر فلا يتركونهم الا وقد تركوا شجات وندوبا كثيرة في أجسامهم كي يتذكروا أنهم مروا من هنا ، وكان هؤلاء يزعمون أنهم سقطوا على شظايا زجاج . أما أولئك الذين يعملون في الارض فكانوا أبعد من ان يستسلموا على هذا النحو . اذ حتى عندما كان الخصم الاقوى منهم يجبرهم على أطباق أفواههم ، كانت عيونهم الكبيرة تظل مفتوحة تتكلم ، تقول بكل وضوح : اننا نسجل . لم يكن باستطاعتهم ، هم المرتبطون بالارض ارتباطا أبديا لا ينفصم ، أن يتقبلوا وجودا يذهبون فيه ضحية للغدر . لذا، فان تلك الافواه الاجنبية التي كانت تلتهم كدهم وعرق جبينهم ، دون أن تترك لهم الا القشور ، في نظام قمعي يجردهم حتى من أرضهم بجرة قلم او بقرار من قاض مرتش ، أقول تلك الافواه دفعتهم دفعا حتميا القيام بشكل من أشكال رد الفعل . ولقد تشكل رد الفعل هذا على مهل ثم انفجر على شكل ثورات غضب متفرقة اتخذت في البداية شكلا محددا هو قتل رموز قوى الاضطهاد . أما الحركة المركزة فقد كانت في طريقها الى الولادة ، تستعد لكنس كل شيء أمامها .

وكان الكارتل قد تنبه الى همهمة الغضب التي وصلت حتى بابه .

سحق الطبيب تحت قدميه الرماد الذي كان يغطي البقايا المحترقة لمكتب تحصيل الضرائب ثم التفت نحو اوفي .

ـ حسب اعتقادك ، الى اين تؤدي تلك المعتقدات التي تعمل على نشرها بواسطة رجال الآيرو ؟

ـ الى استعادة كل ما أخذه بعض الافراد من المجتمع ، الى اذابة المجتمع نفسه ..

ـ بلا عنف ؟

ـ ولم هذا السؤال ؟ فأنا لم أنف هذا الاحتمال .

ـ وأولئك الذين ستكون خسارتهم أكبر ، نتيجة نشاطاتك هذه حين يلاحظون ما تنوي تنفيذه ، ما تظن أنهم فاعلون ؟

ـ تماما ما يفعلونه الآن : اقتلاع ما يستطيعون اقتلاعه والقضاء على كل من يعتقدون أنهم مسؤولون عن نشر فيروس الفكر .

ـ والى أين يؤدي بهم ذلك ؟

فاعترف اوفي ، وهو يتساءل في سره الى أين سيؤدي به ذلك التحقيق ، بأنه كان قد تصور عددا معينا من الاجراءات المضادةالتي يمكن أن يتخذها الكارتل ، فهز الطبيب رأسه بهيئة من يفكر ثم أشار الى أنقاض المباني العامة .

ـ هل سيوقفهم هذا ؟ أتظن ذلك ؟

فسأله أوفي بدوره ، وقد قدر انلحظة تغيير الادوار قد حانت .

ـ ما هو الجواب برأيك ؟ قتلتك المحترفون ؟

فحدق طبيب الاسنان تحديقة مباشرة الى عينيه :

ـ انا لا انكر طريقتي كما لا انكر طريقتك ، فليستأي منهما حاسمة بذاتها. انك تحكم دائما أن طرقك تنبع تلقائيا وأنك عاجز عن تصور وسيلة أخرى ، أيا كانت ، انلم تكن قلبعطالة الجماهير الى حماسة .لكن الطرف الآخر يعلم أن ذلك الذييفعله شاذ ، شاذ شأنه شأن الورم السرطاني ، شاذ لكنه من أصل العضوية. منذ البداية ، ليس هناك الا وسيلة واحدة هي اجتثاث ذلك الورم السرطاني ، انتزاع الراس . الانتزاع الكامل . فللطرف الآخر نظمه ومبادئه الخاصة يا أخي ، وعلينا نحن أن تكون لنا نظمنا ومبادئنا أيضا .

ـ لكن ما هي المحصلة النهائية ؟ ما هي الغاية ؟

ـ أوه ؟ ما تنفك تتمسك بالكلام عن الوسائل والغايات ، أليس كذلك ؟حسن ، سنقوم بجولات أخرى ، واني أعترف ان اللوحة ليست مظلمة في كل مكان ، لكن طوال انشغالك بالجولات التي كنت تبذر فيها أفكارك المثالية البعيدة ، كان أصدقاؤك يطبقون على حقولك ملزمة من فولاذ ، والحقيقة ، يا أخي ، أن تلك الملزمة توشك أن تطبق عليها اطباقا تاما .

*   *   *

« ٨ »

ـ هل أحضرت الكلب ؟

سأل كاتب المحكمة دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات حين سمع الابواب المنقوشة والمزينة بالمسامير وهي تنفتح بصرير معدني يصم الآذان ، فقد تابع تنقيبه ضمن اكداس الوثائق المتراكمة فوق طاولة طويلة . تقدم الدنغاري(١) مع الرجل المكلفبحراسته الىأن وصل الصف الاول من الاعمدة وهو يدفعه لدى كل خطوة .

التفت الكاتب التفاتة خفيفة ثم كرر باللحن الفظ نفسه :

ـ هل أحضرت الكلب سالاو الذي لم يعد يعرف أمه .

فدفع الدونغاري سجينه باتجاه المنصة ، ذلك السجين الذي كان يتقدم على وجل شديد مغطيا نفسه بذراعيه كي يحمي نفسه من الضربات التي كان يتوقعها . كان ما يزال صامتا لكن فكيه كانا قد أصيبا بنوبات تشنجية كما كان رأسه يتحرك على نحو تشنجي من الاعلى الى الاسفل . على المنصة ، الواقعة في الطرف الآخر من الصالة ، كان يجلس شخص مهيب ذو عمامة ، سرعان ماأحنى السجين رأسه انحناءة شديدة حين لاحظ وجوده . في وجهه ، كان ثمة شقان لا تعبير فيهما ولا يمكن النفاذ اليهما ، لهما هيئة عينين وتعبيرهما الوحيد الدائم هو الضجر والازدراء . كان جسمه يملأ مقعدا كبيرا متقن الصنع ، لكن لولا المسند المغطى بالمخمل ، لم يكن باستطاعة قدميه أن تصلا الارض . وبمعزل عن الانف الذي كان بارزا قليلا ، أعقف قليلا ، فقد كان الوجه أملس ناعما لا تجاعيد فيه ولا تغضنات .

الى جواره ، كانت الاشكال البشرية التي لم يكن الموقف يوحي لها بما يثير الاهتمام ، تسترخي في كراسيها . رفع فتى صغير عينيه الوانيتين عن القصة المصورة التي كان مستغرقا فيها ثم نظر الى المحامي فالى المخلوق الذي كان قد أقعى ، خائفا وجلا ، عند قدمي الدونغاري ، مطأطىء الرأس تماما . عاد الطفل فحرك أجفانه الطويلة ثم ترك ضحكة صغيرة منفعلة تهرب منه ، وهو يندفع عبر الصالة قائلا بصوت فيه زازأة(٢) :

ـ اذن ، فهذا الكلب أخرس ؟

---

(١) الحارس ، بلغة الهوسا .

(٢) الزازأة : لفظ الجيم زاي .

ونظر من جديد الى الشخصية ذات العمامة ثم أبتسم فرد عليه تمثال بوذا الجامد بابتسامة خفيفة ساهمة . اعتبر الدونفاري هذه المقاطعة نوعا من الاشارة فداس بقدمه على ظهر السجين ثم دفعه الى الامام :

ــ ازحف ، أيها الكلب ! الزاكي(١) يسألك .

فأسرع المدعو سالاو ، وهو يتوقف من حين الى آخر لتقديم فروض الولاء والطاعة بيده التي كان يرفعها محييا ، نحوَ المقعد الرئيسي على المنصة قائما بجملة غريبة من الحركات : اذ كان يجر نفسه على عقبيه واليتيه ثم يقذف بنفسه لمتر واحد على الارض ، باسطا يديه ، حاكا بأطراف اصابعه البلاط الرخامي ، منزلقا بعد ذلك بضعة أمتار على ساق واحدة والية واحدة ، وراحة كفه منبسطة على الارض ، دابا على اربع وهو ينوح .. موقعا تقدمه بالتواءات سريعة مديدة ، مقدما فروض الولاء والطاعة بجمع يده المرتعشة ، مطلقا قرقرات سريعة من بلعومه فيما يعلو رأسه ويهبط بالتحية :

ــ رانكا ديدي ، رانكا ديدي(٢) .

كان السجين قد عبر نصف الصالة عندما تحرك زاكي آموري حركة خفيفة ، مشيرا اشارة غير مفهومة تقريبا لكن الناطق بلسان المحكمة ، الكاتب الذي كان يرتدي اللباس الاوروبي لاحظها للتو ، فتقدم من الطاولة الى ان وصل الى طرف المنصة ثم صرخ :

ــ يكفي !

فتوقف السجين في الحال ، ثم حيا برأسه وبجفاوة بالغة مرات عدة دون أن يتوقف عن الغمغمة : رانكا ديدي ، رانكا ديدي . عند ذاك سمح الفتى الصغير ذو الاجفان الطويلة لضحكة صغيرة بالانفلات ، ثم عاد وقذف برأسه الى الوراء ، ومد كفه باتجاه كوب موضوع على مقربة منه ، ثم أخذ منه قطعة حلوى شرع يقضمها بطرف أسنانه . أما رجال المحكمة الآخرون الجالسون على المنصة فقد رشقوا المتهم بنظرة خاطفة من تحت اجفانهم ، كفوا بعدها عن الاهتمام بما يجري ، ربما باستثناء واحد منهم كان على ما يبدو حريصا على ابقاء عينيه ووجهه بعيدا عن ذلك المسكين المذعور الواقف وسط الصالة ، لكن حرصه ذاك كان غير ذي جدوى فالسجين لم يكن في حالة تسمح له بمعرفة هويته أو التعرف اليه . من جديد أشار الرجل ذو العمامة أشارة من رأسه لم يفهمها الكاتب الا بالكاد ، وسرعان ما بدأ بعدها التحقيق :

ــ يود الزاكي أن يعلم ان كنت أنت من باع حق بكورته مقابل طبق من العدس .

---

(١) الزاكي : السيد بلغة الهوسا .

(٢) اطال الله عمرك : اطال الله عمرك .

هنا برم السجين يديه وهو يلتفت من جهة الى أخرى .

ــ رانكا ديدي . . . انا لا ادري . . . أقسم لكم انهم خدعوني . . .

فشرع الكاتب يضحك .

ــ خدعوك . . . هل أنت معزاة في عنقها حبل ؟ خدعوك ؟ ربما علينا الآن أن نتحقق فيما اذا كانت القضية الآن تتعلق بمعزاة فعلا أم برب أسرة يدرك ما يفعل .

ــ رانكا ديدي ، رانكا ديدي . . .

ــ مجهولون جاؤوا للسؤال عنك ، أناس مجهولون تماما من خارج منطقة النهر . ليسوا حتى مؤمنين بل كفرة . قدموا لك الوعود ، رشوك ، فقبلت أن تثير المشاكل بين قومك ، أن تبذر بذور الاستياء والسخط بين رعايا الزاكي !

ــ كلا ، كلا ، يا صاحب السمو ، أقسم بالله لست مثيرا للمشاكل .

فأصبحت ابتسامة الكاتب أشد انقباضا وكآبة .

ــ حسن ، ما أنت اذن ؟ هذا ما يود الزاكي معرفته . ما أنت ؟ هيا تكلم .

غمغم سالاو بصلوات صامتة ، ثم رفع بغير جدوى عينيه باتجاه السقف المعقود على شكل قنطرة . وبجهد بالغ ابتلع ريقه ثم ألقى نفسه في غمرة شروح وتفسيرات كان يود كثيرا أن تتاح له الفرصة الكافية لاعداد نفسه لها .

ــ ماذا تريدني أن أفعل يا صاحب السمو ؟ الارض كانت خرابا فعلا . وانا لست الا جاهلا وليس هناك من احد يقدم لي النصيحة . الارض صارت قاحلة مجدبة ، لا ينبت فيها شيء ، بل من المستحيل زراعتها . كنا بلا شيء ، شأني شأن صهري عبدو وواحد أو اثنين آخرين . ولولا رحمة الله لهلك أطفالي الصغار من الجوع . بل انني قصدت مرة أو مرتين باب هيئة المناجم لطلب الصدقة من البيض ، فبعد كل شيء ، كانوا هم من خربوا لي الارض ، لكن البواب كان يطردني في كل مرة . انت تعلم ، لقد قال لي انني أوسخ باب البيض ، وحين عدت مرة ثانية ، استدعى الشرطة التي وضعتني في السجن طوال اسبوع ، فماذا كان بوسعي أن أفعل يا صاحب السمو ، حين اتى هؤلاء الناس ؟ كانت الارض تكلف حراثة وزراعة أكثر بكثير مما تنتج . إني أطلب المغفرة من الزاكي لجهلي .

ــ هكذا اذن ! حين جاءك أولئك المجهولون الكفار ، اعتقدت ان الله ابتسم في وجهك ؟ ظننت أنهم زوار بعثتهم السماء لمساعدتك وجعلك ثريا ؟

ــ اعذرني يا صاحب السمو . لقد خدعني صهري عبدو . فقد قال لي ان أولئك الناس جاؤوا لمساعدة الفقراء أمثالنا .

ــ لمساعدة الفقراء أمثالكم ! قال الكاتب وهو ينخر ازدراء ، لان المكان الذي جاؤوا منه ليس فيه من هم بحاجة للمساعدة . وزعيم قريتك ، اظنه كان مريضا او ميتا ؟

فبدت على سالاو هيئة المنزعج ثم قلب عينيه باحثا عن تفسير ، غير ان صرخات الكاتب أخرجته فجأة من خدره .

ـ أجبني ! فأنا الذي يتكلم ، لا الحائط .

ـ المغفرة يا صاحب السمو ، راح الرجل يتضرع ، فأنا لم أفهم قصدك .

ـ انا اسألك ، الم يكن لديك زعيم قرية تسأله النصيحة ؟ أم تحسب أن الايام كلها التي جاء فيها المجهولون يقترحون عليك أن تكسب المال من الارض هي بغير قيمة ؟

فاستمر الرجل يفتل يديه .

ـ رانكا ديدي ، رانكا ديدي ، أنا لست بالحقيقة الا أحمق . ليس بوسعي الا أن أطلب عفوك . . .

ـ لم ترض بكونك أحمق ، فأصبحت عميلا لاولئك الناس . تجوب القرى الاخرى ، تخدع الفلاحين الآخرين بأن تعدهم بالثروات التي ستسقط عليكم من السماء .

وفي طوفان الاتهامات التي انهالت عليه ، تعلق السجين بقشة :

ـ كلا ، كلا ، لو تسمح لي يا صاحب السمو بأن ادافع عن نفسي ، أنا لست عميلا لهم . . . لست عميلا لهم . . .

قاطع الكاتب يديه ثم زم شفتيه وهو ينتظر .

ـ أنا لم أكن الا دليلا ، يا صاحب السمو . كانوا يريدون دليلا لهم في المنطقة المحيطة بمنطقة امتياز المنجم . أما ما جرى بينهم وبين الآخرين فأحلف بالله انني لا اعرف شيئا عنه . أن تجلب يا صاحب السمو صهري عبدو ربما سيكون باستطاعته أن يشرح لك الامر . لكن انا ، أقسم لك إنني لم أكن سوى دليل .

ـ وما الذي تعرفه عن عبدو هذا ؟ هذا الرجل الذي تعتبره مسؤولا عن كل شيء ؟

ـ صهري ، يا صاحب السمو . انه يعمل حارسا لدى شركة المناجم . ان شئت يا صاحب السمو اسمح لي أن أشرح لك شيئا . . .

ـ الزاكي يود أن يسمع كل الشروح التي ترغب في تقديمها .

ابتلع الرجل ريقه مرات عدة ثم تمتم صلوات صامتة سريعة .

ـ كما تعلم يا صاحب السمو ، البيض ينقبون في هذه الارض منذ زمن طويل ، تغدر الارض حطاما ، لا تساوي شروى نقير . مجرد حصى لا اكثر . فالمطر يجرف
تغدو الارض حطاما ، لا تساوي شروى نقير . مجرد حصى لا أكثر . فالمطر يجرف
التربة الخصبة التي يحفرونها ، واذا ما استثنينا رقعة هنا ورقعة هناك يغدو حتى الماعز لا يرغب في العشب الذي ينبت فيها . أرجوك ، أتضرع اليك يا صاحب السمو

لا تظن أننا نشكو أو نتذمر . فمنذ اللحظة التي جمعنا فيهـا زعيم القرية وقال ان لديهم اذنا من الزاكي بالعمل ، سمحنا لهم أن يحفروا حيث يشاؤون . لكن انظر يا صاحب السمو ، حين انتهوا ، باتت الارض لا تساوي شروى نقير فعلا . رجل كعبدو كان قادرا على ايجاد عمل لدى البيض بصفة حارس ، لكن البقية منا . . . .

وباشارة ضجر من الزاكي ، التفت الكاتب فجأة ثم انحنى مقربـا اذنه من شفتي سيده ، فيما استمر المتهم يسرد لائحة آلامه وبأسائه الى أن قاطعته صرخـة كنباح الكلب أطلقها الكاتب فأوقفته قبل أن يكمل الكلمة . اطلق الطفـل ذو الاجفان الطويلة ضحكة مجنونة ثم قذف باتجاه المتهم الواقف وسط الصالة قطعـة حلوى كان قد قضم بضعة منها ، بعدئذ استأنف قراءة قصصه المصورة .

هز كاتب المحكمة رأسه جوابا على حركات شفتي الزاكي ذي العمامة وتمتماتهما غـير المسموعـة .

ــ من الواضح يا صاحب السمو انه لم يقل كل الحقيقة (والتفت بكل حيوية نحو الرجل ثم صاح) : أولئك الناس ، ألم يقولوا لك ان الزاكي سمح لهيئة المناجم بالاحتيـال عليـك ؟

فأجاب سالاو هازا رأسه بالنفي ، غير أن كاتب المحكمة أوقفه بفظاظة .

ــ انت وعبدو ، ذلك ما كنتم تحكونه في القرى كلها . كنتم تريدون منهم أن يتمردوا على الزاكي ! لا تكذب أيها الكلب ! كنتم تريدون اشعال النار في منطقة كروس ريفز كلها بمساعدة أولئك الناس .

فبسط المتهم يديه باعياء شديد ثم غمغم منكرا التهم انكار الخائف الوجل .

ــ تكلم بصوت أعلى .

ــ يا صاحب السمو ، انهم يحكون الكثير من الاشياء ، لكن يشهد الله انني لم اتلفظ بكلمة واحدة ضد الزاكي . وانني أسألك من أنا يا ترى لكي أرفع صوتي ضده ، هو صاحب السمو ؟ صحيح أنهم قالوا ان البيض خربوا الارض دون أن يدفعوا لنا قيمتها الحقيقية ، كما أن عبدو قال ان من العـدالة أن نعمل للاستفادة من الابيض. فالابيض ليس أخي يا صاحب السمو . لهذا لم أر بأسا في أن أحاول اخذ المزيـد من ماله .

ــ هل تعرف القراءة ؟

فطرف الرجل بأجفانه ، وقد ارتبك ازاء هذا التغيير في التكتيك .

ــ أنا أعرف القراءة ، يا صاحب السمو ؟ كلا . . . أنا . . .

ــ هذه الورقة التي وقعتها ، انت والكلاب الآخرون الجائعون ، هل تعلم حقا ما يوجد فيها ؟

ـ عبدو قراها لي يا صاحب السمو . وكل ما قاله ، انها تحوي الموافقة على ان يهتموا بقضيتي المرفوعة على هيئة المناجم . انهم يسمونها كتاب تفويض .

ـ اهذا كل شيء ؟

ـ وما عساها تكون يا صاحب السمو ؟ أي شيء آخر يمكنها ان تكون ؟ عبدو قراها لي ، بل انني سألته كم تراها تكلفني ، عبدو صهري ، وقد قال انها لن تكلفني شيئـا .

ـ وماذا ستقول انت ايها الامي المغفل ان قلت لك ان هذه الورقة التي وقعتها تمنح ارضك لاولئك الناس الذين تقول انهم اتوا لمساعدتك ؟

ـ شي !غي ! (١) .

افلتت منه الشتيمة دون أن يعلم ، فانحنى الى الارض بحركة انصياع شديد ، لامسا الارض بوجنته طالبا المغفرة . بعد ذاك انخرط في سلسلة من النواح والندب سائلا السماء ان تقول له ما هي الذنوب التي ارتكبها لكي تعاقبه على هذا النحو ، حينذاك تذكر فتوقف وقد جحظت عيناه تماما .

ـ لكن . . . عبدو ! صهري ذاتـه ! ارجوك يا صاحب السمو ان تغفر لي ، لكن هل يعقل ان يفعل بي هذا صهري ذاته ؟

رشقه كاتب المحكمة بنظرة اشفاق ملؤها الازدراء ، ثم سأله :

ـ متى رايت صهرك هذا آخر مرة ؟

فأجاب الرجل بعد أن حك راسه :

ـ يجب القول انني لم اره منذ شهر . وهذا غريب ، فقد كان يزورني مرةواحدة على الاقل كل اسبوع .

تبادل الكاتب والزاكي النظرات ، وللمرة الاولى ، ارتسم ظـل ابتسامة على شفتي الشخصية المهيبة ذات العمامة . أما على محيـا المتهم ، فقد حل الارتباك محل الدهشة ، بعد ذاكحل السخط والغضب ، فأغمض عينيه ثم استنزل في سره غضب الله العلي القدير على ذلك الغادر الخـائن ، قريبه الذي لم تكن قرابته سوى قرابـة نساء والذي استطاع أن يفعل بـه شيئا كهذا . كان كاتب المحكمة يراقبه بانتبـاه شديد ، بعد ذاك تبادل النظرات مع الزاكي الذي هز راسه هزة خفيفة .

حينذاك طغى على صوت الكاتب نبرة التوبيخ الابوي .

ـ والآن ، يمكنك ان ترى ما فعلتـه بتسليمك شؤونك لايدي الاجانب ، الآتين من الجنوب . ابوك هنا ، وانت تعلم أنك ان سببت اية ازعاجات ، فلا بد أن تأتي لتجده . وان كان لديك انطباع بأن البيض قد خدعوك ، فلمن كان ينبغي أن تتوجه طلبا للعدالة ؟ أليس هو نفسه من اعطاهم موافقته في البداية ؟ نعم أم لا ؟

---

(١) ابن الزنى ! القذر !

ـ بيدك حق ، يا صاحب السمو . انا غبي .

ـ ارضك ، انت والآخرون ، اصبحت الآن ملك الغرباء الذين تظاهروا بأنهم اخوتكم . الابيض ، على الاقل ، لم يفعل سرى أنه استعارها . لقد دفع لكم ايجارها ثم اعادها، كما قدم جزءا من الارباح التي كسبها الى الخزينة . من هذه الارباح يمكننا ان نبني لكم المستشفيات ، المدارس ، نشق لكم الطرق . لكن ، نتيجة الطمع ، لم تترددوا في اثارة المشاكل ضد الزاكي ، ابيكم نفسه الذي فعل الكثير من أجلكم ، الانسان الوحيد الذي يعلم كيف يتعامل مع البيض الذين تلقون عليهم الكثير من اللوم . لقد وقعت ورقة لا تعرف كيف تقراها لتجد نفسك بعدها فجأة بغير ارض .

وفي الحال ألقى الرجل الذي جرد من ملكيته بنفسه ارضا ، باسطا ذراعيه .

ـ عفوك يا صاحب السمو لكلب بائس جاهل . فأنا لست الا طفلا مخدوعا مضللا . اغفر لنا يا صاحب السمو ، وساعدنا لاستعادة أرضنا من هؤلاء الكفار الملعونين .

حدق اليه كاتب المحكمة دون أن يبدو عليه اثر من دهشة ، ثم أدار وجهه بعيدا عن الرجل المنبطح ارضا ، المعفر وجهه بالتراب ، لكي يخبر الزاكي بالمجريات الاخيرة للقضية . فهيئة المناجم كانت قد طردت جميع المستخدمين الذين يشك بأن لهم دورا في هذه الموجة من الاضطرابات أو تلك . أي بعبارة اخرى ، كل من ليسوا من السكان الاصليين لكروس ريفر . أما عبدو نفسه فقد كان في أمان ، رهين السجون الفاصة بنزلائها في الادارة المحلية . ولم يكن ليطلق سراحه الا عندما يجعله التعذيب يقر ويعترف بأنه ضلل الآخرين وابتز منهم أرضهم ... لقد أسلموه للتدريب على الحماقة والغوص فيها الى الاعماق كي يغدو بامكان المسؤولين ان يطلقوا سراحه. لكن من يدري أنه لن يكشف الخداع للآخرين ، لن يبدأ من جديد باثارة الاضطرابات ؟ وافق الرجل الصغير الحجم المسترخي في كرسيه بهزة من راسه . والمرة الاولى كان صوته مسموعا تقريبا .

ـ اريد أن تخلى كروس ريفر من هؤلاء الناس .

ـ لقد انتشروا في كل مكان يا صاحب السمو . ولقد بدأت المشاكل مسبقا في معامل الغزل في دار ما . واولئك الذين أرسلناهم للتحقيق يعتقدون أن هؤلاء هم الاشخاص انفسهم . كل مراكز الكارتل ، يا صاحب السمو ، بل حتى معمل الاسمنت في سورو ...

فأبدى الرجل الكبير اشارة تدل على نفاد الصبر .

ـ يجب كنسهم حتى آخر رجل .

ــ لم يعد ممكنا ان نعرف من هم رجال الآيرو ، قال كاتب المحكمة بنبرة المدافع ، فالمسألة الآن ليست مسألة القادمين الجدد ، اذ أن هناك الكثير منهم حلوا في كروس ريفر منذ سنين ، ولم يبدؤوا حتى اليوم باظهار أنفسهم الى النور .

ــ السكان الاصليون في كروس ريفر يعرفون بعضهم بعضا . أما أولئك الذين لا يعرفون ....

ثم اغمض الزاكي عينيه تعبيرا عن الضيق والسأم ، واضعا بذلك نهاية للحوار ، فتراجع الكاتب وهو ينحني ثم عاد الى الرجل المنبطح أرضا وسط قاعة المتفرجين الواسعة ، قائلا بصوت جاف :

ــ قف !

فانتصب الرجل بشيء من الجهد ، متخذا وضعه الاولي مقرفصا على ربلتي ساقيه .

ــ أنت لا تستطيع طلب العدالة حسب القانون ، كما تعلم . فالاتفاق اتفاق ، وما من شيء في هذا العالم يستطيع ذلك بوجود هذه الورقة التي مهرتها بآثار أصابعك أمام شهود . ما من شيء يستطيع ازالة تلك الآثار . لقد منح توقيعك أرض أجدادك للصوص غرباء جاؤوا من وراء النهر .

ــ أرجو أن يساعدنا أبونا ، ان كان ذلك بالامكان يا صاحب السمو ، غمغم الآخر ، فليس لدي شيء آخر أستطيع فعله .

ــ كم من الرجال الاصحاء يوجد في قريتك ؟

فأطرق الرجل ، عاقد الحاجبين ، مفكرا ثم انتهى الى القول انه ربما يوجد في القرية أكثر من مائة بقليل ، فهز الكاتب رأسه .

ــ حسن ، اجمعهم ، قل لهم ما حدث ، قل لهم أن يقوموا بجولة في القرية وأن يضعوا علامة على كل الامكنة التي يعيش فيها أولئك الغرباء حيث يعملون وحيث يأكلون ويشربون ، هل فهمت ؟

ــ سنفعل ما تقول يا صاحب السمو .

ــ افعل ذلك ، لا أكثر . لا تفعل شيئا أكثر مما قلت لك .

ــ فهمت يا صاحب السمو .

ــ هناك أكثر من وسيلة لكسب العدالة . لقد قرر الزاكي أن يعفو عن حماقتك السابقة . لكن لا حماقات بعد الآن . اغلقوا أفواهكم وافتحوا أعينكم . استعدوا وانتظروا أوامر الزاكي ، ومن الآن فصاعدا لا تعملوا شيئا من تلقاء أنفسكم .

فسجد الرجل لامسا الارض بجبهته .

ــ الآن ، أنا أعلم أن الزاكي عفا عن ابنه الابله . رانكا ديدي ، فنهض الرجل الكبير ، وفي الحال انتصب رجال المحكمة الآخرون نصف النائمين في مقاعدهم ثم رفعوا

أيديهم علامة الطاعة والولاء ، باستثناء الطفل ذي الاجفان الطويلة الذي نهض بتكاسل وامسك بكوب الحلوى ثم صعد الى المنصة بفناج ، حينذاك وضع زاكي آموري يده على راس الطفل ثم خرج بخطا مهيبة جليلة .

بعد ذاك نهض أفراد جناحه ، الواحد تلو الآخر ثم بدؤوا يخرجون من القاعة بغير انتظام . اثنان منهم استعادا وضع القرفصاء وشرعا يلعبان لعبة ورق قديمة على رهان من المال حدداه . أما الاكثرية فقد انتهوا الى الخروج وهم على أهبة الاستعداد للاستماع للخنازير ، وقد انشغلت أنوفهم كل الانشغال باستنشاق رائحة العمل وانتهاء مرحلة السأم .

شخص وحيد هو ذلك الرجل الذي أدار عينيه بعيدا عن ذاك الذي كانوا يعذبونه في قاعة المحكمة . انسل خارج ساحة قصر آموري . انه الاخ غير الشقيق لعبدو ، الرجل السجين ، وقد كان أول من سعى للوصول الى مستوطنة شاج كي ينذر سكانها بالخطر الذي كان يهددهم بيد أن الاوان كان قد فات .

* * *

كان الناس يرقبون وصول مئات الجند وهم في لباس القتال ، وكذلك العربات شبه العسكرية والسيارات المدرعة التي جاءت تحاصر المدينة . كما كان عناصر الامن وهم بلباسهم المدني ، يكشفون عن أنفسهم بنظراتهم المتفحصة وجيوبهم المنتفخة ، على نحو واضح ، بآلات الموت وهم يسعون للاختلاط بالجماهير ، مستعيدين في أذهانهم كل ما تلقوه من تدريب . لكن عمليا لم يكن هناك من جماهير يختلطون بها ، فالناس التزموا بيوتهم كما أن المخازن والمكاتب ظلت مقفلة خلال منع التجول النهاري الاول ذاك الذي لم تعرف البلاد له مثيلا من قبل . عيون خفية ومخفية كانت تختفي في ظلال واجهات المخازن مختلطة بأوراق الاشجار وعلب الرزم ، متمددة في الهواء الساكن منتظرة . الرعب الذي نشروه ، هم وسياراتهم المدرعة الصماء ، كان يجوس المدينة المهجورة ، مساهما اكثر من كل شيء آخر في خلق احساس واضح بأن الموت يجوب الطرق المغبرة ، وما من أحد من اولئك الراصدين المتخفين كان يخطىء رؤيته .

به رأى أوفي ماهية الامر على شكل درنة سامة تخرج من جانب هضبة . كل سائر يصدمها بقدمه يموت ، فالموت الذي زرعه أولئك المزارعون الزائفون ، رجال السلطة ، كان ينبغي ، حسب خطتهم أن ينتش تحت التربة . أما النتوء الضار فلم يكن الا ثؤلولا متصلبا زائدا ، نهاية بسيطة لكتلة خفية يمكن أن تنذر او تقتل . الموت الحقيقي الذي كانوا يبحثون عنه هو اهلاك الناس ، اماتتهم ذلك الموت الخفي ، ذلك الشلل التدريجي البطيء للحم والذهن الذي يطغى عليهم شيئا فشيئا مثل

سل خبيث ينتشر ويتكاثر في احشاء الارض . الموت الافرادي الصاخب لم يكن الا حادثـا عرضيا أما الانهاء الحقيقي فقد كان يتم على نحو أخفت .

قبل أن يتوقف القطار تماما ، بدات فجـأة ضجة جهنمية لأحذية وبنـادق وحقائب ظهر ذات مسامير ، اذ شرع رجال يندفعون خارجه قافزين ، منزلقـين من بين العربـات ، وكأن ذلك باشارة متفق عليها . كانت الابواب التي تعمل بالانزلاق قد انفتحت وهي تصر وتصرف على دواليبها الصغيرة المتآكلة وقضبانها الحديدية سيئـة التشحيـم ، وكان الجنود الذين كانوا نصف نائمـين في آخر شوط من رحلتهم ، يسرعون عبر الفتحات الى المستودعات التي يعلوها الصدأ في المحطة القديمة المهجورة . وهكذا ، خلال بضع دقائق تم تنفيذ المناورة فاستأنف القطار سيره بسرعته المعهودة متابعا طريقـه الى أن دخل المحطة الحديثةحيث كان ينتظر المحررون الصحفيونالذين دعتهم السلطات رسميا للتأكد بأنفسهم من عدم وجود اي أساس للشائعات التي كانت تقول ان جنودا من كروس ريفر يأتون يوميا الى المدينة المتمردة .

« كلفوا انفسم عناء الصعود ، أيها السادة ، وتفتيش العرباتبالطول والعرض. انظروا بأنفسكم ايها السادة ، فربما يظن بعضكم أنهم يختبئون في رزم القطن ؟ أو في وسط اكياس الفول السوداني هذه ؟ او لعلهم متعلقون بالعربات من اسفل ؟ انني اعتقد أيها السـادة ، أن مخبريكم قد شاهدوا الكثير من الافلام الامريكية . لكننا لسنا، كما تعلمون ، في الغرب الامريكي الاقصى » .

في عتمة وصدأ المحطة المهجورة وعلى بعد ثمانية كيلو مترات أو اقل ، كانت قوات الدعم تنتظر حلول الظلام وكانت تجمع عتادها . أصوات الطقطـقة المعدنيـة التي كانت تتصاعد من المستودع المهجور مع الدخان والجلبـة كانت تزيد من حالة الاكتئاب . كما بدت أشعة الشمس المنعكسة على القضبان اللامعة وكأنها تصدمهم ، فبعد زمن طويل من نفثة الدخان الاخيرة لمغادرة القطار ، كانت نثرات الصدأ ما زالت تنفصل لتتساقط من أطراف القضبان . كان أوفي قد ركز انتباهه على سقوط تلك النثرات وكان يحس بتراخي التوتر الذي كانت غارة الصباح المشؤومة قد أحدثته في نفســه .

ـ لماذا نلقي بشعبنا المسالم في خضم هذه القلاقل ، هذا الصراع المرير وآلات الحرب الشيطانية ؟

لكن صاحبه لم يكلف نفسه حتى عناء التبسم .

ـ لاننا نحن الذين دعوناهم الى هنا ، أليس كذلك ؟ لقد رايت الكلاب تستلقي على ظهرها لكي يدغدغها الناس . لكن حين يفعل الشعب هذا فانه عمليا يبحث عن الرفس بالاقـدام .

ـ هذا يجعل جلدك يقشعر ، أكثر بكثير من معبد اللعنات في غبورولو .

فبدا الآخر راضيا وهو يلوح برأسه .
ـ لان هذا اكثر تأثيرا بكثير . فاللعنات تطير في الهواء كالكرات لكنها لا تؤثر .

كانت مدينة منع التجول (ولا يمكن لاسمها ان يبقى سرا طويلا ، فهو غبورولو) قد تخلصت من كل دعاية زرقتها بها عناصر الجيش ليل نهار : مدينة الازمنة الحديثة، مدينة المستقبل الدولية كما كانت حداثتها الفائقة المعصومة من كل شائبة هي رمز الماهية التقدمية التي لا عيب فيها والتي يتصف بها رجال الجيكو . تلك هي المدينة المنظمة ، التي كان باستطاعة الجيكو ان يكون لديهم مخطط لها . فالقرية القديمة البدائية القبلية المغلقة على طقوس الثأر وعادات الانتقام ، تحولت الى مدينة نموذجية تماما بمعاملها وجامعتها ورضى مواطنيها . كانت مدينة منع التجول محصنة تحصينا قاطعا ضد المشاكل جميعا أيا كان نوعها ، فما من دعاية خطرة تستطيع أن تنفذ الى فيلاتها المنظمة تنظيما هندسيا وقصور رجال الدولة المسورة بجدران عالية .

حين كان المرء يسأل السجلات التي لم يكن باستطاعتها تقديم التفسير حتى وان كان ذلك بحسب الطرق والمشاريع التي تسر دائما وتتحدى التفلفل دائما ، فان مدينة منع التجول كانت تمتص الملايين المحتاجة بنقائها وحسن ترحابها وجوهر التجريب فيها . تأملوا النموذج الاساسي لمدينة المستقبل ، والنماذج الاساسية تكون مكلفة دائما . علينا ان نجرب . التجربة لم تنته بعد لكن سكان غبورولو هم البرهان والدليل على الماهية الجديدة للحياة ، المبرر الوحيد لارتفاع تلك النفقات . هاهو ذا تقرير سكرتير ومبعوث حسابات مكتب التخطيط الذي هو نفسه من السكان الاصليين لغبورولو والضياء المشع بين مواطنيها .

ـ سأريك قطاعا غير معروف جيدا ، وعد صاحب أوفي ، شيء ما يختلف قليلا عن المخازن الكبيرة ، سأريك غبورولو الحقيقية التي لا يستطيع فرد من جماعة الجيكو أن يجرؤ على الذهاب اليها .

كان الظلام قد خيم حين وصلا الى المستوطنة التي تزدحم ببيوت الفقراءالمتكدس بعضها فوق البعض الآخر . أوقفا السيارة في أحد الاماكن وتابعا سيرا على الاقدام . وعلى الفور تقريبا هبت عليهما رائحة تصدع الرأس ، لكنهما لم يكونا بحاجة لاستنشاق المزيد منها كي يعرفوا ما هيتها : انها رائحة شراب كحولي قوي هو في حالة التخمر التام . كانت السلطات المتعاقبة ، بدءا بالغزاة البيض ، قد حاولت عبثا القضاء على الصناعة التي كانت شهرتها ، كما يؤكد البعض ، قد جاءت من نوعية مياه الآبار . فخارج ايكات الاشجار التي كانت تشي بوجود أجهزة التقطير المموهة ، كانت الآبار موجودة في كل مكان . اذ لم تكن هناك وهدة واحدة عمليا لم يحفر فيها الناس . بل ان هناك مثلا عاما يقول : من لا تقتله غبورولو بكحولها تشفه بمياهها . ففي جو الرطوبة الشديدة لاكواخ التخمير ، كانت النسوة العجائز يرعين بعناية شديدة التعفنات

الفطرية التي كانوا يبحثون عنها حتى ضمن المدن الكبيرة البعيدة سعيا وراء قدرتها الشفائية التي يظن البعض انها تصنع المعجزات حين تفشل العلاجات الاخرى كلها .

أخيرا وصلا الى قلب المدينـــة القديمة عبر أزقـــة ملتوية كانت حلقاتها الملتفة تدور حول التلال المنخفضة وتؤدي لا محالة الى دوائر الرقى والتعاويذ التي كانت تتصاعد في الليل على شكل صرخات عصبية حية . هذه شكوى معذبة ، غاضبة ، ومع ذلك متوسلة وملحة تعبر في أغلب الاحيان عن نفاد صبر مطلق . ومن حين لآخر كانت أرتال خائفة مترددة من ظلال اشخاص يحملون مصابيح تتجاوزهما ، وعبر الهـواء الساكن سكونا مطلقا كانت رائحة الزيوت المحترقة تتصاعد ثم تعلق في الاعلى ، سادة طريق الصرير البعيد الذي كان المتأخرون يسرعون باتجاهه ، تسبقهم رائحة الزيت المخيفة . قاده طبيب الاسنان فوق هضبة من الهضاب استطاعا من فوقها أن يرقبا المشهد بكامله . المشاعل الآلف المتذبذبة التي كانت الارتال الملتوية تدخل بها الى أيكات الاشجار المعتمة ثم تخرج منها ، تتقدم باتجاه جوقة التعاويذ قبل أن تنضم في النهاية الى الحوض الواسع من الانوار حيث كانت الاغنية الرتيبة قد بدأت ، من أسفـل الوادي ، كانت تلك الانوار ترتفع بصورة تـدريجية من هــذه الجهــة أو تلك وكانت غبورولو تبدو أشبه بكهف تحت البحر علقت على جدرانه آلاف المحارات الدقيقــة تشع كلها بنوع من الالق المعدني العذب والمستتر . ومن المركز ، مدفوعة بشدة الالم والمرارة ، كانت تتصاعد تلك الانشودة التي اتضح في الحال أنها انشودة القادمين الجدد ، انشودة اللعنات والحرمانات . كانت طبقة الصوت ، التي بدا واضحا أن مغنيها لايعطون الوقت الكافي للتنفس الا بشق النفس ، تعلو وتنخفض ، ممزوجــة ومشوشة ، ان جاز لنا القول ، بتلك الطرق الملتوية التي كانت تعبرها قبل أن تصل، معدلة بايقاع التلال ، ممزوجة بالاعشاب والنباتات ، عائمة فوق الروائح المتبخرة من زيوت القناديل التي يشعلها الحقد والضغينة .

كان أوفي وصاحبه يسمعان الاسماء على نحو متميز ، وكذلك عنف اللعنــات . . « الماء عبء كبير ، انه يسحقك دون اطفاء ظمئك قط . . البعض يتذكرك كمـا لو انك جيفة . . . شجرة الهند التي غرستها تلمس الآن سماء الفطرسة . . . لا بد من ان تسقط عليك حين تلجأ اليها . . . موت الافعى يسر كل من يسكن بيت المزارع . فهل يمكنك أن تبهج قلب غبورولو . . . »

أما الاسماء التي كانت تتكرر كفواصل للانشودة ، ودونما توقف فانما هي اسماء رباعي الكارتل وزعماء الجيكو . . .

لو كان باستطاعة مجتمع مشحون أن يغير مجرى التاريخ ، لو كان باستطاعــة تجمع من القوى الطبيعية أن يعدل مجاري الطبيعة . . . فذلك ليس أكبر صعوبة من الاعتقاد بأن هدير آلات الاورغ والضوء المتسرب من الواجهات يمكنهما أن يستمطرا

السماء ، أن يسقطا الامطار المتاخرة التي يمكنها القضاء على الجفاف وخطر الجدري . كان ذلك الحوض المليء بمصابيح الزيت والظلال المستدقة يسعى تماما لاقلاق الهدوء الروحي والراحة الجسدية التي يتمتع بها ذلك الوحش ذو الرؤوس الاربعة الذي داس كرامتهم بحذائه الحديدي . مع ذلك ، لم يكن الامر غير قابل للتصديق ، بل كان له ، على كل حال معنى ما . اذ كان هنا سكان المنازل الحديثة المبنية من الزجاج والاسمنت المسلح ، كما كان بينهم أناس يمكنهم أن يزعموا انهم من البورجوازية . مع ذلك ، فقد كانوا ، بحالتهم اليائسة ، ينظرون الى الوراء والبعيد باتجاه تلك الزمرة الابدية الخالدة من الاحاسيس التي كانت تحول الاماكن العادية الى معابد ، هياكل، مراكز للمعاناة والنشوة ، كما يسعون للتسامي فوق حدود التحول ، من خلال الاتحاد مع الآخرين على شكل جيش يمكنه ان يساعد في تدمير القوى الاخرى هناك .

لم يكن أوفي يؤمن قط بما يؤمنون به ، لكن رغبتهم تلك التي لا يمكن انكارها هي التي كانت تملأ الجو . وكانت تصل اليه ، تقلقه اشد الاقلاق وتبدو وكأنها تعدل من ميزان تلك القوى التي كان يعتقد انها تتخلل ذلك الهواء الليلي . انه اصطدام صرخة غبورولو بالطلسم الليلي للكارتل الذي كان ، وهو يدفن بقرة حية في جوف الارض كل ليل ، يسعى لتدعيم سلطانه ولضمان ارتقائه المستمر فوق شعب بدأ منذ قليل من الزمن يهمهم ويتململ تحت قدميه . .

لكن ، زيادة على ذلك ، كان رجال الكارتل يملكون البنادق . بالتأكيد ، كانوا قد اسلموا انفسهم للاساطير والخرافات وزرعوا بقرة حية في ساحتهم الخلفية لكنهم كانوا قد اعدوا أيضا عدة من الثعابين المسلحة للحظة التي يشعرون فيها بالحاجة اليها .

تحت جنح الظلام ، تغلغلت موجة من الجند الى قلب المدينة . تغلغلت بكل صمت وهدوء . وذلك بسببالعدوى القاتلة التي كانت المدينة المحاصرة تعاني منها اكثر من اضطرارهم لان يتحركوا بصمت وهدوء . حينذاك بات مفهوما أن أكثر من معسكر يلعب لعبة غبورولو . مع ذلك ، كانت الوسيلة المستخدمة لانزال تلك اللعنة حسية ملموسة ، والغاية النهائية انما هي تحنيط الشعب بكامله : تركه يتنفس انما بعد تعطيل مراكزه العصبية ،ايصال اعضائه الحيوية الى النقطة التي لا تكون فيها قادرة على أداء وظيفتها ، ايقاف كل تنسيق للعمليات البدنية والذهنية . حينذاك يمكن أن يقدم للعالم سلام المدينة : وهي هادئة كتمثال من شمع ، ساكنة كطبيعة ميتة .

من يكن السباق في دعوة الآخر للموت ، قال طبيب الاسنان ، يكن له الفراش وغطاؤه . ذلك أن من يتلقى الدعوة ثم يهملها ، فانه يوقع على وثيقة موته . ومن يقبلها يتعين عليه أن يواجه خصمه على ارضه ، ومن يسيء تفسيرها فان معنى ذلك نفي

الذكاء عنه وهي الحالة التي يفقد فيها المرء احساسه بتكامله وهو شكل آخر من اشكال الموت . أما من يستسلم ويتلقى وعدا بالبقاء على قيد الحياة ، فما ذلك بالحقيقة الا شهادة وفاة له .

كان الامر ابعد من كونه منع تجول ، فالعيون الكثيرة التي كانت تتلصص من وراء المصاريع لمراقبة الجند الغرباء وهم يتسربون الىازقة المدينة وشوارعها ، كان يصيبها نوع من الذهول ، اذ كان اصحابها مضطرين للاعتراف بأنهم يساهمون في القضاء الوحشي على مدينتهم وموطنهم . اشكال غريبة لاناس يواجهون هجوما على ارادتهم بالحياة بشروط ليسوا مستعدين لها . اذ كانوا يعلمون مسبقا ان ذلك التدخل ليس انتهاكا للحدود الاقليمية وحسب ، بل ، وهو الامر الاشد ايلاما بكثير ، ادخال قذاة في العين ، وسواء فتحتها أم أغمضتها ، فان تلك العين ستبقى متقيحة متورمة يسيل منها الالم ولن تشفى الا بخروج تلك القذاة التي تهيجها وتثيرها .

ــ أنا أصر ، قال طبيب الاسنان معلقا ، على أن الدفاع المشروع لا يعني فقط أن ينتظر المجنون الى ان يهاجمك ببلطة بل حينما تراه ينقض بها على احدهم في الشارع ، يتعين عليك الا تنتظر قط . لكنكم أنتم ، أعني الداعين للتعقل والعقلانية ، سمحتم بأن يولد وحش فظيع بادعائكم أن بامكان المرء أن يحاور مجنونا . لهذا السبب يموت شعبنا الآن . فحين كان الوحش في طور الحضانة ، كنتم تسيرون بهدوء صامتين مشغولين بدراسة الظاهرة . قل لي ، ان وضعت لقمة من الطعام في فمك وأحسست بحمض شديد يلذعك ، هل تستمر في مضغها لتفكر أم تلفظها لتوك ؟

طبيب الاسنان وهو خلف مقود سيارة الاطفاء ، كان يمر بالحواجز الواحد تلو الآخر وكلهمرح وانطلاق ، دون أن يثير لدى رجال الحرس سوى النظراتاللامبالية وغير المهتمة ، بل وصل به الامر ذات مرة الى تلقي تحية عسكرية . كان هو ورفيقه قد رأيا الجند الملطخين بالاقذار وغبار الفحم الذي كان يتضاعف دقيقة بعد دقيقة ، فيما كانت السيارات القليلة الخاصة التي تتحرك في الطرقات ، تتعرض للتوقف والتفتيش . انها سيارات أطباء ، أناس « لاغنى عن خدماتهم » ممن حصلوا على اذن بالمرور وكانوا يشكلون نشازا لا يتفق مع منظر الخاكي وخوذات الفولاذ والحراب . وعند كل نظرة من طرف عينه ينظرها أوفي الى طبيب الاسنان ، بشيء من السخرية ونفاد الصبر ، كان احساسه بالضيق يشتد أكثر فأكثر .

ــ يالله ! تأوه الرجل متحسرا ، كم أرغب بالسلام ! السلام ولا شيء غير السلام . السلام ، تلك الكلمة التي اسيء استخدامها ، وكثيرا ما تعرضت للتلوث . السلام العادل (وتوقف) أجل ، تلك هي المشكلة : السلام العادل .

ــ انك توجه نداءك الى وحش كاسر ، وحش تزداد شهيته للدم يوما بعد يوم كما تزداد انتقائيته ايضا ، وبقدرما يطعمه المرء من ذاك الذي لايناسبه ، يشتد

تصميما على أن ينتظر لحم الاضحية الحقيقية . لذا ، من الافضل أن تقدم له منذ البداية ذاك الذي يناسبه . أما ما عدا ذلك فلا يفيد الا في التسويف والتأجيل على حساب الضحايا الابرياء .

هنا شرع اوفي ، وقد احس بالاستثارة والغيظ ، يتكلم بنبرة ضاغطة .

ــ اسمع ، التردد ، ذلك شيء ... لكن طبيب الاسنان قاطعه :

ــ كل شيء هو تعزيز المعارضة .

ــ نحن هنا لمناقشة الوسائل . فأنا اريد القضاء على ذاك الذي يبقي لي انسانيتي مثلما يفعل الآخرون بوسائل مختلفة : كالاستسلام مثلا او التوفيق والتسوية . فقبول الانسان بالحط من شخصيته الكلية ، انما هو بتر ذاتي له بأكثر من شكل . (وبطرف عينه رشق اوفي صاحبه بنظرة سريعة ، ثم كشر مبتسما) بعدئذ يأتي وقت من الاوقات تغدو حتى ممارسة الحب نوعا من العذاب ، في النهاية تكون تلك الاحاسيس هي المعنية بالذات . فالمتعة ، النشوة نفسها تغدو تافهة ، بلا طعم ، نتيجة تآكل الاحاسيس في اطار التسوية والتوفيق ، تغدو أتفه من أن تستحق الجهد أو العناء ، بل حتى النشوة الجنسية تغدو أتفه من أن تستطيع تعويض العذابات التي يواجهها المرء في محاولته البقاء على قيد الحياة . ذلك ان الوضع الاجتماعي او السياسي ، يغرق ، يلطخ ، يشوه حتى الاحاسيس الاكثر حميمية . وفي وضع كهذا ، تجد أنك لست سوى شبه رجل ، حتى ولو اقسم اصحابك انك سوبرمان . فالكل العاقل ، الحساس من الرجل ، يعلم أنه ليس سوى جزء مبتور ، بضعة قليلة من امكاناته وطاقاته الاساسية .

كان طبيب الاسنان يعبر صفوف الحراب الموزعة والرشاشات الموجهة . في احدى المرات ، وحين بدا على ضابط كبير له مسحة من ذكاء انه يرغب في تدقيق أوراق ركاب السيارة ، قفز الطبيب من السيارة واستلم زمام المبادرة : « هل انت الضابط المسؤول ؟ أنا حاولت لكني لم أستطع الاتصال هاتفيا بأحد ، الا أنني أريد ان اعرف سلبا او ايجابا ان كان لديكم النية في ارسال حرس خاص الى مستودع محروقات وزارة النقل فهناك خطر بنشوب حريق ، انه هدف جيد للمخربين ... » .

كان اوفي يتطلع اليه معجبا بشجاعته . كما لاحظ ، انطلاقا من بعض التفاصيل الصغيرة ، انه بات يشعر بقرابته الروحية أكثر فأكثر ، كان السخط يملأ صدره ، وهو يرى نفسه رهين مأزق هو تضخيم الجزء الصغير على حساب الكل الكبير . وكان يشعر أن هناك شيئا مصطنعا بعض الشيء في ذلك الاسلوب لحل مشكلة القاتل المحترف الاخلاقية ، في اعداده لتقبل او رفض تلك الضرورة لهدر الدم بأدنى حد من الاحساس ، دون أن يتطلب ذلك ، بدوره ، الا بقية من وجدان حر ، نشوة ، نوم بلا أحلام ، ادراك بأن في اليد اتخاذ القرار بدلا من اناس يزجون بغير سبب في سجون

تغص بنزلائها ، أبرياء تبقر بطونهم وهم يتلون صلواتهم ، يضربون ويقتلون في قلب منازلهـم ، يدفعون دفعا الى العوز والسقوط من قبل الوحش كلي السلطة ، تنتزع ادمغتهم من قبل ناميات جذامية تلتهم حتى اصابعها ذاتها نتيجة الشره والجشع .

آه ، لو كان باستطاعة المرء فقط ـ أجل ، هكذا كان الاغراء المشؤوم ـ ان يتجاهل حتى الفمغمات غير المتبلورة ، غير العقلانية ، حتى المبادرة النفسية المحض، وأن يستسلم لسلام الصلح ، يمسح كل معرفـة وتحديد للحرية لم تسمح بهما السلطة ، لو كـان باستطاعته ألا يقرأ الا الصحف الرسمية ، أن يتجنب الحوارات ، يرفض فتح الرسائل التي لا يستطيع التعرف الى مصدرها الاصلي مباشرة ، فيتخلص بذلك من صرخات أولئك الذين يتضرعون ويتوسلون هناك ، في الاماكن البعيـدة ، لو كان باستطاعته أن يغلق المذياع بضجته وصريره ، أن لا يوجد الا حيث الخلاصـة الجاهزة لخبرات وتجارب الآخرين، أن لا يتعلق الا بلحظات المتعةالحسية المنفردة . . .

سمع أوفي الباب يطبق وصوت طبيب الاسنان الذي سأله هامسا .

ـ لماذا هذا الوجه المنقلب ؟ الم تظن اننا وقعنا في مأزق ؟

فأنكر اوفي ان تكون ثقته بدليله قد تزعزعت .

ـ كلا ، كنت أفكر . . .

ـ لديك وجه معبر على نحو غير معقول ! لكن علينا ان نخرج من المدينة في الحال وان نغير السيارة . لدي سيارة أخرى تنتظرني في الضاحية ، هناك يمكننا ان نغير ملابسنا ونعود كي نتابع جولتنا التفتيشية .

فوافق اوفي بهزة من رأسه . وحين كانا متجهين نحو مخرج المدينة ، قال ، وكأنما يكلـم نفسـه :

ـ أنت تعلم ، أولادهم ينادونني يا « عمي » . فعلق الطبيب قائلا :

ـ أشهر القتلة والسفاحين معروفون بحبهم للاطفال .

* * *

ـ اعرف ذلك ، انهم لاوباش !

وواجه باتوكي حواجب ضيوفه المعقودة بنظرة طويلة ملأى بالثقة والطمأنينة ثم كـرر :

ـ اقول لكم انهم لاوباش . حين يقتل المرء منهم واحدا او اثنين ويضع عشرة خلف القضبان ، فان الآخرين يتراصون ويحتاطون . اذن حين لا يكفي ذلك الرقـم أضف اليه صفرا ، اقتل منهم عشرين واسجن بضع مئات فان لم يكف ذلك ايضا ، اقتل بضعة آلاف وامتنع عن سجن أحد ، بل الجأ للقتل وحده . فان اخفق هـذا الاجراء قولوا انني ابن حرام » .

خلال عشاء مع الشمبانيا أقيم على شرف أصحاب الكارتل ، فتح الرئيس باتوكي الطريق على سعته لازدراء شعبه وناسه . اما من كان يخاطبه في البداية فانما هو زاكي آموري ، طاغية كروس ريفر الكلي السلطة ، الذي كان قد اكد اخلاصه لرابطة تتجاوز الاقليمية .

ـ الحزب الوحيد الذي يسمو على الحدود المحلية فعلا ، قال باتوكي وهو يقهقه ضاحكا عارضا على ضيوفه طبقا من السراطين اعدته ابنته ، انما هو الحزب الذي يملك المـال .

ـ والبنادق .

فالتفتت الشخصيات الثلاث التي تلبس اللباس المدني باتجاه ذاك الذي نطق تلك الكلمة ، رئيس الاركان الذي كان يمثل الذراع الرابعة للكارتل . كان سلفه المتوفى يحتل المكان نفسه العام الماضي . لكن ما من احد تذكره في هذا الحفل أو رفع نخب ذكراه . بل وصل الامر بالبعض الى الامتناع عن رفع كأسه اكراما لهذا السند الخفي للكارتل الذي ربما جاء املا بهذه اللحظة التي كان يمد فيها كأسه للخادم كي يملأها . امتلأت الكأس مرة ثانية فازداد تشوهه وارتباكه ، الامر الذي دفعه لان يحك بعصبية واضحة حذاءه بالبلاط الرخامي ثم يجرع كأسه جرعة واحدة ، ساكبا شيئا من الخمرة على اوسمته وشرائطه . وشيئا فشيئا ادرك انه ارتكب خطأ جما حين أتى الى الحفل بلباسه الرسمي . لقد كان ، وعلى نحو غامض ، يأمل ان يؤثر أشد التأثير في الجماعة بمظهره السلطوي ، لكن ذلك لم يفعل سوى اظهاره بأنه دخيل ، أداة ، ممثل رمزي بسيط ، وربما فضلة زائدة .

بعد ذلك أضاف بغير لباقة :

ـ تحالف المال والسـلاح هو بكل وضوح ... اخـيرا ... امل الـ .. في النهاية ... امل الاستقرار الوطني .

ـ بالمناسبة ، قال باتوكي ، أنا أنوي أن أغير كاتب خطبك ، فهو غير متمكن .

ـ أنا راض كليا عن ... تابع صوت رئيس الاركان الفاتر .

ليس بعيدا عن ذاك المكان ، كانت التجارب الخاصة بالاستعراض الكبير تجرى المرة تلو المرة . فالاجتماع الفصلي لاعضاء الكارتل لم يكن يكتمل بغير استعراض اتباع السلطة باللباس الرسمي . انه استعراض واستعداد في الآن نفسه ، تمرين عملي لوضع المترددين على الطريق الملائم .

ـ زيادة على ذلك ، اضاف الرئيس باتوكي ، أنا اتطلع الى العيون حين انظر الى الرجال اثناء الاستعراض ، وحين أشعر بعدم الاخلاص لدى واحد منهم ، اتكلـم معه . وعندما يسمعني الضابط وأنا أسأله كيف أسرته وما اذا كان يفضل الانضمـام اليها أم لا ، يعلم انني لا اريد رؤيته على بعد عشرة كيلو مترات على الاقل .

كانت الابهة والاحتفالات ما تزال مستمرة علانية تملأ القصب الاجوف ذاك ، وكانت ملابس السلطة الفاخرة تخفي في ثناياها الكره والمقت الشاملين ، فقد أصبح باتوكي السبب غير المباشر لاجماع الشعب على كرهه واحتقاره . وكان الشعب ، في استعراض القوة ذاك ، قد حذف تماما ، الغي وجوده . لقد وصل اليأس بالناس درجة ودوا معها لو يصيرون جعلانا. لهذا ، كان لا بد لهم من أن يلقوا بكتلهم الغرانيتية، قاذفين بها أهدافا في الخارج . لكن المقذوفات غالبا ما كانت تقصر عن أهدافها وغالبا ما كانت تعود وتسقط عليهم هم انفسهم . فالراس الذي كانوا يريدون ارساله الى الجحيم ، كان يعمل من نفسه مهرجا في الطرقات وفي قلب حلبة الموت ، لكنه يظل منيعا لا يصله أحد . زاكي آموري ، الذي يحميه جيش من الاتباع ، كان هو الآخر في أمان تام لا يصله أحد .

كما كان الرئيس بيغا يعرض نفسه بكل تباه حيث يشاء لكن محاطا بموكب من سياراته العسكرية الخاصة .

كذلك كان رئيس الاركان يعطي الاوامر ويلقي الخطب التي تكتب حسب توجيهات الثلاثي المدني في الكارتل ، لكن الذروة انما كان يجسدها باتوكي . فقد قام هذا بزراعة غابة من الحراب ، وكان ، وهو في وسطها ، يجتاز الطرق الفارقة بلعنات الشعب ضاحكا ساخرا حتى من دموعه ، دموع العجز . وكان هو الموهوب بصبر لا يقل عن صبر السحلاة ، يسوّف ويماطل في المسألة المطروحة ، مضاعفة القتل والبتر .

في الحقول التي تحيط بشبكة منتصبة من الهوائيات وأمواج الكاتبات ـ المبرقات ، كان الجيكو المستعد لكل شيء قد لبس لباس السلطة . وفي قلب المناورات شبه العسكرية ، كانت أبواق الشرطة الاقليمية تعزف أنغامها التدريبية في حين كانت الوية الصدمة تلمّع دبابيسها واحذيتها ، وعلى مقربة كان الضابط المكلف باجراء التدريبات يلقي أوامره بصوت فائق الحدة على فرقة من المجندين مضيفا من حين الى آخر : « انتبه للزاوية .. انتبه للزاوية قبل الانعطاف ، وانعطف مباشرة » فيما كان هو نفسه نموذجا للاضطراب وعدم الدقة .

خلال هذه الجولة ، كان أوفي قد ركز انتباهه على الهيئة غير اللائقة لذلك الرجل ذي الوجه العجوز والبشرة الاشبه بالرق ، الذي بدا واضحا انه احتل مكانه ذاك نتيجة خطأ بيروقراطي . فقد كان ذلك الشخص يجسد الصورة المثالية للغفلة ، لمعزاة ترعى على طريق عامة ، أو لعسس قرية في لباس محارب قديم ، بعيد كل البعد عن واقعه الراهن .

ـ أنا اعرفهم ، كان باتوكي يصر ، أقول لكم انهم اوباش . ولا بد ان الله معنا والا من يدري ما يمكن لاوباش مثلهم أن يفعلوه ؟ لكنه هذه المرة كان يخاطب زوجته وابنته .

كانت الجوقة تعزف موسيقى فالس فيينا . وكان ضابط بلباس شديد التألق يؤشر دونما توقف ، والسيف في يده ، ماشيا الخطوات المائة ، مفتشا الصفوف باعتباره ممثل الرئيس باتوكي وبديله . اما رقيب التمرين فقد كان وسط مجموعة من المجندين يتطلع باتجاه المكان الذي كان المحترفون يتدربون فيه ، بعدئذ طلب الى تلاميذه أن يحذوا حذوهم .

ـ انظروا هناك ، انظروا كيف ينبغي أن تعملوا (وتأوه قاضما قطعة من جوزة كولا ، ثم غمغم) آه ! حسرتي على ذلك الزمان ، زمان قادة الحلقات والحكام البيض ذوي اللباس الرسمي الابيض من فوق الى تحت ، ذوي الازرار المذهبة ، والاوسمة الجميلة التي تزين الصدور ... أولئك كانوا رجالا يستحقون العناء الذي يلقاه المرء ، لا هؤلاء الحمقى المغفلون ، رجال هذه الايام ... ثم استدار فجأة باتجاه صف المجندين الذين كانوا يقهقهون فتوقفوا عن الضحك في الحال .

ـ لسوء الحظ ، غمغم طبيب الاسنان ، أنني أضعت في أحد الحوادث بندقيتي ذات المنظار ، فاستعراض كهذا مثالي ، مناسب لنا تماما . أما الآن فلا بد من الاقتراب اكثر ما يمكن وفي ذلك قدر أكبر من المخاطر ، اذ ليس باستطاعتي أن أسمح لنفسي بأي خطأ ، كما لا يمكنني استخدام الاسلوب نفسه مرتين . كذلك علي أن أعرف من ينبغي قتله كي أضعف الكارتل أشد الاضعاف . علي أن أكون فعالا .

كان جميع أعضاء حرس الشرف الذين يتدربون على تجربة الاستعراض من سكان كروس ريفر . فباتوكي لا يغامر باستخدام رجال من بلده . كانت بنادقهم أشبه ببنادق الدمى ، طلاء الصلبان شديد اللمعان وحاملات البنادق أشبه بسبور جلدية تستخدم لوضع مقذوفات البنادق فيها . كانت اثارة اللعبة تنعكس على وجوه المجندين الذين كانوا يتطلعون حولهم مما جعل أوفي يتذكر موكبا قرويا عصر يوم من أيام السبت . كما تذكر الزمن الذي كان يجلس فيه تحت شرفته ، يسحب خيط سنارته .

ـ صناعة تشيكية ، قال الطبيب معلقا وهو يعطيه المنظار . خمس عشرة طلقة، وأخف بكثير من بندقية الضغط ، صدقني .

تطلع أوفي بواسطة المنظار ، وهو يتساءل في سره ، كيف يمكن للمرء ، وهو في قلب هذه الخيانة ، أن يعيد العدالة التي يتعذر الامساك بها ؟ كان لا بد من الافتراض ان لهم عقولا ، أولئك الرجال الآليين الذين يتدربون لكن هناك اشياء يشتريها المرء مقابل الراتب ، هناك اشياء يتخلى عنها ، اشياء يقايض بها ، يمسك بها العقل الشرير المصاب بجنون العظمة . كان من الصعب عدم التفكير بأن الحل الاسرع والاعدل ، من أجل تحرير عقولهم ، انما هو استخدام تعبير الطبيب نفسه : ازالتهم من الوجود .

لم يكن يبدو على الانساق أنها تقذف سوى موجات مدمرة ، فأحس اوفي بجلده يطقطق تحت قصفهم . وفي دوامة الصور والتخيلات ، كانت ثمة صورة تطغى على كل شيء ، صورة المرأة التي قتلت برصاص الرشاشات وكفها ما تزال متشنجة ممسكة بساق طفلها . لم يكن راس الطفل سوى عجينة مهروسة من دماغ وعظام . اتراها جنت تلك المرأة في اللحظة نفسها التي اخترقت فيها الرصاصة راس الطفل الذي كان يرضع ثديها ؟ الثدي مندلق ، الحليب يمتزج بالدم راسما صورة تشهد على اللعنة التي حلت بالارض ، وهنا وهناك قليفلة متناثرة ومقعد صغير منقلب وقدر للغلي . حتى الجنود لم يجدوا في انفسهم الجراة على ابعادها من مكانها . لكن سائحا لم يسبق له ان راى شيئا مماثلا ، راى ذلك المشهد بعد فترة طويلة من مغادرة جحافل الموت ، فالتقطه بعدسته .

وهكذا ، بوجود ذكريات من هذا النوع كان يبدو اشبه بالرجس ، قبول امنية الموت الذي ان دل على شيء فانما يدل على التهرب من عبء القرار في الوقت الذي يمكن لهذا القرار ، ان كان لدى الطبيب شيء من منطق ، أن يحول دون أن تتكرر مناظر مماثلة . كانت الحقيقة أوضح بكثير من أن يتمكن المرء من غض النظر عنها . وكان النداء بوجوب التصرف أقوى بكثير من ان يتمكن المرء من صم اذنيه عنه . وهكذا بدا وكأن الطبيب اختار الطريق الوحيد الذي يقبله الحس السليم ، تاركا الطرق الاخرى لعبيد الاوهام ، العاطفيين منهم والعقلانيين .

ـ لو كان باستطاعتنا أن نضعهم جميعا ، أمام الناس ، وعلى جدار ابيض مرشوش بالكلس ثم نطلق عليهم النار لكان علينا أن نفعل ذلك . لكن لسوء الحظ ، هذا مستحيل ، اذ لا تتوفر لدينا الوسائل ، لكن باستطاعتنا أن نفعل بهم ذلك واحدا تلو الآخر ، نضربهم دون أن نعرض انفسنا للكثير من الاخطار . انما لا بد من أن نعلم ان كل ضربة ناجحة تقضي على واحد منهم تجعل الضربة القادمة اصعب مرتين . اما دوري انا فلا يمكن ان يكون الا من خلال الاستمرارية والزمن الطويل . ولا بد من استغلال هذا الوقت بأكبر قدر ممكن من الفعالية والتأثير . هذا ما احاول افهامك اياه : فهناك زمن اطول بكثير مما تدرك وعليك أن تقول لي ايهم ينبغي قتله أولا (ثم افتر ثغره عن واحدة من ابتساماته النادرة) . احيانا أفكر أن الاول ينبغي أن يكون حاكم كروس ريفر ذاك ، ترى ألا يعتبر القوة الحقيقية ؟ فاذا ما قضينا عليه قد يموت باتوكي بأزمة قلبية : اي نضرب عصفورين بحجر واحد . فهل هذا التصور صحيح؟» .

هنا ، هز أوفي راسه .

ـ يبدو باتوكي كثير المجاملة ، شديد الخضوع لاوامر الآخر الذي يبدو أصلب بكثير من ذاك .

فحرك ديماكين راسه على مهل .

ـ أجل هذا ما أقوله لنفسي في بعض اللحظات .

وخيل لاوفي أن هناك ضبابة ثابتة من الوهم ، فحاول طردها بقوله الاشياء بفظاظة .

ـ انت تعلم جيدا ، قال وهو يلوح برأسه ، ما تود ان تسألني عنه ، أليس كذلك ؟ تود ان تسألني من هو ذاك الذي ينبغي اغتياله أولا ؟

ـ أجل . لقد رأيت استعداداتهم ، وهي تجربة مكلفة يقصد منها القيام بمجزرة حقيقية ، فاذا كان هناك سبيل لايقافها ، قل لي ما هو ولسوف أستخدمه. والا فعليك الاجابة على سؤالي : من منهم ينبغي أن الاحقه أولا ثم ... أقتله ؟ (ومن جديد أعاد المنظار الى غلافه) . لا بد من تحضير الامور . فأنا لن أسمح لنفسي بأقل خطأ .

ـ انت تعرفهم مثلي تقريبا ، دمدم أوفي .

ـ تقريبا ، لكن ليس تماما ، واذا ما أخطأت في الاختيار ، ستكون أنت المسؤول.

* * *

كان باتوكي هو مهرج الجماعة المشهور لكنه كان أيضا صاحب الاستراتيجية الادق : فهل كان يا ترى عماد الحلقة الحديدية ؟ لقد كان أول من فكر بتجنيد البيض من افريقيا الجنوبية في الشرطة السرية : « لو لم تكن أساليبهم ناجعة لما كانوا ، وهم الاقلية ، أصحاب السلطة » وهكذا جاء كيلجارد ، بظهره المقوس ، وعينيه الرمضاوين وابتسامته الاكثر حدة من مبضع طبيب ، طليعة لمجموعات صغيرة من الخبراء في الفن الخالص ، فن التحقيق ، وكان كليجارد يحب الصغار السود أيضا. كان يوقف سيارته ليمسك بواحدهم من ذقنه ثم يتأمله وهو يتمرغ في التراب ، أو وهم ينازعون بعضهم بعضا على النقود التي يلقيها لهم ارضا . لم يكن لكيلجارد أطفال وكان يتاوه وهو يقول لباتوكي ، وسط التقارير والاوامر السرية ، في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، انه يغبطه على عائلته الجميلة ، ثم انتهى الى أن صار هو نفسه جزءا لا يتجزأ من العائلة التي كان أفرادها الصغار ينادونه هو الآخر يا « عمي » .

عادة الاحترام المتبادل بين البكور من العائلات ، فكر أوفي مغتما ، هي فضيلة تقليدية ، بسببها ونتيجة الافتقار للتفكير ، صارت تطبق عليه هو أيضا . فالكل يناديه يا « عمي » ما عدا بايي ، الابنة البكر . اذ سرعان ما صارت سيدة المنزل. ومنذ ان احست بأنها بلغت السن المناسبة، شرعت تناديه باسمه فيما كان صوتها الرقيق الذي كان صدى لكلمات والدها ، يحتد تماما حين ترى انه يرفض نصائحها .

اذن ، العدو ، بالنسبة اليه ، ذو وجه ، كائن من لحم ودم . بل ثمة اماكن، وذكريات سارة تجمعه به ، حين كان يرتاد معه تلك الاماكن . انه باتوكي من يعرفه أوفي على نحو خاص : فكثيرا ما تناول عشاءه على طاولته بل كثيرا ما غازل ابنته

البكر دون أن يتوصل بذلك الى نتيجة كبيرة . كان باتوكي يحاول استخدام تلك الملاقة ، لانتزاعه من الطريق التي اتخذها لنفسه . كان يسمع تعليقات الاب البارعة في صوت ابنته الرائع ، تلك الابنة التي كانت تفخر بأنها عضو في جيش سالوت .

ـ لماذا تخالط أولئك الاوباش ، تلك الحثالة ، الرعاع ؟ ان الحسد ليأكل قلوبهم ، وليس لوجودهم كله أساس . فلماذا تعمل من نفسك شبيها بمن لا ينحدرون من أسلاف محترمين كاسلافنا ، مثلا ، وليس هناك من رابط مشترك يربطك بهم ؟

ـ اسمعيني يا بابي .

ـ لا ، لن أسمعك . انك تضيع وقتك مع حثالة المجتمع ، تلك الحثالة التي تريد أن تقلب البلاد رأسا على عقب ، لا لشيء الا لانها لا تملك شيئا . يريدون أن يهبطوا بالناس كلهم الى مستواهم . تصور ، قبل أيام قليلة فقط ، قال لوالدي واحد من أولئك الذين يدعون شيوعيين ... فبحث بيده عن يد الفتاة الشابة ثم امسك بها وهو يحاول مقاطعتها :

ـ ذلك ما يضجر ... فأنت تستمعين الى والدك كثيرا .

ـ وانت تحاول الا تستمع اليه قط ، لكأنك تنحدر من اللا شيء ، من العدم ، انك تدير ظهرك لاجدادك وأسلافك . وهم يستغلونك يا أوفي ، هكذا ، بكل بساطة . وانت لا تعلم الى أي درجة سيكون وجودهم غير مهم وغير ذي بال لو لم يكن بينهم اناس مثلك ؟

فأطلق أوفي صفرة كبيرة ساخرة .

ـ هـ ... ي !! بـ ... ي !! يا لها من كلمات كبيرة !

ـ كن جديا يا أوفي . ابي يحبك كثيرا ، هو لا يفهمك بالفعل لكنه يحبك تماما . لهذا السبب طلب الى الهيئة أن ترسلك في تلك الرحلة الدراسية ، بغية اعطائك الوقت لتهدئتك ، حين كان البعض قد بدأ باثارة القلاقل . اسمع ، ليس عليك الا أن تطلب اي منصب ، أي مكان ، واعلم جيدا أنك ستحصل عليه . فقط اطلب فتحصل على ما تطلبه . أبي يكن لك الكثير من الاحترام كما أنه يحترم عائلتك . اذن، لماذا تزعج نفسك وتهدر ذكاءك في مخالطة أولئك الرعاع ، الخاسرين الابديين ؟

لم يكن باستطاعة أوفي ، الذي احزنته كثيرا حالة العزلة المنيعة التي كانت بابي تتحصن بها ، متقوقعة خلف تلك القشرة المتصلبة نتيجة الاحتكاك اليومي بوالدها ، لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا سوى أن يقدم لهـا أبسط نصيحة عسى أن تنقلها لوالدهـا .

ـ قولي له أن يغادر البلاد حالا . قولي له أن يكف عن استغلالك ، ان يكف من اساءة استخدام فتاةبمثل طيبتك وطبيعتك الكريمة الجميلة . انت تعطين بسهولة عجيبة ونزاهة كبيرة ، لكنك تعطين بلا تفكير ، وهذا لن يودي بك الا الى التهلكة ، فهو

سيلتهمك . انه مثل سحرتنا ومشعوذينا أيام زمان ، حين كانوا يعتقدون أن عليهم أن يلتهموا صغارهم لكي يستعيدوا شبابهم ، فلا تدعيه يلتهمك .

لاحظ أوفي للتو توهج النار في وجنتيها ثم رأى الصدمة والانبهات ينعكسان في عينيها ، حين عملت حسابها فرأت أنها كانت ، أجل ، كانت قد صفعت « العم » أوفي . لقد أحس في تلك اللحظة ان شيئا ما يجذبه اليها كي يحميها ، هشاشتها نفسها تجذبه ، اذ على الرغم من الاطراءات والمجاملات التي كانت تتلقاها نتيجةموقعها الاجتماعي كابنة واحد من « الرباعي الرهيب » ، ورغم فصول الشتاء والصيف التي كانت تقضيها في الفيلات وعلى شواطىء السباحة التي يؤمها أثرياء الناس في كابري وميامي ، حيث الرمل والمال ينزلقان من بين أصابع الناس ، ورغم المكاسب الصغيرة التي كانت تنصب عليها نتيجة العلاقات الكثيرة التي أقامتها مع كبريات العائلات في كارتل الكاكاو ، ورغم الحفلات ، المهرجانات الرسمية ، السهرات الدبلوماسية التي كانت تلعب فيها دور المضيفة في حدائق والدها وعلى مروجه ، رغم ذلك كله فان هشاشتها وضعفها وافتقارها للذكاء كانت كلها تتخلل مظاهر الغنى والثروة وتنفذ اليها كطيف فزاعة . لم تكن قد توصلت قط ، رغم حيويتها التي لا تنكر ، الى معارضة المعاملة الفظيعة التي كان ايقاع حياتها قد فرضها عليها ، اذ غالبا ما كانت تضطر وقبل أن تنتهي سهرتها ، الى انعاش وجهها من جديد بعد أن يصبح أشبه بثوب خفيف ترك منذ الشتاء على حبل غسيل فتجمدت وتجلدت ثنياته الهشة . كانت الصدمة التي نجمت عن عملها العنيف قد أفرغتها حتى آخر نقطة من ثقتها ، دون أن تترك ما يدعمها سوى غلاف من الارهاق والشك ربما بدا معهما أوفي على حق حين قال انها لم تكن تعطي نفسها الوقت الكافي للتفكير . فقد انهارت بعد ذلك ، منفجرة بالبكاء طالبة النصيحة ، فاقترح أوفي :

ـ خذي عطلة . انسي ما حدث هنا . جردي نفسك من المتعة التي بدأت تجدينها لكونك ابنة باتوكي . اذهبي وادرسي ودعي والدك يمخر عبابه الخاص اذا ما رفض الاصغاء الى النصيحة التي قدمتها لك لتوي . اذهبي الى واحد من القصور الصيفية التي اشتراها والدك بأموال شعبنا .

بعد ذلك ، فهم أوفي أنه ، بنصيحته تلك ، أيقظ ولاءها الشديد . كان هناك ، ولا شك ، شيء ما يثير الاعجاب في أنفتها تلك ، لكن أوفي لوح برأسه وقد استولت عليه الشفقة ، مدركا أنها لن تفلح في النهاية الا في تدمير نفسها . والآن ، هل تراه سيعجل بالامر ، كما يقضي عليه واجبه ، في أن يقول لطبيب الاسنان أن والدها هو العدو رقم واحد الذي ينبغي القضاء عليه ؟ واذا ما اقترح هدفا آخر ؟ الن تحدث مشاهد مماثلة لدى عائلة أخرى فيها بابي أو حبيبة أو شنيير أخرى ؟ لكن ماذا عن الصورة الاخرى ، تلك الصورة التي تبرز كنوع من الاحتجاج العنيف ؟ صورة تلك الام التي

امحى وجهها والتي كانت اصابعها ، حتى في تصلب الموت ، قد بقيت متشنجة وهي تمسك بساق طفلها الذي سحق رأسه ...

وكالبرق ، مر محيا بايي في ذهنه ثم تردد صوتها وهو يصفر صفيرا :

ــ كنت اعتقد أن بامكان المرء أن ينقذك ، لكنكم كلكم رعاع ،غوغاء ، أنت وجميع أولئك الخائبين الذين يسمون أنفسهم راديكاليين .

لم يحس أوفي ، وهو يحدق بعينين ثابتتين الى الكرسي الذي تركته ، الا بالاسى على أن تلك الافكار لم تكن أفكارها هي ، بل حتى الكلمات لم تكن كلماتها . فجريمة باتوكي وناديه المعروف والصاخب غدت أكثر فظاعة وهولا وهي تتخذ بعدا جديدا نتيجة الافساد المتعمد للنفوس الرقيقة والاناس الطيبين باستخدام ذلك الفن الخاص في اثارة الولاء العبودي الخالي من كل تفكير ، الولاء لدى أناس رابطتهم الوحيدة بهم هي رابطة الدم أو الاغراء ، ذلك الافساد لقلب سلطتهم هو الظل الذي كان يهدد بالخطر خلافا لقائمة أعمال السلب الوقحة والمجازر التي ترتكب في وضح النهار .

* * *

« ٤ »

الثمـــار

(٩)

سلك أوفي الطريق الاقل ارتيادا ، وهو يحس بالحاجة الماسة لان يجمع ويكدس في نفسه كل السكينة والسلام اللذين يمكن لدرب من ذلك الطراز أن يقدمهما . فعن قريب لن يبقى صفاء في الطبيعة ولا رطوبة في التربة ولا ورقة في مهب الريح .

وصلا الى أيكة من اشجار المطر ، ذلك المكان المعروف جيدا ، الذي زرعه مبشر غريب الاطوار أصبح الآن طي النسيان . كان ذلك المكان يبدأ عند الخروج من مدينة أومالا الصغيرة . وكانت تمتد فوق الطريق ولعدة كيلو مترات قبة عالية من الاغصان المتشابكة . كانت الشمس ترسل اشعتها الصفراء عبر خيزران عديم الوزن وأنابيب أرغن لامادية تفر لدى اصطدامها بالسيارة وتجري بخفة على جانبيها وتحتك بزجاجها الامامي ثم تداعب وجهيهما ، فيما كان تغريد الطيور ينحدر عبر تلك الانابيب الذهبية وهي تمرح بين الظلال المريحة .

أحاسيس ، أحاسيس نقية صافية . فكما هو شأنه دائما كان يحس انه غير راض ، انه مغشوش ، وكانت تلك الاضاحي المذهبة تغريه الى درجة يمد معها يده من النافذة فيما كانت هي تتراقص على ذراعه بعفوية فطرية تراقص الجنيات . ففي تلك الفرجة من الغابة كانوا منقطعين عن العالم يغشاهم ضباب من ذرات الشمس في غابة أغاريد ..

غرق أوفي في تلك الفتنة الساحرة وهو يعلل نفسه بأنه يكدسها احتياطا للمستقبل . القى نظرة على زاشي ، فبدا له هو الآخر واقعا تحت تأثير الافتتان .أخيرا وحينما غدا آخر زوج من الاشجار يبدو في مرآته العاكسة مثل شجيرات حديقة ، فتح أوفي فاه : « يخيل للانسان أن أماكن كهذه تملك القدرة على الشفاء » .

ومن جديد تملكته فكرة الشفاء تلك التي تركتها في نفسه حادثة شاهدها في الماضي فبدأ يتكلم : عرفت رجلا كان فيه مس من جنون على ما اعتقد . كان وسواسه الاعداد ، الاوزان ، القياسات ، الابعاد ، المال . وكان يلفظ الارقام بسرعة الى درجة يتعذر عليك معها أن تتابعه . لم يكن المرء يعلم ما تعنيه بالنسبة اليه تماما أو ما يفعل بها ، جمعا ام طرحا ، ضربا أم لا ادري ماذا . قبل أن يصبح مجنونا ، كان أستاذا وربما كان يدرس الرياضيات . كان يأتي مرة في الاسبوع الى المنطقة التي نسكنها. يجلس في الغرفة التي تقع في الواجهة ثم يبدأ بوضع تقرير عن كل بيت من تلك البيوت مقدرا قيمها بملايين وملايين الليرات ، فارضا دفع ثمنها على الفور ، لكنه وبعد أن يلقي خطابا طويلا حول الاعداد ، يقبل بمبلغ ستة أو ثلاثة بنسات ثم يسجله بدقة

فائقة في مفكرة صغيرة ممزقة ، بعد ذاك ينتزع ايصالا ويقرأ الدين المستحق من أول رقم لملايين الليرات حتى آخر كسر من البنسات .

ذات يوم حصلت مفاجأة كبيرة ، فقد كانت فتاة صغيرة في منطقتنا تشكو من مغص في المعدة وكانت تتلوى على البلاط فيما كان الجميع ينظرون اليها نظرةالعاجز . كانت الفتاة من اترابي في اللعب ، فتصور حزني وأنا أراها تتألم على ذلك النحو . حينذاك حدث أن وصل مجنوننا ولم يفعل شيئا في البداية بل اكتفى بالملاحظة ، بعدئذ لمعت عيناه وشرع يبتسم ابتساما مؤثرا وطوباويا . كان يبتسم كما لو أن كل شيء جلي وواضح بالنسبة اليه . كان يبتسم ابتسام الالهام . بعد ذاك مضى الى طرف المرج ، انتزع باقة من عشب ثم عاد ، انحنى فوق الفتاة الصغيرة وهو يمسك العشب فوق سرتها تماما وأخذ يتلو تعاويذه العددية ، لكن بطريقة جديدة على غير عادته . اذ لم يكن يقرأ فواتير كهرباء أو تعريفات ماء أو أشياء أخرى . بل كان اسلوب سرد عفوي ، زبد نبع عميق لا أدري مستقره ، نبع الاعداد المقدس ، وكان يختلف ، بشكل غامض بعض الشيء ، عما كنا نسمعه منه عادة ... بعد دقيقتين وربما أقل قليلا كفت الفتاة الصغيرة عن التخبط ثم هدأت تماما وبعد لحظة من الزمن استغرقت في نوم عميق .

ظل الرجل طوال فترة نومها جالسا الى جانبها على البلاط ،خمس عشرة دقيقةبل ربما ثلاثين وربما ساعة فالانسان لا يقيس الزمن بالطريقة نفسها عندما يكون طفلا . لكن حين استيقظت الطفلة الصغيرة ولمحته شرعت تصرخ ثم هربت كالعادة . فالحقيقة أن بعض الأطفال كانوا يخافونه . اكتفى الرجل بالابتسام ثم نهض نافضا الغبار عن بنطاله قائلا ان عليه أن يذهب ، لكنه بقي واقفا فترة طويلة من الزمن ، اذ رفع رأسه ببطء وأخذ ينظر الى النجوم في الوقت الذي كنت أنتظر كي أدعوه الى الدخول . كنت أحبه كثيرا ولم أكن أخشاه ، بل الواقع ، أنني كنت أعتقد أنه يخصني أنا ، على نحو خاص . دعوته للدخول لكنه قال (أوه ! لا ، ليس هذا المساء) ثم مضى في طريقه . جريت خلفه ثم سألته كيف فعلت ذلك ، أهو سحر؟ وكنت أبغي المعرفة ، لكنه ابتسم ثم قال : « لا ، باستطاعة كل انسان أن يتوصل الى هذا » . « حتى أنا ؟ » سألته فتوقف ثم امسك يدي بيديه مطيلا اليهما النظر . كنا كلانا واقفين تحت ضوء النجوم بلا حراك على الاطلاق . كان هو ساكنا هادئا ، واثقا من نفسه متشامخا قليلا . وكان قلبي يخفق لدرجة خيل الي أنه على وشك الانفطار . أخيرا ابتسم من جديد ابتسامته الحزينة الحلوة ثم قال : «أوه! نعم ، خاصة أنت . والآن امض الى البيت » .

« كانت تلك هي المرة الاخيرة التي رأيناه فيها جميعا اذ لم يعد بعدها على الاطلاق . فما رأيك بذلك قل لي ؟ بعد ذاك أقدم لك نظريتي يا زاش ! » لكن زاشي استمر يشخر .

تذكر اوفي ، وهو متجهم ، ان الخبر السيء ينهك الساعي بسرعة أكبر بكثير من الخبر الحسن فالخبر الحسن بالحقيقة هو ابرة أدرينالين بل ان تأثيره في زاشي اشبه بمزيج من الهرمونات وانقى خلاصات الكافئين ، وكانت تلك فرصة أجبرته على تركيز احاسيسه على صورة لرئيس جوقته لم يرها من قبل قط : صورة البائس، الملوث بالوحل ، صورة الناجي الوحيد من فقسة بيوض جرفها الفيضان . وكان حسب أوفي نظرة واحدة كي يتمالك نفسه .

كان قد عاد ، تجذبه ذكرى توقعات ايرييز القاتمة الى الغرفة نفسها لدى عودته من آيرو ثم اضطجع على السرير ، فيما كان تخوفه يتحول شيئا فشيئا الى يقين تام بأن كل شيء قد ضاع . عندما حصل ذلك اليقين أحس بأنه مستعد له على نحو غريب بل انه يرحب به ، فقد رآه يدخل الغرفة على قدمي زاشي المترددتين ، بل ان الضغط على قبضة الباب ، حتى قبل انفتاحه بهدوء ، بدا وكأنه جزء من رد الفعل على ذلك التخوف المتكدس في نفسه . كانت الشمس ترسم خطا أشبه بخط قلم رصاصي على الارض راح يتسع الى ان اصبح اطارا أصفر تجسد فيه ذلك التوقع . كان زاشي يدير ظهره . وكانت يداه الغليظتان المضطربتان قد اغلقتا الباب اغلاقة خرقاء فيما ظل واقفا هناك على ساق واحدة وهو على أتم الاستعداد لان يستدير ويهرب . كانت قد تلاشت كل الجمل التي رددها مئة مرة خلال رحلة عودته الطويلة وعندما استدار بدت سترته تهبط على كتفيه من تلقاء نفسها ، كما لو أن ذلك ناجم عن نفاد صبر ، وعلى نحو مشؤوم يدعو للرثاء . لم يكن الباب مغلقا جيدا . وحين انفتح من جديد رفع اوفي يده كي يتقي الانبهار . انتهز زاشي تلك الحركة ليبدأ الكلام ملقيا نظرةعلى آنية الكاكاوين الموضوعة على كرسي بجانب السرير .

ــ هل فمك من خشب ؟

ــ لا ، لا ، ادخل وأغلق الباب .

ومن جديد استغرق زاشي وقتا طويلا الى درجة وجد اوفي الفراغ الكافي للنظر اليه وهو يفتش عن كلماته . ترك نفسه يتهاوى من جديد على السرير ثم حاول أن يعيد ذهنه الى حالة الاستعداد التي كانت تسيطر عليه منذ أن استيقظ ، اثر رحلة العودة الطويلة ، اثر كارثة كروس ــ ريفر تلك التي قصها عليه آهيم . كانت عيناه منفتحتين على الاثير الاحمر لغرفة ايرييز وكان قد نفض الرقاد عن عينيه وهو يغمغم : العالم كله مات وأنا الناجي الوحيد . . . لا ، لم يبق سوى الظلال ، سوى الظلال . . .

وكتأكيد لتلك الفكرة ، لم يكن زاشي ، بالمعنى الحرفي ، سوى ظل لنفسه ، أحس أوفي بأنه يستعيد قواه فابتسم . أما الموسيقي فقد استدار بخطوات صامتة رزينة ثم رفع كرسيا من تحت الطاولة دون ان يثير ذرة من غبار . لقد كان شبحا ثقيلا مؤثرا له هيئة من يطلب العفو ، وكان يتنقل في الظلام المحموم مثل فراشة ليل مغبرة ضخمة . بعد ذلك ، ضرب جانبيه فجأة ثم خار :

ـ كان ذلك فظيعا يا عزيزي ، فظيعا للغاية !

وللحظات طويلة من الزمن ظل أوفي صامتا ثم دفع الاناء الموضوع على الكرسي فتوجب على زاشي أن ينحني فجأة كي يمنعه من السقوط . قبض عليه فأحس بما يدفعه لان يشرب وهكذا شرب جرعات طويلة ، ثم وضع الاناء بين ركبتيه وكرشه . حملق ايفبو بقشرة الكهرمان التي بقيت في اناء الزجاج ثم انتظر . بعدئذ نظر الى زاشي وهو يعد نفسه ، مغتبطا بأنه اختار الانتظار في الفرفة التي كانت غرفة ايرييز على نحو مطلق . والعجيب أنه كان يحس بالامان ، كان يحس كما لو انه في غمد واق وهو يعد نفسه لصدمة النكبة . كان غمدا مصنوعا من الوانها هي ، من عطورهـا ، من لحمتها وسداها . في البداية كان ذلك الغمد يكتم أنفاسه ، يخنقه ، بعد ذلك أحس به يحيط به هكذا ببساطة وبكل رقة وعذوبة . كان يعرف ما الذي جاء زاشي ليقوله له . وبالانتظار كان يعزي نفسه مفكرا أنه ان كان عليه أن يدور في دوامة التعاسة . فعليه أن يدور فيها هنا في هذا الغمد فحينذاك يكيل الحزن كأسا بعد كأس يمدده في عطر ايرييز الذي ما يزال سائلا ثم يغرق نفسه فيه . أحس بتشنج مبرح في منطقة المعدة فأدرك أنه بحاجة ماسة الى التكيف مع فراغ فاغر فاه .

وحين بدا زاشي وكأنه عاجز عن استخدام صوته بادر أوفي الى السؤال :

ـ أين هي ؟

حينذاك فقط تدفق سيل من الكلمات :

ـ جاءت الصدمة دون أن يسمع أحد بقدومها . كنـا نجهل ان المدينة غرقت في الدماء فتابعنا عملنا كأن شيئا لم يحصل . حينذاك هاجمونا . لم يكن رهط الكلاب هو الذي هاجمنا بل الجنود أنفسهم . كان النادي يقع على مسافة من الشارع ، لهذا لم نكن نعلم شيئا عما يجري . كنا في قلب المعزوفة تماما عندما هجموا ، لقد انقضوا من كل مكان ومن لا مكان . أخـذ الرصاص يلعلع ولم أكن قد رأيت شيئا كهذا من قبل ، بل لم أكن أفهم ما يجري ، يا عزيزي . اختلط الحابل بالنابل والكل يقـول في نفسه « ربي أسألك نفسي » أجل ، هكذا صارت الحال وأنا أقص عليك ما جرى يا عزيزي ، قل عني ما تريد ، صفني بكل النعوت التي تشاء ، لكن هكذا صـارت الحال ، لقد نسيت كل الناس ، كل الناس ، نسيت حتى سيليست ، بل لم أفكر بالتضرع الى الله . كل ما فعلته انني شرعت أركض ، آه ! يا لتلك الجلبة ، يا لذاك الضجيج ! لم يكن باستطاعة المرء ان يرى بسبب الضجيج ، رغم أنه لا يجوز القول ان الضجيج يعيق البصر .

ـ اذن فأنت لاتعلم ما حل بها ؟.

خيم الصمت ، أخيرا قال زاشي وهو يحدق النظر الى وجهه .

ـ أجل يا أوفي ، اعلم .

ثم بلع ريقه ، واضطرب في كرسيه وهو يسب ويلعن .

ـ اسمع ، عندما خرجت من النادي ، لا أذكر كيف خرجت . الا أنني وجدت نفسي أركض في ممر باتجاه فئة من الاوغاد الذين كانوا يتقدمون نحوي مباشرة . في الحال انحرفت الى اليمين حيث اندسست في الادغال ، لا تسلني لماذا ، فربما اعتقدت بكل بساطة ، أنه المكان الاكثر أمانا . ثم أخذت أتسلق شجرة ، ولعل هذا هو ماكان ينبغي فعله ، اذ أنهم لم ينتبهوا الي . فقد اطلقوا مئة من الطلقات وتابعوا طريقهم . ربما لاعتقادهم أنه من المستحيل علي التخلص بهذه السهولة ، والحقيقة ، أنا نفسي لا أدري كيف تخلصت ، من ناحية أخرى : كانت أطراف الاغصان تتساقط من كل جهة حولي ولعلهم اعتقدوا أنني سقطت مع تلك الاغصان أو . . . على كل حال كنت ما أزال هناك ، لكن أعلى كثيرا ، عندما عادوا ثانية وهم يركضون . كانت ايرييز معهم وكانت تخبط وتلبط ، تتضرع وتتوسل ، كما تعلم . بعدئذ القوها في سيارة لاندروفر فيما استمرت هي تجأر حتى خيل الي أنها ستوقظ المدينة بأسرها . انت تعرف يا أوفي انني غير جريء لكن الجوقة هي حياتي كلها . اخيرا لا ادري لماذا ، لكنني لم أستطع أن ادع سيليست بين يديهم ، وهكذا هبطت من الشجرة بأقصى سرعة وركضت حتى سيارتي ثم تبعتهم . كانوا منشغلين كل الانشغال بمحاولة تطويع سيليست حتى أنهم لم ينتبهوا الى السيارة الضخمة التي كانت تلحق بهم . بلع زاشي ريقه بعصبية واضحة ، بعدئذ نهض ثم صفق باب خزانة الثياب بالحائط فقال أوفي :

ـ هدىء روعك ، قل لي فقط ما الذي جرى ، لقد فعلت ما يفعله معظم الناس لو كانوا مكانك ، فكفّ اذن عن جلد نفسك .

ـ على كل حال تابعتهم حتى النهاية . رايتهم يقودونها الى بيت ، بيت كبير تحيط به أسلاك شائكة عالية وله بوابة ضخمة . لم أتحرك من هناك حتى آخر النهار . كنت أراقب من بعيد وكان يحرس البيت أولئك الحمقى ، ولقد علمت فيما بعد ، انه بيت رجل من رجال الاعمال هناك استولى عليه ضابط ثم جعل منه مسكنا له .

ـ والمالك ، هل تعرف ماذا حصل له ؟

ـ أجل يا عزيزي . لقد ذبحوا اسرته أمام عينيه . بعد ذلك جروه في الشارع ثم ربطوه بسيارتهم اللاندروفر والقوه في ركن بعيد ، ولقد رايت ما تبقى منه ، اذ لم يكن قد مات بعد يومين . كانت أجفانه ما تزال تتحرك وكان ذلك كل شيء ، فالذباب الذي كان يحط على جسمه كان أكثر حيوية منه . . .

ـ هل باستطاعتك أن تعرف الطريق الى البيت ؟

ـ بالتأكيد يا أوفي لكن . . . انتظر ، انتظر ، بماذا تفكر ؟ .

فأشار أوفي الى قلم وورقة على الطاولة .

ـ ارسم لي مخططا .

نظر زاشي اليه طويلا .
ـ هل أنت مجنون يا عزيزي ؟ .
ـ قلت ارسم لي مخططا .
ـ لا يمكنك فعل شيء يا عزيزي .
ـ زاشي ! .

فقلص قائد الفرقة رقبته ، وقد بدت عليه هيئة العناد .
ـ لن أساعدك على الانتحار . انزع ذلك من راسك ، بماذا تفكر يا عزيزي ؟ قل لي بماذا تفكر ؟ لقد فقدت جوقتي ، مات ثلث أفرادها بالرشات الاولى ، وثلثهم الآخر ، على وشك الموت في المستشفى ، جرحى ومشوهين . اما الباقون فقد تفرقوا كل في مكان . السائق نفسه عثرت عليه في الحرج غير بعيد عن مكان وقوف السيارة وقد بقروا بطنه ، اذن ، ما الذي ستفعله بالمخطط ؟ قل لي من فضلك .

نهض اوفي واخذ يرتدي ثيابه .
ـ على كل حال ، قد لا يكون ايجاد بيت كهذا صعبا كثيرا .

ترك زاشي نفسه يتهاوى على الكرسي ثم أخذ يتمايل .
ـ يا الهي ، كنت أعتقد انك أكثر خبثا من ذلك . كنت أعتقد انك أكثر خبثا من ذلك يا عزيزي ولولا ذلك لكنت تلاشيت في الطبيعة مثل أفراد جوقتي الآخرين بدلا من أن أعود لرؤيتك . لم يكن بي حاجة لفعل ذلك يا عزيزي . لم أكن بحاجة الى أن انقل اليك اخبارا سيئة . ولم يكن شيئا تبلغته في السوق بل رأيته بأم عيني ، رأيت على الارض نساء مقطوعات الاثداء وأمخاخ صبية مهروسة على الجدران ، فما الذي تظن أنني أقصه عليك ؟ لماذا تريد أن تذهب وتعرض نفسك للقتل ؟ أتعتقد أنهم لا يعرفونك هناك ؟ أتعتقد أنهم لا ينتظرونك الآن .

فشرع أوفي ، وقد وقف وراءه ، يدلك كتفيه لتهدئته . كان الرجل القصير الممتلىء يبكي مثل صبي فأحنى أوفي راسه الى الامام ، وهو يدلك عضلات رقبته المتشنجة . بينما بدات الدموع تجري بغزارة مبللة بنطاله عند ملتقى الفخذين .
ـ عجبا يا عزيزي ! عجبا يا عزيزي ! لماذا لا تستطيع أن تفعل كما يفعل كل الناس ، تدع قلبك ينفطر وتذهب وتنسى ، انني أعرفهم ، هذا ما أقوله لك ، اذ حتى لو أنها ما تزال على قيد الحياة حتى الآن ...

فأطبق أوفي بيده على فم صديقه .
ـ لا تقل يا زاش أكثر من ذلك . سأحاول بكل قواي الا أفكر بعد الآن لكن اما أن تساعدني أو تغلق فمك .
بدأت اطباقة يده تتراخى ببطء بعد ذلك استدار كي يزرر قميصه فأرسل زاشي زفرة ...

ــ أنا لا أريد تسويد اللوحة . لكن اقسم لك يا أوفي إنني عندما كنت هناك ، لم يكن باستطاعة ذبابة ان تخرج كي تأكل من الجثث دون أن تعرض نفسها لحربة تخترقها او رصاصة تمزقها .

ــ كيف عدت إذن ؟.

ــ في القطار وليس بواسطة أخرى . لقد ظلت السيارة معطلة هناك ، أنا لا أريد أن أراها بعد الآن ، لا أريد أن أراها أبدا ، واشباح أولئك الفتيان جميعا تسكن مقاعدها . بعد اليوم الاول من وقوع تلك الحماقة أودعتها على مسافة بضعة امتار من الشارع الكبير واظن أنها ما تزال هناك . لم أكن أرغب أن أرى سي ــ ديبز عربة موتى عندما يحين الوقت ، رغم أنني كنت على استعداد لان أقول اذا ما سئلت : « بالطبع ، ادفنوني في سي ــ ديبز ، فلا أريد نعشا » . ثم اضاف بعد عدة دقائق : فذلك سيكون أقل كلفة من النعش .

ــ لا يمكن حفر حفرة واسعة الى حد يكفي لدفنها .

ــ من الذي تحدث عن حفر حفرة ؟ الم تر تلك الاخاديد الموجودة هناك في الاعالي ؟ أن بامكانها ابتلاع سفينة دونما اشكال .

أتاح له أوفي بعض الوقت كي يتمالك نفســه ، ثم قال بنبرة تعني أنهـا المرة الاخـــيرة ...

ــ سترسمه لي، هذا المخطط ؟.

فهز زاشي رأسه بهيئة التحدي ذاتها .

ــ انزع ذلك من جمجمتك ياعز يزي ، فأنا أعلم جيدا أن الامر لم يعد مهمـا بالنسبة اليك ، لم يعد مهما بالنسبة الي ، بالنسبة الى كل الشباب ، الى كل من لهم عيون في رؤوسهم . كما أعلم جيدا ، أن ذلك أشبه بما يحدث حينما يدع المـرء نفســه تؤخذ بجمال الفجر بعد أن ظل ساهرا طوال الليل . فالانسان يعتقد أن نخامه جاف ، لكن سرعان ما يبدأ دمه بالغليان عندما يرى سيليسيت . ما اريد أن أشرحه لك يا اوفي هو ان ذلك الفجر لن يطلع ابدا بعد الآن .

ــ ارسم لي ذلك المخطط .

لكن زاشي ظل على موقفه الرافض دائما .

ــ قلت لنفسي وانا في القطار ، لاشك أن لأوفي علاقات حتى بين اولئك الوحوش الذين يرتدون الزي الخاكي . اذن باستطاعتك أن تضع يدك على أحدهـم وتسر له بالامر ، انه الاسلوب الوحيد ياصديقي .

كان أوفي قبالته على السرير .

ــ هذا أيضا ، يا زاشي ، هذا أيضا . لكن عليك أن تعلم أنني لا استطيع البقاء هنا لحظة واحدة أخرى . ارسم لي هذا المخطط ولن أطلب منك شيئا آخر .

رأى زاشي ، وهو يستسلم ، مخاوفه تتأكد ، ففي النهاية سيتصرف أوفي تصرف الاخرق وليس باستطاعة زاشي أن يدعه يذهب بمفرده ، وهكذا هز كتفيه :

ـ حسنا ، لنذهب الى هناك .

لجزء من الثانية تردد أوفي . بعد ذلك امتثل وهو يفكر بالتخلص منه قبل أن يغادر المدينة . خمن زاشي ذلك من السرعة التي قبل بها الامر ، ثم رفض مغادرة السيارة عندما شرع أوفي يعرض سلسلة حججه .

كان زاشي نائما بينما كان أوفي يفكر بعمق . ليس من المعقول أن تكون تلكالفارة مثل بقية الفارات ، فناد خاص ، سيما اذا كان يرتاده بصورة رئيسية أجانب كروس ريفر ، هو هدف طبيعي للنهابين . مع ذلك لم يكف تفكيره عن العودة المرة تلو المرة الى أرسطو والى بهلوانياته الحمقاء المضللة . ذات يوم كان أوفي قد طلب منه بطاقته الخاصة بالزيارات . فأخرجها المسافر التجاري ، مغتبطا ، بلا حذر ، من جيبسترته الداخلي بحركة عريضة وسريعة وبرشاقة مدروسة . كان أوفي يعلم ما كتب عليها . فتحت اسم الممثل الحقيقي ، كتب بخط عادي مذهب ، اللقب الذي كان قد منحه لنفسه : ارستقراطي الممثلين .

تناول اوفي قلم حبر ثم شطب كلمة ممثلين مسجلا مكانها « المارلو » ، وعندما أعاد البطاقة الى أرسطو فهم هذا جيدا ما الذي كان يريد قوله ، لكنه لم يدع نفسه تضطرب ، بل اخذ يضحك ثم ادعى بأن ايرييز سوف تتنزه في سيارة بويك لواحد من أصحاب القبعات الكبيرة قبل نهاية السنة . (ماذا تريد أن تصنع ياعزيزي ، ماذا تعني بالنسبة اليك ؟ لا شيء . فسيدة مثلها ينبغي أن تنتهز الفرصة عندما تحين وعليك أنت أن لا تفسد عليها حظها ، فهي لم تخلق لاناس مثلك) .

بعد ذلك غير تكتيكه مطوقا أوفي بذراعيه وقد اتخذ هيئة الصديقالحميم ، ثم حاول الانفراد به .

« اسمع ، سأعقد صفقة معك . استمر أنت في نيل حصتك من السيدة ، وأنا احرص على أن أكتم الامر فلا يعلم بابا بونيون شيئا عنه » .

لم يقم اوفي أي رد . ذلك انه لو انهال على ارسطو ضربا لكان باستطاعته أن ينكمش على نفسه ثم ينفض قبعته البترولية ، ويمضي كي يقدم تقريرا لصاحبه عن الحادث ... انظر كم نعاني أيها القائد ، انظر ما نجنيه عندما نحاول التقريب بين شخصين يحتاج كلمنهما الى الآخر ، فأنت بحاجة اليها وهي بحاجة اليك ، ولكن ما تراه يعلم عن هذا كلب البستاني ذاك ؟ حاول أن تشرح له بعضك ... بعد ذلك ربما انتقل شيءمنيد الى يد ، « تعويضا عن الخطر » ، تعويضا رمزيا عن الاخطار التي يتعرض لها المرء حين يقوم بخدمة تطلب منه . وحينذاك ربما راز ارسطو ما وضع في يده بهيئة الغافل والنزيه ثم دسه في جيب سترته ...

هاه ، لعلي استطيع بهذا شراء واحد من فتيان الجوقة ، كي يوصل لها رسائلي. انه سيوفر علي الكثير من مضايقات ذلك الغول . في كثير من الاحيان كان أوفي يفكر بالخطر الذي يشكله امثال أرسطو على جيلهم ، برفضهم لتقبل الطبيعة العامةللقيم، والانطباع الذي يتركونه بأنهم يفرون من أي خطر يهددهم بسبب تلك القيم التي لم يفهموها قط ، وليس باستطاعتهم أن يفهموها قط . كانوا بحاجة لان ينكروا معقوليتها كما كانوا بحاجة لتدميرها مدمرين بذلك الخطر الذي يهددهم ، وذلك بافساد كل ما يستطيعون افساده . كان اتساع الخطر الذي يمثلونه أكبر من ان يحد اذ كانوا عاجزين عن رؤية عواقب أفعالهم الا ما كان يتعلق منها بمنفعتهم المباشرة . بل حتى تلك المنفعة لم تكن مادية ملموسة دائما . كلا ، فقد كانت هناك متعة أخرى هي أن يشاركوا في انتهاك الحرمات بغية تعزيز رفضهم غير المنطقي ذاك تساعدهم في ذلكعظمة زائفة . في ذلك الحين رد أوفي بأن أهداه ايربيز لنفسه قائلا له : خذها ، اجل . خذها لك أنت . فأناأرى ذلك أكثر ذكاء وفطنة . كلا ، أنت لا تريدها ؟ وللتو رأى أوفي ارسطو يفقد رباطة جأشه ، ينظر اليه محملقا وكأنه ينظر الى مجنون ، ثم ينسل هاربا .

عندما استيقظ زاشي ، سأله أوفي من الذي رتب خط رحلتهم تلك .

ـ طبعا أرسطو ، انها دورته التجارية الجديدة . كان علينا أن نعمل كالمعتاد من اجل دورته بالسيارة . أنت تعلم كيف يجري ذلك .

ـ نعم ، بالطبع ، لكن هل كان موجودا ذلك المساء ؟

اطرق زاشي مفكرا وقد اتسعت عيناه .

ـ ها ، بماذا تفكر يا عزيزي ؟ أنت لا تعتقد أنه . . .

ـ ارسطو أحمق فهو لا يدري كيف يورط نفسه . . .

ـ لا ، لا ، أقول لك ، لا . أنت تفهم الامور بالمقلوب . فقد كان ذلك جنونا عاما : لا مفضلون ولا استثناءات ومن المستحيل أن يكون ارسطو هو من أرسل أولئك الاوغاد .

ـ ارسطو انتهازي غبي .

فهز زاشي رأسه بحركة تدل على النفي الراسخ .

ـ كلا يا عزيزي ، ليس هذه المرة . أنت لم تكن هناك ، لم تكن هناك على الاطلاق لكن عندما تصل سترى ما أود قوله ، اذ لا يوجد هر في الشوارع ، يا أوفي ، لا شيء الا الذباب والعقبان وأولئك الوحوش الذين يطلقون الرصاص على كل من يتحرك . لم يكن باستطاعة ارسطو ان يكون سريعا بما فيه الكفاية لاستغلال وضع كهذا .

ـ قد تكون على حق . لكنهم بالحقيقة جاؤوا من اجلها لا من اجل القيام بهجوم علي نقطة معادية يرافقه أسر عبدة . لقد أتوا ليفتشوا عنها وكانوا على استعداد لقتلكم

جميعا ، حتى وان لم تزعجوهم . لم يكونوا يريدون شهودا . اسمع يا زاش ، كانوا يعلمون انها هناك ، وأيا كان المدبرون فقد كانوا يعلمون أين يجدونها .

ـ لا شك أنهم كانوا يعلمون . ألم يكونوا قد وضعوا اعلانات في كل مكان ؟ .

ـ لقد حاول أرسطو بيعها الى واحد من رباعي الكارتل ، الى ذلك الفظ من كروس ـ ريفر وانا أعلم ، انه هو الذي ذهب لابلاغه نبأ اجتماعي الاخير بعناصر من الجيش . ذهب بالطائرة ، وقد سلم التقرير للمصلح .

نظر زاشي اليه وكأنه بات يشك بسلامة عقله .

ـ اذن أنت تعتقد أن آموري هو الذي نظم الامر كله وهو وراء الحرق والقتل في المدينة وفي منطقة كروس ـ ريفر كلها ، وذلك كله من أجل امرأة ؟ اسمع يا عزيزي . أنا أعلم أن سيليست تجعل الرجال يأتون أفعالا عجيبة . . .

ـ لا ، لم تكن ايريز سوى جائزة اضافية شأنها شأن جوقتك فقد كانوا يطاردون رجال آييرو في كل مكان . لكن كان عليهم أن يموهوا ذلك فيزرعوا الموت على نطـاق أوسع بكثير .

* * *

لم تستطع مداعبة الفراشة في غرفة إيريز المعطرة ان توقف أحلامه بآنوبيس ، ذلك الكائن ذى الرأس الثعلبي ، عندما أدرك تمام الادراك المدى الحقيقي لاحـداث كروس ـ ريفر . كان قد أغفى وهو يقول لنفسه ان الوجه الخامس من سفر الرؤيا ، الجرح الثامن ، جرح الكلاب المسعورة ، هو الذي أغفل الساحر اليهودي إدراجه . كان محشورا بين السرير والحائط ، وكان يرى وهو شبه نائم ، آلاف وآلاف المخلوقات تخرج من الارض ثم تنقض عليه مكشرة عن اسنان يسيل منها اللعاب . استدار يبتغي الفرار لكنه أحس وكأن رجليه تمسكهما صخرة ، فشرع يتخبط كي يحرر نفسـه ، لكن عبثا . بعد ذاك اكتشف فرصته الوحيدة للخلاص وهكذا كشر عن أنياب حادة يتطاير منهـا الشرر ، أنياب شبيهة بأنياب الحيوانات تلك التي كان يعج بها المكان والتي كانت تصوب خراطيمها المسننة الى عنقه على نحو متناسق . يا للعجب ! لقد رأى أسنانه وكأنها لم تعد أسنانا بشرية ، كما لاحظ أن قطرات من لعاب رمادي نجس تتساقط من شدقيه ، لعاب غدا قرمزيا تماما اثر وليمة بهيمية حديثة العهد . كذلك احس بحرارة في عنقه وقد انتصب شعره على نحو مفعم بالتحدي ، أمـا اعجوبـة الاعاجيب فهي أن الصوت الذي كان يخرج من حنجرته انما كان عواء خالصا ، عواء اشد ضراوة من صراخ تلك المخلوقات وهي تتبع فريستها . استيقظ وهو يرفس بعنف فرأى ساقه محصورة بين السرير والحائط .

هل كان ذلك تعبيرا عن حقيقة الويلات التي كان الرجال يصبونها ؟ سر الثقـة بالنفس لدى أولئك الذين كانوا يطلقون ذلك الرعب على الابرياء وقد وجدوا انفسهم

على يقين من انه ما ان تذهب الكلاب الى الصيد ، بعد القاعدة الاصطفائية الاولى من ليل السكاكين الطويلة ، حتى تكون تلك الادوات قد حققت تحولا في كياناتهم ذاتها ؟ حتى الابرياء كانوا يلبسون قناع ابن آوى كي يتقوا كلاب الصيد ، وكانوا يساهمون بدورهم في طبيعة التحولات البهيمية للروح البشرية ، والا فكيف يمكننا تفسير الابعاد التي بلغها ذلك المرض الساري الذي أصاب الجمهور كله دون تمييز ، ذلك الابتهاج البشع الذي كان يقرؤه المرء في وجوه النساء والاطفال انفسهم ؟ كان يعلم ، أي نوع من الالعاب كانوا يلعبونها مع الضحايا التي كان الرجال يتركونها على حافة الموت ، كما كان يرى رؤية العين النساء اللواتي كان يصل بهن الامر حدا يلعبن فيه دور جالبات الطرائد ، فيعملن على اخراج الفارين المذعورين من مخابئهم بل ويشاركن في لعبة بتر أعضائهم وتقطيع أجسامهم أياما بطولها .

— او تعتقد أن الامر انتهى ؟ وجه اوفي سؤاله الى زاشي فهز هذا كتفيه .

— آخر ما سمعتهم يقولونه هو أن قوى الامن سيطرت على الموقف ، لكنني سمعتهم يقولون ذلك منذ اليوم الاول .

* * *

بعد اجتياز خمسين كيلو مترا القى اوفي بنفسه فجاة على زاشي في محاولة منه لتوجيه وقيادة السيارة الى الجانب الآخر من الطريق ، فيما ارتفعت ذراعه بشكل غريزي لاتقاء كتلة مبهمة كانت تنقض عليهما ، كتلة برزت من حيث لا يدرون . مضت السيارة فارتطمت بشجرة اعادتها تقريبا الى محور الطريق ، بعد أن فلح دولابان من دواليبها أخدودا جانبيا اثر الجهد الطويل الذي بذله السائق لاستعادة السيطرة عليها ، أخيرا انتهى الامر بأن ثبتت الواقية الخلفية والقاعدة الهيكلية السيارة في الارض ، بعد أن انعكس اتجاهها وبعد أن حفرت في المنحدر خطا طوله عشرة أمتار . كان الرعب قد استولى عليهما فقفزا من العربة وهما يظنان انها على وشك الانفجار . كانت النوابض ما تزال تتراقص بشدة عندما خطا اوفي خطوة باتجاه ذاك الذي كان سبب الحادث ، فوجده كتلة مشوشة مسمرة ، كانت في تلك اللحظة قد غدت منطرحة هناك في منتصف الطريق . لحق به زاشي ، فيما كانت نظراتهما ثابتة على الكتلة .

— انه قرد ؟

— يخيل الي ذلك .

كان على مسافة كبيرة من السيارة . وكان المحرك ما يزال دائرا لكن ما من احد منهما فكر بايقافه .

— سنذهب بالسيارة الى هناك ، وبكل هدوء . قال أوفي بنبرة غريبة .

— ماذا ، أتعتقد انه سيعضك ؟ انه ميت .

ثم شرع يسير باتجاه ذلك الشيء ، لكن اوفي اوقفه .
ـ انتظر ، فذلك القرد يرتدي ثيابا .

فطرف زاشي بعينيه مرارا ثم هز رأسه .
ـ أنت ترى أوهاما يا عزيزي .

ثم عاود السير .
ـ قف زاشي ! اصعد ولنذهب الى هناك بالسيارة .

فضحك زاشي ثم قال : انه يرفض التحرك .
ـ حسب علمي ، لا يوجد سيرك قريب من هنا ، مع ذلك دعنا نذهب لالقاء نظرة عليه .

فتمتم أوفي من بين اسنانه .
ـ آمل أن تستطيع السيارة السير .

دار زاشي حول السيارة ، وهو يتمايل ، تفحص الدواليب ثم عاد ليعلن أن شرائح منها قد طارت .
ـ صه ، قال أوفي وعيناه مشدودتان باستمرار الى ذلك الشيء ، (بعد ذلك اشار باصبعه الى جانب الطريق قرب المكان الذي كانت تلك الكتلة موجودة فيه . أحد الرجال كان قد خرج لتوه من الدغل ، تبعه بعد هنيهة رجل آخر) . لو اننا دهسنا واحدا منهم ، لم يكن هناك مجال للتوقف بالتأكيد . ففي هذه النواحي لا توجد كلمة « حادث » ، بل هم يكتفون بحكم مختصر : العين بالعين .

فانفجر زاشي بضحكة صاخبة .
ـ قلت لك انه قرد . انظر ، انهم صيادون .

كان الرجال يحملون أقواسا وسهاما وكانت خناجرهم مشدودة الى أذرعتهم . برز من الدغل رجلان آخران ثم ما لبثوا أن أصبحوا ثمانية . توقفوا جميعا وهم يحدقون النظر الى طريدتهم الممددة على الطريق ، دون أن يأتوا بحركة واحدة .
ـ آه !! ، تأوه زاشي مصعدا زفرة طويلة ثم قال : كنت دائما احلم بجلد قرد ! لكنهم كثيرون جدا بالنسبة الينا .

فسأل أوفي :
ـ لكن لماذا هم واقفون هناك ينظرون دونما حراك ؟ ارايت من قبل صيادين يتصرفون على هذا النحو ؟
ـ ما الذي تقوله ؟
ـ الصياد العادي ينقض على الحيوان الجريح ثم يطلق عليه سهما او سهمين آخرين من باب الاحتياط ، لكنه لا يتسمر في مكانه ينظر وينظر جامدا بلا حراك .

ولوهلة من الزمن ظلت اللوحة مبهمة عصية على الفهم . كان المسافران قد أصبحا جزءا منها ، وكانت غرابة المشهد قد جمدتهما وهما يتساءلان ما تراها تعني وقفة الصيادين الصامتة تلك . ثم شرع أوفي يتساءل ان كانت تلك الزمرة من الصيادين قد لاحظت وجود السيارة .

حينما ظهرت الشمس من بين الاشجار ملقية بقعة من الضوء على الطريق لبرهة وجيزة من الزمن ، ميز المسافران على نحو أفضل جلد القرد ذاك الذي كان ممزقا تماما ، رماديا لما علق به من قذارة ونباتات واغصان ، في تلك اللحظة شرع الصيادون يتحركون أيضا ، انحنوا على الحيوان المقتول ثم دفعه أحدهم بطرف قوسه دفعة خفيفة محركا رأسه من هذا الجانب ثم من ذاك . فبدا للمسافرين من مكانهم البعيد وهو يعمل أشبه بمحلل رؤوس .

ـ لم أره الا بطرف عيني وقد جرى ذلك بسرعة كبيرة . لكن في الطريقة التي ارتمى بها هذا الحيوان على السيارة ، ثمة شيء ... وذلك دون ان نتحدث عن الوضع الغامض لاولئك الصيادين الذين خرجوا من الغابة ، لا كمطاردين جشعين ، بل بالاحرى كرعاة قطعان يتبعون ، دون قلق ، أثر حيوان ضال ، وهم متأكدون من أنهم سيجدونه داخل المرعى ، غير مبالين بمرور الساعات .

كان أوفي ، وهو يعاين أرديتهم الملقاة بلا مبالاة على أكتافهم وصنادلهم البدوية ، وخناجرهم التقليدية المثبتة على أذرعتهم ، قد اقتنع كل الاقتناع بأنهم رعاة قطعان . لم يكن يبدو عليهم أنهم ينضحون عرقا بل كانوا يبدون وكأنهم يشاركون في المطاردة وهم واثقون من أنهم سيكونون السباقين ، وأن الضحية ، بحكم طبيعتها ذاتها ، ستبقى ضمن الدائرة التي سيقبضون عليها فيها . رأى أوفي ، بعين خياله ، تلك القفزة التي قام القرد بها وقد وجد نفسه أمام المنحدر تماما ، وفي الحال تذكر أنه كان قد لاحظ عينين واسعتين مطرودتين باتجاه كمين ، كما كان قد رأى أسمالا تتحرك ملطخة كلها بالوحل الجاف والنبات ، فوقها رأس هو بلا شك ، ورغم منظره الهزيل ، رأس رجل .

قبل ذلك كان هناك ، بالتأكيد ، مشهد مطاردة من كمين الى كمين . ذلك المشهد عاد الى الحياة فيما كانت اللوحة تمحي على الطريق المقفر : المشهد المحسوب بدقة ، مشهد الصيادين وهم يتعقبون على أرضهم الخاصة فريسة تدور في حلقة مفرغة ، فريسة كانوا يسوقونها بصبر ، يوجهونها وهي تشق طريقها في الادغال نحو خط من الصيادين القابعين في مكامنهم وهم على أتم الاستعداد لاطلاق صيحة الهجوم . كانت الجماعة قد سمعت الرجل وهو يقع في شراكه نفسها ، يهرب خلسة ثم يزحف ، وهو منهك ، على قوائمه الأربع مستترا بالادغال الهزيلة ، يتغذى بالجذور والأوراق والديدان ، يجري وهو يشعر بالغثيان وتقبض على معدته التشنجات لابتلاعه قشور

نباتات سامة وتناوله أنواعا من العصير لم يعتد عليها ... كم من الايام ظلوا يطاردونه يا ترى ؟ كان كل شيء يغدو اكثر فأكثر وضوحا من دقيقة الى اخرى : انه مرور ذلك الهارب الذي كان يبحث عن الامان في قرية معزولة نجت حسبما يأمل من الجنون الذي عصف بالمدن ، لكنه ، في الواقع ، كان في حالة من التأهب والتلهف لذلك النوع من التسليات ، التي كانت المدن قد تخلت عنها . وهكذا انتقل من موت بائس الى موت اشد بؤسا ، في تلك الغابة التي تكتم انفضاح أمره تحت تربتها الطرية وأوراقها وأغصانها المتعفنة التي تخمد وقع خطا صياديه .

لكن حين وجد الطريق أخيرا ، سامعا هدير السيارات ، قافزا كالمجنون نحو تلك الضجة التي كانت تعني الامان والسلام ، ثم لم يجد سوى الخط الحقيقي لقاتليه ألقى بنفسه ، فهل ألقى بنفسه يائسا لموت أكثر انسانية ؟ إذ أن تلك اللحظة كانت ما تزال تتضح أكثر فأكثر وقد كفت عن أن تكون مجرد انطباع ، فأمام عيني أوفي كانت تتراقص الاندفاعة الشديدة والاصابع المعقوفة الضامرة التي كانت تحاول بكل قواها التشبث بذلك الجزء من الثانية ...

بعد ذاك بدرت حركة من ذلك المخلوق الصريع ، تحرك خفيف للأسمال الملطخة ، لعصاة خيزران صغيرة وذراع هزيلة تحك القار ... ثم تجمد كل شيء من جديد . بعد لحظة واحدة تنبهت أعين رجال الكمين الى أن الجسد ما يزال يختلج بالحياة ، ومن جديد ، تحركت الاظافر وكأن ذلك بغية صقل الحصى الذي كان يجرحه . حاول المرفق أن يقوم بدور رافعة على الارض ، وهكذا ارتفع الرأس قليلا ، ذاك الرأس الذي علقت به الحبوب ، القش ، غبار الطلع . حينذاك فقط انتعشت عيون مطارديه أولئك الذين لم يكونوا ، منذ ظهورهم ، على ما يبدو ، ينتظرون سوى هذه اللحظة ، لكأن ارتعاشة الحياة تلك لم تكن سوى اذن بل امر ، قبل أن تخمد من جديد . لقد حملوا الرجل ووضعوه على العشب بجانب الطريق ثم مددوا أطرافه الهزيلة على الارض ، فيما كانت تهيمن على رؤوس الآخرين جمجمة الرجل الذي بدا أنه اكبرهم سنا . كانت شفتاه تتحركان بشيء بدا وكأنه صلاة قصيرة . بعدئذ أستل أحد مرافقيه خنجرا ثم وضعه في يده . فارتفع السلاح وهو يبرق تحت الشمس ، بعد ذاك انحنى العجوز حازا عنق الشبح الممدد .

بعد ذاك تحركت ذراعه نحو أسفل الجسم ، وبنصل ذلك السلاح خط دائرة واضحة وسريعة حول نقطة انفراج الفخذين ثم امتدت قبضته الاخرى فرفعت أعضاء الضحية التناسلية ، ثم سلمتها الى احدى الايدي الكثيرة المتلهفة ، في حين كانت ايد أخرى تحاول دون جدوى ، ابقاء الفم مفتوحا ، ذلك الفم الذي كان قد انفتح من قبل التخلص من أله . في ذلك الفم دسوا القضيب والخصيتين ، بعد ذاك تقهقروا جميعا وهم ينظرون الى ذلك التغيير الذي أحدثوه ، دون أن تنم وجوههم عن تفكير أو عاطفة .

كان الدم قد انبجس دفعة واحدة ، فبدا وكأنه لم يبق منه شيء قط ، لقد نضب حين كان الفم يتلقى طعامه المخزي ، في حين رافقت آخر اختلاجة للأعضاء حشرجة ضعيفة وما يشبه الطحلب الاحمر . كانت حدقتا الميت تحدقان الى الشمس دون ان ترف أجفانهما ، وكان الرجال قد اختفوا في الغابة بهدوء يشبه الهدوء الذي رافق خروجهم منها .

لكن لا أوفي ولا زاشي اللذان كان المشهد قد أذهلهما واللذان كانت عيونهما تحدق الى بطل ذلك الكابوس الذى غدا بلا حياة شاهدا الرجال المطاردين وهم يغادرون بل كانا يقفان في مكانهما مسمرين الى الفراغ الذي كانت تضخمه نظرة الميت ، عاجزين عن كل حركة أو عمل ، أخيرا ، كان زاشي أول من تمالك نفسه ، اذ أفلح في السيطرة على الماء الاجاج الذي كان قد صعد الى حلقه .

ــ من المؤسف أنه لم يمت عندما اصطدم بالسيارة .

ــ أجل ، ولعله كان يريد أن يموت هكذا تماما .

ــ اذن قل لي يا أوفي ، كيف تراهم لم يتخذوا أي نوع من الاحتياط لمراقبة السيارات التي قد تصل . بل اننا كنا هنا ، وقد بلغ بهم الامر أنهم لم يلقوا نظرة واحدة علينا .

ــ على كل حال لقد رأونا .

ــ أتعتقد ذلك ؟ (وكان صوته يكشف عن القلق) لم أر أحدا منهم ينظر باتجاهنا .

ــ لقد رأونا ، من أجل ذلك انتظروا طويلا كي يروا ما نود فعله . بل لم يكفوا ثانية واحدة عن الانتباه الينا .

احس زاشي بالنظرات الجليدية توجه اليه ، تلك النظرات التي كانت حتى تلك اللحظة يعتبرها هادئة ولا مبالية بوجوده ، ذلك انه وقد خلا من كل شيء يلهيه ، بات يحس أن الادغال ملأى بالعيون المنصبة عليه ، هو الواقف على الطريق . وهكذا ، حين كان يستعد ، بكل عصبية للالتفات ، وضع أوفي يده عليه ثم همس قريبا من اذنه :

ــ لا تقم بأية حركة مفاجئة يا زاش . أنا سأمضي كي أتشاغل في الجهة اليسرى من السيارة ، أما أنت فاصعد وكأنك تود التأكد من شيء ما . واتخذ هيئة الاسترخاء ولا تتفوه بحرف واحد . هيا ، امض .

أطاع زاشي ، ثم ما كاد يجلس في السيارة حتى لحقه أوفي بقفزة واحدة ، نافضا عنه الهيئة التي كانت المذبحة قد فرضتها عليه ، غير أن خشخشة الاوراق التي تغطي أرض الغابة والتي ظهرت خلف السيارة تماما ، أوضحت كل الايضاح الاحساس بالشر الذي انتاب أعماق جلده الكث الشعر ، كما فهم فجأة لماذا كان القتلة قد اختفوا بصمت في الادغال . ذلك أن أحد القتلة ، اما لجهله أو لانه بكل بساطة نسي قدرة السيارة

الميكانيكية الهائلة ، قفز أمامها في الوقت نفسه الذي كان اوفي يترك ذراع السرعة . أغمض زاشي عينيه،اما اوفي فقد شاهد الشبح وهو يطير فوق غطاء السيارة ثم ينسحق في الدغل المحاذي للطريق . حين فتح زاشي عينيه مرة ثانية ، بعد أن انقذف نحو الباب بقوة نابذة لم يكن يتوقعها ، تبين له أن اوفي كان يستعد للقيام بدورة الى الوراء بدلا من الاستمرار في الاتجاه الذي كان يسير فيه . وكان قد بدأ يحتج عندما تبين له أنهما أصبحا من جديد وسط الرعاة الذين خرجوا معا من الدغل لكي ينجدوا رفيقهم الجريح . تفرق هؤلاء عندما وصلت اليهم السيارة وهي ترعد وجناحها المنزوع يكشط حصى الطريق بضجة تشل كضجة آلة جهنمية . في اللحظات الاخيرة ، وقبل أن ينكصوا على أعقابهم ويولوا الادبار ، رأى زاشي المذهول وجوههم تعبر المرة تلو المرة عن الريبة فالذعر ثم الرعب الخالص ، بعد أن كانت جامدة في البداية لا يظهر عليها أي تأثير . كان اقتراب الشبح المنتقم قد أعادهم بعد كل حساب ، بشرا قادرين على الرد على الخوف ، بقوة فائقة تحتوي في مجالها اللا شخصي على ألف امكانية واحتمال بدءا من الخمود السريع وحتى النزع البطيء .

ما لم يكن زاشي يتوقعه هو ذلك الهيجان المسعور الذي بدأ وكأنه أصاب رأس أوفي ، فقد وصل الى المنعطف التالي ثم توقف . ومن جديد دار الى الوراء ، بقوة أدخلت الدواليب في اخدود . بعد ذلك عاد أدراجه حتى المنعطف الاول وهو يمد رأسه من الباب ويميله ليرى أبعد قدر ممكن قبل أن تظهر السيارة هناك خارج خط بصره .

ـ هـ . . . ي . . ، هدىء من روعك يا أوفي ، ما الذي تفعله ؟

لكن ما كان زاشي يقرأه على وجهه انما هو التصميم الشديد على أن يمر ثم يعاود المرور كل مرة يجد فيها القتلة الشجاعة في أنفسهم لان يحاولوا حمل رفيقهم .

رسم زاشي اشارة الصليب ثم تخلى فجأة عن موقفه السلبي صائحا :

ـ واذا توقف المحرك في اللحظة التي نصبح فيها وسطهم . هيا ، لنهرب يا عزيزي ! كف عن المخاطرة ولنهرب .

تفلفل رأي زاشي السليم داخل حقد أوفي المفعم بحب القتل ، معيدا اياه بعض الشيء الى حالته الطبيعية ، حين شرع من جديد بالدوران الى الوراء بعد أن كان رأسه قد بقي منكبا على المقود فترة من الزمن بدت لزاشي وكأنها لا تنتهي . لكنه لم يكن لشدة غضبه قد عاد انسانيا الى درجة تكفي لان تستطيع عيناه فيها الامتناع عن سبر غور الادغال المحيطة ، في الوقت الذي كان يسير فيه بهدوء آملا أن يدفع الجنون المتعجرف احد القتلة لان يتحدى مرور العربة .

كان زاشي ما يزال يفكر حين قال :

ـ هل أنت واثق من ان عليك التورط في هذا الامر ؟ واذا كنت تنوي الهجوم على كل القتلة الذين قد نجدهم في طريقنا الى المدينة ، الن يكون هذا وخيم العواقب ؟
ـ المعـذرة .

ضغط أوفي على دواسة البنزين ثم غادر المكان بأقصى سرعة ممكنة فأشار زاشي باصبعه الى العداد كي يجعله يتباطأ . بعد ذلك أخذ يقود السيارة بتركيز اكثر انسجاما محاولا أن يجعل تفكيره يتوافق شيئا فشيئا مع سير المحرك غاسلا غيظه ثم جلده المفرط الحساسية بدفقات الهواء ، عارضا روحه للتطهير من شوائب غير مرئية . كانت كتلة الهواء الحبيسة في السيارة تشكل عالما خاصا بين العناصر الشديدة النزوات والمعدن الذي يحيط بها ، كبسولة في رياح غريبة مطاوعة للمسات اصابعه . أخيرا عاد اليه الهدوء وعاد معه شعور بالابتهاج .

كانا يجتازن بلاد القطط البرية ، منبسطا من الاعشاب الطويلة التي تقطعها المستنقعات المستظلة بظلال الادغال ، وتخترقها أوكار النمل ، والسياجات الشائكة وأشجار الباوباب والخرنوب . ما من شيء يتحرك في تلك البراري ، لا شيء سوى القطط البرية ، اللهم اذا ما استثنينا النسور وبضعة ضباع مختبئة ، لكن شيئا فشيئا أفضى بهما الامر الى احساس واحدهما بوجود الآخر وهو تحت غطائه ، احساس بالمعنى الدعائي للكلمة لكنه كان احساسا مطمئنا . كذلك ما من شيء كان يتسرب الى السيارة المغلقة عدا الخرخرة الراضية للمخلوقة ذات الجلد اللامع المصنوعة من شبكة من الالياف ، الاسطوانات ، المسامير ، البراغي ، والعزقات التي كانت تتحدى الاتون الخارجي لشمس ، يشتد لهيبها ضراوة كلما صعدت باتجاه الشمال ، باعثة ارتعاشة وحشية في نهايات اصابعه تلك التي غدت حساسة تجاه اسفلت الطريق ، تجاه هبات الريح ، تجاه الضباب الخفيف الذي يغشى ضوء الشمس ، وتجاه ظلال النسور التي تمر كالبرق . كذلك كانت قدماه الحافيتان فوق الدواسات تتابعان ذرات الوقود وهي تنطلق من منبع الاحتراق كما تحسان بالايقاع اللطيف للمكابس وهي تتحرك داخل اسطواناتها ، وكانت الاوراق تمر به عابرة شعره والريح السريعة تنخر مرددة وطء دواليبه على الارض فأحس من جديد بأن احشاءه تزيّتت ، تماما كما أحس حين كان يراقب الميكانيكي وهو يرش بكثير من الضجيج السائل اللزج ذا اللون الكامد على مفاصل سيارته . وحين بدت السيارة وكأنها تقطع المنعطف على دولابين ، اعترف ، وهو مسترخ تماما ، أن لديه انطباعا واضحا بأن ثمة غراء كثيفا هو الذي يحفظ تماسك العربة بلطف امومي .
ـ الحال الآن على ما يرام . قال لزاشي ، فرد هذا :
ـ سيارة السي ـ دييزتمام !! ، أحسست بذلك من الطريقة التي عاملت بها هذه الآلة .

بعد ذلك اجتازا مناطق هدوء مشرقة ثم دخلا الحزام الضيق لمنطقة الشاج ذات الامطـار الفزيرة ، كان المنظر الطبيعي قد تحول الى منظر مورق تماما ، وكـانت اعشاب اللانوس الكثيفة ترتفـع الى أن تشتبك ذراهـا مع ذرى الاشجار عاليا في السماء ، تزينها قفزات قبائل القرود فوق سقوف الغابة الكثيفة ، المتعذر اختراقها على ما يبدو . كان الصمت الذي رافقهما خلال المائة والخمسين كيلو مترا الاخيرة ، قد انتهى ، وكان الجو قد امتلأ فجأة بالفرقعات ، بالجلبة ، في مملكة رانا(١) تلـك ذات الموقع السيء . لم يكن ينقص الجو سوى طرزان ، ذلك الكائن البدائي الذي كان آخر ما أبدعـه الخيال الاستعماري ، وهو يجلس متباعـد الساقين ، ما بين مقدمة خرطوم فيل واذنيه المتأرجحتين بالاخلاص التي تشتهر به الفيلة . ما من شيء كان يبدو بين الاغصان الملتفة ، لا شيء الا موكب الكائنات المتسلقة ذات الضجيج والاذناب الطويلة من مملكة رانا ، تلك التي كانت تتابع السيارة وهي تشق طريقها السماوي ، عبر أعشاب اللانوس الواقفة في حزام الامطار ، شياطين غسق غاضبة تصب لعناتها حتى النهاية . تصدى أوفي للرفقة غير المرغوب بها أطول وقت مستطاع ، بعد ذاك استدار نحو زاشي الذي كان ما يزال غارقا في ما يشبه الغفلة منذ المحنة الاخيرة .

ـ أنا لا أعلم الكثير عن البتيكولوجيا ، ترى هل يفترض أن هذه الطرزانات المصغرة فأل خير ؟ فأجاب زاشي :

ـ بودي أن أقتنصها واحدا واحدا ، هذه الكائنات الثرثارة البغيضة ، انظر تلك المؤخرات القبيحة ، ثم قل لي ، لمن تبدي لثتها النتنة ؟ ذات مرة ذهبت كي أعزف في مخيم فوقعت بالمصادفة ، على صالة المرشات الباردة ، هناك حيث ينظف المجندون أنفسهم من البراغيث . وصدقني ، لو أن هذه القرود القبيحة تعرف الى أي حد تشبه أولئك المجندين ، برؤوسهم الحليقة الشعر ومؤخراتهم العارية وهم يشدون إلياتهم الواحدة الى الاخرى ، لما كانت ستحدث مثل هذا القدر من الضجة .

❋ ❋ ❋

« الى اللعنة »(٢) كان بامكان المرء أن يقرأ اللوحة بأحرفها غير المتناسقة ، وكانت اللوحة مسمرة على شجرة ، وقد رسم الهاوي الذي كتب العبارة سهما يشبـه ذنب قرد لكنه سهم شائك يشير الى طريق مكون من أخدودين عميقين ، تفصلهمـا ذروة معشوشبة .

كبح أوفي العربة ثم تراجع الى الوراء كي يقرأ اللوحة .

---

(١) اي مملكة القردة .

(٢) أي « الى السد » وهنا نرى تحريف الكلمة الاصلية : السد ، بحيث اصبحت « اللعنة » نظرا لتقارب الكلمتين في اللغة الانكليزية .

ـ لا بد ان هذا هو السد ، اذ يخيل الي اننا بتنا قريبين جدا من موقع العمل في شاج .

ـ أتريد الذهاب الى هناك ؟ (رد زاشي بصوت كئيب أدرك أوفي سبب كآبته في الحال) .

ـ لعل هذا كله سينتهي بتنظيف فمي بعد لقاء أخير .

ـ انني اشك بأن أحدا يعمل هناك في الوقت الحاضر .

ـ لا ، ورشات العمل موجودة دائما هناك . وبودي ان أرى شيئا اشترك رجالنا من آيرو ببنائه في كروس ـ ريفر ، شيء يجعلني أطمئن بأن ما يجري حاليا لا يمكن أن يكون قد قضى على كل شيء .

كفت القرود ، لدى رؤيتها السيارة تتحرك ، عن خدماتها كموكب مرافق اذ عادت الى الوراء واختفت في الغابة ، وهي تكشر عن لثاتها وتوزع لعناتها حتى النهاية .

ارتفع دولابا السيارة فوق اندفاعة من الارض هي بالاصل ذروة معشوشبة كانت تهدد برفع السيارة عاليا وترك الدواليب تدور في الفراغ . أخذ أوفي يسير والجانب الاول من سيارته على الذروة بينما الآخر في مستوى أدنى . فيما انغلقت الغابة عليهما ، صامتة لا حركة فيها ولا نأمة ، تهدد بالخطر ، فعبر زاشي عن المخاوف التي راحت تعتمل في نفسه .

ـ اسمع يا عزيزي . ما رأيك لو أن بعض أولئك القرويين المذعورين المجانين كانوا في هذه الناحية ؟ فأكد له أوفي :

ـ ليس باستطاعتهم أن يعتبرونا اناسا من المدينة يصلحون لان يكونوا اكباش فداء .

ـ وما السبب ؟

ـ الندوب في وجهك . أم لماذا تعتقد يا ترى أنني قبلت بمرافقتك لي ؟ لان ندوبك الفظيعة هي تعويذتنا الواقية . وباستطاعتنا أن ننتقل بوجودها كما نشاء .

فكر زاشي مليا .

ـ قل اذن ، بودي أن يبدو لك ذلك على ما يرام ، لكن بما أنني لا أكف عن قول ذلك لك . . . .

ـ لا تقلق . انا اقوم بمخاطرات بلهاء ، بل قبل عودتك فكرت بذلك كله ، ولو انك لم تعد ، لكنت سأمضي وأنا اصطحب سائقا عليه ندوب عرقية كبيرة .

سلم زاشي نفسه للقدر .

ـ ما أعرفه هو أن قبيلة الجواسيس عندهم قد اتسعت الى حد انها تشمل كل من لا يتكلمون لغتهم تقريبا . فلا تقل لي بأنه في هذا المركز البربري المتقدم . . .

ـ ليس مركزا بربريا متقدما ، بل هو المكان الوحيد الذي لم يستطع فيه أولئك الوحوش فعل شيء ، نظرا لان الاتحاد كان قويا . لقد عقد الرفاق اجتماعا هنا ، وقرروا ايقاف العمل لدى أول اشارة تدل على القمع .

تكون وجه زاشي على نحو يدل على الارتياب .

ـ ماذا تخبيء لي يا عزيزي ؟ ترى كيف تعلم الكثير عن هذا الموضوع ؟

ـ انا لا اعلم الكثير عن هذا الموضوع ، يا زاشي ، بل أعلم فقط أنهم نجحوا في القيام بعمل جيد قبل أن يتمزق الجسد المنتفخ ، فالمشاريع الجديدة ، كسد شاج مثلا ، لم تكن تعني سوى انه بالامكان الاقلاع بفئات عمل انطلاقا من لا شيء ، انها العلاقات الجديدة ، قرابات العمل ، لا القرابات القبلية . لقد قضينا في مغامرات كمغامرة شاج ، قضاء نهائيا على الغريزة السلفية .

(هنا رأى زاشي ينظر اليه وقد بدت عليه هيئة الاندهاش فأدرك بأنه سيعود الى ارتيابه القديم ، فاستأنف) : انت ايضا أسهمت في ذلك .

فانفجر زاشي .

ـ لا ، لا تدخلني في هذا الموضوع ، انا لم أعلم شيئا ولا أريد أن أعلم شيئا .

ـ لكنك ارتبت في شيء ما . ارتبت أكثر من مرة ، وقد أسهمت في ذلك ، أتذكر عندما رقصت ايريز هنا ؟ انظر ، في منعزل الغابة هذا ، ولدت قبيلة جديدة ، قبيلة من العمال ، بعيدا عن المجسات والاستطالات المسمومة وعن شيوخ السلطة القبلية والعشائرية . الا ترى انه كان بالامكان خلق كيانات جديدة هنا لم يفسدها الجشع ولا التفرقة التي تنتشر في المدن ؟

ارتعش زاشي فرفع الزجاج .

ـ ليس بالامكان فعل شيء ، ذلك أقوى مني ، فأنا أحس بوجود أشباح ، وليس بامكاني ان أرى شيئا بوجود هذا كله ، لكن كل ما أستطيع قوله هو انني لا احب هذه الاماكن . فلنعد قبل أن يحل الظلام ، لنعد قبل أن نقع في الفخ .

نظر اليه أوفي وقد اقتنع أخيرا بأن لديه الحق في أن يخالف .

ـ حسن ، أعدك بأننا لن نتوقف ، لكني أريد فقط ان أدور حول الورشة دون أن أطفيء المحرك ، فأنا بحاجة لان اطمئن نوعا ما ، ان ارى اننا لم نفشل كل الفشل ، قبل العودة الى كونترا وفقدان الايمان ازاء النفاق الطاغي ، فقال زاشي :

ـ انا اعلم الآن لماذا تفوح من هذا المكان رائحة الاشباح ، فهناك ثمانمائة متر حتى الورشة وليس ثمة قط واحد على بعد كيلو مترات .

ـ انا لم أتوقف عن قول ذلك : الآن الورشة مهجورة .

ـ اذن لماذا تسرح القرود وتمرح في هذه الناحية ؟ لا ، ما اظنها كانت ستأتي الى مسافة قريبة الى هذا الحد من الطريق العام ، لو أن الجرارات وغيرها من الآليات كانت ما تزال تعمل قبل عدة ايام .

فشرع أوفي يشرح بكثير من الصبر .

ـ اسمع يا زاشي ، لقد توقفوا عن العمل هنا قبل بدء الاضطراب بأيام وأيام . اذ جرى اعلام الناس الذين هم من كروس ريفر والذين كانوا موجودين بين العمال بخطط الكارتل ، كما أعلم بذلك قادة الآيبرو ، بل أن احد انصارنا كان في حاشية زاكي ، لكنهم كانوا يعتقدون في ذلك الحين أن الامر مجرد محاولة لتحطيم تضامنهم. قرر رجال الآيبرو ايقاف العمل لضرب مناورة الكارتل . وعندما حذرهم من جديد سكان هذه المنطقة الاصليون أغلقوا الورشة ، ثم عقدوا اجتماعا ، وقرروا العودة الى بيوتهم . كان ذلك قبل اسبوعين ، على الاقل ، من الوقت الذي أطلق فيه الكارتل بنات آوى ، لهذا ليس هناك ما يدهش في انه لا يوجد أحد في الورشة .

وصلت السيارة الى مكان قطعت اشجاره ، وفي آخر لحظة استطاع أوفي ان يتحاشى الغوص في بحيرة اصطناعية شاسعة الابعاد ، كان الطريق الذي يؤدي اليها يدور فجأة ليتبع حافة النهر وكان يخيم فوقها ضباب المساء المنخفض وكانت تخترقه ذراع رافعة وحيدة ، يتدلى منها حبل فولاذي ينتهي بكلاب ضخم فبدا اشبه بصنارة لصيد السمك عبر ذلك الحجاب الابيض .

ـ انه الموت هنا يا أوفي ، فمن أين يأتي ذلك الضباب كله ؟

ـ لا بد ان ذلك بسبب السد والغابة الممتلئة رطوبة في كل الجهات .

ـ مرة واحدة فقط ذهبت الى مكان كهذا ، وذلك حين ذهب بي مديري الفني مع جوقتي القديمة للقيام بجولة واسعة بمناسبة عيد الميلاد وراس السنة ، في عمق ايكوسيا . هل تعرف « فيرث فيفث » أو اسما غريبا كهذا ؟ كانوا في تلك الاثناء يبنون جسرا هناك . هذه الرافعة هي التي تجعلني افكر بذلك . كان الجسر يتوقف في وسط فيفث الضخم ـ أو لا أدري كيف كان الناس يسمونه ـ وكانت الرافعة تشرف على ذلك الجزء من الجسر محفوفة كلها بقطع الحديد ومعلقة في الفراغ . هل تعرف ذلك المكان ؟

فقال أوفي وهو يهز راسه :

ـ نعم . انها لمصادفة . فكثيرا ما كنت أتوقف في أعلى تل يطل على النهر . كان ذلك خلال رحلتي التي كلفتني الطغمة بالقيام بها . وقد التقيت هناك بصبية ، انها تلك التي حدثتك عنها . لقد تجولنا بالعربة وذهبنا لرؤية ذلك المكان ، فيرث أوف فيرث ، ان كان يهمك الاسم الحقيقي .

ــ علــى كل حال ، كانت هنــاك ضجة هائلــة ، السيــارات تســير في كل الاتجاهات على الطريق القريبة ، وأكوام من التنورات الاسكتلندية والمزامير ذات القرب . اما الآن فلا أسمع غير الصمت ، ترى لماذا نبقى ؟ هيا لنذهب ، علنا نعثر على أناس مثلنــا .

فأضاف أوفي على سبيل التعليق :

ــ كنت دائما أقول لنفسي ، خسارة اكمال هــذا الجسر ! فقد كان رائعا على ذلك النحو ، اعني وهو معلق في الفراغ . وافترض أن أولئك الرسامين والموسيقــين الذين تركوا بعض أعمالهم غير مكتملة ، انما فعلوا ذلك عن قصد .

ــ لو سمعك جدي وأنت تتحدث هكذا ، لاخذك في الحال الى طبيب القبيلة .

ــ لكن هذا صحيح ، صدقني .

فجأة توقف ، ثم تــردد وهو يفتــح باب السيارة فقد اتجــه ناظراه مباشرة الى بقع ، كآثار الجدري على الوجه ، تشكل نشازا على سطح البحيرة . أخــيرا هبط من السيارة ، فحدث للتو أن صدمته عفونة ، هبة ريح من تفسخ ورطوبــة لطمت صفحة خده ، فساوره الشك وفي الحال تسلق تلة رملية . من هناك رأى طبقة الضباب تنفرج في أماكن متفرقة ومن خلال تلك الفرجات شاهد البحــيرة الساكنة كل السكون ، والجيف تطوف على وجهها هنــا وهناك . لكن المدهش في الامر أنــه رغم تلك الاجساد المتورمة والوجوه المتفسخة ، كان انطباع بالسكينة والسلام يخيم على ذلك المكان . لعل وشاح الابخرة الفاسدة هو الذي كان يخفي كل احساس بالرعب ، لعل عطالة الآلات العملاقــة غير الطبيعية هي التي كانت تجعل من ذلك كله حلما ، مشهدا متخفيا من مشاهد متحف الشمع . ولعل تلك الجثث المنتفخــة والطافية جماعات جماعات في المياه الراكدة ، كانت تشكل جزءا من الارض المتحركة، من رحم الصلصال والدبال حيث كانت أيــد فولاذية تخرج فيما بعد أشكالا حية جديــدة .

ــ مرة اخرى اكذب على نفسي ، قال أوفي في سره ، فأنا افتش عن عزاء عقيم . لكن بدا أمرا حيويا حينذاك ، اجل ، امرا أساسيا أن يعرف ، وعلى نحو لا يمكن دحضه ، ان كانت أصوات كروس ريفر التي طمأنته بأن الناس في أمان ليست الا خداعــا ، وأن كانت تلك الاصوات لم تجذب من جديد الضحايا ، الى مكان العمل، كي تودي بهم الى حتفهم . فمن المؤكد ، على الاقل ، أن تلك الضحايا لم تذبح في أمان قراها الجديدة ، لتعاد بعد ذلك وبكل وقاحة واحتقار الى النصب الكبير الذي كانت تحاول اشادتــه . بكل قواه شرع أوفي يأمل أن يكون رفاق كروس ــ ريفر انفسهم جزءا من تلك الاوجه البشعة التي يراها عائمة فوق الماء . فآنذاك مهما تكن الخسارة ضخمة ، لن تبلغ من الخطورة ما يبلغه الامحاء الكامل للفكرة الصميميــة نفسها . لكن من تراه يستطيع معرفة ذلك ؟

كانت الرافعــة وكلابها السفلي يبدوان على أهبة الاستعداد لانتشال الجثث . لاحق أوفي بنظره الحبل الفولاذي حتى ذراع المرفاع ثم القطب الذي يعلو سقف الحجيرة الخاصة بالتشغيل ، ومن جديد انحدر به حتى السلسلة المطلية بطبقــة من الوحــل ، فقدور خلط الاسمنت ذات المداخن المكسوة بالاقذار ... هنــاك توقف ، فقد باتت تلك عادة : أن يتابع خطوط تفكيره بغية ايقاف التدفــق السلبي لما كان يتضمن الحقيقة العارية . في الفرجات الواقعة بين أشجار الغابة ، وقد تذكر اوفي بشعور أشبــه بالوهم أن ايريز رقصت ذات ليلة للعمال في واحدة من تلــك الفرجات وان القرويين الذين كانوا قد تسلقوا الاشجار صفقوا طويلا لها ، أقــول في تلك الفرجات كانت الآلات تصطف راقدة رقود الموتى وكانت أصواتها الحادة قد أسكتها الوحــل والصدأ ، مخالب مكمدة ، أثقالا جامدة ، فكوك غيلان من فولاذ متراخيــة ، سلاسل آلات طالما عملت في الحمأة والطين ، وهي تدور وتنتصب مثل كركدن هائج ينقض على عمالقة الغابة ، ثم يصرعهم بصوت كالقعقعة جماعات جماعات .

كانت تلك الآلات تترك الارض المرة تلو المرة أكثر عراء وأكثر انكشافا . وكان الامل هو أن يحل شيء ما محل ما يزول ، ففي ذهن أوفي لم يكن الامر يتعلق بمجرد انشاءات من الاسمنت المسلح . انفجر الصمت في أذنيه مليئا بضجة تلك الحيوانات الفولاذية الهائلة الحجم وهي قيد العمل ، ذلك الحشد من جزم الكاوتشوك وهي تطــأ الارض كي تخضعها ، تلك المعاول والرفوش وهي تتصادم ، هاتيك البشرات السوداء والبيضاء والحمراء ، وهي تتفصد عرقا ، تلك الشبــاك والعتلات وهي تشق مهاد الوحل الغنية وذلك الجهد الذي كان يبذله اللحم والمعدن كي يشق الارض ، يحولها الى أشكال أقوى وأكثر خصوبة ، فيما كان يتغلغل تحت قدميــه خرير الماء ، ذاك المولد للطاقة الكهربائية ...

لكن في تلك اللحظة كان الصمت يهيمن على كل ما يحيط به ، وكان الصــدأ يكسو الادوات المهجورة ، والوحل يغطي الخط الدال على فتحات المياه التي ستغمرها البحيرة الاصطناعية في المستقبل . كان كل شيء قد ظل ناقصا لم يكتمل . ومرة أخرى ، اذ أن تلك لم تكن الاولى على حد علمه ، لم يكن أحد قد فتح الفتحــات المناسبة . كان يخيــل اليه أن قليلا جدا من الايدي كانت تفتش عن مغاليق فتحات السد والضوء والحياة ، تلك التي كانت ستصنع النماء حقا وتحمل نداوة الحيــاة الدافئة . أخيرا غض بصره عن تلك التقدمة الجديدة للرفض والحقد نازلا عن الهضبة وهو يسائل نفسه عما اذا لم يكن بطريق المصادفة ، يطأ مدفنا أقيم على عجل ، فالابخرة الفاســدة التي كانت تخيم على البحيرة بدت وكأنها تتسرب من مصدر خفي للتفسخ .

فتح زاشي باب السيارة له وحينذاك فقط أدرك أنه هو الآخر كان قد ترك السيارة ورافقه الى الهضبة ، بعد ذاك غادرا المكان دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

في ثيابه ، كان يحس بعدوى ، كما لو ان الروائح المنتشرة كانت قد مرت خلالها وبدات تبسط على جلده يدا قشرية . فجأة أثار ذلك الشيء ، بالاضافة الى صمت الفتحات المائية في السد ، غيظه على نحو تجاوز ذلك الفيظ الآني الذي جعله يجابه عجوز الآيرو بغضب يتحداه في ان يثبت ان عالمه الصغير يحتوي على سر التناغم الحي ، وفي ان اصابعه حين تتقدم كي تفتح فتحات المياه على الارض ، انما تفتحها على البلاهات الفجائية للفئة الحقيرة الجديدة ، تفتحها على البيروقراطيين ، دمى السلطة ، العسكريين والسياسيين ، التكنوقراطيين وسماسرة المال . لم يكن أوفي قد كف عن المقارنة بين بقايا المشوهين ، بين الاجنة الموؤودة لكيانات ولدت ميتة ثم تبنتها وغذتها ارادة ذات نزعة انسانية ، لم يكن قد كف عن مقارنة دنسها حتى في زمن الاستقلال ذاك الذي كانت تتمتع به المناطق البعيدة داخل البلاد ... وذروة ذلك انما هي خلاصة هزيلة ، خطأ ارتسم أمام عينيه : ايرييز رقصت هنا .

*   *   *

بسرعة كبيرة ، غدت الاشجار اكثر نحولا والاوراق اكثر بؤسا . كما غدا الجو اكثر جفافا تحت سياط الرياح اللاهبة أما اشجار الخرنوب فكانت تنبثق هنا وهناك من بين الاوكار . قاماتها تضاهي قامات اشجار الادغال . كان الجفاف يلاحقهما على شكل سحابات من غبار تلوي الاغصن الضامرة كأذناب سباع الصير . من على ربوة متكلسة طارت حداة ، تاركة برج مراقبتها ثم اخذت تحوم في السماء الى ان بلغت منطقة تخلخل الهواء حيث التيارات غير المرئية . كان زاشي قد استلم مقود السيارة فانقلب أوفي على مقعده محاولا استعارة عيني تلك الحداة ، عله يسبر اغوار المدينة البعيدة ويكتشف موضوع بحثه . لكنه حين أخفق في ذلك التفت نحو الشعاب تلك التي كانت تنحدر بسفوحها غير المستوية انحدارا عموديا نحو الجحيم ، كانت شبكة الشعاب والقمم تلتف وتلتوي مشكلة أفق غروب دام ، وكانت الوهاد الواسعة تبدو وكأنما ثقبت قاعدتها المستوية بكتل من الصخور تدحرجت من مكانها . لاحظ أوفي انه بدأ يسكن تلك الكهوف الفاغرة أفواهها أعداد كبيرة لها راس آنوبيس الثعلبي الذي حلم به . فقد كانت تنبثق من كل مكان ، تلقي بنفسها الى الهاوية ثم تجتاز حافتها ، مهمهمة ، مسرعة نحو الاعماق البعيدة حيث الوليمة الموعودة ، تلك التي كان قد راى فيها لتوه ذروة ارواء الغليل من السد . كانت تسرع ولعابها يسيل على الحوض المليء بالكتل المتعفنة تجر صغارها وراءها ، وقد نفد صبرها ، ثم تتركها لتندفع محنية الرؤوس تتشمم روائح مأدبة لا انسانية . أحس أوفي ، وهو في حالة من خدر بسبب ضجة المحرك ، بما يشبه ذلك الاحساس الذي راوده في غرفة ايرييز ، انه وحيد في العالم ، لكنه هذه المرة ، كان يرى أين

هوت بقية الانسانية ، وكان ضميره ، في تلك اللحظة ، الوحيد الذي يرى الكهوف المظلمة الممتلئة حيث كانت تمزق الانسانية براثن الوحوش وانيابها . وفي الحال توقف خياله عند تلك القمم المحدبة ، حاملة القرون الفخورة ، مانحة اكسير الشفاء تلك التي كانت جذوعها البرونزية تميل على الاخاديد الملأى ، هناك أحس أن في يده نصل آهيم الحاد . لم تكن الشيران تنتظر أمره وما من أحد سمع غمغمة الا بالكاد حين قال : « اغرزوا القرون » . كانت الثيران تتوجه بأعناقها نحو الغرب ، تنتظر وهي على أتم الاستعداد أن تجيء اللحظة التي ستقدم فيها دمها المشترك . بعد ذاك وبحركة لا ترى الا بالكاد ، كان ينتقل من حيوان الى حيوان ، فتنبجس الينابيع ويندفع دفقها الى مغاور العدم ، الى وهاد المأدبة لتغرقها من هذا الطرف الى ذاك .

اخيرا ، رفع عينيه نحو حدبات النجوم المتحركة في سماء لم تكن قد اكفهرت بسبب أي انذار بالمطر ثم غمغم : متى سأرى ذلك كله ؟.

* * *

« ١٠ »

هل كان عليه أن يدفع هناك ثمن أيام التهرب ؟ فثمن شفقته الشخصية كان يبدو باهظا ، لا مبرر له حتى ولو كان طبيعيا .

كان البرج الاسمنتي المدور يحتوي في داخله سلم النجاة ، ولم تكن ثقوب التهوية الصغيرة تقدم أقل ممسك ، كما كان الامر يحتاج الى اكثر من معجزة كي يكون بالامكان وضع كلاب فيها قبل أن يجذب احتكاك الحديد بالحاجز انتباه العديد من السكان . . . تلك التفاصيل والتوقعات كانت تمر بسرعة في ذهن طبيب الاسنان وهو يتفحص الفيلا الضخمة المشوهة الشكل والغارقة في الضوء الصادر عن مصابيح كهربائية قوية على شكل أقواس ، وكان بيت السلم وحده ما يزال غارقا جزئيا في الظلمة أحادي الحجر وحصينا . أشار اليه باصبعه .

ـ بامكاني وضع شحنة كبيرة من المتفجرات في الثقب الواقع في الاسفل ، لكن قد لا ينجم عن هذا سوى تهديم البناء دون أن ينال من الرجل المطلوب شيئا .

فغمغم اوفي : انه يرقد في الطابق الرابع .

ـ أي جناح ؟

ـ هناك قرب بيت السلم .

فأطلق طبيب الاسنان زفرة مكتومة .

ـ وما حاجتهم الى عمارات بالغة الضخامة الى هذا الحد ؟ انظر الى هذه ! انها اكبر من ذلك الهيلتون الكريه في غوزارا . ترى كم عدد الاشخاص الذين يعيشون هناك ؟

ـ هو وأسرته . يضاف الى ذلك عدد من الطفيليين .

ـ وحراس خاصون ؟

ـ طبعا .

لم يكن الرئيس باتوكي ، الذراع الغربية لمحور الكارتل ، يستريح الا عندما يجد نفسه في الطابق الرابع من مسكنه ، يفصله عن الارض ثلاثة طوابق امنية ، يحرس كلا منها رجال أشداء لا ضمير لهم ، مدججون بالسلاح ، رغم انهم مموهون على شكل خدم يلبسون الزي الموحد الكلاسيكي . فوقه شرفة شبه مغطاة يحرسها حراس أعدهم قائد الجيش ، يهزون رشيشاتهم بعصبية بالغة . وحده القاتل الانتحاري يمكنه أن يلج هذا الحصن الحصين .

ـ هذا الرجل استحق الموت أكثر من مئة مرة . فسأل أوفي :
ـ ما الذي يجعلك تعمل بهذا القدر من الثقة ؟ ما الذي يجعلك شديد الثقة بنفسك ، الى درجة تجعلك تقول أشياء كهذه ؟

غادر طبيب الاسنان مخبأه ثم رتب منظاره ، فالفحص بالنسبة اليه ، كان قد انتهى ، حينذاك خطرت لاوفي فكرة : لماذا لا تثار معركة ؟ اسمع ، لماذا لا نذهب الى هناك ، هكذا وبكل بساطة ؟ فقد يتوجب عليك أن تلتقي به أولا .

وجه طبيب الاسنان نظراته الفاحصة اليه ، اما اوفي فاكتفى بهز راسه .
ـ أجل ، لم لا ؟ سوف أقدمك اليه .
ـ اتعرفهم الى هذا الحد ؟
ـ نحن . . . لا ، نحن لم نعد أصدقاء . لكننا كنا في السابق أصدقاء خلص. كانوا يقابلونني هنا بالترحاب دائما .
ـ حسن ، حسن .
ـ لا سيما . . . .
ـ لكن من تراني في نظرك ؟ أنا ، بالتأكيد ، لست كما تظن .

عادا الى السيارة ، ثم أمسك أوفي بالمقود وهو يقول :
ـ سيكون الامر أسهل ، ان كنت أنا من يسوق . فالبواب يعرفني .

أعاد العربة الى الطريق العام ثم تقدم نحو الحاجز . رأى الحارس يأخذ سماعة الهاتف حتى قبل ان يصل الى المرقب ، فقال :
ـ ببساطة سوف أطلب رؤية الفتاة . وسوف يكون بامكاننا الانتظار في قاعة الاستقبال الخاصة خلال الفترة التي ستهيء فيها المقابلة مع أبيها .
ـ وما الحجة التي ستتذرع بها لطلب مقابلته ؟
ـ لست بحاجة الى حجة . طالما أن الحرب لم تعلن بعد ، وطالما أن وضع كل منا لم يظهر للنور تماما ، فسوف يستمرون على أمل هدايتنا . وزيارة كهذه قد تعني ببساطة أنني عدت الى الرشد ، الامر الذي سيدفع الاسرة بكاملها لاستقبال الابن العاق . لكن ، بالمناسبة ، من أنت ؟
ـ ماذا تعني ؟
ـ بأي اسم علي أن اقدمك ؟
ـ أوه ! أعتقد أن من الافضل أن تأخذ الاسم الموجود في جواز سفري . سمّني دوماكان . ايزولا دوماكان . قل انني انهيت لتوي دراستي في الولايات المتحدة .
ـ وهل درست في الولايات المتحدة ؟

فابتسم طبيب الاسنان ابتسامة خفيفة .
ـ لقد درست في كل مكان .

استقبلتهما بابي عند مدخل القاعة في الطابق الثاني . نظرت مليا الى اوفي ثم امسكت بيديه محتفظة بهما بين يديها ، بعد ذلك هزت راسها هزة الحزن .

ـ هكذا اذن ، رفضت اتباع نصائحي .

ـ اجل ، وأنت أيضا ، رفضت اتباع نصائحي .

ـ صحيح . لكن من الذي يواجه المصاعب الآن ؟ انا أم أنت ؟

فانتفض أوفي :

ـ مصاعب ؟ اية مصاعب ؟

أمرّت بابي ذراعها تحت ذراعه ثم قادته باتجاه جناحها .

ـ أوتعتقد يا أوفي أننا نجهل كل ما قمت به من تصرفات صبيانية ؟ لقد حزن أبي كل الحزن على ذلك ، لكنه كان يأمل أن تعيد التفكير بهذا كله خلال سفرتك الدراسية . وانتظر أوفي ، ذلك انه اذا ما تركها تتكلم فسوف تغدو أذلق لسانا وستكشف جميع التفاصيل التي تتضمنها تلك التقارير التي وصلت الى الكارتل وهكذا استمرت مطنبة في الكلام :

ـ أنا لا أدري ما الذي تأمل أن تجنيه من ذلك ، فأنت لم تنجح الا بالاساءة الى نفسك . لو تعلم كم من الوقت قضى والدي وهو يدافع عنك ! كان يردد باستمرار أنك قد ضللت ، هكذا وبكل بساطة ، بسبب العشرة السيئة . وكان الآخرون يريدون أن يمسكوا عن طريقك الرؤوس الكبيرة . على كل حال ، أنا سعيدة بمجيئك ، واعلم بأنه سيفعل كل ما في وسعه لانقاذك من الورطة . وسيكون بامكانك أن تقوم برحلة أخرى .

قادتهما الى أن بلغت أريكة بنفسجية اللون ثم تذكرت أنه لم يتم التعريف بمرافق أوفي ، فلفت أوفي نظرها الى أنها لم تدع له مجالا لفتح فمه ، ثم قدم لها طبيب الاسنان . شرعت تضحك ثم ضغطت على جرس فظهر خادم يلبس سترة بيضاء سرعان ما اختفى ، وقد تلقى أوامرها ، دون أن ينبس ببنت شفة .

ـ كلاكما تشربان الشمبانيا ، اليس كذلك ؟ منذ أكثر من عام لم يأت أوفي لزيارتنا ، وانها لمناسبة تستحق الاحتفال . ترى ماذا يفعل صديقك ؟ فردّ على سؤالها طبيب الاسنان :

ـ لا شيء ، الآن ، فقد عدت لتوي الى البلاد ، كنت أدرس في الولايات المتحدة .

ـ ماذا درست يا ترى ؟ فأجاب غير مكترث بالخطر :

ـ الجراحة السنية . لكن ذلك لم يذكر بابي بشيء ، اذ لم يبد اي وميض في عينيه يربط بين مهنته واسطورة هذا الطبيب المشهور على نحو كئيب .

ـ أن كنت تبحث عن منصب فسيسر ابي كثيرا بأن يعمل كل شيء لمساعدتك نظرا لانك صديق أوفي . لكني آمل أنك لا تحمل أفكارا كأفكاره .

فابتسم طبيب الاسنان ثم قال :
ـ كلا ، يؤسفني أن أقول ذلك ، فأفكارنا السياسية مختلفة نوعا ما .

فلم تستطع كتمان غبطتها .

ـ أوه ! هذا جيد ، جيد جدا . بل انني لسعيدة كل السعادة بمعرفة ذلك . ولعلك ستتمكن من التأثير عليه ، فهو على وشك التحول الى الشيوعية .

فرد طبيب الاسنان :
ـ أوه ! لست موافقا تماما على هذا الرأي .
ـ أو الى الفوضوية . أجل ، أعتقد أن هذا اكثر دقة ، فسألها أوفي :
ـ أهذا ما يقوله أبوك عني الآن ؟

وفي الحال قفزت من مكانها .

ـ انا بالنسبة اليك طفلة دائما ، أليس كذلك ؟ بل أنت تعتقد على ما يبدو أنه ليس لي أفكاري الخاصة . انك فوضوي ، الناس كلهم يقولون ذلك .

فرفع أوفي يده .
ـ حسن ، حسن . لم آت الى هنا كي نتخاصم .
ـ لا ، أتيت ، لان لديك متاعب . فقد مضى عام على الاقل منذ . . .
ـ أتيت لارى الاسرة . كنت مارا في الجوار ، فشعرت فجأة بالرغبة في رؤيتكم .

وصلت الشمبانيا في سطل من فضة ، فانهمكت في ملء الكؤوس وهي تتحدى أوفي أن يقول لها الحقيقة .
ـ أتيت لانك تواجه متاعب . وقد نجحت هذه المرة في الدوس على كبريائك .

في تلك اللحظة ، سعل الخادم ، وهو واقف قرب الباب سعلة لطيفة محتشمة .

استدارت بابي نحوه ، فأشار اليها اشارة مهذبة . تبعته فسمع الرجلان الخادم يتحدث معها خلف الباب بصوت منخفض لكن بلهجة ملحة . وعندما عادت اليهما كان يبدو على محياها الناعم آثار الغضب والتصميم .
ـ أنا آسفة يا أوفي ، لكن لا بد من أن تعذراني ، فأبي بحاجة اليّ ، وسأحاول الا أغيب طويلا .
ـ هل هناك شيء على غير ما يرام ؟
ـ أوه ! انها . . . (وارتفع صوتها بصرخة محتدة) . مرة أخرى . . . انها أمي لا تريد الاعتراف بأن لي ، أنا أيضا ، حقوقا في هذا البيت . انتظراني هنا (واستدارت بحيوية ثم خرجت ، لكنها بعد لحظة واحدة عادت) . أيمكنك أن تأتي معي يا أوفي ؟

فنهض أوفي مندهشا ثم لحق بها قرب الباب .

ــ لنمض فأنت من أعضاء الاسرة تقريبا . ولعلك تستطيع ردهـا الى صوابها .

أخذ أوفي يحتج محاولا التهرب ، لكنها أمسكت بيده ثم جرته .

وصل الى مسامعهما صوت شرس النبرات لامرأة مسنة قبل أن يصلا الى الباب المضاعف الثقيل المنجد بالجلد والواقع في طرف الرواق . كانت بايي تتهيأ للدخول دون تكلف ، لكنها تمالكت نفسها آخر لحظة ثم فتحت واحدا من الابواب الاخرى فتحة ضعيفة ، القت نظرة داخل الغرفة ثم أصاخت السمع ، ولدقائق عدة ظلت هناك تتجسس ، فبدأ أوفي باحساس متزايد بالضيق يفقد صبره . اخيرا همس في اذنها :

ــ ألا تعتقدين ان علي أن أذهب من هنا ؟

لكن بايي أشارت اليه بالسكوت متشبثة بيده ، كما لو أنها طوق نجاة . بعد ذاك فتحت بيدها الاخرى الباب فتحة أوسع بعدة سنتيمترات فبدا باتوكي ، الذي كانت قامته قد تضاءلت الى النصف ، أصغر وأصغر وهو يجلس في الكرسي العميق في صالة الجلوس الواسعة المزينة بأكاليل من صور ضمن أطر من ذهب يبدو داخلها اجداد الاسرة وهم يبتسمون في احتفالات مختلفة واستعراضات شتى ، تهيمن عليه كتلة أمراة ضخمة . كانت شفتاها ترتعشان باعثتين برذاذ لا ينقطع فوق الرئيس التعيس .

ــ اذن ؟ ما الذي أصاب لسانك ؟ هل قطعه لك القائد بيغا أخيرا ؟ كنت أظن أنه صنيعتك حسب الاعراف والتقاليد ، لكن ، لدي انطباع الآن بأنك لست سوى خادمه . ها ، لماذا لا ترد علي ؟ قطع لسانك ، أليس كذلك ؟ ولانك لا تستطيع ازعاجه تتصور أن باستطاعتك المجيء الى هذا البيت كي تعوض عندي ما فقدته ؟ لا تستطيع أن تلعب مع الزملاء دور الاله الطيب ، لذا تأتي كي تلعب هنا دور الاله الطيب ، آ ؟

وكان الرجل ، الذي غاص جسمه في الكرسي تماما ، يحتج بصوت بدا وكانه يخرج من مزمـار :

ــ هدئي روعك ، يا أم بايي ، هدئي روعك ، من فضلك . كل من في البيت يستطيع أن يسمعك .

ــ سيسمعني العالم بأسره ، اذا لزم الامر ، لكنني لن أتقبل بعد اليوم اساءات منك ، ذلك أنك اما أن تجيب على سؤالي وننهي الامر ، أو أنك لا تتكلم بعد اليوم بلغتك القديمة ؟ فطبقا لما يقال ، هذا تقريبا هو الشيء الوحيد الذي يخشاه اعداؤك فيك ، حاول اذن أن تستخدمه ان كان لسانك ما يزال في فمـك . أجب مازحا اذا اردت ، ولكن أجب . هل أنا من تصطحبك الى الاستعراضات أم أنك تذهب اليها مع تلك القذرة ؟

فجادلها قائــلا :

ـ كنت هناك عندما وعدت الناس بأنها ستصعد معنا في السيارة المكشوفة ، ولم تقولي شيئا في ذلك الحين .

ـ في حالة كهذه ، لماذا لا تصطحب معك الاسرة كلها ؟ من المفترض أنني امراتك نعم ام لا ؟ لماذا لاتجري وراء فروع أسرة باتوكي الوضيعة ، لماذا لا تدعهـــا تأتي الى الاحتفال بأسمالها وقملها ؟.

فلاحظ قائلا : أنت بشتمك لاسرتي ، لن تساعديني في حل المسألة .

ـ آه حسنا ؟ أيؤذيك حقا أن تسمع من يتحدث عن أسرتك ؟ ما الذي فعلته اذن ، ان لم يكن اغراق اسرتي بالاهانات ، وأنت تعاملني على نحو أسوأ من معاملة خدمك في المكتب ؟ ألم يكن ذلك حطا من قدر اسرتي ؟

ـ أم بابي ، مثل هذا المشهد وصمة عار لرجل من مقامي ، تقولين انني أسيء التصرف تجاهك . لكن بربك الست أنت من يسيء لنفسه بمثل هذا التصرف ؟ ترى لماذا يجب أن تتكلمي كما تتكلم امراة من السوق . . . ؟

نادرا ما كان الرئيس باتوكي يخطيء . لكن تلك الشتيمة كان لها الاثر المتوقع رغم أنه لفظها بصوت شاك عذب . ذلك أن صوت باتوكي يغدو في أشد اللحظات قسوة مزمارا يعزف عليه بحساسية بالغة . كان يدع تلك الشتائم تنهال ببراعة واتقان ، وبهيئة من يدعو للرثاء لا التوبيخ ، رادا ردودا خفيفة على تلك السيول الجارفة التي كانت امراته لا تكف عن اغراقه بها وكذلك أعداؤه في عالم السياسة أو التجارة . وفي الوقت الذي كان صدر امرأته فيه ينتفخ من الفيظ وكانت تجمع قوتها الصوتيـــة استعدادا لانقضاض جديد ، أطلق عتابا آخر مغلفا بالرقة نفسها :

ـ اتعلمين ؟ انت أحيانا تدهشينني . أجل ، بالفعل . هناك لحظات تتصرفين بها وكأنك امرأة حديثة النعمة ، ترى ان كانت لهذه الاشياء أهمية كبرى بالنسبة اليك لدرجة أنك لا تستطيعين مشاركة ابنتك . . .

هنا قام أوفي بجهد جديد بغية التخلص ، آسفا كل الاسف على الهدوء والشمبانيا في صالة الاستقبال لكن بابي تشبثت به ، على نحو أشد وهي تغمغم بلهجة حانقة :

ـ الآن ترى بنفسك ، أم أنك لا تريد أن ترى نوع الحياة التي تجعلني أمـــي اعيشها ؟ انها دائما هكذا ، تريد أن تجعلني لا شيء . فسألها أوفي في الحال :

ـ لماذا لا تذهبين اذن ؟ اذهبي ودعيهما لمشاحناتهما الزوجية . فهذا امر بغيض كل البغض بالنسبة اليك .

ـ انه بيتي لا بيتها .

فتنهـد أوفي .

ـ لكنها زوجته يا بابي . أما انت فلست سوى ابنته .

فاستدارت نحوه .
ــ اسأل أبي. انه بحاجة الي أكثر من حاجته اليها .وهي تعلم انني في علاقاته ، أكثر نفعا له منها ، اكثر نفعا بكثير . ما تفعله هــو أن تجلب لــه العار بأســاليبها وتصرفاتها المبتذلــة .

في ذلك الوقت تماما كانت سيدة البيت ترد على ما يبدو ، وبأعنف الاشكال ، على تلك الاتهامات التي كانت شوكتها ما تزال تلدغها اثر رد باتوكي المماثل الاخير .

فقد شرعت بكل ما في الدنيا من لذة بتحطيم السياسي الذي وقع في الفــخ وتمريغ اهلــه واسلافه بالوحل .
ــ يا لك من دعي ! أتتجرأ على التلميح بأنني حديثة نعمة وأنني ممن لم يذوقوا طعم الابهة قط ؟ أتتجرأ على تشبيهي بحديثي النعمة اولئك الذين لم يعرفوا العظمــة طيلة حياتهــم ؟

بعدئذ تراجعت قليلا ثم تفحصته بازدراء ، منتقلة بناظريها من اخمص القدمين حتى قمة الراس ، فبدت وكأنها تنظر الى واحد من أولئك العبيد الارقاء أيام زمان. بعد ذاك انفجرت بضحكة مصطنعة ممطوطة اشبه بضحكات الهستريا لكنها توقفت فجأة صارخة :
ــ هل نسيت أنك اصبحت ما أنت عليه اليوم بفضلي أنا وحدي ؟ الآن سوف أثبت لك ذلك أيها الدعي . سأذكرك به أنت وعائلتك الوضيعة ، وسيتوجب علي أنا ان أذكرك بالمزبلة التي كان أهلك يعاركون فيها للحصول على الفضلات ، قبل أن أعطيك اسمي وممتلكاتي كي أجعل منك رجلا ذا شأن .
ــ اسمعي ، يا أم بايي . . .

قال باتوكي مستخدما لهجة الملاطفة ، لكن وكما توقع ، لم يفعل ذلك سوى انه وضع الفليفلة الحمراء على الجرح ، فقد صرخت المرأة :
ــ لست أما لأولاد زنا ، فلا تدعني أم بايي أبدا أبدا بعد الآن . ولتتعفن رحمي ان كانت هي التي ولدت هذه البغي (وبصقت على البساط باشمئزاز ، ثم استأنفت) ربما كان عليك أن تسميها بيبي ــ مو ــ بي ــ يي ــ نا ، أي لا ــ حظ ــ لرحمي ــ منهــا .
ــ لا تدخلي البنت في هذه القضية . ان كان أحد قد أخطأ فهو أنا ، والبنت المسكينة ليست مسؤولة عن خطئي .

لكن المرأة لم تلاحظ غموض تلك الكلمات ، فصاحت وهي ترفع عينيها بنداء أخير الى الســماء :
ــ فتاة مسكينة !! (وبرعونة شديدة حاولت تقليد صوته) فتاة مسكينة !! هل سمعت يا رب ؟ كم من البيوت تهدمت بسبب هذه الفتاة المسكينة ؟ بل انه لمن

المدهش انها لم تنصّب سمسارة محترفة . على كل حال هي تقوم بذلك في أوقات فراغها لصالح الاصدقاء في الجمعية كلهم ، اليس كذلك ؟ فأجاب باتوكي باحتقار :

ـ على هذا النحو ، أرى أننا لا نفعل الآن سوى التقاط الشائعات ، آ ؟

ـ شائعات ! ألا تأتي لك بصديقاتها المليئات بالامراض كي يضاجعنك ؟ طبعا أي شيء آخر يمكن أن يتوقعه المرء ؟ فليس في أسرة باتوكي ذرة استقامة واحدة ولم يكن فيهـا ذلك قط ، لقد ورثت هذا منك ، لا شك في ذلك ! كنت أعتقد أن باستطاعتي أن أغمض عيني عن البيوت التي اشتريتها لإسكان خليلاتك ، لكنني لم اتصور قط أن ابنتي ذاتها ستأتي بالبقايا الى بيتي نفسه كي يضاجعهن زوجي .

ـ اخفضي صوتك ان كان لا بد من تكرار هذه الثرثرة الغبية .

لكنها قاطعته متابعة حديثها ، ناظرة اليه من جديد نظرات ملؤها الاحتقار :

ـ من الواضح أن هذه ليست غلطتك ، بالفعل ، بل هي غلطة أولئك الذيـن أشفقوا على عنق النسر العاري وأعاروه شالا ، لم يكونوا يعلمون بأنه سينسى ذلـك في يوم من الايام وأن الرياح الباردة كانت ستجمد دمه حتى قبل أن يصعد الى راسه .

بالنسبة الى باتوكي ، كان الامر أشبه بالمشاركة في لعبة قاتلة ، مع ذلك لـم يتأخر جوابـه .

ـ الريح والريش ، هذا ما تعرفينه . لكن الدجاجة الرومية المصابة بداء الحكة المزمنة تفرش ريش ذيلها لدى أقل نسمة تهب في الباحة . ولفترة من الزمن مكثت السيدة باتوكي جامدة ، مفتوحة الفم ، بعد ذلك استسلمت على تلك الجبهة ، التقطت شالها وجزدانها . فقد كانت تمتلك السلاح المطلق ، التذكير بأنهـا تفتقر كليـة الى الاحسـاس بالكرامة ، بأنها لا تبالي البتة بمقتضيات عزة النفس اذا تطلب الامر تقديم شـرح للناسـ .

ـ سأكون في تلك الكاديلاك حين تمر من هنا كي تأخذك . فاصطحب معـك سماسرتك وكل قبيلة باتوكي ان شئت . وسنرى حينذاك ان كانت سليلة اديغونلوا قادرة على مسح الوحل عن أقدام آل باتوكي .

وفي اللحظة التي توقفت ، فتحت بابي الباب على مصراعيه ثـم اندفعت الى القاعة قبل أن يستطيع أوفي منعها ، لكن الحركة الغريزية التي قام بها لايقافها قذفته داخل الغرفة ، وبما انه انكشف على هذا النحو لم يعد باستطاعته أن يتراجع ، وهكذا تقبل الموقف ثم تقدم بكل جراَة متمنيا لهما مساء سعيداً ، لكنـه اكتشف ان أحداً لم ينتبه لوجوده وذلك بسبب المجابهة التي حدثت اثر دخول بابي المفاجيء فقـد صرخت بها أمها وقد تشنج وجهها تماما :

ـ اخرجي من هنا . كيف تجرؤين على الدخول وأنا أتكلم مع ابيك ؟

لكن بابي مضت مباشرة الى ابيها ، متظاهرة بأنها لا تراها .

ــ بابا ، آمل أنك لم تتعرض للاحراج الى درجة تغير بها رأيك .

ــ الم تسمعيني آمرك بالخروج ؟ فردت بابي على الفور وقد استعادت هدوءها نوعا ما :

ــ أنا اكلم بابا .

ــ وانا قلت : اخرجي من هنا أيتها القذرة ، اخرجي من هذه الغرفة قبل أن أرميك الى الخـــارج .

غاص باتوكي في كرسيه أكثر وأكثر متمتعا بالانفراج بعد كل ما لاقاه من عذاب . اذ ما من أحد كان يستطيع اتهامه بأنه أثار واحدتهما ضد الاخرى رغم أن ذلك هو الاسلوب الذي كان يؤمن به ضمنيا ، حتى في سياسته العائلية وضمن بيته . عندما تتصارع الكلاب اهرب بالعظم ، هذا ما كان ينصح به . واذا لم يكن هناك عظم ، رتب امورك بحيث تدعها تتصارع ، وتستطيع أن تستريح الى أن ينهك بعضهـــا البعض الآخر . لم يكن هناك ما تحسد بابي أمها عليه ، وبشكل من الاشكال كانت قد تابعت المعركة من النقطة التي تركها فيها . سد أذنيه عن سماع مباراتهما بالعامية موجهـــا تفكيره نحو مسائل اخرى . فقد كان معتادا على مثل تلك المبارزات الكلامية ، وكـــان مقتنعا بأنه سيتخلص من ذلك ومكسبه أنه أنهك طاقات تلك المراة ذات المراس الصعب دون أن ينهك نفســه . وعلى الرغم من أنه كان قد شعر بالحزن حينما تحطم بيت بابي (اذ كان مقتنعا أن ابنته هي هدفه الوحيد في الحياة) ، فقد أحس بنوع من الابتهاج حين خطر في ذهنه انه من تلك اللحظة فصاعدا سيراها كثيرا . لكن بعد عدة أشهر بدأت امرأتـــه تحنق للثقة المتزايدة التي كان يضعها في ابنته . كانت الاوساط التجارية بل وحتى الحكومية يسمونها مساعدة باتوكي وكان ذلك يغيظ الام . وهكذا حين خطرت تلك الفكرة في ذهنه ، ظهرت على وجهه ابتسامة رضى ماكرة . كانت الفتاة ورقة رابحة، لا جدال في ذلك ، وكانت الاخرى عبئا ثقيلا . حتى في أحلامه كان يسمع صوتها يتسرب غاضبا منقضا على ادعاءات بابي ، فأطلق باتوكي زفرة ملؤها الحسرة . كان يعلم كيف سينتهي ذلك كله وكان يرجو أن تنهياه بأقصى ما يمكن من سرعة . أجل ، سينتهي الامر بانسحاق بابي ولن يسحقها سوى هذه المرأة الرهيبة البالغة القوة ، لكن حينذاك ستكون الفرصة ملائمة كي يتدخل ومن ثم يحرز انتصارا سهلا على المنتصر الذي أضعفته المبـــارزة .

ــ انت تنسين دائما أننا هنا في بيتي وليس في بيتك ، كررت السيدة باتوكي القول لابنتها ، ربما للمرة الحادية عشرة . لا أنت ولا ابوك ولا الاسرة كلها تستطيع طردي منه . كان لك بيت لكنك أضعته وأضعت زوجك ولسوف تضيعين كل فرصة لك في ايجاد غيره .

الا يمكن ان تكون هذه هي اللحظة المواتية للتدخل ؟ فكر باتوكي ثم غمغم دون اقتناع :

ـ مهلا ، مهلا . ليس من اللطف أن تتكلما هكذا .

ـ اذن قل لها أن تضبط نفسها جيدا ، أم ان علي أن أتحمل حماقاتها كلها الى ان يأتي غبي ويشفق عليها ؟ البيت كبير لكنها تعتبر ان من واجبها أن تضع نفسها دائما بين رجلي . لا ، لن يمر الامر هكذا ، لن أسمح لاحد ان يفعل هذا وانا في بيتي . انا لست عبدة لاي مخلوق هنا . ما من أحد جاء بي اليه ايفاء لدين ، ولست ابنة زنا . كما أنني لم آت لرفع الرهن عن اسرتي ، ولم أتسلق السلم الاجتماعي وانا أطأ عتبتك . لقد أخذتني من بيت ملوك . لقبي بالولادة هو اوموفاييوا ، أو موفولازير موسنمولويي ،وان كنت تجهل من هي أمي ، فاذهب واسأل من هي ابنة تلك التي يعرفها الناس جميعا باسم آزيواجو ايبود . . .

فانتصب باتوكي مذعورا مقدرا اخيرا انه تأخر كثيرا ، فقد تصاعدت حدتها بسرعة كبيرة الى أن بلغت هذه الدرجة من الهستريا التي لم تكن مألوفة بالنسبة اليه الا قليلا اذ يمكن أن يحدث كل شيء حين تبلغ حالة كهذه ، فهو نفسه لا يعود في مأمن من عنفها الجسدي ،وهكذا حاول أن يهدئها شاعرا بأن عليه أن يعمل بسرعة ، لكن جهوده ذهبت سدى . فقد كان صوتها يرتفع مع كل كلمة يلفظها .

ـ أنا لست امرأة من عامة الناس أعطتها الزعامة صحيفة من الصحف العامة ، فكيف أصبح موطىء قدم لك ولابنتك ؟ انك تفعل خيرا اذا ما جعلتها تعلم من هي صاحبة الامر في هذا البيت ، فأنا أنذرك بأنني انا ، موفولايولو ، بنت آزيواجو ايبود لن أدع . . .

لكن صوت بابي قاطعها على حين غرة :

ـ وأنت ، افترض انك آيواجو الإست . انك تلومينني وتزدرينني لفقداني بيتي ، لكن ما المفاجىء في الامر ؟ ماذا يمكن أن يحدث عندما تسبق الام ابنتها الى فراشها الزوجي ؟ كان عليك أن تلقبي نفسك آيواجو الإست ، فانت تستحقين هذا الشرف واكثر .

كان أوفي قد بدأ يخرج على رؤوس أصابعه لكنه تجمد فجأة ، كما بدت الغرفة وكأنها قد تجمدت هي الاخرى . اما بابي التي كانت عيناها تقدحان شررا فقد اعتراها شيء من تردد وكأنها خشيت أن تكون قد مضت بعيدا جدا . زفر باتوكي زفرة طويلة ثم غرق من جديد في كرسيه وقد أدرك للمرة الالف ، ربما ، أن الكيل قد طفح . عند ذاك دوت جأرة حيوان هائج ممزقة أرجاء الغرفة مشققة أفاريزها .

ـ كذابة ، صاحت الام وهي تنقض على بابي التي انهارت تحت تلك الوثبة المفاجئة .

ظل اوفي متجمدا في مكانه ، منتظرا ان يهب باتوكي لنجدة ابنته . اخيرا نهض الرجل القصير القامة ، لكن امراته كانت قد باتت مستعدة لهجوم ثان . اذ وجهت ركلة بقدمها ، فرفعت بابي يديها في الحال كي تحمي وجهها متلقية قدم أمها بأصابعها . آنذاك حاولت المراة وقد جن جنونها من الغيظ ، أن تغرز كعب حذائها في بطنها ، لكن باتوكي كان قد امسك بها ثم جرها بعيدا فوجهت رفسة أخيرة من قدمها وهي تتخبط بين يديه ، رفسة أصابت أضلاع الفتاة فرآها أوفي تقطب وجهها من ألم ليس مصطنعا . وفي اللحظة نفسها التي كانت الام ترتمي فيها من جديد على الكرسي ، كاتمة انفاس باتوكي بجرمها الكبير الذي طغى عليه وجعله يلهث مبهور الانفاس ، في تلك اللحظة تماما أسرع أوفي الى بابي ، رفعها عن الارض ثم فر بها فيما ظلت صرخات الام وشتائمها تلاحقهما الى أن أصبحا خارج مدى الصدت . وعندما صارا في غرفة الجلوس ، أمسك أوفي بالمنشفة التي كانت تغطي عنق زجاجة الشمبانيا ثم غمسها في سطل الثلج محاولا تسكين الالم الناجم عن الكدمات التي ألحقتها الام ببابي لكن هذه بدت مهتمة على نحو خاص بالتأكيد على صحة السر الذي كانت قد أفشته رغم ما فيه من فضيحة :

ـ ذلك صحيح يا أوفي ، وهي تعلم انها لا تستطيع انكاره ، فدا ييزى لم يكن يعلم قط ان كان قد تزوجني انا ام تزوجها هي . لكن أوفي هددها :

ـ ان اثرت هذه القصة من جديد فسأذهب من هنا .

دخلت خادم وقور من أولئك اللواتي تجمعن عندما علا صوت الشجار ، وعلى محياها آثار قلق يمتزج بالدموع كتلك التي تبدو على الاقارب المخلصين، فعهد لها أوفي ، وقد شعر بالعزاء ، أمر بابي كي تتابع الاعتناء بها . حينذاك فقط لاحظ ان الغرفة كانت خالية حين عاد بها وان طبيب الاسنان لم يكن هناك . وهكذا أرغم نفسه على الانتظار حينا من الزمن على أمل أن يكون قد ذهب الى المرحاض ، لكن حدسه كان يقول له بأن شيئا من هذا لم يحدث . ولهذا السبب بالذات ، لم يكن باستطاعته التحري مباشرة عن ذلك الرجل الذي رأوه يدخل معه ، لا لانهم سيلحظون غيابه فيما لو اضطر الى الذهاب بدونه ، بل لان مجرد طرح الاسئلة سيلفت الانتباه اليه ، اذا ما حدث شيء يوما ما . اذا ما حدث شيء يوما ما ؟ فكر ببرود وهو يتساءل أي قرار يمكن لطبيب الاسنان ان يكون قد اتخذه في غيابه ، شاعرا بغيظ شديد وهو يفكر انه كان الاس في ذلك الذي لا يمكن اعتباره ، بعد كل حساب ، سوى زيارة استطلاعية للمكان ، وكان ذلك الغيظ ينبع من أنه كان يعلم في الصميم أن نيته كانت شيئا آخر . نيته : الخداع على نحو خاص ، ذلك انه وبنوع من المحاكمة المنطقية الخاصة ، كان يشعر أن القاتل المأجور وحده هو من يمكنه أن يرغب في قتل رجل التقى به في أكثر الاطر عائلية وألفة . فآنذاك ستكف الضحية عن أن تكون رقما بلا وجه ، عاملا من

العوامل في المعادلة الاجتماعية يطرح لايجاد الصيغة المناسبة . وطبيب الاسنان ، رغم الصدأ المتجمد الذي كان على ما يبدو يحمله في عظامه بدلا من المخ لم يكن بالقاتل المحترف . لكن اين تراه كان في تلك اللحظة وما الذي كان يفعله ؟ خاصة وانه كان على أوفي نفسه أن يحدد موقعه اذا ما حدث شيء ما ؟

أخيرا ، بات الانتظار الذي طال أمده ، لا يطاق ، فغادر البيت . اجتاز الحاجز فوصل ، في نهاية الممر الخاص الطويل ، الى الطريق العام . حينذاك خرج رجل من وراء الادغال ، ما لبث أن تعرف عليه أوفي ففتح له الباب .

كانت لهجة طبيب الاسنان ساخرة .

ــ ماذا دار في خلدك حين علمت انني اختفيت ؟

فرد عليه أوفي بسؤاله عما كان يفعله .

ــ كنت اريد أن أرى ان كان بالامكان مغادرة البيت دون أن يلاحظ احد ذلك . واذا كان الامر هكذا ، فسيكون بالامكان العودة بالطريقة نفسها .

ــ وبعــد ؟

فهز طبيب الاسنان رأسه وقد بدت عليه هيئة المغموم .

ــ كلا ، فقد تعرضت للاستجواب في الحال . فقلت انني كنت أبغي التنزه في الوقت الذي كنتما فيه مشغولين مع الاسرة ، بعد ذلك ذهبت من جهة بيت السلم وحاولت الخروج من هناك ، لكن غولا مسلحا آخر برز لي بشكل مفاجيء . وكنت قد اصبحت قريبا جدا من السور الى درجة تثير الشبهات : فاقتضى الامر أن أفتح سحاب بنطالي وأبول .

ــ وكيف خرجت ؟

ــ من البوابة . اذ فكرت أنني ساقوم بعمل جيــد أيضاً اذا ما استفدت من الوضع وتفحصت المكان من الجهة الاخرى للسور . فاستمر أوفي يقود السـيارة صامتــا .

ــ وكيف حال آل باتوكي ؟ سأله طبيب الاسنان ، فأجاب أوفي :

ــ تثير الشفقة كما هي دائماً .

ــ كيف ؟

ــ يؤسفني أنك لم تحضر ذلك المشهد العائلي الذي يدعو الى الرثاء . . . لا ، لا تضيع وقتك مع باتوكي . انه أتفه من أن نقتله .

وفي الحال قست ملامح طبيب الاسنان ثم وجه الى أوفي نظرة فيها شيء مــن التعــالي .

ـ أتريد أن أقول هذا باسلوب آخر ؟ مثلا هؤلاء الناس يتألمون بما فيه الكفاية ، فلا تجلب المزيد من الويلات لهم . أو مثلا ثانيا : ان غناهم وانغماسهم في الملذات لم يجلب لهم السعادة ، اذن دعهم يعذبوا ويشوهوا على هواهم أولئك الذين يقاومون . أو مثلا ثالثا : رغم آلاف الموتى الذين يتحمل باتوكي مسؤولية موتهم ، فانه رجل متمسك أشد التمسك بذويه . . .

ـ حسن ، حسن ، هذا يكفي . أنت تجهل كل شيء عن علاقتي بهذه الاسرة .

فطرف طبيب الاسنان عينيه بشيء من الريبة .

ـ اوه ! فهمت ، فهمت ! أمن اجل هذا اذن جئت بي الى هذا البيت ؟ الكي أرى باتوكي ضمن أسرته واشفق عليه ؟

لكن أوفي ظل صامتا ، عيناه تحدقان الى الامام . فصعد طبيب الاسنان آهة مفعمة بالضجر مما مر به حتى الآن من تلك السلسلة الكاملة من الحجج المبتذلة . بعد ذلك أغمض عينيه وقد ألقى برأسه على المسند ، ثم قطعا بقية الطريق صامتين .

* * *

« ١١ »

كانوا قد بدؤوا يواجهون أرتالا طويلة من العربات التي تنقل الفارين ، وكانت النظرات الخاوية التي غاب عنها كل شعور ، تملأ تلك الشاحنات التي اكتظت لدرجة لا تصدق وهي تجري مهتزة بعشرات الحركات المتعاكسة حول محاورها المختلفة . مع ذلك وكأنما ذلك بفعل معجزة ، لم تكن تلك الكتل تتصدع . كذلك كانت هناك السيارات الخاصة ، بمناظرها البالية كبلى مستقليها ، وكان لاولئك الناس جميعا طابع مميز واحد : الابصار شاخصة مستسلمة ازاء الهجوم غير المتوقع الذي كاد يقضي عليهم .

عند الجسر صف أوفي السيارة ، مسح يديه من العرق والوسخ ثم أعلن بأنه ذاهب ليستحم . كان المكان يبدو آمنا تماما وكان بامكان المرء أن يلمح في الجهة الاخرى الدوريات التي كانت توقف كل شاحنة من شاحنات الفارين ايقافا شكليا قبل أن تصدر اليها اشارة بالمتابعة . كان يبدو في حركات أولئك الجنود الملل القاتل وفي نظراتهم الاحتقار . من حين الى آخر ، كان أحدهم يدور ، دون استعجال ، حول العربة التي أوقفوها مشيرا بحركة متراخية الى شيء ما أثار طمعه ، ربما جهاز تلفزيون وربما آلة خياطة جديدة وكان السائق يعلم ما يعنيه ذلك . بل انه لم يكن يكلف نفسه عناء توجيه السؤال الى صاحبه ، فيحمله بأقصى سرعة ثم يقدمه للجندي . صعد أوفي النهر سيرا على القدمين وقد عزم على اجتيازه سباحة ، وذلك جزئيا ، لكي يراقب عن كثب أفعال الدوريات وحركاتها .

لكن كان لا بد أيضا من الوقفة على باب الجحيم الرسمي ، الرسمي فقط ، فالرعب كان قد طغى على القرى ، بعيدا في الجنوب ، حسبما اكتشفا اكتشافهما المشؤوم ذاك وهما في الطريق . وكان البلاء قد حل حتى في عروق أولئك الذين لم يكن لهم نصيب لا في الارض ولا في قضية قبائل كروس ـ ريفر لكنهم كانوا ، هم الحريصون على ألا يبقوا نهبة للنهابين ، ينقضون على الضحايا الذين كانوا يمرون . مع ذلك كان جسر لاب هو الحد الفاصل للمجزرة المنظمة ، رغم انه كان قبل عدة أيام ، فخا قاتلا للكثيرين حيث كان الجلادون ينتظرون هناك ، يأسرون ضحاياهم بكل هدوء واطمئنان الى ذلك المكان الذي كان من الواضح انهم يحاولون الهروب منه .

تابع أوفي ، وهو غارق في أفكاره تلك ، صعود مجرى النهر ، متجها صوب رافد ، كانت حوافه ذات الرمل الابيض تبرز واضحة بين ذكرياته عن رحلة قام بها الى ذلك المكان قبل عدة سنوات . ولان وصوله كان أسرع مما توقع بدأ يراقب المنطقة بعناية شديدة ويستنشق الهواء وهو يتفحص الادغال . كان محتملا أن تكون

تلك المنطقة من النهر قد اشتركت في نقل الاجساد المتفسخة . لكن من المؤكد أكثر ، انه لم يكن بعد ذلك الجسر نهر ولم يتلوث ، ولا مستنقع يمكن أن يلقى فيه حجر دون أن يفجر جلدا منتفخا نتيجة التفسخ ، حتى الآبار لم تكن استثناء القاعدة ، ذلك أن أوباش الكارتل لم يكونوا يترددون ، وهم يرتكبون حماقاتهم ، في تدنيس حاجة الاحياء الى الماء النقي . اذ لم تكن ثمة حاجة الى الكثير من الطاقة من أجل القتل أو التشويه بل من اجل دفن الموتى . وقد ابدت الآبار والمستنقعات داخل البلاد كل استعداد لاستقبال تلك الجثث بشراهة لا تشبع . وهكذا عندما كانت الجيف تتكدس في الشوارع وتبدو النسور ابطأ بكثير من أن تقوم بدورها كمزيلة للقاذورات ، وأشد تخمة مما كانت تأمل ، على الاطلاق ، وهي تحلم أحلامها الجوية محلقة فوق ذلك المنظر القاحل في كل مكان تقريبا ، فقد كانت تصل الشاحنات لجمع الجثث والقائها في السدود الاحتياطية . احد القطارات التي كانت تنقل اللاجئين الى الاماكن الآمنة وصل الى الجسر فتوقف فوقه لتلقى في النهر شحنة احدى مقطوراته الملأى بالجيف . كان أحدهم قد سحب المزاليج وحينذاك بدأت الاجساد تتساقط متدحرجة نحو مجرى الماء الرقيق الذي كان يجري في الاسفل . بعد ذلك باشر رجال الخدمات الصحية ، وهم يلبسون زيا موحدا أسمر ويربطون المناديل فوق الاجسام السفلية من وجوههم ، باخراج الاجساد الباقية واحدا واحدا مبعدين ما بين العوارض المعدنية كي يدفعوا في الفراغ بالاجساد التي ظلت محصورة هناك . كانت أوجه الناجين الخاوية من كل اثر للالم تتدافع نحو النوافذ كي تتبع حركة تلك البهلوانات الكاريكاتورية التي تتحرك في الفضاء ، وتستمع الى صوت الارتطام البعيد الصادر عن اجسام تنط من منحدر الى منحدر في الوادي الذي لا قرار له . كانت جثة أحد الاطفال قد رسمت قوسا دائريا فوق القنطرة الحديدية قبل أن تسقط شاقوليا مثل بطة برية سمينة ، وكانت أصوات انتشار الماء ، تلك الاصوات البعيدة التي لا تكاد تميز ، قد ضعفت كثيرا عندما سدت الاجسام مجرى الماء . بعد ذلك ، أغلق باب المقطورة ودفعت المزاليج محدثة جلبة شديدة ، ثم عاود القطار المسير ... كان زاشي ، الذي هرب على متن ذلك القطار ذات يوم ، قد عاد برأسه الى الوراء عندما اندفع شلال الجثث الاولى مكتفيا بملاحظة وجوه الناس الاكثر خشونة أولئك الذين كانوا ينظرون . لقد احس أن لدى الاكثرية منهم نوعا من التصميم ، نوعا من الاصرار على تثبيت المشهد بالحديد والنار في أذهانهم ، والى الابد ، كي يستطيعوا استخراجه منها عندما تحين الساعة ...

تفحص أوفي سطح النهر الصغير والمنطقة المحيطة بملتقى النهرين ، فلم ير دليلا على مثل ذلك الدنس . كانت مصاطب الرمل تتألق نظيفة لا شائبة فيها ، حتى انه كان باستطاعة المرء أن يرى عرانيس المانيوك المألوفة وقد وضعت تحت الشمس كي

تجف كانت مستعمرات المناطق المجاورة تتألف بمعظمها من الاجانب ، وكان كل شيء قد أصبح الآن خاويا . فخطرت ببال أوفي عبارات آهيم : الارض هي التي تغذينا، والانهار هي التي تروينا ، فاذا احتقرناها سنعود اليها عند الحاجة وسنرى أنها ترفضنا . الفداء مقدس يا أوفي . . .

خلع ثيابه ثم اجتاز آخر متر من الاعشاب العالية فتعثر بشبكة للاسماك واجفل من البلاشين التي طارت ببطء ، بأجنحتها المتحيرة . فقام بحركة مفاجئة عله يقبض على أقربها وهو يطير فوق راسه لكن دون أن يصدق بالحقيقة أنه سيتوصل الى ذلك . ابتعد البلشون بخفة وتحت الخفقات المتناسقة للخيوط غير المرئية ،خيل لاوفي أن اصابعه المدودة أمسكت بالطائر وأن قوادمه مرت تحت ابطيه ثم رفعت جسده المرتعش فوق الماء ، حاملة اياه تحت قبة من مئات الاجنحة البيضاء المهاجرة استجابة لنداء الاراضي البعيدة الابدي ، تلك الاراضي الوادعة ، الهادئة ، المطهرة . وبكل لطف ، وضعته هناك ، في بحيرة هادئة ، حيث الموج من حوله يغسل جذعه . غاص تحت الماء البارد ثم ظهر من جديد تاركا الماء يحمله نحو ملتقى النهرين حيث رأى البلاشين تقف على الضفة الاخرى .طارت من جديد فأغمض عينيه تاركا نفسه تعيش تحولا جديدا صار به حيوانا مجترا ، حيوانا صبورا رائعا تلتقط البلاشين من ورائه الحب بحركات رشيقة معتنى بها . بكسل بالغ راح يتأملها وهي تقف على جلده ، ثم شرع بكل رضى وارتياح يحرك ذنبه فيما كانت هي تنظفه بمناقيرها من قراد يمتص دمه . كان الماء يمنع عن أذنيه كل تنافر في الاصوات وعن منخريه كل تلوث ، فلا تنتقل اليها الا أنغام الفلال والانتاشات الهادئة ، سلام التحلل وهضم الغذاء ، سلام الرشيمات والتجدد ، والبلاشين وهي تتغذى على جلده دونما خوف .

كانت الشمس تلمع برتقالية عبر أجفانه ، وكان قصب الضفاف يتراقص أمام عينيه وعلى طول المجرى ، قصبا بين يدي طبيب مشعوذ غريب الاطوار يغمغم بالتعاويذ فوق طفلة يتلوى جسمها الما . . . ما اغرب ذلك الصنف من المشعوذين !! لكأنهم مروا بقدور السحرة مذ كانوا في أرحام أمهاتهم أو عاشوا توترات تظهر عبر التجربة ، عبر بحث بطيء مؤلم عرضوا فيه أجسادهم للعذاب ، بل أخضعوا أنفسهم لاعباء قاتلة جعلت شعرهم يبيض في ليلة واحدة ، دون أن يقتلهم رغم كل شيء . الايدي التي تمتد وهي تنثر موجات الشفاء ، كما ينثر الرجال الصفار في مسيراتهم المظفرة المزعومة ، قطع الذهب . واذا ما ظلوا مفقودين عندما يكون الناس بحاجة اليهم ، حينذاك لا بد من أن تنجيهم الاحداث ، والضرورات الفردية الرهيبة . تلك الاصابع الخدرة ذات الحساسية كحساسية العشب حساسية الماشية والبلاشين، اصابع السلام النهائي ، ما تراها تستطيع فعله بالحقيقة تجاه البطون المحظوظة

لتلك الانسانية التي تدغ وبشكل دوري ، قيحها ومرارتها يرشحان الى مياه الارض والحياة ؟ أهو آهيم ؟ أهو الطبيب الشعبي المنيع على ذلك الشر النفاذ ؟

هز راسه دلالة على النفي ، ولكي يخلصه من الماء ، استدار نحو مصطبة الرمل الاساسية التي اصطدم بها لتوه وشرع يصعـد النهر . كان الماء صافيا وكـان يرى قاع النهر . كلا ، يبدو أن الموتى لم يمروا من هنا ، لم يستريحوا قط ، اذ كانت الرمال البلورية المزروعة بالاصداف المكسَّرة والحصى تبدو وكأنها تقدم قبسا من امل ، شيئا من تبرير متعاظم . صعد ثانية الى حافة النهر فوقعت عيناه على شاحنة أخرى قادمة من كروس ـ ريفر ، يراها المرء فيخيل اليه انها كوخ قذر انتزع من التراب حتى آخر خشبة منه وربط على هيكل عربة . انقاض حطام . وكان لحاف مدروج يتجاوز فراشا كالح اللون يتدلى جانبا وكأن ذلك بغية صد الطلقات غير المتوقعة ، كما كانت هناك مبولة تتأرجح ، ودراجة بدولاب واحد ، وسلال توازنت على اشياء تكدس بعضها فوق البعض الآخر والركام المألوف من اوجه تبرز هنـا وهناك . وكان الجسر يغوص في هاوية النفي والعدم .

* * *

صبيحة الاحد وصلا الى كونتوا . والاحد يوم عطلة . فبدت المدينة وكأنهـا تستحم في هدوء هدنة غير مكتوبة ، فيما كانت سلسلة من أجراس الكنائس تقرع فوق اسطحة المدينة معززة السلام الظاهر . سارا صامتين يبحثان عن حي الاجانب .

بعد عشر دقائق ، ربما كانا سيصبحان من عداد ضحايا الحي . فهدوء الصباح كان يولد شعورا خادعا بالامان وكان أحد حمالي المحطة قد اخبرهم أن عصابـات النهابين لم تعد تتنقل علنـا في وضح النهار ، بل ان نشاطاتهم كانت تقتصر على عمليـات اغتيال ليلية سرية وحرائق غامضة وأعمال نهب محددة . سارا في الاتجاه الذي دلهما عليه الرجل وتملصا مرتين من الوقوع في اشتباك كبير ثم صعدا رابيـة في الجوار ليلقيا نظرة اجمالية علي حي الاجانب . وفي الوقت الذي كانوا يفتشـون فيه لاكتشاف مخطط شبكة الشوارع البعيدة هناك داخل الفيتو ، لفت فجأة انتباه زاشي ثم انتباه اوفي جري غير متوقع . كانت الابنية تبدو من مرقبهما منفصلة انفصالا واضحـا . كذلك كانت الشوارع ، رغم انها كانت تبدو من مكانهما المرتفع اضيق مما هي عليه . وكان عدد من المشاة يسيرون بصورة عادية بين البيوت .

في البداية ، كان بامكان المرء ان يعتقد أن ذلك الصباح كصباح أي يوم من ايام الآحاد الاخرى المألوفة في حي اجنبي يسكنه على نحو خاص «وثنيون» ومسيحيون ، لم يكن أي منهم من سكان كروس ـ ريفر الاصليين . وكان يعزز الهدوء ، لا يكدره ، همهمات آلات الارغن وأصوات متأنية للمؤمنين الذين اشبعهم افطارهم الرباني ، وبسهولة بالغة استدلا على الكنيسـة التي كان يشرف عليها ، كما هي العادة دائما ، صليب كبير .

ـ انهم يسبحون بحمد الله الآن لانهم ما يزالون على قيد الحياة ، كما يتضرعون اليه عله يحميهم في المستقبل .

قال زاشي مخمنا ، فأضاف أوفي :

ـ ولا يخلو الامر من بعض اللعنـات على المعتديـن ، وهذا لا يدهشنـي ، فهناك بعض المذاهب لا تؤمن بالمغفرة .

في تلك اللحظة قطب أوفي حاجبيه وهو يلاحظ بداية صياح غير اعتيادي في الشوارع . فمن الظلال ، هنا وهناك ، ومن الزاويا بل ومن خلف بعض الاشجـار كانت تبرز اطياف لا تكاد تلاحظ ، أطياف تنتقل كالاشباح سريعة منسقة الحركات صامتة وهي تلبس الزي التنكري المألوف : قمصانا واسعـة بيضاء مغبرة . وكان من الواضح أنهم ليسوا من المؤمنين الاوفياء ليوم الاحد .

مع ذلك كانت الحركات المعاكسـة ، أو المتممة ، اكثر شؤما ، وكانت هي أيضا قد بدات . اذ كان العدد القليل من رجال الشرطة الموزعين حول الغيتو ينسحبون شيئا فشيئا خارج الاسوار ثم لم يبق منهم أحد بعد حين . حينذاك تحولت حركة الاطياف ذوي اللباس الابيض المغبر الى انقضاضة هجوم . بل لم يعودوا يحاولون اخفاء اسلحتهم من سواطير واقواس وسهام وخناجر ، اضافة الى عدد من الصفائح التي لم يكن المشاهدان قد أدركا بعد كيفية استخدامها . بعد حين من الزمن بدات تلك الاطياف تحيط بسور الكنيسـة . في النهاية ، وكأنما كان ذلك منسقا كـل التنسيق ، انقضت فصيلة على الكنيسة ذاتها . جرى ذلك العمل بدقة تثير الهلع . اذ كان بامكان المرء أن يميز فيه البداية والوسط والنهاية . ولقد بـدأ ذلك على نحو يشبهلعبة من الالعاب، بكل ما في اللعبمن عدو سريع ومراوغات بين البيوت والازقة قبل أن يصل الامر الى حالة من الانقضاض المنسق : اذ ذاك لم يعد الامر لعبة استفمابة ، بل اندفعت مجموعة المصلين داخل السور ثم اتجهت نحو الابواب والنوافذ فأغلقتها . وفجأة استحال الترتيل والتسبيح الى صراخ خمد هو الآخر لتحل محله ضربات مطارق على مسامير أخرجت من ثياب المؤمنين غير المرغوب فيهم . كانت كل حركة ، حتى في أدق تفاصيلها ، تبدو وكأنها جزء من رقصة ايقاعيـة . فقد نزعت ألواح من خشب ثم وضعت بشكل عرضاني على النوافذ التي اغلقت فجأة . وهناك ثبتتها أيد ، ثم بدات أيد أخرى معينة سلفا عملية التسمير . تلك الحركة نفذت بمهارة فائقة . كما أنهيت بسرعة الى درجة يخيل للمشاهد أن تلك المجموعة لم تكن تقوم بتجربتها الاولى ، ذلك أن العشرين أو الثلاثين من الابواب والنوافذ التي كانت قبل لحظة واحدة مفتوحة على مصاريعها أصبحت في تلكاللحظة مغلقة باحكام على المؤمنين .

ـ الشرطة ، غمغم أوفي بنبرة ملحـة ، استقل السيارة يا زاشي واستـدع الشرطة ، هيا ، أسرع .

فهز زاشي راسه بهيئة المتشكك ، لكن أوفي أجبره على استلام المقود .

ـ رايت بعينيك رجال الشرطة يذهبون ، أصر زاشي ، سوف نضيع وقتنا . فوق ذلك إنه يوم الاحد ، وأنت تعرفهم !

ـ لا تذهب الى مفوضية الشرطة . اذهب الى دائرة الشرطة الوطنية . اذهب مباشرة الى القيادة العامة ، اطلب بالحاح مقابلة الضابط الاعلى رتبة ، هيا أسرع يا عزيزي !!

لا شيء مما سمعاه حتى ذلك الحين كان يدل على أن الشرطة متواطئة . كان الزي الازرق الخفيف الذي يلبسه الدرك المحليون قد تلطخ بالدماء الى درجة بدا اشبه بوشاح أحمر معقود فوق سراويلهم البشعة . أما الجنود فمن الافضل عدم التحدث عنهم . بدأ الامل يساوره وهو ينتظر . في تلك اللحظة خطرٌ بباله طبيب الاسنان وبندقيته ذات المنظار ، كما حلم بحلوله المحكمة الدقيقة . ربما كان يكفي قتل واحد أو اثنين من مكانه هناك ، ليتخلى الآخرون عن الهجوم ويولوا الادبار . احدى النوافذ حطمت من الداخل تحطماً عنيفا الى درجة بلغه صوت التحطيم الى أعلى الرابية واضعا نهاية لاحلامه المجنحة . تطلع فرأى مقعدا يتحرك ، مقعدا استخدم كآلة للهدم ففتح فتحة غير منتظمة في ألواح النافذة دون أن ينجح مع ذلك في فتحها . لم يكن طرف المقعد يصلح لشيء الا لسد الثقب الذي أحدثه . اذ لم يكن باستطاعة أحد المرور عبره ، لا لانه كان أقل أهمية ، بل لان من يمر عبره يقتل بسهولة . وبغية التأكد من أن المؤمنين الواقعين في الفخ يدركون ذلك جيدا ارسل أقرب المهاجمين سهما الى الفتحة ، فانغرز في الخشب ، نافذا حتى منتصفه ، على الاقل ، داخل الكنيسة . حينذاك فقط لاحظ أوفي انه خلال اللحظات القصيرة التي تحدث فيها مع زاشي ، كانت قد نصبت سلالم تصل حتى السطح .

بعد ذاك ، جرى العمل بدقة مذهلة ، ومن بعيد ، غدا ذلك لوحة جدارية للموت لا يضاهيها في الشؤم سوى جولة مشعوذ مخادع . لقد اثبت نظام البدائل نجاعته التامة : فالصفائح التي كان الغموض يكتنفها راحت تنتقل من يد الى يد عبر ثلاثة أو أربعة من الرجال المنبطحين على السطح باشروا على الفور بصب ماتحتويه على السطح كله ، وحين اكتشفوا شقوقا تفصل السقف عن الجدران راحوا يسكبون السائل في تلك الشقوق ، فيما كان فريق آخر يقوم بطقوس مماثلة حول النوافذ راشا السطوح الخشبية كلها ، بعد ذاك ، جرت عملية ثالثة ، قام بها فريق آخر ، اذ راح يكدس الحطب وبقايا أشياء من كل صنف ولون قبالة المدخلين الرئيسيين ، فلم يظل لدى أوفي اي شك بطبيعة السائل الذي سكب على البناء .

لم يلبث طقس اراقة الخمرة القاتلة(١) أن انتهى ، فانسحب القساوسة وانتظروا

(١) احد الطقوس الوثنية التي تجري تكريما للآلهة .

الى أن نزل الثلاثي عن السطح بعد أن سكبوا آخر قطرة في صفائحهم على السلالم التي تركوها في مكانها . لم ينتبه أوفي الى اللحظة التي أشعلت فيها النار ، لكنه سرعان ما رأى نار الجحيم وهي تندلع من المكان الذي كانت الكنيسة تقوم فيه ودائرة المشاهدين تتقلص وهم يتقهقرون كلما غدت الحرارة أشد عنفا ، وبدأ يحجب المشهد دخان أسود كثيف .

كانت صرخات الرعب تبدو وكأنها خارجة من اعماق الارض ، ترافقها فرقعات شديدة اشبه بفرقعات صفائح حديدية بالغة الحمو ، سقط عليها فجأة وابل من مطر فأخمد نارها في الحال . كانت أبخرة البنزين تتصاعد على شكل ضباب وهمي ، عاليا فوق السطح . في تلك اللحظة برزت حدأتان في السماء الخالية وبدأتا تدوران فوق الفرن البشري . في الحال خطرت بذهن أوفي ، وعلى نحو يثير الضحك ، القصة الفولكلورية التي كانت تفسر مجيء تلك الحدأتين كي تحلقا فوق النار . احدى الصفائح الحديدية مزقت اربطتها وبدأت تهتز اهتزازا غريبا في اللهب . وكما لو ان الناس المحاصرين رأوها واعتبروا ذلك اشارة معينة ، فقد انفتح فجأة ما يربو على ست نوافذ كانت هي الاخرى قد تحطمت تحت ضربات المقاعد . بعد ذلك حصل انقضاض عام على النوافذ والابواب الاخرى ، فاختلطت ضجة ضربات المطارق بزمجرة الحريق المستمرة .

كانت تلك هي اللحظة التي انتظرها المهاجمون . اذ قفز أول رجل الى الخارج ، فانطلق سهم باتجاه اللهب شله عن الحركة فترة من الزمن ، ترنح الشبح خلالها ، بعدئذ استعاد توازنه ثم أطلق ساقيه للريح باتجاه أمان موهوم . لحقه بعد ذلك رجال آخرون ، بينما انطلق موكب متواصل من السهام التي كانت تنغرز في أهدافها محدثة أصواتا لا رنين فيها ، منتزعة اللعنات من الافواه . قام المصاب الاخير بنصف دورة وهو يسحب السهم المنغرز في عنقه ، ثم حاول ، وقد جن من الالم ، ان يتسلق الجحيم ثانية ، فأصابه سهم آخر في ظهره . ارتجف ثم سقط بصورة عرضانية من متكأ النافذة وبقي معلقا هناك فيما كان اللهب يمتد الى ثيابه قبل أن يلتهمه . حينذاك تجمد كل شيء في الكنيسة لحظة من الزمن . فالنوافذ التي لم تكن قد تحطمت ظلت لم يمسها أحد ، وحدها النار كانت قد بدأت تتصدى لها . فتساءل أوفي ان كان المؤمنون راكعين بانتظار الموت ام يصلون من أجل خلاصهم .

بعد ذلك كسر البابان معا . وبعد لحظة أخرى كسرت بقية النوافذ أيضا ثم بدأت عملية خروج واسعة . في المقدمة ، وأمام البوابة الكبرى ، اندفع رجل عملاق وهو يلوح بمقعد يقي نفسه به ويقاتل ، ثم تبعه الرجال الآخرون خارجين من البابين معا منتشرين على شكل مروحة لكن ما من أحد منهم ذهب بعيدا . مسافة كبيرة كانت تفصل بينهم وبين المهاجمين وقد قلتوا حتى آخر رجل منهم ، بسهام من حديد لم تكن تنضب على ما يبدو . لم يكن الرماة في عجلة من امرهم بل كانوا ينتقون

ضحاياهم لحظة اندفاعها الى الامام ، وغالبا ما كانت تسقط عند أقدامهم عندما تنغرز النبال أخيرا في الاماكن الحيوية من أجسامهم . وكان الدم يسيل في ساحةالكنيسة المزفتة ، ذلك الدم الذي كان ينبجس على شكـل ينابيع مشؤومة ، الواحد تلو الآخـر .

بعد القتل كان يأتي التشويه وفي احيان أخرى كان يسبقه . اخيرا ، خرجت النساء مما بخطا بطيئة وهن يمسكن بأيدي أطفالهن ، توقفن على بعد أمتار عدة من المعبد المشتعل ثم انتظرن . فلفت نظر أوفي امرأة تقدمت وكأنها ترس او فدية عن الاخريات ، مخلوقة ضعيفة بدت وكأنها على وشك السقوط تترنح تحت حبلهـا الثقيل ، وبطنها البارز يكاد يوقعها أرضا لشدة ثقله . كتم أوفي أنفاسه ، وهو عاجز عن ابعاد نظره عن تلك المواجهة ، حتى اللحظة التي انحنى فيها رأس تلك المرأة فجأة كي تنظر وقد طغت عليها الدهشة الى الزهرة المشوهة الخلقة التي كانت تنبثق من رحمها . حينذاك انهار أوفي مديرا ظهره للصرخات التي كانت ترتفع من المذبح الذي احمر بدم الاضاحي الربانية ، ضاغطا ركبتيه على رأسه ، متشنـج اليدين على عنقه محاولا اسكات الاصوات التي كانت تصب اللعنات على عجزه .

بدا له وكأنه انتظر ساعات قبل أن يسمع الصافرات . بعد ذلك بلحظـات جاء زاشي يبحث عنه ، فتركه يقوده الى مكان المأساة حيث رأى رجالا داخل سور الكنيسة ، بالزي الموحد ينتشرون هنا وهناك وعليهم هيئة المخبولين . كان المهاجمون قد اختفوا منذ زمن طويل ، ولم تعد الكنيسة الا كومة من رماد يتصاعد منهـا الدخان وسط وشوشات وأوامر تصدر بصوت خفيض . ومع أن الكل كانت قد قست قلوبهم وهم يواجهون ذلك النوع من المأساة ، الا انهم كانوا يديرون ظهورهم الى ذلك المكـان الذي كان يتمدد فيه جسم تلك المخلوقة . بل ان أوفي نفسـه أدار ظهره أيضا بسرعة بالغة حين وقع بصره على تلك الفجوة البيضوية الرطبة التي كانت قبل لحظات فقط رحم ام .

* * *

لم يكن وجه الرقيب الاول الجالس الى المكتب يتكشف عن أدنى اهتمام ، أو ادنى قلق .

ــ لك الحق في أن تعتقد يا صديقي ، أنه يلزمنا اكثر من ذلك لكي نعمل .

فكبح أوفي غضبه الذي كان يتصاعد .

ــ واذا قلت لك ان أحدهم رآها تقاد بالقوة الى الداخل .

فلم تتغير تعابير وجهه ، ولم يتوقف عن الكتابة في السجل الكبير الذي كان يستحوذ على اهتمامه منذ أن وصلا . بل لم يكن أوفي متأكدا من أنه رفع عينيه مرة واحدة مذ دخلا الى المفوضية .

ـ تقولون لي ان احدهم رآها ... لكم الحق في أن تعتقدوا ... لنا كل الحق في أن نعتقد ... تقولون لي ان أحدهم رآها ... أين هذا الاحد ؟

فنبه زاشي كي لا يكشف أنه هو نفسه شاهد الخطف .

ـ لم يستطع المجيء معنا . لقد هرب الى ايلوزا ، ولا أستطيع أن أحقد عليه لرفضه المجيء الى هنا .

ـ فهمت ، اذن لا يوجد شاهد مباشر على الدليل الذي يمكننا الاعتماد عليه للقيام بعمل . فلفت أوفي انتباهه :

ـ اعلم ذلك ، سلـم الآخر بنشافة وهو يتابع خربشته ، اذ ذاك راح اوفي يتساءل في سره عما ينبغي عليه ان يقوله . كانت مروحة السقف تدور ، لكن احتكاك الريشة المغيظ كان يطغى على ضجيجها .

أخيرا ، بدأ أوفي هجوما جديدا .

ـ اعرف البيت ، فأجاب الرقيب الاول :

ـ سبق أن قلت ذلك .

ـ لقد وصفه لي ، بل رسم لي مخططا ، وباستطاعتي ان أقودك اليه .

ـ لست أطرش أيها السيد .

سعل زاشي سعالا خفيفا ، ثم أخذ أوفي جانبا وقام بحركته الكلاسيكية المعهودة ، فرك ابهامه بأصابع اليد الاخرى قائلا :

ـ اتعتقد ان بامكان هذا أن يسهل الامور ؟

فهم اوفي مغزى الحركة ، فحك راسه ثم ادخل يده في جيبه وأخرج خمس ليرات ، سائلا زاشي بعينيه ، فاقترح هذا مضاعفة المبلغ . وهكذا ، عاد اوفي نحو الطاولة والليرات العشر في راحة كفه ، ثم رفع طرف السجل ودس الرزمة تحتها .

توقف الرقيب الاول عن الكتابة مصعدا زفرة طويلة وكأنه يريد التدليل على ضجره دافعا السجل الكبير جانبا . بعد ذاك اخرج دفترا أصفر من تحت مكتبه ثم وجد طريقة لرفع السجل ، وهو يتظاهر بأنه يفتش عن ريشته متذمرا تذمر نافد الصبر . في الوقت نفسه ألقى نظرة سريعة على حزمة الاوراق متفحصا سماكتها ولونها دون أن يبدو على وجهه تعبير رضى او خيبة أمل . حينذاك التقط الريشة التي لم تتحرك من مكانها قط ، ودون أن يرفع نظره ، بدأ يسأل ويده مرفوعة فوق الدفتر :

ـ ما اسمك ؟

فأعطاه اوفي الاسم .

ـ ما تفاصيل شكواك ؟

لكنه توقف عندما قرأ نصف التصريح واطرق مفكرا لحظات عدة .

ـ تطلبون تحقيقا حول شخص اختفى أم تقدمون شكوى بخصوص اختطاف؟ ما الذي تريدونه على وجه الدقة؟ فأجاب أوفي :

ـ اختيار الباب الذي ستدرج الموضوع فيه أمر يتوقف عليك انت . أما أنا فكل ما اريده هو أن تساعدني في ايجاد هذه المرأة . واذا جئت معي يمكننا الذهاب الى هناك فورا ....

فقاطعه الآخر :

ـ سوف أدرجه في باب التحقيق حول شخص مفقود .

ثم أنهى تقريره بتوقيع رمزي كبير الحجم ونظر اليهما لاول مرة ، لكنه لم ينظر في اعينهما ، بل نظر نظرة غير محددة مرت من فوق كتف أوفي وراس زاشي .

ـ من المؤسف ان الشاهد المباشر غير موجود .

فأراد اوفي أن يحتج ، لكن الرقيب كرر مرة أخرى ببرود :

ـ من المؤسف . لكن هل أنت متأكد انه ليس بالامكان الوصول اليه ؟

اقترح أوفي الاتصال به هاتفيا ، ان كان الامر يحتاج الى معلومات اخرى ، ثم قال :

ـ أليس المهم اننا نعرف البيت وأن باستطاعتي ...؟

لكن الرقيب الاول قال : من المؤسف حقا أننا نجهل هوية الشاهد ، فهناك الكثير من الناس الذين اختفوا في هذه المدينة .

حاول أوفي عبثا متابعة منطق تأكيداته ثم بدأ يتساءل ان كان ذلك كله لا يعني ان عليه أن يزيد البخشيش . فحركته تلك ، وهي الحركة الأولى من نوعها ، سببت له اشمئزازا . وهكذا ، على نحو مفاجىء اتخذ قرارا عجيبا وهو استعادة ورقات النقد التي كانت ما تزال شبه مخبأة تحت السجل ، اذ كان جشع الرقيب الأول للمال لم يشبع بعد . لكن السؤال التالي اخذه على حين غرة .

فقد سأل الرقيب الاول وهو يقبض على ريشته بحركة رشيقة :

ـ اسم وعنوان الشاهد من فضلك .

فنظر اليه أوفي وقد بدا عليه الذهول .

ـ اسمه وعنوانه ؟ انه يسكن على بعد أكثر من ثمانمائة كيلو متر من هنا . فماذا يفيدك أن تعرف ذلك ؟

ـ باستطاعتنا الاتصال به ، أجل باستطاعتنا استخدام جهازنا اللاسلكي والطلب من رجالنا هناك الاتصال به للحصول منه على المعلومات الضرورية ....

ـ لدي كافة المعلومات الضرورية هنا ، وارتفع صوت أوفي حتى بات اشبه بالصراخ : كافة المعلومات . اعرف البيت واعرف تاريخ وساعة الخطف . بل ان معي رقم العربة العسكرية التي نقلتها الى البيت .

ـ اذن ، كانت عربة عسكرية ؟ فاكد زاشي :
ـ نعم ، سيارة لاندروفر .

هنا تحول نظر الرقيب الاول ثم استقر على نقطة ترتفع ثلاثين سنتيمترا فوق حاجب زاشي .

ـ سيارة لاندروفر عسكرية ، فقال أوفي بنبرة فظة :
ـ انت تعرف ذلك الآن ، فكرر الرقيب :
ـ والنـــاس الذين قاموا بالخطف ، هل كانوا حسب المعلومات التي سجلتها ، عسكريـــين ؟

هنا ، تدخل زاشي .

ـ يا رقيب اول ، لديك الآن كل المعلومات ، نطلب منك فقط ان تساعدنا . واذا كنت لا تستطيـــع ذلك ، دلنا على الاقل على شخص يستطيعه . فكرر الرقيب الاول :

ـ الذين قاموا بالخطف هم ، حسب رايك ، عسكريون ؟
ـ هيا بنا ، يا زاشي .

فوضع الرقيب الاول ريشته وبدأ بنبرة مفعمة بالازدراء .

ـ اتستطيع أن تقول لي ، لماذا لم تتوجه الى الجيش بدلا من ان تأتي لرؤية الشرطـــة ؟.

ـ أيها الرقيب الاول ، انت تعلم اكثر منا ما يجري في هذه المنطقة ، فقل لنا ، الى اي ضابط في الجيش يجب أن نتوجه ، وفي اية ثكنة يمكن أن نجده ؟

فأصر الرقيب :

ـ كان عليكما أن تتوجها الى الجيش .

كان زاشي على اهبة الانصراف ، لكن الرقيب تابع :

ـ أتيتما الى هنا للتقدم بشكوى تتعلق بعملية خطف واغتصاب وانتما تشيران إلى بيت هو الآن ملك لمواطن محترم في المدينة ، وبودكما أن ابعث شرطة تباغت المكان، وأن أشرع بالتفتيش مستندا في ذلك على أقوال شاهد لم يحضر للادلاء بأقواله ..؟

كان أوفي قد بلغ الباب عندما تذكر فجأة ، فتقدم نحو السجل في اللحظة التي كان الرقيب الاول يرفع طرفه فيها ، لكنه لم يجد شيئا هناك . حينذاك مد زاشي يـــده والاوراق النقدية فيها ، ثم اعلن :

ـ لقد اخذتها ، يا معلم .

ثم غادرا المفوضية ، متظاهرين بأنهما لا يسمعان صرخات الرقيب الذي لحق بهما محاولا ايقافهما .

ـ كنت أعلم جيدا اننـا نحاول الامسـاك بالقمر ، قال زاشي وقد صار داخل السيارة ، فالجميـع ملطخة أيديهم بالدماء . فقال أوفي برزانة شديد :

ـ علينا منذ اللحظة أن ننتبه .

ـ آ ، انت تقول لي هذا . الطريقة الوحيدة المعقولة للتنبه يا صديقي هي أن نترك هذه المدينة وبأسرع وقت ممكن .

ـ كان يود أن يعلم، من هو شاهد العيان، ولم يكن عنده أية نية لمساعدتنا ، بل كان يود أن يعرف اسمه والمكان الذي يمكن أن يعثر عليه فيه .

فهز زاشي راسه وقد بدت عليه علامات اليأس .

ـ كما قال الرقيب ، بيت مواطن محترم جدا . ففي كروس ـ ريفر الناس المحترمون جدا هم اصحاب المناصب العالية والسلطة والنفوذ .... اوفي !

ـ ماذا هناك ؟

رد أوفي وهو ينظر الى زاشي الذي كان يرتجف من شدة الغيظ ـ الغيظ الذي كان سببه الخوف والغبطة الناجمان عن الاكتشاف .

ـ اسمع يا أوفي . انت لم تلاحظ ما قاله . لم تلاحظ شيئا مهما جدا . فقد قال الرقيب الاول في المكتب : بيت هو الآن ملك ...! لكنني قلت لك انه كان يخص فيما مضى رجل اعمال ذا أهمية بالغة ، واحدا من عندنـا . وقلت لك ما حصل له .

ـ الى أين تريد التوصل ؟

الجنود هم الذين قتلوه وقتلوا اسرته ، والرقيب الاول لم يكن يلمح الى ضابط، حتى وان كان عالي الرتبة ، عندما كان يتحدث عن المواطن المحترم جدا . فهؤلاء يقومون بالاعمال القذرة ولا شيء أكثر . والناس لا يدعونهم مواطنين محترمين . هذا يعني أنهم حين القوا تلك الاسرة الى الخارج فانهم فعلوا ذلك لان المواطن المحترم المعني كان يريد الفيلا لنفسه . واذا كانوا قد اقتادوا إيرييز بعد ذلك بوقت قصير....

أوفي ، هل تدرك ما الذي اريد قوله ؟

فنظر أوفي نظرة ثابتة ، قاسية .

ـ لا يوجد الا رجل واحد باستطاعته استخدام الجيش بهذه الطريقة . ولا يوجد الا كرش واحد يبلغ من الضخامة الحد الذي يمكنه ابتلاع كل ما يخص الاجانب في كروس ـ ريفر . انه زاكي آموري .

ـ اعلم ، وسيكون هناك شيء ما بالنسبة الى جميـع المؤمنين . لكن ، فقط ، بعد أن يكون قد اختار .

فلوى زاشي يديه من شدة الضيق .

ـ لنغادر ، يا أوفي .

لكن أوفي هز راسه ، مفتشا عن طريقة تجعله على بصيرة من الامر .

ــ أجل ، ربما ، فنحن بلا شك غير مستعدين لمواجهته . لكن علينا في البداية ان نتأكد .

أمام حاجز القاعدة الجوية جعلوهما ينتظران مدة تزيد على نصف ساعة . بعد ذلك اقتادوهما الى احد المكاتب ، وقد سددوا رشيشين الى ظهريهما . كانا خلال المائة الاخيرة من الامتار التي قطعوها بالسيارة قد احسا بشعريهما ينتصب على راسيهما ، عندما برزت طيوف ترتدي الزي العسكري ثم سددت رشيشاتها اليهما من وراء الاشجار مجبرة اياهما على التوقف فجاة ، آمرة اياهما باطفاء الانوار . اخيرا ارغما على النزول من السيارة والخضوع لتفتيش منهجي وقطع الامتار الاخيرة التي تفصلهما عن البوابة سيرا على الاقدام ، يخفرهما شخصان مسلحان ، وهما يشعران داخل نخاعهما الشوكي ، بوجود غير مريح لاسلحة مسددة عليهما . أمام البوابة دام الانتظار عشرين دقيقة ، بدت أطول من يوم كامل .

ــ الواقع كلهم ، عادة ، لطفاء هنا ، قال اوفي لزاشي وفي نيته ان يواسيه ، اذ لو كان هذا المكان ثكنة عادية للجيش لم نتمكن حتى من الوصول الى هنا . لكنهم في القوى الجوية لا يكفون عن التصرف كسادة لطفاء .

ــ انا لا أحب كثيرا السادة اللطفاء المسلحين .

ــ أعلم ، اعلم ، كان ينبغي أن نواجه مشاكل هنا .

اخيرا وصلت مكالمة هاتفية فأدخلوهما .

وفي المكتب الذي ادخلا اليه ، وجدا نفسيهما في مواجهة شخص مجهول طلب اليهما الجلوس باشارة مهذبة .

ــ أنا الملازم سايي .

فشرع اوفي يشرح ما كان يعتقد انه سوء تفاهم ، لكن الآخر ابتسم له ابتسامة أسى .

ــ أعلم انكما طلبتما رؤية النقيب ماغاري . لكنني آسف ، فقد مات النقيب ... قتل في المطار قبل ثلاثة ايام حين كان يحاول منع جماعة من الجنود من قتل مدنيين . واذا كنت قد فهمت جيدا ما قاله لي الحارس ، فأنتما من اصدقائه ...

ــ اجل ...

ــ انا آسف لكنني اسأل ان كان باستطاعتي أن افعل شيئا ، فقد كان النقيب ماغاري زميلا وصديقا في آن معا ، واذا كان باستطاعتي ان اقدم اية خدمة ...

لكن اوفي لم يستوعب الخبر الا بعد لأي .

ــ اذن ، فقد مات ، ماغاري ؟

لكن الضابط ظل صامتا . ثم امسك بيديه عصا كانت قد وضعت على الطاولة وبدأ يدورها بين أصابعه بهدوء ، بعدئذ قال :

ـ رجاله انفسهم هم الذين قتلوه . ونظرا لانه كان من كروس ـ ريفر ، فقد كان يأمل في أنه لن يلاقي صعوبة كبيرة في تهدئة اولئك الإوغادَ . لقد طلبوا اليه ان يتقهقر لكنه رفض وعند ذلك قتلوه . فسأل أوفي :

ـ والمدنيون الذين كان يحاول انقاذهم ؟

ـ أوه ، تستطيعان تخمين ذلك بأنفسكما . فقد ابيدوا حتى آخر طفل .

اذ ذاك نهض أوفي .

ـ نشكرك ، لكننا لن نضيع وقتك أكثر .

ـ اترغبان بشيء ؟ فقد قال لي الحارس أنكما اتيتما من ايلوزا بالسيارة .

ـ اوه الموضوع . . . اننا نفتش عن امرأة . امرأة اختطفها بعض الجنود حين هاجموا ناديا كانت تقدم فيه عرضا . انا متأكد أنك سمعت بها : انها ابنة الكاكاو . . . .

ـ اوه اجل ، انها امرأة جميلة جداً .

ـ نعم ؟

ثم تابع زاشي الحديث وقد احس انه وصل أخيرا الى السلطة التي تريد مساعدتهما حقا : كنت موجودا في النادي ، كانت جوقتي هي التي تعزف في تلك الامسية وقد قاموا بهجومهم ونحن في منتصف العرض . أخذوا يطلقون النار على كل ما يرونه . بعدئذ أخذوها ، الى « ماركيت ستريت » انها فيلا كبيرة . ولا يمكن للمرء أن يخطئها . فهي بيت فريد من نوعه . . .

فبدا الضابط مندهشا .

ـ البيت الكبير ، ماركيت ستريت ؟

ـ أجل ، وقد رصدته طوال النهار لكنني لم استطع فعل شيء ، فالشوارع لم تكن آمنة . . .

ـ أعلم ذلك .

ـ هل يمكنك مساعدتنا ؟ سأل أوفي بلهجة فيها الكثير من الالحاح . هل تستطيع فعل شيء ؟ اريد ان اعثر عليها . وانا على استعداد لتقديم أي شيء مقابل أن اعرف ما حل بها فقط .

فهز الضابط الشاب رأسه .

ـ اذن فهي فتاة الاعلانات ، فاتنة القاعدة كلها . . .

ـ اذن ، فقد سمعت بقصة الاختطاف ؟ قاطعه أوفي على عجل .

ـ نعم ، فنحن نعلم كل شيء عما يرتكب من أعمال مشينة .

ـ اتعرف مكان وجودها ؟

فنهض الضــابط .

ــ لم اكن اعلم ان لهذا البيت ضلعا في الامر .

ــ اسمع ، ســيدي النقيب ...

ــ ملازم ، صحح الآخر وهو يبتسم ، فتابع زاشي :

ــ حسن ، سيدي الملازم ، انت لا تدري الى اية درجة الامر مهم بالنسبة الينا واذا كان باستطاعتك فقط ان تكلف رجالك بالمهمة لا لشيء الا لمساعدتنا في اكتشاف...

لكن عيني الضابط الشاب كانت تنتقل بين الرجلين ، فأحس اوفي بانقباض في قلبه وهو يقرأ فيهما الشفقة .

ــ قد يحتاج الامر الى شهور ، ان لم نقل سنين قبل أن يتعرف المرء الى كروس ــ ريفر وذلك يتضمن ...

لكنه قطع كلامه فجأة ، مستأنفا باتجاه آخــر :

ــ هل أستطيع السؤال ... ترى هل توجهتما الى جهة اخرى قبل مجيئكما الى هنا ؟ هل سعيتما بحثا عن معلومات في مكان آخر ؟

ــ لقد ذهبنا الى المفوضية المركزيــة .

فأطلق الضابط زفرة .

ــ وقد قدمتما لهم على ما اظن ، كل المعلومات التي قدمتماها لي لتوكما .

ــ كلا ، لم نقل كل شيء ، لم يكشف زاشي أنه هو الشاهد العيان .

فبدا على الضابط ، وعلى نحو واضح ، أنه ارتاح كل الراحة . بعد ذلك ساوره القلق من جديد .

ــ مع ذلك ...

فقاطعه اوفي بنبرة كلها هدوء .

ــ سيدي الملازم ، لقد أتيت الى هنا كي أرى ايرييز من جديد .

ــ أعرف ، والخدمة الوحيدة التي استطيع أن أقدمها لكما ، صدقاني ، هي أن أقدم لكما خفراء يخرجونكما من كروس ــ ريفر دون خطر .

ــ ليست هذه هي المساعدة التي أبحث عنها .

ــ كلا ، لكن اقبلا اقتراحي ، قبل أن يفوت الاوان .

فنهض اوفي ثم اقترب منه سائلا دون مواربــة :

ــ من يملك هذا البيت الآن ، ملازم سايي ؟ ومن الذي ذبح مالكيه ؟

ــ أوه ! هذا لا يفيدك في شيء . ثم ان هذا لا يعنيك على ما أعتقد . فاقتنع باتبــاع نصائحي .

ــ في هذه الحالة مستحيل ... قال ثم مد يده .

ــ شكرا لك على كل حال ، قال اوفي وهو يشد على يده كما فعل زاشي الشيء ذاتــه وقد بدا عليه الضيق ، فيما بدا عليه وكأنه يود أن يرجو الملازم عله يرسل مــن يخفرهما ثم يخرجهما من المدينة بالقوة . لكن الضابط كان منشغلا تماما بمرافقتهما الى الباب حيث فوض أمرهما الى الحرس وعاد الى مكتبه وهو ينحني موجها اليهما تحية أخيرة سريعة .

وما إن خرجا حتى اخذ زاشي يتأوه .

ــ لقد ماتت يا اوفي ، احس بذلك في عظامي الآن . انها ميتة بالتأكيد .

فنفى أوفي ذلك بحركة من راســه .

ــ بل هي على قيد الحياة ، انا متأكد من ذلك .

ــ تبدو وكأنك لا تعرف سيليست . لا بد انها أزعجتهم الى اقصى حد ، زعران جيكو الكارتل أولئك ، أزعجتهم الى درجة اضطروا معها لتهدئتها بقتلها . اضافة الى ذلك ، كانت البنت مريضة قبل أن يحدث ذلك كله . كانت حرارتها مرتفعة جدا طيلة اليوم الذي سبق تلك الامسية . آه ! كم أتألم عندما افكر أنه كان علي أن أرغمها على البقاء في الفندق !

ــ كانوا سيذهبون للبحث عنها هناك ، والآن علينا ان نجدها ، فأين نذهب ؟

ــ الى بيتنا . سنرحل من جديد نحو الجنوب ، يا عزيزي . فليس لدينا هنا ما نفعلــه .

ــ بل سنقوم بجولة في المدينة ، نذهب فيها الى الحانات الليلية نسمع ما يقوله الناس . لكن عند محرس البوابة ، أوقفهما الحرس .

ــ ايكما هو السيد اوفي ؟

فتقدم أوفي :

ــ الملازم يرغب بالتحدث اليــك .

ثم مد له الهتاف من الكوة المربعة ، فبلغه صوت الملازم .

ــ أانت السيد اوفي ؟

ــ نعــم .

ــ هل تعرف ضواحي المدينة جيدا ؟

ــ جيــدا تمامــا .

ــ على طريق المطار ، وعلى بعد ستة كيلو مترات تقريبا من مخرج المدينة ، ثمة طريق يؤدي الى منشأة زراعية ، انت تعلم تلك المزارع التجريبية التي أصبحت مزارع نموذجية ؟ أعتقد ان هذه جاءتنا من لدنكم ، من الجنوب ، هناك مكان يدعى آيرو .

ــ نعم ، اعتقد انني اعرفه .

ـ حسن ، حسن ، اذا سلكتما الطريق وتابعتماها عدة كيلو مترات ، فستجدان بعضا من تلك . . . من تلك . . . الكنائس المسيحية المحلية . ثمة كنائس من هذا النوع في كل مكان تقريبا ، كنائس يبلغها الانسان عادة بدروب صغيرة . حسن ، في كنيستين من تلك الكنائس ثمة ناجون مختبئون وانني اقترح عليكما الذهاب للبحث هناك .

ـ شكرا جزيلا ، سأفعل ذلك .

ـ انتبها عندما تذهبان الى هناك . فهم عصبيون جدا ، كما تعلمان ، وهناك عدد غير قليل منهم مسلحون يمكنهم الدفاع عن انفسهم . وبالطبع عليكما أن تتصرفا بطريقة لا تلفت انتباه مطارديهم .

فوعد أوفي باتخاذ كافة الاحتياطات الضرورية .

ـ من الواضح انكما تضيعان وقتكما ، لكنني أعتقد انه لن يكون عبثا أن يقولوا لكما الى أي حد ، عقيمة مساعيكم . على كل حال هم يدركون جيدا ما يتحدثون عنه واذا كنت قد فشلت باقناعكما ، فقد يتوصلون هم الى ذلك .

اراد اوفي ان يشكره ، لكن الآخر اوقفه في الحال .

ـ لا ، لم يكن هناك سوى حلين . هذا الحل او انآمر رجالي باخراجكما من المدينة بالقوة فأنا أشعر انني مسؤول عن أمن أصدقاء ماغاري كلهم .

* * *

ـ لقد بللت سروالي ، عندما خرج ذلك الرجل وسأل أيكما أوفي ، قال زاشي ، بعد ذلك ساورني الامل في أن ذلك من أجل اعتقالك وارسالك خارج المدينة .

ـ لقد فكر في هذا ، انا متأكد من ذلك ، لكنه غير رأيه .

ـ اذن ما الاتجاه الذي ستتخذه الآن ؟

ـ نفتش عن كنيســـة .

ـ كنيسة ؟

أوقف أوفي السيارة في قلب الطبيعة ثم نزل منها واخذ ينظر في جميع الاتجاهات وهو يتمتم « ليس هنالك ما هو أشد غموضا . . . » . بعدئذ صعد الى ظهر السيارة في حين كان زاشي ، الذي ظل في الداخل ، يأمل في سره لو انــه على بعد الف كيلو متر من هناك . أخيرا نزل اوفي ثم فتح باب زاشي قائلا .

ـ اعتقد أن علينا أن نقطع ما تبقى من الطريق سيرا على الاقدام .

فزفر زاشي زفرة طويلـة :

ـ قل لي فقط ، هل تعلم اين نحن ؟

ـ لنسر ، هيـا .

خرج زاشي من السيارة مستسلما متأوها ، وقد بدا له أن ما يفعلانه حينذاك هو أسخف ما فعلاه حتى تلك اللحظة : انه التخلي عن الامان الذي توفره السيارة في مكان تفوح منه ، بكل وضوح ، رائحة الجريمة . وهكذا سار وقد ادخل رأسه بين كتفيه لتلقي الضربة الاولى التي سيكون من شأنها أن تعيدهما الى حسهما السليم . .

ـ هل سمعت في حياتك بذاك الذي يدعوه الوينبو (١) عهد الانتحار يا معلمي ؟

ـ ثمة اناس في الناحية ، يا زاشي ، لكنهم من أولئك الذين اعتادوا أن يروا فارين آخرين وهم يأتون .

قام زاشي بقفزة في الهواء ثم ترنح وكاد يسقط اذ كان أوفي قد دفعه جانبا على نحو مفاجيء ، ثم أشار باصبعه الى شيء عند أقدامهما ، طار عنه للتو سرب من الذباب الهائل الحجم .

ـ كدت تدوس على هذه القذارة .

عاد الذباب ذو الطنين الهائل كما عادت آلاف الحشرات الاخرى فحطت على الجيفة من جديد وحسب كل المظاهر كانت تلك بقية حيوان . لكن حين ابتعدا عاد السكون فخيم على الدرب حيث كانت الادغال تنفرج ثم تنغلق عليهما من جديد .

فجأة توقف العشب مخليا المكان لمنطقة محروقة تمتد الى مسافة ما ، فسحة واسعة من الرماد الاسود والرمادي تتطاير فيها ندف من السخام . هناك كان العالم يمتد محروقا ، جامدا ، قاحلا . وقبالة المشهد كانت تنتصب شجرة باو باب وحيدة يابسة ضامرة . اذ كان جذعها يرتفع عريضا أملس قليلا ثم يبدو وكأنه عانى من تخلف في النمو ، اذ كانت الحدب والانتفاخات والالتواءات تعطيك انطباعا بأنه أصيب بالكثير من أمراض الانسان : هزال ، خرع ، فقر دم ، سوء تغذية والعديد من أمراض الغدد الدرقية . كان البطن المتضخم في وسط الجذع يدفع بسرته المجعدة نحو الافق الاسود ، ومن الاكتاف المشوهة المتوازنة فوق الصدر الامسح كانت تخرج جذول متلوية . وهناك حيث يتوقع الانسان أن يرى رؤوس الاغصان الدقيقة وهي تشمخ نحو السماء بحفيفها وصفيرها ، كانت تبرز السنة متشعبة مفعمة بالتحدي وهي تحمي بسمها ما لا يعلم احد من كنوز غامضة تخفيها تلك الشجرة التي يزعمون انها شجرة الحياة ، رغم انه لم يكن في ذلك البروز المهزول من شيء يستدعي الحماية .

حين بلغا نهاية الفسحة القاحلة توقفا ، اذ كانت قد بهرتهما كليهما شجرة الباوباب . هناك بدأ زاشي يحرك أصابعه حول رأسه مفرقعا بها وكأنها تعزيمة أورقية :

ـ بامكانهم تماما أن يسموا الباوباب شجرة الحياة الخاصة بهم .

---

(١) البيض بلغة اليوروبا .

ـ لكنني انا لا أجدها الا رمزا لسوء الطالع ، فقال أوفي :
ـ لنستمر .
ـ اسمع ، يا معلم ، لنجلس ولننظم عملنا كما يجب . ترى لماذا لا نعود بكل بساطة الى عالم الحضارة ، نتناول وجبة جيدة ، ثم نخرج احد السكان المتعاطفين من جحره ونعود معه الى هنا ؟ في الحقيقة ، نحن لم نجيء الى هنا بطريقة علمية . فالح أوفي :
ـ الكنيسة قريبة بلا شك .
ـ لكن من الذي أحرق العشب هنا ؟ هم أم نحن ؟ ولماذا ؟
ـ نحن ولا شك . اذ لا أثر لبناء محروق ، كما ترى . ومن المستحيل أن تكون عصابة القتلة هي التي اكتشفت المخبأ وهي التي أضرمت النار فيه . لعل الهاربين هم الذين اضرموا النار .
ـ لكنني لا أرى سببا لذلك .
ـ السبب هو كيلا يستطيع احد الاقتراب منهم ومهاجمتهم بشكل مفاجيء . لهذا ، لا بد من أن تكون الكنيسة في مكان ما خلف هذه الارجاء الواسعة من الادغال . وأنا متأكد من انهم وضعوا حراسا ، وانهم سيروننا نجتاز المنطقة المحروقة .
ـ اذن ، في اي اتجاه نمضي ؟

فأمسك أوفي بيده ثم جذبه نحو المكان الذي كانا مختبئين فيه . وحين وصلا شجرة الباوباب توقف زاشي ثم استند الى الشجرة وخلع نعليه .
ـ أيزعجانك ؟
ـ ساعدني في تسلق هذا المخلوق الشنيع ، واذا ما استطعت أن أضع قدمي على هذا النتوء سيكون باستطاعتي الصعود حتى الاعلى ، فالفأل السيء يداس بالاقدام .

فهم اوفي مقصده على الفور فرفعه الى برج المراقبة . بعد ذاك نظر اليه وهو يتفحص بناظريه المنطقة المحيطة . اخيرا أعلن زاشي بنبرة الضجر :
ـ ليس هذا بناء واحد على مدى البصر .
ـ انت تنظر الى البعيد البعيد ، فحاول أن تنظر الى الدغل القريب . الا تلاحظ وجود درب أو شيء يتحرك ؟ لا تنظر الى ذلك الافق السيء ، يا عزيزي .

حاول زاشي من جديد ، ثم أشرق وجهه فجأة :
ـ ساعدني في النزول ، فأنا اعتقد انني وجدت شيئا . (وهبط الى أن بلغ كتف أوفي ثم قفز على الارض وبدأ يلبس حذاءه من جديد .) نعم ، أعتقد انه هناك ، تماما حيث توجد اشجار ليمون ، او شيء من هذا القبيل وسط الدغل . لنمض الى هناك .
ـ هل رأيت شيئا يتحرك ؟

ـ كلا ، كلا ، فقط أشجـار الليمون . بعد ذاك ، تابعا سيرهما يسبحان سباحة ، وقد هيج جلديهماالغبار والرماد وأشواك الاغصان التي لا تعد والتي كانا يكسرانها وهما يمران ، ثم سارا ثمانين مترا على الدرب الذي كان ممحوا تقريبا ، وفجأة وجـدا نفسيهما أمام سياج واطيء في وسطه تنتصب كنيسة بنيت من اللبن المطلي بالاصفر والابيض والى الخلف قليلا كان بامكان المرء أن يرى مقبرة معتنى بها جيدا أما يحيط بها فكان قاحلا تماما .

بعد ذلك انفرج الدغل خلفهما مباشرة وخرج من كلا الجانبين أربعة رجال اثنان منهما مسلحان ببندقيتين والآخران بساطورين .

ـ ماذا تريدان ؟ سـأل اقربهم .

فاكد اوفي :

ـ نحن أصدقاء .

لكن الآخرين كانوا ما يزالون ينظرون الى ذينك المجهولين ، فثار زاشي صارخا :

ـ عجبا ، الا ترون اننا لسنا من كروس ـ ريفر ؟

ـ ما اسماكما ؟

فأعطيا اسميهما .

ـ اين ولدتمـا ؟

ثم بدؤوا يجرون استشارات طويلة ؟ أخيرا قال رئيسهم :

ـ ليس هذا الاجراء لاننا نرفض الاعتقاد بأنكما من هذا البلد الملعون ، بل لانه كان بيننا خونة ، اناس حاولوا شراء حياتهم وأملاكهم بخيانة جماعتهم . وكثيرون هم الذين فعلوا أشياء غريبة . فماذا تريدان ؟

ـ نفتش عن أصدقاء .

فساد صمت آخر فيما كان الناطق باسم الجماعة يتابع مراقبتهما . بعد ذلك اشـار الى مرافقيه ، وهو يضيف على سبيل الايضاح للدخيلين .

ـ اذن ، لا بد من عصب عيونكما . فهذه الكنيسة ليسـت مخبأنا الحقيقي (وتركاهم يعصبون عيونهما ، بينما لم يكف الرئيس عن الكلام .) ونتوقع أن تكونا على اتم الاستعداد للتو . حينذاك سنقوم برحلة طويلة سيرا على الاقدام ، نعبر بها النهر ثم الغابة ، اذ اننا لم نعد نثق بوسائل النقل العامة وضمانات الامن ، فأحد معسكراتنا صدق أقوال الاذاعة بأن النظام استتب وذهب من فيه جميعا الى المطار كي يذهبوا بالطائرة الى مكان آمن لكنهم أبيدوا هناك عن بكرة أبيهم .

فقال زاشي :

ـ علمنا بذلـك .

ـ كان ينبغي الا يصدقوا تلك الاكاذيب . لقد قدم رؤساؤهم الى هنا ولقد حذرناهم ، لهذا ، الافضل أن نشق بالغابة فقط وأن نشق طريقنا ونحن نقاتل اذا ما صادفنا قرى في طريقنا . فالحيوانات المفترسة أرحم بكثير من بنات آوى البشرية تلك التي عرفناها لتونا . كذلك كان على الآخرين ان يسمعوا نصيحتنا .

تحركت المجموعة ، بعد ان تأبط احد الرجال كلا من أوفي وزاشي كي يساعدهما في السير اذ كان يطلب اليهما ، حين يقتضي الامر ، ان ينحنيا أو يرفعا أرجلهما . وصلوا الى مستنقع صغير موحل فعبروه بمعدية ثم قطعوا اطرافه بقفزهم فوق جذوع اشجار مقطوعة . وبعد ثلاثين دقيقة من تلك المسيرة غير المنتظمة ، توقفوا ، ثم شعروا بأيد تلامس وجهيهما ثم تنزع العصابتين عن عيونهما .

طرف زاشي بعينيه . ذلك ان ما وقعت عليه انظارهما لم يكن بالامكان الاستنتاج الا انه معسكر حصين . وكانت تحيط بهما أوجه معادية من كل جانب . اخيرا سأل احد الرجال الذين أسروهما : « هل ينبغي اخذهما الى كوخ العجوز ؟ » حدثت اشارة غير ملحوظة بالراس وفجأة دفع الاسيران من جديد نحو ملجأ لم يكن سوى كوخ حقير بني على ما يبدو من أجزاء وقطع مختلفة ثم غطي بالقنب المشمع . « انتظرا هنا » . قال أحد مرافقيهم ثم دخل الى الكوخ حيث سمعا نتفا من حوار منخفض . في الداخل ، كان ثمة عجوز يجلس وحيدا وكان محني الرأس كما لو انه يفكر ، أمامه طاسة من الذرة المسلوقة وصحن من الفول السوداني ولم يكن ثمة أثاث . الاثاث الوحيد كان حصيرا يجلس عليه العجوز ، أشار اليهما ان يجلسا عليه ، بعد ذلك قام بحركة غريبة فوق الطعام ثم غمغم :

ـ الفداء مقدس .

فانقطعت أنفاس أوفي لذلك ، وفي الحال رفع رأسه فرى أمامه وجه آهيم الذي كان يحدق الى عينيه مباشرة . بعد ذلك تناول العجوز عرنوسي ذرة ثم قدمهما الى ضيفيه قائلا :

ـ جربا هذه الذرة .

أخذا الذرة وشرعا يأكلان وهما غارقان في افكارهما ، بعدئذ عاود العجوز الكلام . . .

ـ بعثت رسالة الى صديق مشترك للبحث عنك في ايلوزا . كان عليه أن يقول لك انني ذاهب الآن الى كروس ـ ريفر ، وكان لدي بعض الامل في أن يدفعك ذلك للعودة الى آيبرو ، حتى ولو لم يكن ذلك الا من أجل اهتمامك بالجماعة خلال غيابي .

ـ لقد غادرت ايلوزا مذ عاد زاشي بالاخبار ، (لكنه توقف فجأة وقد احس بشيء من سخرية خفيفة كانت قد تخللت صوت العجوز) فسأل : صديق مشترك ؟.

ـ اجل ، سبق ان التقى بك مرة واحدة ، باختصار ، هو أيضا كان قد غادر الى كروس ـ ريفر، فانتظر أوفي لكن آهيم لم يضف شيئا بل سأل :
ـ اي انطباع يتركه معسكرنا في نفسك ؟ فرد أوفي باستحسان واضح :
ـ أنا لا أصدق عيني ، من الذي نظمه ؟
ـ صديقنا المشترك (واتسعت الابتسامة الخفيفة التي كانت تطوف على شفتي آهيم) باستطاعتك الآن ان تخمن ، بالتأكيد .
ـ واحد من شاج ؟ لقد تعرفت الى بعض العمال هناك ، عمال من هيئة المناجم .

فهز آهيم رأسه بالنفي .
ـ ليس ثمة سوى رجل واحد يملك القدرة اللازمة لتنظيم أمن معسكر معرض للخطر كهذا المعسكر .

وفجاة عاد الاسم ، الذي لم يكن بالامكان تذكره الى شفتي أوفي .
ـ اليس هو طبيب الاسنان ، رغم كل شيء ؟

فأقر آهيم .
ـ انا لا اعرفه بهذا الاسم الذي اكتسبه مؤخرا . دوماكان ، هذا هو الاسم الذي ظللنا ندعوه به في آيرو . والآن علي أن اطلب المغفرة لخداعي لك هذه المدة الطويلة . فلقاؤكما في الخارج لم يكن مصادفة . وما حدث بينكما كليكما ، هو من شأنكما ، لكن ، كل مرة كنت ترسل لي فيها بطاقاتك البريدية ، كنت أكتب الى اولادنا الموجودين حيث أنت من العالم كي يشرعوا في البحث عنك ولم يكن دوماكان الا واحدا منهم ، وقد كان هناك الكثيرون .

ابتلع اوفي الخبر ببعض الامتعاض ، فانطباعههو أنه لم يكن بأي شكل موضع دراسة لدى الرجلين . ولعل آهيم خمن أفكاره اذ اضاف :
ـ انه كتوم للغاية بحكم العادة ، ولعل ذلك نابع من تكوينه ذاته فقد كتب لي انه التقى بك ، لكنه طلب عهدا مني الا احدثك عن روابطه بآيزو وبي انا . انه دائما يتصرف على هذا النحو .

حينذاك تذكر اوفي نقطة صغيرة من بين الامور النادرة التي كان طبيب الاسنان قد كشفها له ، فسأل آهيم .

ـ هل كان يكذب حين قال لي انه ولد في ايرلو ؟
ـ كلا . فهو ، مثلك جاءالى آيرو من العالم الخارجي . لكن جماعتنا عملت على أن تجعله يغادر البلد . والمرة الاخيرة التي سمعتهم فيها يتكلمون عنه ، كان على وشك الالتحاق بأحد جيوش التحرير . أخيرا جاء اليوم الذي هرب فيه الىأوروبا ومن هناك كتب لي قصته المريرة للغاية ثم طلب مني اخبار البلد .

قطعت ضجة القادمين الجدد الذين كانوا يدخلون المعسكر حديثهم ، فقال آهيم :
ـ اعتقد انه عاد .

احنى رجل ذو شعر نحاسي ظهره وهو يدخل الخيمة ثم تجمد لدى رؤية اوفي . وللحظة من الزمن راح واحدهما يتفحص الآخر دون أن يقول كلمة واحدة . بعد ذلك ابتسم طبيب الاسنان ابتسامة عريضة ثم دخل ، فتراجع زاشي قليلا مفسحا له مكانا كي يجلس على الحصيرة .
ـ كنت اسأل نفسي كم يلزمك من الوقت كي تكتشفني ، فرد أوفي :
ـ تعني كي اكتشف من أنت ؟

فاستدار طبيب الاسنان فجأة نحو العجوز الذي اكتفى بهز كتفيه .

فمد طبيب الاسنان ذراعيه .
ـ حقا ، كان عليّ أن اقول لك ذلك منذ وقت طويل ، فوافق أوفي :
ـ ذلك غريب ، فأنالم أتخيل قط انني سأقابلك في كروس ريفر .
ـ جئت الى هنا في محاولة لانهاء أنشطة اربعة من الرجال : آموري ، باتوكي، بيغا ورابعهم ذاك الكومبارس الذي يرتدي الزي العسكري . كانت تلك هي المرة الاولى التي كان بامكاننا أن نراهم هم الاربعة مجتمعين لوضع آخر تفاصيل الاهوال التي نعيشها اليوم ، ولا حاجة للقول اننا قد فشلنا .
ـ ماذا جرى ؟
ـ ثمة من خاننا ، فقد نصبنا كمينا على الطريق الذي كان من المقرر ان يمروا به بعد اجتماعهم . وكانت المعلومات صحيحة كلها : الساعة ، خط السير ، المكان . لكن قبل مرور الموكب تماما اتت طائرة هيليوكوبتر وأخذت تدور فوق رؤوسنا وهي تفتش وتفتش .
ـ وماذا بشأن هذا المساء ؟ سأله آهيم ، ماذا قررتم ؟
ـ يمكن القيام بذلك (واستدار نحو اوفي) لا بد من بعض الاسلحة الاضافية كي نضمن الدفاع عن أنفسنا . لقد ذهبت للتو واستطلعت مستودع أسلحة للشرطة ، سنهاجمه هذا المساء . فهل تتكرم بأن تمد لنا يد العون ؟

لكن آهيم سارع الى الرد :
ـ لا ، ثمة شيء آخر يشغل أوفي .
ـ آه ! أجل ، بالتأكيد . البحث الواسع عن امراة (ثم خيم صمت ينم عن الضيق قطعه طبيب الاسنان نفسه بسؤاله) :
ـ قل لي لماذا ترى الامر مهما الى هذا الحد ؟ اقصد انك قمت بأمور انتحارية حقا ونحن نعلم ذلك .

فرد له اوفي نظرته بنظرة نفاذة ملأى بالصراحة .

ــ كل امرىء يعمل في المجال الذي يتفوق فيه ، هل تتذكر ؟

ــ عاطفي ، قال طبيب الاسنان الذي كان يتذكر ، فأضاف أوفي :

ــ لكن ليس هنــاك الا هذا ، وانا مقتنع أن العالم كله يحس بالحاجة لان يدرك هو نفسه فداحة ما يجري في هذه الآونة ، هول المرحلــة التي يجري فيهــا هــذا ، وربمــا كنت أشعر في أعماقي أن ذلك البحث سيوضح لي دلالة الاحداث ويقدم لي فهما جديدا للتاريخ .

هنا ، استدار طبيب الاسنان نحو زاشي .

ــ وصديقك ، ما رأيه بذلك ؟ هو معــك بصورة دائمة تقريبا ، أليس كذلك ؟

فهز زاشي راسه بشدة .

ــ كلا لا تسألني شيئا ، لقد فقدت نصف جوقتي في واحدة من الهجمــات الاولى . وقد رأيتهم يخطفون سيليست ، فما الذي كنت أستطيع فعله ؟ أن أجلس وأموت اشفاقا على نفسي ؟

بعد تلك الفورة شرع كل منهم يتحاشى نظرات الآخر محدقا الى جدران الخيمة أو الأرض ، بينما أخذ اوفي يقضم الذرة غاضبا .

فحاول آهيم أن يبعد أذهانهم عن ذلك الغم .

ــ مشروعنا الآن هو أن ننقل المعسكر الى أقصى أعماق الغابة ، وأن نلحــق بالنهر عند التقائه بالرافد الآخر ثم نسير معه الى أن نبلغ البلد . فهذه ، بالنسبــة الي ، عملية تطهير : تغسل انسانيتنا الملوثة ، وتشفي الناجين منا من خطر الشفقة على أنفسهم .

ــ أنا أصر ، قال طبيب الاسنان ، على أن تعتبر منذ البداية تدريبا حقيقيا على خشونة الحياة ، فالفكرة التي تقوم عليها آيرو هي العودة الى الينابيع ، لكن على أن تكون العودة أكثر تصميما ، فقل لي يا أوفي اذا ما وجدتما هذه المرأة في وقت مبكر ترى هل ستنضمان الينا في هذه العودة ؟

ففكر أوفي بسرعة .

ــ لا أدري في أية حال سنجدها .

ــ حتى لو كانت مريضة أشد المرض ... فان بامكاننا أن ننتقل بسرعــة كبيرة ، وأيا كانت الارض ، ناقلين معنا جرحانا .

ذلك السؤال كان ، على ما يبدو ، بالغ الاهمية بالنسبة لطبيب الاسنان دون أن يدري أوفي سببا لذلك فشرع يتفحص وجهه عله يجد عنده الجواب فيما كان آهيم ينظر اليهما معا بكثير من الدقة ، وفجأة قال زاشي :

ــ ربما تكون قد ماتت .

ـ في هذه الحالة نصطحب جثمانها معنا ، قال طبيب الاسنان .

واذا كانت نيته من كلماته تلك هي أن يصدم الآخرين ، فان ردود الفعل التي اثارتها أبدت انه أفلح في ذلك تماما . لكنه لم يعر أي انتباه للتأوهات المكتومة بل تابع بهدوء .

ـ كلا ، أنا لا أبادل مكاني بمكان رجل الكاكاو الموجود هنا ، والذي يلتقط رموزه من المواخير ، لكن لا بد من قبول هذا الدليل : فالقوادون والبغايا واللصوص وآلاف المجرمين الآخرين هم الطليعة المألوفة لجيش التغيير . وعندما تحين الساعة فان امرأة كايرييز قد تصبح بالنسبة اليهم شانتال ديبورا ، مشعلا ، حاملة علم ، مثلا أعلى لانتفاضة عامة . والتخلي عما يحتمل أن يغدو سلاحا من هذا النوع في نضالنا ، قد يكون نوعا من الافتقار للحكمة أو الخيال .

ثم نهض بعد أن حشا جيبه بقبضة من الفول السوداني .

ـ علي أن أهتم بأمر ملح ، ولعل بابا آهيم لم يخبركم حتى الآن ، لكنني اقول لكم نحن أيضا بذلنا كل جهد لايجادها . وعلينا أن نكمل بعضنا ، حتى بعد أن نجدها . أما أنا فتشغلني الآن استراتيجية المستقبل .

ـ وماذا حصل لاستراتيجية الحاضر ؟

ـ الدينا استراتيجية فعلا ؟ كل ما أعرفه هو أن الرجال الاربعة الذين كان ينبغي أن يكونوا أمواتا في هذه الساعة ، أفلتوا من أيدينا .

بعدئذ قال طبيب الاسنان لاوفي وهو يمد له يده .

ـ ربما سنجدها قبلكما ، لكن بها أو بدونها ، آمل أن تقوما بهذه المسيرة معنا ،

فشد أوفي على يده دون أن يقول شيئا . أما آهيم ، فقد ظل ، بعد ذهاب طبيب الاسنان ، ينظر الى الارض صامتا . بعدئذ تنحنح ثم وضع يده على ركبة أوفي .

ـ أرجو ألا تعتقد أنني أتمنى الاسوأ علك تضع نهاية سريعة لبحثك ، لكن ... من الافضل أن تبدأ بالاسوأ ، ترى ... هل ذهبت للبحث عنها في معرض الجثث المجهولة ؟

* * *

« ١٢ »

ـ لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث .

وكانوا قد تجاوزوا جناح المصابين بالحوادث ، ثم ساروا بمحاذاة صفوف من المختبرات المسبقة الصنع التي تحيط بها مروج خالصة لا أشجار فيها ، يتصل بعضها بالبعض الآخر بممرات . بعد ذاك سلكوا واحدا من تلك الممرات ثم تابعوا دوراناته وانعطافاته ، كما قاوموا تأثير الثقالة عندما تعين عليهم أن يهبطوا منحدرا خفيفا . كانت جدران النفق تزداد سماكة كلما توغلوا فيه أكثر وأكثر وكانت جدرانا مكسوة بالاميانت الرمادي .

ـ لم يعد ثمة مكان على الاطلاق ، كرر الطبيب الذي كان يرشدهما ، فقد امتلأ خلال وقت لا يذكر .

وأمام باب من الرصاص والقصدير ، اخرج الطبيب مفتاحا أدخله في القفل فانفتح الباب بلطف . . . وكانت هناك أبواب أخرى ، اجتازوها فوجدوا أنفسهم في نفق جديد ، نفق ساكن ، خانق ، مرهق . كانت كلمات الطبيب تشكل ايقاعا للازمة رتيبة ظلت تتردد في رأس اوفي . . . لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث . . . لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث . . . لم يعد ثمة مكان في النزل . . .

اخرجوا ، اخرجوا ، قال صاحب النزل
صافقا الباب بوجه المسيح .
خذا أسمالكما ، سيد يوسف ، سيدة مريم
واستردا ذلك الطفل ذا العينين الساحرتين
فلم يعد ثمّة مكان في معرض الجثث .
في معرض الجثث . . . . . .

ـ ليس بسيء ، ليس بسيء ، سمع أوفي الطبيب يغمغم ، وكان في صوته برود عذب لكنه ثقيل بدا وكأنه ظل معلقا في جو الموت .

ـ ما الشيء الذي ليس بسيء ؟ سأل أوفي الذي لم يكن قد غنى اغنيته بصوت مرتفع . اذن فالطبيب لم يكن يتحدث عن ذلك بالتأكيد .

ـ لا تبدو عليكما هيئة العصبيين المتوترين ، شأن معظم الناس الذين يدخلون معرض الجثث للمرة الاولى .

ـ كلا ، بل الحقيقة انني انتهيت لتوي من تأليف انشوذة (وتوقف) ما أغرب ذلك ! فقد مر ما يقرب الاسبوع لم أدندن خلاله نغما واحدا .

فالتفت الطبيب اليه :

ـ عجبا ! عجبا ! أمر مثير للغاية .

ـ كلا ، الواقع ان عبارتك « لم يعد ثمــة مكان في معرض الجثث » هي التي اطلقت هذا . فقد تذكرت رحلة قمت بها في أوروبا منذ وقت غير بعيد ، كما تذكرت عددا من أصحاب الفنادق الذين حاولوا ان يجعلوني اعتقد انه لم يعد لديهم مكـان .

ـ آه ! مررت بالتجربة اذن ؟ قال الطبيب متأوها . فرد اوفي :

ـ كيف لا !!

بعد ذاك قادهما الطبيب حتى الباب التالي ثم قال :

ـ ما هي تلك الانشودة ؟ بودي أن أسمعها .

ـ لا علاقة لها بما حدث لي في أوروبا . فقد مر ذهني مباشرة باندفاع حيرود الجنوني ، ومن هناك انتقل الى تلك العبارة : لم يعد ثمة مكان في الفندق . فقال زاشي :

ـ هاه ، اراهن أن ذلك صحيح . ترى هل ينبغي أن أعرفك بهذا الرجـل يا دكتور ؟ ان كلمة واحدة معه تكفي لتأليف أغنية ، تماما كزيت الخروع الذي تستخدمه لاخراج دودة وحيدة . مع اعتذاري الكامل على هذا التشبيه يادكتور... لكن صوته اختنق عندما لاحظ تكشيرة الطبيب .

ـ وتلك الانشودة ، ماذا تقول ؟

فتكلف اوفي الابتسام .

ـ انه للطف منك أن تحاول تحويل انتباهي عما شاهدته خلف ذلك الباب . لكنني أؤكد لك أن ذلك غير ضروري . فقد قمت بذلك بنفسي ، الفت قصيدة كي أبعد ذهني عنه ، ذلك ما فعلته .

ـ لا ، أبدا ، لا ، أبدا ، رد الآخر محتجا ، بل هي متعة خفيفة اقدمها لذاتي وربما ذلك كي أساعد نفسي بغية الاحتفاظ بوضع طبيعي في هذا المكان اللعـين . لقد رددت في سري انشودة ميلاد ، فما اغرب ذلك ! بعدئذ تساءلت : ترى هـل يكشف هذا عن شيء ما ؟ هل انت من اولئك الذين يقوم ذهنهم غريزيا باعادة الدورة كلها من المهد الى اللحد ؟ فشيء كهـذا هو الذي يمنعني من التركيز على ما اشعر به فعلا .

بعد ذاك ، دفع الباب الاخير فاتحا اياه على مصراعيه ، فما لبثت طبقة من البرودة ان سقطت عليهم . بعدئذ وطئوا بأرجلهم بساطا من البرودة صعدت الى سيقانهم مجمدة الدماء في عروقهم . وعلى الفور أخذ زاشي يرتجف فاقدا السيطرة على نفســه .

ـ اجل ، الجو بارد هنا . ابدى الطبيب ملاحظته بلطف بالغ ، غير أن الرواق السابق يساعد الجسم على التأقلم نوعا ما .

ـ لم يؤقلم هذا شيئا لدى هذا الشاب ، ايها الطبيب .

بعدئذ مكث زاشي واوفي قرب العتبة وقد التصق واحدهما بالآخر ، وكأنهما لا يجرؤان على التغلغل اكثر في ذلك العالم المتجمد . اغلق الطبيب الباب من جديد ثم تقدم باتجاه الموتى : خمسة وضعوا على عجلة مزدوجة مستندة الى الحائط . فتبعه اوفي كالمنوم مغناطيسيا ، وعيناه مسمرتان على ذلك السلام الذي بلغ حدا من الكمال لم يصادفه البتة من قبل .

ـ انهم آخر الوافدين ، وقد كنا نأمل أن نتمكن من انقاذ الطفل ، لكن جهودنا ذهبت عبثا . (قال ذلك ثم هز كتفيه) . من ناحية اخرى لم يكن هذا ليغير شيئا . فأولئك الذين نجحنا في اخراجهم من المحنة اتى القتلة ثم أجهزوا عليهم رغم انهم كانوا على طاولة العمليات . (وبلا ضجة اتجه الى زاوية منصة من الاسمنت المسلح ، ثم كشف غطاء هناك) . شيء كهذا . وقد كنت فخورا بما قمت به ، فالقلب والرئتان كانت قد اخترقتها جميعا طعنات الحراب ، لكنني عملت على ضوء شمعة ونجحت بانقاذ ذلك الانسان . أجل ... أعترف أنني كنت فخورا جدا بتلك العملية .

لم يسمع الرجلان الا بالكاد كلمات الطبيب . فنظراتهما كانت قد تاهت وهي تقع المرة تلو المرة على الجمود الطاغي لكل ما يحيط بهما من أشياء ، جمود ثقيل ، ثقل الابدية تلك التي كان بالامكان قياسها تقريبا والتي كانت عالقة بأقل ضماد قطن كما كانت تضغط الهواء والضباب الرمادي المكون من ذرات الضوء الذي كانت الصالة مغمورة به . كانت درجة الحرارة تنخفض باستمرار ، وكانت الاجسام الحية تحس وكأنما وضعت عليها أيد باردة تمتص حيويتها في عالم من الموت الشامل. كانت القاعة مقسمة ببلاطات منتصبة من الاسمنت المسلح ، وكانت تمتد فيها على طول الجدران ، وتقطعها خزائن مقززة بالقصدير ملأى بمواد اختبار ، برفوف وقوارير ملأى بسوائل واعضاء انسانية . وعلى البلاط كانت هناك بعض الاجسام التي فتحت من قبل وكان بامكان المرء أن يرى هنا وهناك أدوات دقيقة ، مشارط ، ملاقط أجنّة مطلية بالكروم ، أنابيب زجاجية وحقنا تحت جلدية .بعد ذلك كانت تأتي أدوات المهنة الكبيرة : سواطير ، مناشير معدنية ، فرامات ، موازين ضخمة . وكانت ثمة أكباد رمادية متصلبة ونخاعات متجمدة . أما المخ فكان نيزكا ساقطا : فوهات ، قمما ، شبكة أقنية للري تشكل عالما أصغر من العالم الذي قدم منه .وكان هناك قلب محاصر في عزلته المطلية بالبرافين في أعلى خزانة مزججة ، حلية جنائزية فوق جسم ممدد ، ليس على سرير استعراضي ، بل على شكل قطع .

احس اوفي بنظرة الطبيب ، فرد له نظرته ، حينذاك سأله هذا :
ــ هل تشعر بالغثيان ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟
ــ لكن لماذا ؟ هل الامر غير طبيعي ؟
ــ بعض الاشخاص يصعب عليهم تحمل هذا النوع من التجربة (وكان يقلب شيئا في جيبه باستمرار) .

في تلك اللحظة سمعا ضجة مكتومة خلفهما . تطلعا فاذا بزاشي قد انهار ، مرتطما راسه بالحائط ارتطاما شديدا . اسرع الطبيب وهو يبتسم دون اخفاء رضاه . اخرج قارورة الملح من جيبه ثم وضعها تحت منخري رئيس الجوقة الضخمين .

ــ انه علاج قديم ، لكنه ما يزال افضل ، قال الطبيب معلقا ، رغم انني كنت قد بدات أخشى أن يخيب أملي . .

استعاد زاشي وعيه على صوت المكيف اللطيف ، وفي الوقت الذي بدات عيناه ترفان وتنتقلان من واحد الى آخر ، كان الطبيب ما يزال مستمرا بتحريك الزجاجة تحت انفه .

ــ لقد أغمي عليك ، اخبره اوفي فابتسم زاشي :
ــ لم يحدث ذلك أبدا . لقد تزحلقت ، (ثم حك رقبته) . في جسمي تورم وهذا ما جعلني أسقط .

هز الطبيب راسه وهو يساعده في النهوض ثم قال بصوت خائب :
ــ مع ذلك لقد اخطأت ، فليس الجيد هو من أغمي عليه .
ــ تعني أنني انا من . . .
ــ آسف ، لكن الامر هكذا ، لقد فقدت فطنتي . فهذا الفيض الفجائي من الاموات أضعف حكمي فيما يتعلق بالاحياء . . . اجل ، هو ذا ، على ما اعتقد ، العذر المناسب . (وبدا عليه النشاط من جديد) . ان كان صديقك قد استعاد حالته تماما ، فيحسن بنا أن نبدأ بحثنا ، فانا لا اظن أن باستطاعتكما تحمل هذه الدرجة من البرودة مدة طويلة من الزمن .

فجذبه زاشي من كمه .
ــ ان خطر لك يوما أن تحكي شيئا كهذا . . . لكن الطبيب قاطعه سائلا بكثير من اللطف :
ــ ساقاك ، هل هما على ما يرام ؟
ــ على خير ما يرام ، شكرا . فليس هناك شيء خطير .
ــ حسن . ذلك أننا سنبدأ رؤيتها بالعشرات .

وفجأة بدا اوفي غير قادر على التماسك اكثر ، فقال منفجرا فيما كانوا يمرون امام جثة ما يزال مغروسا فيها ساطور من السواطير :

ــ قل اذن يا دكتور ، أينبغي حقا أن تعاملوا الجسد الانساني على هذا النحو ؟ يخيل للمرء انه في مكان جزارة ! كيلوين من الكبد من فضلك ، قطعة من الجنب ، كيلو من الصدر . . . .

ــ هـ . . م ، أجل ، عليّ أن أعترف بأن هذا يشبه نوعا ما من مكان الجزارة .

ــ هذا غير لطيف !

ــ كلا ، لو كنت مكانك لما استعملت هذه الكلمة ، فنحن لا نرى الامر غير لطيف بل نتعلم أشياء كثيرة من الجسم الانساني ، هنا ، كما تعلم ، لكن وا أسفاه . . . ففي النهاية سيأتي هذا أيضا في حينه ، على ما اظن . . . اذ يبدو أننا لم نتعلم الكثير عن عقل الانسان ، عما يجعله يتصرف بهذا الشكل أو ذاك . . . مع ذلك ثمة أمل أن المسألة ليست الا مسألة وقت . . .

بعد ذاك ، تابعوا تقدمهم بين العربات والمصطبات المصنوعة من الاسمنت المسلح، ثم توقفوا رغما عنهم امام اسرة ، او هكذا على الاقل ، عبروا عن مجموعة من الاجساد البشرية : أب ، أم ، ثلاثة صبيان كبار وتوأمين عمرهما ستة اشهر . فالرجل والابن البكر كانا مصابين بحروق خطيرة ، اما الباقون فكانوا سليمين . مرهم اصفر كان ينز من ضمادات الابن البكر السميكة ، فأطلق زاشي صرخة مخنوقة :

ــ انظر الى هذا !

فنظروا في الاتجاه الذي كانت تدل عليه اصبعه المرتجفة . كان ثمة قفص صدري معلق بكلاب لكن سرعان ما حدثت ضجة جديدة مكتومة خلفهما فاستدارا .

ــ أوه ! هناك !! هناك !! لقد اغمي على صديقك من جديد .

ــ ربما من الافضل أن ندعه هنا ، قال أوفي في الوقت الذي كان الطبيب ينحني على زاشي ، فأنا بالحقيقة لست بحاجة اليه من أجل البحث .

ــ في هذه الحال علينا الا ندعه على الارض ، والا مات متجمدا . (بعد ذاك وضعاه على نقالة من قماش ، ثم فتح الطبيب درجا أخذ منه غطاء غطاه بـه) . لن يستغرق الامر منك وقتا طويلا . انا اسحب الدرج ، فيظهر الرأس أولا ، وما عليك الا أن تشير براسك : لا ، لا . . . الى أن يتعين عليك أن تشير بـ : نعم .

وحينما كان الطبيب يضع يده على الدرج الاول ذي الزلاجات تساءل أوفي :

ــ ما هي قصة تلك الاسرة ؟

ــ أوه ! تلك المجموعة ! لقد حبسوها في غرفة ثم اقفلوا الباب ، واحرقوا البيت كله ، فاصيب الآخرون بالاختناق فقط ، اما الاب والابن البكر فقد حاولا فتح طريق للهروب مع الآخرين .

هنا ، هز أوفي رأسه على مهل .

ـ حسن ، لنهتم بما جئنا من أجله .

أخذ الطبيب يخرج الدروج التي كانت تنزلق على دواليبها دون اصطدام بشيء. فيما كشفت نفحة هواء باردة جديدة انه ما يزال بامكان غرفة الموتى أن تنفس أكثر وأكثر من ادعاءات المتطفلين على الحرارة . فالرفوف كانت تنزلق على سكتها الملساء المصنوعة من الالمنيوم ، وكان أوفي ينظر الى أقنعة الاموات وهي تمر تحت ناظريه ، جلودا مشدودة ، ممتطة ، رمادية ، نائية البعد . بل حتى اولئك الذين كانوا يحملون بطاقات كانوا قد تخلوا عن كل ادعاء لهم بامتلاكهم هوية انسانية .

ـ باستطاعتي أن أسحبها بنفسي ، قال أوفي بعد أن سحب الطبيب ماينوف على العشرين درجا .

ـ موافق . وبامكانك استخدام السلم من اجل الوصول الى الرفوف العليا. وما عليك الا أن تعلقه بهذا القضيب . .

وهكذا ، أخذ اوفي ينظر الى الرؤوس واحدا بعد الآخر لكنه فوجىء بفكرة تخطر في باله : حقا ، كم معرفتنا ناقصة بقمة راس الانسان . الوجه ، أجل ، تلك منطقة مألوفة جدا ، اما قمة الرأس ، فمن النادر ان نلمسها ، حتى لدى اولئك الذين نعاشرهم باستمرار ، وبشيء من القلق ، كان الطبيب يتابع حركاته من بعيد .

ـ انت متأكد من انك تفضل ألا أسحبها لك بنفسي ؟

ـ كلا ، أعتقد انني سأنتهي بسرعة اكبر على هذا النحو .

من حين الى آخر ، كان الطبيب يلقي عليه نظرة سريعة ، راصدا اقل اشارة تدل على الانهيار . بعد حين من الزمن استعاد زاشي وعيه فأجلسه الطبيب في كرسي ثم شرعا يتطلعان معا الى أوفي والى حركات الرفوف التي كانت تخرج من الخزانة الكبيرة ثم تدخل فيها . ولاكثر من مرة لمحا البريق في عينيه ، وكأنه كان يتعرف الى احدهم . لكن ذلك لم يكن سوى بريق الرعب الابدي لدى أوفي وهو يتعرف الى الانسانية في لحظة متجمدة من التأمل ، الدهشة ، الالم ، المعاناة ، القنوط او السلام المتسامي ، لحظة من متعة الموت نفسها ، لحظة ثابتة الى الابد وذات لون رمادي في الهواء المتجلد .

ـ ذات يوم سأرقد هنا ، ربما ببطاقة ، أو بغير مهزلة البطاقة . وربما سأحمل رقما للتصنيف : التاريخ ، المكان الذي التقطت منه ، اسم ذاك الذي التقطني... لكن سيكون الوقت قد فات على ان يكون لذلك أهمية ، بالنسبة الي ، على اية حال ، انا الوحيد المعني فعلا . الصف الثالث ، الرابع ، الخامس ، السادس ، وكان احيانا يجد جثتين في الدرج من جثث الاطفال : ... كلا لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث . أما جثة أوفي الجوفاء فربما عليها أن تنتظر في الشوارع أو تتفسخ في قبر حفر على عجل وكأن ذلك كان ذا أهمية كبيرة . بعد ذاك استولى عليه شعور بأن

ايريز لا يمكن ان تكون موجودة ، وانه لا يمكن اختزال جوهرها الحي الى واحدة من تلك الصور الساخرة الشمعية للحالة البشرية . ما من شكل من الاشكال المزيفة كان باستطاعته ان يدنس صورتها ، أو يدعي مشاركتها في المصير . اذن لماذا تفتش بين الاموات عمن هم أحياء .. مع ذلك فقد تابع .. الصف الاخير ، الرف الاخير ، خروج ، دخول .

هل شعرت بالارتياح ؟ لا ، فقد كنت متأكدا منذ البداية ، انما كان لا بد من تحمل ذلك الطقس لا أكثر ولا أقل .

وحين نزل ، وجد الطبيب يعرض للضوء قطعة من نسيج انساني .

ـ هذا سرطان ، شرح الطبيب .أوه ! هذه الجثث لم تأت كلها من المجازر الاخيرة ، فهاهي ذي حالة كنت أدرسها قبل أن يتوقف عملي العادي بحكم الظروف. كان نسيجا سرطانيا . اننا نعزل أطنانا من النسج السرطانية في مستشفيات العالم، لكننا لم ننجح حتى الآن في اكتشاف الاسباب (واعاد النسيج الى مكانه ثم ابتسم). على كل حال ، أنت لم تجدها ، اذن ثمة أمل .

ـ اجل ... ربما ...

فوجه اليه ضربة على الظهر .

ـ ثمة أمل . وعليك الا تدع نفسك تنهار بسبب تجربة في البحث مثبطة للعـزم .

ـ مثبطة للعزم ...؟ اجل ، اجل ، تلك هي الكلمة المناسبة ، فعلى كل وجه ميت ، ثمة شيء من كل من عرفناهم ، رجالا او نساء .

فهز الطبيب راسه .

ـ لنعد الى مكتبي ، فلدي هناك ناتج نحصل عليه عادة تحت اسم مسليات طبية . وأعتقد ان قطرة منه لن تؤذيكما .

تبعه أوفي موافقا بهزة من الراس ، اما زاشي فخرج من معرض الاموات كالسهم سابقا إياهما بأمتار عدة .

احساس شبيه بضيق في التنفس ابقى اوفي كالسجين في مكتب الطبيب حيث ترك نفسه يسترخي في كرسي كبير . هناك حاول أن يطرد ما ثار في نفسه فجأة وعلى نحو غبي ، ثوران شيء كان يتخبط في مكان غير معروف من جسمه تماما كي يتحرر. نبع انطمر منذ زمن طويل كان ينفتح هناك ، ينبجس في تجويف صدره ، يهدد وهو سجين ذلك الصدر بالانفلات عن طريق فمه ،منخريه ، اذنيه ، راسه ، عينيه ، فهل استيقظت ذكرى عنيفة ، غضب من مأتم لم يكن قد بلغ مرحلة الشعور الا بصورة حدسية . منذ زمن طويل كان ذلك يجري في أعصابه ، تضاعفه التوترات التي لم تنقطع خلال الشهور الماضية ، وكان يكافح ، عاجزا ، تلك القوة التي تهدد بالانفلات

على شكل دموع مخجلة . مخلب جليدي كان يقبض على أحشائه كالكلابة ، يهاجم انفاسه بكل وحشية . بعد ذاك أحس بيد لطيفة تبعد أصابعه التي كانت تشد على راسه كالملزمة ثم بدات تدلك صدغيه ، وكان الطبيب يحدثه بصوت مهدىء ، وكأنه يحدث طفلا :

ـ عليك الا تحاول حبس دموعك قط ، خاصة ان لم تكن قد تعودت البكاء ، لا ، ابق عينيك مغمضتين وارخ ذراعيك هكذا ، هكذا افضل .

وكان زاشي يتطلع اليهما كليهما بقلق بالغ .

ـ هل هو مريض ، يا دكتور ؟

ـ كلا ، هذه فقط نسخة أخرى مما حدث لك هناك . لكن اعتقد أنه سيكون على ما يرام الآن . كيف تراك تشعر يا أوفي ؟

ـ أحسن ، شكرا لك .

ـ هي ذي كأسك ، انه صنف محلي صنعته مراكز تقطيركم الوطنية ، وانا آسف ، لكن هذا هو كل ما يؤمنه لنا الجهاز المركزي حاليا . من جهة أخرى ، هذا طبيعي تماما ، لكن . . .

فشرع زاشي يضحك .

ـ اذن ، هو مناسب لك تماما يا دكتور ، نهاية الامر . . . بصحتك !

ـ سأشرب نخب النهاية السعيدة لبحثكما ، فغمغم أوفي :

ـ ذلك سيكون في منتهى الروعة .

ـ كلا ، أعتقد أنك على خطأ (وفي الحال رأى زوجي العيون تحدق اليه : اذ كان قد تحدث عن قناعة ناجمة عن شدة التفكير ، حينذاك حاول تقديم ايضاح) . اعذراني ، فهذه الامور يصعب شرحها كثيرا . ذلك أنكما حين دخلتما هذه الغرفة قبل ساعة من الزمن وحدثتماني عما تبحثان عنه ، شعرت . . . أجل ، شعرت بأنكما لا تتحدثان عن ميتة ، اذ أنها لم تترك لدي انطباعا . . . لا ، لم تنبعث منها هالة الموت (وطوال ذلك الوقت ظل يشعر بنظراتهما غير المصدقة ، فألقى بذراعيه نحو السماء بحركة تدل على الاحباط) . أوه ! الكلام ، الكلام ! لقد مر علي زمن طويل مذ هجرت كل ما له علاقة بالكلام . واذا كان الامر يهمكما ، فانني قمت في البداية ببعض الدراسات التاريخية . بعد ذلك اتجهت فجأة نحو الطب . وقد حدثت أمور كثيرة منذ ذلك الحين ، لكن . . . انظرا ما حدث هنا ، هنا بالذات قبل فترة لاتزيد عن ثمانية أيام . فقد قتل رئيس الممرضين عندي في هذه الغرفة .

وبخطا سريعة اجتاز المكتب ثم أخلى الديوان من كدسة من المجلات والكتب الطبية ، فبدت بقعة كبيرة من الدم على الغطاء ذي اللون الصافي . هنا أخرج كيسا من التبغ ثم أخذ غليونه وبدأ يحشوه .

ـ اجل ، هذه البقعة من آثاره ، فقد تبعوه حتى هنا ثم قتلوه . بعد ذلك ، لم يعد شخص واحد يود الاقتراب من المستشفى . وخلال ايام وايام كنت اقوم بالتنظيف بنفسي يساعدني في ذلك بعض المرضى ، مرضى من كروس ريفر بالطبع . أما الآخرون فقد هربوا أو قتلوا . ما كنت اود قوله لكما ... هو أنني ، عندما بدأت المجزرة ، كنت أقوم بجولتي المعتادة على مختلف الاجنحة . من هناك ، عدت مباشرة الى حجرتي ، حيث بقيت عدة ايام متتالية ، بلا أدنى أثر لمرضي الخاص . كنت أذهب من الاجنحـة الى حجرتي ومن حجرتي الى الاجنحة كل صبح ومساء . لقد أثر علي فقده كل التأثير ، لكنني كنت آمل بالطبع أن يكون قد أفلح في الهرب لحظة انقضاض الثائرين علينا . لم اجد جسمه في اي مكان ، لذلك كنت آمل . لم يكن املا كبـيرا بالحقيقة ، بل كما تعلمان ، فذلك الرجل كان قريبا كل القرب مني وكنت اعمل هنا منذ سنين . لم يكن باستطاعتي ان افكر انه لم ينجح في الهروب .. بعد ذلـك .. اجل ، اتذكر ، كنت اقوم بجولة على الاجنحة ذات مرة وكانت سماعتي على صـدر عجوز افحص نبضه . حينذاك سألني اين رئيس المرضين ؟ فهل تعلمان بما أجبتـه دون ان افكر لحظة واحدة ؟ رئيس المرضين ؟ انه ميت ، في مكتبي .

توقف الطبيب وكان الجو قد اصبح خانقا ، مفعما بحضور الرجـل الذي اغتيـل .

ـ بوسعكما ان تتخيلا ما حدث . فقد ظللت منشل الحركة ، مندهشا برهة من الزمن . بعد ذلك نزلت الدرج اربعا اربع فوجدت العزيز المسكين هناك بالفعل وقد القي بصورة عرضانية على المقعد تغطي وجهه كدمات فظيعة بعد ان شوهوه ، وكان قد مات منذ ما يقارب الاسبوع .

اخذ أوفي كأسه ثم اتجه نحو النافذة ناظرا الى الامتداد الواسع من الارض القاحلة وهي تتمطى في فراغ لا نهائي. كانت الارض قد تشققت تشققا كاملا ككل أرض موحلة جفت ، تتخللها هنا وهناك بقع نادرة من العشب حيث كانت بعض طيـور الكراكي المتوجة ، تفتش عن الحب ، سائرة بكل مهابة اشبه بحشرات عصوية على سطح مستنقع .

ـ يا للطيور الجميلة ! غمغم الطبيب ، الريش على راسها محكم الدقة ويمكن للمرء ان يقول انها بلاشين ذات قابوق(١) ملون .

ـ اجل ، هذا صحيح . وكان أوفي يغوص في هموم اشد بعدا .

ـ اتعتقدون بأن الوحدة الوطنية ستظل واقفة على قدميها ؟

ـ بعدما جرى ؟ من يدري ؟

ـ لنطرح السؤال بشكل آخر ! ترى هل هذا مرغوب فيه ؟

---

(١) القابوق هو ضرب من القطن المزيف .

فالتفت أوفي اليه .

ــ وأنت ، ما رأيك في ذلك ؟ ما هي وجهة نظرك كغريب ؟

ــ وجهة نظر فردية . فأنا عملت هنا ، على نحو خاص ، كطبيب ، اذن فأنا لم أطلع الا على مشاكل كروس ــ ريفر وأهلها . انهم بحاجة الى باقي البلاد . ربما ، ليس لديكم هناك في الجنوب ، انطباع بأنكم بحاجة اليهم . اما هم فانهم بأمس الحاجة اليكم .

ــ اجل ، وهذا سبب كاف كي نتخلى عما حاولنا فعله . لكن ، حسب رأيك ، هل سينتهي الامر بهؤلاء الناس ، لان يدركوا فداحة جريمتهم ؟

ــ قد لا يكون ذلك قبل عشر سنوات ، لكن ... (واقترب من النافذة التي كان أوفي ينظر منها) . انت ترى تلك الارض ، حسن ، انها المقبرة غير الرسمية لمستشفانا . على الاقل ، هكذا كان الامر ، قبل وقت قصير .

فصفر زاشي ثم قفز .

ــ كيف هذا يا دكتور ؟ فأنا لا أرى شواهد قبور .

ــ ليس ثمة شواهد قبور . فالــ . . . اوه . . . في النهاية ، زعيم الكارتل في كروس ــ ريفــر ، وأنا واثق انكما تعلمان عمن أتكلم ، اجل ، هو بالحقيقة شخصية فريدة ... (ثم أشار باصبعه الى الارض الشاسعة التي لم يكن يبدو فيها شواهد قبور ولا أضرحة) . فهو في كل حجة من حجاته الاسلامية ، يعود بأحد محاسيبه كي يوليه منصباً من المناصب الهامة في المنطقة ، بما في ذلك ، واأسفاه ! خدماتنا الطبية . اما الطرق الحديدية فانكما تتذكران كارثة كاباجي ولا شك ؟ اذ كان يقود القطار شخص اتى به من الباكستان باعتباره ميكانيكيا ضليعا ، رغم انه لم يكن بالحقيقة سوى كناس محطة في بلاده .

ــ ولم يكتب تقرير رسمي قط ؟

ــ بالطبع ، لا . لكن القطاع الطبي هو الذي دفع ابهظ ثمن ، ولكي أكون أكثر دقة ، اقول : المرضى ، ذلك ان حاجبا بسيطا جاء الى هنــا على انه طبيب كبير ثم استلم منشآتنا ، فهل هناك ما هو طبيعي أكثر من أن يجرب نفسه في الجراحة ؟

هنا ، جرع زاشي كأسه دفعة واحدة ثم سأل .

ــ دكتور ، ليس هذا حقيقيا . أنت لا تعني انه كان هنا شخص يعمل بالمرضى كالقصاب دون أن يدري الفرق بين الكبد والكلية .

ــ ربما ، في كاراتشي ، دخل مرة أو مرتين قاعة العمليات لادخال او اخراج المرضى ، لكنني واثق انه لم يقترب ابدا من طاولة العمليات . علمنا ذلك كله حين جرى تحقيق . اجل ، ذهبت ضحايا كثيرة جدا حتى غدا ذلك في النهاية امرا طبيعيا (وأشار باصبعه الى الارض :) احفر هنا قليلا وسوف تجد رملا متحركا ، بل ليست

هناك حاجة للحفر في موسم الامطار ، اذ ما ان تسقط عدة مليمترات من المطر حتى ترتخي القشرة وبكل بساطة يتكشف الوحل عن الموتى ، فهناك كان جراحنا الباكستاني يدفن ضحاياه . دفن منها عشرات وعشرات .

ـ وكم من الزمن دام ذلك ؟

ـ قرابة الاربع سنوات ، على ما اعتقد ، ولا تنسوا أن كلمة زاكي هنا هي القانون . كلمة واحدة تقال بأن الامور لا تسير على ما يرام ، وينكتم صاحبها المتهور الى الابد . أما الغريب ، فهو عندما يمرض آموري ذلك أنه لا يأتي الى هنا قط بل يرسل من يفتش عن أطبائه الخصوصيين في مستشفياتكم الجامعية . فأصر زاشي :

ـ لكن ، ألم يخضع ذلك السفاح للمحاكمة قط ؟

فهز الآخر رأسه .

ـ لا رمم ، لا أدلة . أما أقارب الضحايا ، فكان بالامكان اسكاتهم ، (ورفع الزجاجة) . كأس أخرى ؟ الواقع ، أنني حصلت بفضله على منصبي هنا . لكنني كفؤ ، اطمئنا .

ـ هل تعرف زاكي ؟

ـ هو بالذات ، لا ، لكنني أعرف بعض وزرائه . لقد أوصلوا له كلمة ، فأبي رجل أعمال ، وهو غني جدا . هو وسياسيوكم ... نهاية المطاف ، لنقل انهم كانوا متفاهمين تماما .

هنا ، نظر اليه أوفي مواجهة ، ثم شرع يتفحص وجهه ، فواجه الطبيب نظرته بهيئة من يتسلى بعض الشيء .

ـ بماذا تفكر سيد أوفي ؟ فأقر أوفي بصراحة :

ـ كنت أطرح على نفسي سؤالا : ترى لماذا بقيت هنا بعد كل ما حدث ؟

ـ أوه ! لست أدري . الاحساس بالذنب ؟ الحاجة للاصلاح ؟ ليس باستطاعتي الاعتقاد أن هناك ردود افعال متسلسلة في هذه القصة كلها . فأبي ، قبل كل شيء ، رجل أعمال،انه واحد من اكبر اغنياء كالكوتا ، وهو لا يولي اهتماما كبيرا لمن يصاحبهم . فالربح ، يا سيد أوفي ، الربح هو فلسفته الوحيدة . في هذا المجال هو لا يعرف التردد قط ، وهو متفاهم كل التفاهم مع قادتكم .

لكن زاشي كان ما يزال مشغولا بقضية الجراح .

ـ لكن ما الذي جرى لذلك الجزار يا دكتور ؟ هل أرسلوه هكذا بكل بساطة الى بيته دون أن يفعلوا به شيئا ؟ أقصد في نهاية المطاف ، ماذا جرى لذلك الوغد ؟

ـ ارى انك لا تدري كيف تجري الامور في كروس ـ ريفر . لقد نقل الى مستشفى آخر ، وقد حافظ على رتبته وراتبه أيضا . فقط حرموه من ممارسة الجراحة ، وكان ذلك كل شيء . والواقع ، ينبغي القول ان السبب الوحيد الذي

اثيرت من أجله بعض الضجة حول هذا الموضوع ، هو أن احد ضحاياه كان ، بمحض المصادفة ، قريبا لاحد رجال آموري المتنفذين . انها قصة جد معقدة ، فابن عم الرجل المتنفذ كان قد عولج هنا بناء على توصية خادم آخر من خدم آموري . وبالطبع اعتقد قريب المتوفى ، نظرا لأنه كان هناك على ما يبدو خصومات شخصية وما شابه ، ان أحد اعدائه قام عن عمد بتدبير مقتل ابن عمه. ولولا المنافسات الداخلية التي تتصف بها هذه البؤرة الفاسدة ، لكان من المحتمل أن يظل زميلي الباكستاني مستمرا في مجزرته الى الابد .

في تلك اللحظة بدأ شيء ما ، كان اوفي على ما يبدو ، عاجزا عجزا تاما عن تحديد ماهيته ، بالتحرك في ذاكرته ، فسأل فجأة :

ــ أين درست ؟

ــ في انكلترا وألمانيا ، لكن أؤكد لك . . . (ثم مد ذراعيه) . بل سأريك شهادتي ان شئت .

ــ لا ، لا ، طمأنه أوفي ، ليس لدي أدنى شك في ذلك ، بل أنت فقط . . . أجل ، انت ذكرتني فجأة بشخص صادفته عندما كنت طالبا .

ــ لا اهمية لذلك ، فنحن الآسيويين يشبه بعضنا البعض الآخر كثيرا .

ثم شرعوا يضحكون ، وقد انفرجوا لذلك .

ــ ان شئت الجد ، انتم لا تشبهون بعضكم قط . بل الواقع ، اذا ما استخدمت تعبيرا آخر ربما تعرفه جيدا ، هو أنك لست آسيويا نموذجيا .

ــ آه ! حسن ، أنت تعرف هذا ايضا ؟ فقد مارست المهنة في انكلترا طوال سنتين واعرف الكثير عن تلك التعابير الخاصة بالجزر البريطانية . فهل هذا يغيظك كما يغيظني ؟

هنا قام اوفي بحركة تنم عن نفاد الصبر .

ــ من تراه يتذكر تلك الاشياء الماضية وهي ، كما أعلم ، نوع من الترف ، ردود الفعل التعصبية تلك ؟ بل من تراه يهتم حقا بالطريقة التي يتصرف بها ذلك العرق البليد من الاشراف حيالك وحيالي ؟ المسألة الآن هي أن نعرف كيف نرد على ما يجري هنا .

بعد ذاك خيم صمت طويل ، عادت خلاله انظارهم الى قبور الرمال المتحركة ، خلف المستشفى . كانت الكراكي المتوجة قد اختفت تقريبا ، لكن جماعات من البلاشين البيض كانت تجتاز في تلك اللحظة المدى الواسع المقفر ، سعاة تبشر بالفسق وأشباح صمت اجرامي مدفون في الشواطيء الموحلة ، ظلالها تتراقص فوق القبور .

ــ حسن ؟ وماذا ستفعلان الآن ؟

ــ سنتابع البحث (ثم وضع أوفي كأسه مادا يده) . لقد اضعت من اجلنا الكثير من وقتك ، فشكرا لك .

هنا فتح الطبيب درجا ثم اخرج مخططا مصورا :

ـ أنا أسكن هنا . واذا رغبتما تعالا فسلما علي متى تشاءان . لكن لماذا لا يتم ذلك هذا المساء ؟ تعالا نتعش معا . فأنا متأكد انكما لن تذهبا للبحث عن المتاعب طيلة الوقت . الى اللقاء هذا المساء ؟ (لكن أوفي بدا مترددا) . أؤكد لك أن هذا لن يسبب اي ازعاج ، فأنالد ي زوار ، أمي واختي وصلتا قبل الاضطرابات تماما . هما تتكفلان بالطبخ وسيكون بامكاننا ان نتحدث (وكان يتحدث بلهجة رزينة) . تعالا اذن ، فمنذ مجيئهما الى هنا ، لم تريا أحدا على الاطلاق : اذن سيكون لكما فضل علينا ، فقد وصلتا ونحن في حالة حصار . تصورا : الابواب مقفلة مرتجة ، والصراخ في كل مكان لهذا أؤكد لكما أنكما ستكونان بالفعل على الرحب والسعة .

فتدخل زاشي :

ـ اتفقنا يا دكتور . والآن ، هيا يا أوفي فلم يبق لدينا مانفعه له .

ـ شكرا ، قال اوفي ممتثلا كل الامتثال ، فقد يفيدنا ذلك في ان ننسى هذا الجنون كله بعض الوقت .

ـ حسن ! سوف يقودكما هذا المخطط الى بيتي . انه في القطاع المخصص للموظفين . واذا ضعتما فما عليكما الا أن تسألا عن حي الاطباء .

ـ سنجده ، (ثم مد يده من جديد) . والحقيقة أنك ساعدتنا كل المساعدة .

ـ ماذا سنفعل الآن يا معلم ؟ قال زاشي حين أصبحا في الخارج وكان الظلام قد بدأ يخيم .

فأشار اوفي الى عداد البنزين .

ـ أولا ، نملأ بنزيننا ، بعد ذلك نذهب لرؤية مفتش الشرطة .

وكانا يستعدان لمغادرة محطة البنزين عندما اشار زاشي الى سيارة عابرة :

ـ انه الطبيب يعود الى بيته . لا شك أنه يموت من التعب .

دارت أضواء أوفي على الطريق العام في اللحظة التي مر فيها الطبيب ، وكانت تجلس بجانبه فتاة ذات ملامح آسيوية واضحة فكبح أوفي السيارة رغما عنه كبحة شديدة .

ـ ماذا حدث ؟

ـ تلك الفتاة يا زاشي ، الم تر تلك الفتاة ؟

ـ ها ! هي لا تشبه سيليست على الاطلاق ، وان كان هذا ما تريد قوله ، لا تشبهها على الاطلاق .

فمكث أوفي في مكانه جامدا ، ويداه على المقود ، بعد ذلك هز راسه ثم اقلع ،

ـ لا ، مستحيل ، لقد بدأت أرى أوهاما .

* * *

بفضل المخطط وجدا البيت بغير مشقة، وقد اتى الطبيب بنفسه ففتح لهما الباب ثم قادهما الى قاعة مفروشة بالسجاد . هناك ، كان ينتصب تمثال كالي (١) على قائمة فيل ، قاعدة منتقاة على نحو مرتجل فيما كانت رائحة البخور تفوح في الجو . على الجدار كان قد علق جلد حيوان من السنوريات ، ربما هو فهد . حدق أوفي النظر اليه ثم انتقل الى سلسلة من أسلحة الصيد ، أما سحابة البخور فكانت تلازم الفراء كما لو أنها منخفض من الارض الى أن تصل الى حزم من ريش النعام . نظر الضيف غير مصدق ، الى تلك الشخصية المدهشة ، شخصية مضيفه ، ثم سأله ان كان يصطاد .

فهز الطبيب رأسه .

ــ جارنا هو الذي يصطاد . أو بالاحرى كان يصطاد وبعض هذه القطع هي من بين الهدايا التي قدمها لنا منذ زمن بعيد . أما ما تبقى فنحتفظ له بها خلال ... غيابه ..

ــ يخيل الي انك لست نموذجا للصياد .

فابتسم الطبيب بشيء من التسامح .

ــ نموذج صياد ، وهل هذا موجود حقاً ! هل توجد نماذج بشرية محددة ؟ (ثم بدا وكأنه يود أن يعتذر) . المعذرة . هيا بنا الى غرفة الجلوس . فأمي ستغضب اذا ما علمت انكما ما كدتما تصلان حتى أدخلتكما في حلبة النقاش . لكن ، بيدك كل الحق ، فأنا أكره الرياضة العنيفة بكل انواعها . الرياضة !

فابتسم زاشي ابتسامة عريضة .

ــ اذن ، أنت والمعلم على طرفي نقيض . أتح له ظل مناسبة ولسوف ينقض دون رحمة أو شفقة على حمامات السلام .

فسحب الطبيب غليونه من فمه وبدا مندهشا .

ــ اذن ، علي أن اعترف بأنني لم أصنفكما ضمن نموذج معين وحسب ، بل انني اخطأت في تصنيفكما ، اذ لم يخيل الي انكما من محبي الصيد . يا الهي !! ، اي خطأ ارتكبت ، ترى هل تحبان الصيد حقا ؟

فغمغم اوفي :

ــ في الحقيقة ، بعض الشيء ، لكن نادرا ما تتاح لي الفرصة ، كما تعلم .

هنا انفجر زاشي ضاحكا :

ــ كان ينبغي أن تراه خلال جولاتنا في بداية الامر ، اي قبل ان تفسد الامور لدرجة لم يعد الانسان معها يجرؤ على الظهور وهو يحمل قوسا أو سهما . يقول : بعض الشيء ... ها لاها ! سنتحدث عن بعض الشيء هذا !

---

(١) احد الآلهة لدى الهندوس .

ـ اذن ، كان بامكانك التفاهم جيدا مع جاري ، فهو مهووس حقيقي بالطرائد الكبيرة . انظر قدم الفيل هذه ، انها لواحدة من ضحاياه . أختي هي صاحبة الفكرة بأن نضع تمثال كالي عليها ، فهي ايضـا لا تحب الرياضات العنيفة ، لكنها مولعـة بقصص الصيد . كان ينبغي أن ترياها ، جالسة ، فاغرة الفم وهو يسلينا بمغامراته الكثيرة . ديدمونة أمام عطيل . انتظر قليلا الى أن تكتشف أنك صياد .. (ومد رأسه من باب الرواق قليلا الى الامام ثم نادى) : ماما ! تاييلا ! وصل المدعوان . ترى ماذا تصنعان في الداخل ؟

تجمد أوفي اندهاشا ، فراى الطبيب ذلك ، بعدئذ استدار في الاتجاه الذي كان الطبيب قد صرخ ، شاكا تقريبا في حقيقة غير معقولة .و هكذا لم ير مضيفه وهـو يدنو منه ثم يحدق الى عينيه بشيء من القلق .

ـ أتشعر بسوء ؟

فاستدار أوفي على مهل ثم واجه نظرته .

ـ انا . . . هل قلت تاييلا حقا ؟

ـ اجل ، انها أختي . وقد قلت لك انها في زيارتي الآن .

ـ اذن هي التي كانت معك في السيارة هذا العصر ؟ حين غادرت المستشفى ؟

ـ أجل ، أجل ، بل الواقع أنها كانت تنتظر في غرفة الاستقبال عندما كنا نزور معرض الجثث . . .

فهز اوفي رأسه .

ـ لا ، هذا غير معقول .

ـ شاليـل .

فاستدار الثلاثة جميعا فيما قرص أوفي نفسه محاولا تنبيهها . فالعينان نفسهما، فنجانان واسعان ، والاطراف ، اطراف الغزال ذاتها ، رشيقة ، طويلة ، ذلك الطول غير المعقول ... وحده الشعر تغير تغيرا جذريا اذ كانت قد قصته حتى مستـوى العنق ، وكان أسود لماعا ، مشدودا قليلا الى الوراء طبقاً لطراز موديغلياشي . في تلك اللحظة تذكر ذاك الذي تكلم عن هذا الامر ، ذاك المجهول الذي سار نحوهما في المطعم، وقد عجز عن تمالك نفسـه كما تذكر كم اغتاظت هي منه حينذاك ! هكذا ، ستكون النسخة مطابقة للاصل !! هذا ما قاله ، لكن أتراها كانت تعترض ، وهي غير مدركة ، على ما كان في ذلك الوجه الشيطاني من خضوع مضى زمانه .

ـ اود أن أقدم لكما كأسا . هكذا قال لهما ، فأنا أرغب في ان نشرب نخب أجمل زوج صادفته في مدينة الجذام البائسة هـذه . كانت لهجته طليانيـة على ما يبدو . زوج ؟ تساءل اوفي معترفا بأن رقة ذوقه سحرته . أما تقديم كأس مـن النبيذ فتصرف في غاية اللطف منه .

لم يكف نظر الاخ عن التنقل بين اوفي وتايبلا ، فيما كان غليونه يتدلى من فمه . اخيرا بدا على محياه وكان لمعة عبرت ذهنه فضرب على جبينه صائحاً :

ــ غير معقول ! غير معقول أن يكون هذا افريقيّك ! ثم قفز الى الرواق صائحا: أمي ، أمي ! تعالي . تعالي فانظري ماذا يجري . أعتقد أن تايبلا وجدت افريقيّها .

كانت تايبلا تتقدم مادة يدها فيما تبعتها امرأة هزيلة مفعمة بالحيوية وهي تمسح يديها بخرقة على عجل . فجذبها راماث بشدة الى الفرفة .

ــ انظري ! اسأليه بنفسك . انه هو بالتأكيد ! (كان يقول دون أن يثبت في مكان بعينه بل يثب من مكان الى آخر كعفريت الغابة ، مهتاجا ، منقطع الانفاس ، متشنجا) . ماذا تقولين عن ذلك ، هاه ؟ ماذا تقولين عنه ؟ كيف حدث أنك لم تري هذا في أحلامك ابدا ، حاولي قليلا تفسير هذا . .

مدت السيدة راماث يدها الى ضيفيها بمنتهى الوقار .

ــ يجب أن لا توليا انتباها لحماقات ابني ، فهو يعتقد أن باستطاعته تفسير كل شيء مسببا بذلك الحرج للناس .

وأحس أوفي بيد ناعمة تفرق في يده . كانت السيدة راماث تصل تماما الى صدره ، فبدت أشبه بسنونو صغيرة تحاول أن ترى ما فوق الاعشاب العالية . لم يستطع شعرها الملمّع بعناية والمرجل على شكل فطر فوق الرأس ولا التجاعيد المحيطة بعينيها المرفوعتين تعكير الحساسية في وجهها الشبيه بوجه طفلة فضولية . أما رشاقتها المعتدلة ، الهشة فلم تكن تنتمي الى عالم المطابخ والصراخ والاطفال الذين يبللون ركب جداتهم والازواج الجائعين الساخطين . كانت طيبتها تبدو كبيرة ، واسعة للغاية ، فأحس أوفي بصورة غريزية أن باستطاعتها أن تستقبل أهل الارض كلهم على ركبتيها دون أن تتخلى عن سكينتها . كانت اليدان ، الجبين ، العينان تشع كلها هدوءا وحيوية فيها الكثير من التناقض . . ولقد فاجأ أوفي نفسه وهو يحاول أن يرى فيها تايبلا الطفلة ، اخيرا تخلى عن ذلك .

ــ حسن ، وماذا عن حدسك المسبق يا ماما ؟

فأجابت تايبلا بدلا عنها .

ــ لا تبال به . لقد أحسست باهتزازات غريبة عندما كنت انتظر في قاعة الانتظار ، لكني لم أنجح في تفسيرها . فنحن في بلد واسع للغاية ، اذن كيف باستطاعتي ان احلم حتى . . .

فشرع الطبيب يضحك ضحكا صاخبا ، هاجمته تايبلا على الاثر :

ــ رويدك ، ألم أقل لك ذلك قبل فترة وجيزة ، ونحن على الطريق ؟ نعم أم لا ، أجب .

ـ كان في المحرك خشخشة وقد شرحت لك ذلك ، فالسيارة تحتج دائما بواسطة الاهتزازات .

كان أوفي يسمع ويرى وكلن ذلك كله يبدو بعيدا كل البعد ، خارج الزمان ، خارج الزمان والمكان تماما ، فهل يعقل حقا أن تحدث داخل هذه الاسرة مناكدات لطيفة بسبب تهكمات أو تحذلقات من هذا الفرد أو ذاك ؟

ومن جديد احس بأنه متطفل . هو ، أوفي ، المتطفل الابدي ، ما تراه يعلم عن هذه المشاهد العائلية ، عن واحات السلام هذه ، عن السلام ، عن عوالم آييرو الصغرى هذه ؟ وفي الحال صعدت من أعماقه فكرة مجنونة ،لا تصدق ، اجتاحته تماما : لماذا لا أتزوج هذه الفتاة وانسى الفوضى الخارجية ؟ الآن على الفور ، ولأقبل التفسير الاكثر اغراء لما لا يصدق : وجود هذه الفتاة هنا ، والتسلسل العجيب للقائي بها ، فلأقبل ، فلأقبل . . . كلا ، كلا ، لأفرض حاجتي الخاصة الى هذا السلام الذي يتجاوز كل سوء فهم ، وفي الحال تذكر أوفي أيام الشتاء ، فصرخ بضرب من البلادة :

ـ أرى انك حافظت على حبك للخرافات ، فسألته الفتاة :

ـ كم من الزمن مر يا اوفي ؟

ـ الزمن توقف فجأة . راسي فارغة تماما . فقالت الام وهي تنسحب :

ـ سأرى الوجبة .

ـ وربما عليّ أنا أن أهتم بالاسطوانات ، قال شاليل (ثم اتجه نحو زاشي الذي كان قد ظل واقفا هناك ينظر الى الرجل والمراة المرة تلو المرة وهو يطرف بأجفانه) . أتريد أن تأتي معي فالموسيقى اختصاصك ان كنت قد احسنت الفهم ؟

ـ اجل ، أجل ، يا دكتور .

وهكذا ، ظلا وحيدين في البهو ، فأمسكت تايبلا بذراعه .

ـ لنذهب الى الشرفة .

هناك استند الى الحاجز ، وشرعت تايبلا تضحك بعذوبة .

« أنا على طرقي الرئيسية وانت على طرقك الفرعية ، يا اوفي ، ولا بد لتلك الطرق من أن تتقاطع المرة تلو الاخرى لاننا نفتش عن الهدف ذاته : الطمأنينة التي هي مركز اللوحة ، وسؤالي الوحيد يا أوفي هو : متى ستتعب من ذلك كله ، متى ستتخلى عن طرقك الجانبية تلك التي تدور في حلقة مفرغة كي تسلك معي طريق التريث والهدوء ؟ » اذ ما ان مرت لحظة عدم التصديق الاولى حتى كانت قد أدركت معنى التقائهما من جديد ، بينما كان هو ما يزال يفتش عن كلماته متسائلا ما الذي سيغير ذلك من بحثه الاولي ، قلقا مسبقا من المقارنات غير النزيهة التي كان ذهنه قد بدأ يجريها بين الهدوء الذي يصيب بالعدوى وذلك البحث الدائم الذي كان سيستمر حتى وان تم العثور على ايريز .

فخلال لقاءاتهما في غربتهما القصيرة ، لم تكن تايلا تكف عن الدفاع عن وجهة نظرها فيما يتعلق بلب الصراع ، الامر الذي أدى بذهنها للتوصل الى قرار : « تريد الكفاح شبرا شبرا في الغابات رغم أن الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله هو الالتفاف واتباع الطريق الذي يؤدي مباشرة الى قلب السلام الدائم » . وبعد ذلك ، الضحكة المسموعة والحكيمة ، جوابا على رده المفعم بالازدراء : « من الذي يبحث عن السلام؟ ، من له الحق في أن يأمل بالسلام ، أو ينتظر السلام ؟ ان من الصعوبة بمكان أن تبلغي رديفه التجديفي ، العادة ، فهل تدركين ذلك » ؟ « كنت سأمتنع تماما عن استخدامه حيالك يا أوفي ، لكن أنا في الحقيقة ، لا أفرق بين الامرين » .

ــ هذا العصر ، قال أوفي ، تماما في اللحظة التي كنا نخرج فيها من محطة البنزين مر أخوك أمامنا بالسيارة ، رأيتك ، لكنني قلت لنفسي : هذا مستحيل ! (هنا خيم عليهما الصمت . بعد ذلك سأل) : ترى لماذا أتيت ؟

فهزت كتفيها :

ــ ولم لا ؟ شاليل موجود هنا ، وأمي تريد أن تأتي وأنا لم أكرس نفسي كراهبة بعد ، كما أن هناك الفرص كلها في أن أسمع من يتكلم عنك . فأنت لست شخصية مجهولة بالطبع .

ــ آه ! أجل . أتذكر . الشعور المسبق بالانبعاثات العنيفة .

فأخذت تضحك .

ــ ليس ذلك ما كنت أود قوله . بل كان لدي شعور ...

ــ والمتدينة ، ما حل بها ؟ سأل وهو يحاول أن يسبر أعماق ذهنها .

ــ انها دائما هنا ، قالت وهي تلمس صدرها ، تقريبا في الصميم .

فأحس أوفي بنوع من الغضب المفاجيء وغير المنطقي ، ازاء ذلك الهدوء ، وتلك الثقة بأن أمور الدنيا كلها لا تؤثر فيها ، على ما يبدو .

ــ ربما تفكرين بأن تجدي بغيتك هنا على نحو أسرع ، ولقد نجحت بالمرور فوق كل شيء دون أن يؤثر فيك ، أليس كذلك ؟ أو لعلك ، بكل بساطة ، لم تري شيئا على الاطلاق .

ــ عندما أفكر بذلك !! اذن فقد كان معكما في معرض الجثث طيلة ذلك الوقت . كنت اعلم أنه هناك ، لذلك انتظرته في قاعة الاستقبال ، اترك له الوقت للتخلص من عفن الموت . لكنني لم أحس لحظة واحدة بأنك أنت الذي كنت معه هناك ، رغم الاهتزازات الغريبة . ففي لحظة من اللحظات ، أصبحت الاهتزازات قوية لدرجة اعتقدت أنه سوف يغمى علي .

ــ هذا ما حصل لزاشي .

ــ نعم ؟ أوه صديقك . في معرض الجثث ؟

ــ نعم .

ــ شاليل مصاص دماء ، وأنت ، الم يغم عليك ؟
ــ كلا ، لكنني شعرت بعد ذلك بأحاسيس غريبة للغاية . لقد رأيت كثيرا من الاموات منذ ان ولدت ، حوادث سيارات ، ثم مؤخرا ... لكن هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها الاموات مرتبين في أدراج ، أو مثل اللحم على خشبة الجزار .
ــ ما الانطباع الذي خلفه لك ذلك ، يا أوفي ؟ قل لي .

فهز اوفي رأسه .
ــ أرى ان هذه سمة من سمات الاسرة ، فأخوك لم يكف عن طرح ذلك السؤال عليّ .

وبحركة من يدها استبعدت أخاها ، وكأن تلك حالة مختلفة تماما .
ــ شاليل ، ما هو الا هاو للمزاح الفظيع ، فلا توله اهتماما . ترى هل قال لك ان ذلك هو تسليته الوحيدة ؟

أقر اوفي بذلك بعد أن فكر أن الطبيب قال له أشياء من هذا القبيل .

فتابعت تاييلا بلهجة مسموعة :
ــ وهذا صحيح رغم أنني لا أكف عن القول له أنه غير سليم . فهو يؤمن بالخرافات رغم أنه ينفي ذلك دائما . كما أؤكد لك أنه يعبد عملية اخذ الناس الى معرض الموتى ومراقبة ردود فعلهم ، مؤكدا أنه يتعلم من ذلك الشيء الكثير عن الانسانية ، فهل يبدو لك ذلك معقولا ؟

أدهشته امكاناتها على الاستنتاج من المرة الاولى . لكن تاييلا لم تترك له وقتا للرد اذ ما لبثت أن غاصت من جديد في الماضي ، نحو لقائهما الاول ، حين كانت مراهقة ومع ذلك مفعمة بالحكمة على نحو غريب .
ــ أيدهشك أن تراني وانا لا ارتدي لباس راهبة ؟

* * *

وكما هو شأن العينين ، الاطراف ، نبرة صوتها الرزين ، اتخذت تلك الذكرى شكلا محددا : سهولة القبول لدى ذهن تاييلا ، اظهار أقل ما يمكن من الدهشة والتكيف مع الظروف الجديدة كما لو أن الزمن لم يمر . وهناك ، خلف الاشياء كلها ، كانت تكمن فكرتها الغريبة عن أن كل شيء مقدر سلفاً ...

فبدا عليها الاندهاش .
ــ ترى ألم يخبرك شاليل ، بما يجري هنا ؟
ــ ماذا تعنين بقولك : هنا ؟ في قلب المدينة ؟
ــ كلا ، أعني هنا بالذات . في المنطقة الخاصة بالاجانب ... اوه ! أرى ان شاليل لم يحدثك عن ذلك .

فأحس بالارتباك وبأن صوته يضعف .

ـ ما الذي يجري هنا ؟ لقد اكتفى أخوك بأن جعلنا نقوم بجولة في معرض الجثث . فهزت راسها ببطء وهي تنكفيء الى أعمق أعماق نفسها .

ـ يجب أن تجعله يقص عليك ما حصل لمساعده . كانْ جارنا قد حذره . لكن ما من احـد أخذ ذلك على محمل الجد (ثم توتـر وجههـا فجأة ، وقد طفى عليها الاعياء) . ترى ما الذي دفعك الى الاعتقاد أن هناك مكانا واحدا في كروس ـ ريفر نجا من هذا الجنون يا أوفي ؟

لكن أوفي كان متلبثا هناك ، ينظر الى منطقة الخليج وقد غربت عنها الشمس ، تلك المنطقة التي كان السادة الاستعماريون قد أنشؤوها لاستخداماتهم الخاصة ، بعيدا عن روائح السكان المحليين وخطر الانتفاضات المتقطعة التي كان من المحتمل أن تحدث دائما . كانت منظومة الانذار عن بعد ما تزال تعمل لصالح النخبة الجديدة بطبقاتها المنسوخة نسخا عن طبقات البيض أولئك الذين كانوا يشكلون جزءا منهم ، وكذلك لصالح بعض المغتربين الآسيويين مثل شاليل . ففي كروس ـ ريفر كان أحفاد البيض من عهود السيطرة الاولى يسكنون هذه الاحياء المعزولة الفخمة التي لم يكن يمتد اليها الجو البغيض ، جو الحروب المتكررة لاسراب الجرذان المتكدسة في مناطق المدينة المكتظة بالسكان . حينذاك مر ظل انكسار على وجهه ، ذلك أنه كان قد تم بمعنى من المعاني التصدي في وقت متأخر جدا لمشكلة كروس ـ ريفر . فالجماعات ذات العيون النجلاء كانت تعتمد اعتمادا متزايدا على ذلك الحياد وعلى تلك النزعة الابوية لدى البيض . وهكذا ، حين بدا نبع الفضلات ذاك ينضب شيئا فشيئا ، تملك تلك الجماعات الحقد اضافة الى احساسها بالخجل والعار من نفسها وهي تفكر ان منها الكثير من الشحاذين الذين كانوا وخلال فترة طويلة من الزمن ، يعيشون على صدقات الاجانب . ما من شيء كان باستطاعته أن يساعد في بناء الانا ، تلك الانا التي كانت قد استحوذت على السكان . فالشاغلون الجدد للمناطق المخصصة للاجانب لم يكونوا قد اكتسبوا الا قشرة البعد ، وكانت أسراب الجرذان تنتظر وهي على أهبة الاستعداد للانتقام ، لتوجيه ضربات قاسية .

ـ ألديك مشاكل كثيرة ، يا أوفي ؟ هل تبحث عن صوت تايلا ؟ هل انت تعيس كثيرا ؟

فشرع أوفي يضحك وكأنه يعتذر .

ـ لا تبحثي في وجهي عن تجاعيد المغامرة المأساوية للحياة .

فأشاحت بعينيها ، مرتبكة كل الارتباك .

ـ لم أكن أريد القول . . .

لكنه امسك بيدها بكل رقة .

ــ كذلك انا . كل ما كنت أريد قوله ، هو ... انني كنت منشغلا كثيرا او بالاحرى كنت ساخطا لدرجة التعاسة .

ــ آه ! اجل ... هو ذاك ... سخطك الابدي ...

ــ يا الهي ، ماذا جرى ؟ الم يعد سخطا الهيا ؟

ــ لم اعد اعتقد بذلك ، فهذا يهدد بأن يدوم الحياة بأكملها ان كانت الحياة هي ما ارى ... أقصد ما أراه مذ جئت الى هنا ، وما أراه فيك أيضا ، اذ ما من شيء يهدد الحياة الانسانية له أدنى اثر من الالوهية . لكن هذا غير مهم كثيرا في نهاية المطاف . الا ترى ذلك ؟

من فوق السفوح المتعاقبة للروابي المنخفضة المعشوشبة ، كانت نظراته تغوص باتجاه المدينة البعيدة ، وأيا كانت تلك المدينة ، لم يكن للحياة فيها أية علاقة بمناطق أصحاب الامتيازات . كانت ثمة بعض اشرطة من ضوء تحدد الطرق الرئيسية ، وكان نور خافت يدخل مستنقعات الظلام ، ويخرج فاضحا وجود راكب دراجة منفرد . فيما كانت أضواء السيارات الاسطع والاقوى تنتقل بسرعة كبيرة من مكان آمن الى آخر : فأصحاب السيارات كانوا يشعرون انهم الاكثر عرضة للاذى من الجميع وهم داخل كبسولاتهم المعدنية القاتلة .

كنت أعتقد فيما مضى ، قالت تاييلا وهي تتأمل السماء ، ان سماء لياليننا انقى سماء في العالم . لكن انظر قليلا . ان بامكاني أن أقسم ان النجوم هنا شموس مشعة ، اجل شموس مشعة ! انها تمد استطالاتها ، كما تعلم ، مثل بروز شجرة الكابوك التي تطير في كل مكان . ولكل استطالة لون مغاير : ازرق ، اخضر ، برتقالي . انظر الى ذلك النجم . انه يشع كالشمس ، الا ترى ذلك ؟

ــ انني أفكر على نحو خاص بجيوب الرعب تلك حيث تكمن النار ، هناك ، في الاسفل .

ــ لنعد اذن ، قالت فجاة . فالوجبة اصبحت جاهزة تقريبا .

وفي الحال انقضت عليهما زوبعة من روائح الاطعمة الشهية المتبلة : بامية . دجاج ، دهلية ، بهار هندي ، وباذنجان ضمن فيض من التشكيلات الاخرى . دخلا فاستقبلهما صوت زاشي المتذمر الذي كان يقترح الذهاب للبحث عنهما .

ــ اعلم أن لديهما الكثير مما يقوله واحدهما للآخر ، يا سيدة راماث ، لكنني جائع ، جائع .

ــ انت دائما جائع يا زاشي ، نقطة حاسمة .

ــ ها هو ذا يعاود الكرة . ترى هل ينبغي أن ننتظرك طوال الليل ؟ ١

ــ هدوء ، هدوء ، قالت السيدة راماث ، ثم اشارت اليهم بالجلوس .

وبكثير من الاهمال أدخل زاشي اصبعا تحت الطاولة . لمحه شاليل الذي كان يصب المشروب فأعلن :

ـ ماما ، ثمة من يأخذ الامور على محمل الجد ، فرئيس الجوقة فك زناره .

ـ ليس هو الا فضوليا مبتذلا ، أكدت تايلا لزاشي ، اخلع بنطالك ان شئت ، وسيعيرك شاليل التنورة التي يستخدمها عندما يأكل ، ذلك المنافق .

ـ يا للأخت الوفية !

ـ أنا أحلم ، غمغم اوفي ، وهو يرى في دخيلة نفسه عجزه المتعاظم عن الفرق ولو للحظة واحدة ، في راحة النسيان . فقد كان لديه احساس دائم بأنه ما من شيء يمكنه تبرير ذلك كله فعلا ، وان السمة الطبيعية لتلك اللحظة محكوم عليها بأن تظهر أخيرا انها مجرد مهزلة ، اضغاث أحلام . ماذا كان لديهم جميعا كي يكملوا ذلك الفصل من فصول الحياة العادية الدنيوية يا ترى ؟ كأس البيرة التي كانت تزبد وترغي ... أخذها من يد شاليل ، وهو عاجز عن التصديق انها موجودة فعلا . شرب جرعة ، فتعرف على المذاق القوي لحشيشة الدينار ... فيما كانت العجوز الضئيلة الحجم تملأ صحنه من صدر الدجاجة ...

ـ هل تتذكر اكلة البهار الهندي التي طبختها لك ذلك الشتاء ؟ سألته تايلا ، لكن اوفي تلعثم ، فسألت الام :

ـ ألديها استعداد لان تصبح طباخة ماهرة مثلي ؟ فقالت تايلا بنبرة تحد :

ـ ألا تريدين أن تكوني دمثة أو مستقيمة ؟

وفجأة استعاد أوفي تماسكه ثم رفع كأسه المترعة بالبيرة .

ـ اسمعوا ، لنشرب نخب أعظم اسهام في حضارة الطهو : البهار الهندي .

ـ وغد ! قالت تايلا وهي تضحك باستهزاء .

لكن ، منذ بعض الوقت كان شاليل يقف قرب صوان السفرة وهو يسبر غور الظلام وراء البيت ثم بدا في صوته نوع من التوتر الهادىء عندما قال دون أن يحول عينيه عن النافذة :

ـ أعتقد ان ثمة شيئا ما يجري في البيت المجاور .

* * *

وفي الحال اندفعوا جميعا الى زجاج النافذة يزحم بعضهم بعضا ، ويجيلون ابصارهم في الظلام ، بينما أخذت ظلال الليل تنبض نبضا مشؤوما فقد كان هناك دخلاء يحومون حول النافذة ، ملقين نظرات منافية للمرح والمزاح . بصوت منخفض اطلق زاشي لعنة ثم غمغم : « آه ! يا للعنة ! ليس ثمة سلام للمذنب » . بينما كانت اطباق الطعام تبرد منسية .

صدرت عن شاليل الهادىء والمتحفظ حازوقة مفاجئة في اللحظة ذاتها التي خرج فيها من البيت المنفرد طيف كان انتباههم قد تركز عليه . كان رجلا ضخما اكرش يرتدي صدرة قذرة يترنح تحت وطأة التعب من الحياة والتنازل ، فأحسوا جميعا أنه ما من شيء كان يعبر بمثل تلك الشدة عن الانهيار الكامل للارادةالانسانية. لقد كان ينظر بعينين لا تبصران ، أشبه برجل اغمض عينيه عن الامل والخلاص .

ــ لاحظوا عينيه ، قال شاليل بلا اي تعبير ، لقد فقد عقله .

ــ ماذا يفعل هنا ؟ سألت السيدة راماث .

ــ اعتقد انك قلت انه رحل ، وان البيت فارغ .

ــ وأنا أيضا ، غمغم شاليل ، فقالت تايلا :

ــ لقد هزل ، ثم اصرت ، لقد نقص الى النصف .

ــ من هو ؟ سأل أوفي .

ــ انه مهندس المناجم ، جارنا الذي حدثتك عنه ، وقد أكد لي أنه يعد حقائبه. انا لا افهم لماذا هو هنا .

كانت عينا الرجل الذي يسير بين الاسيجة أشبه بعيني رجل ميت غائب عن العالم وكل ما حوله . كان يتقدم ببطء وهو يجر قدميه مترددا وكان يلتفت الى الوراء ، ينظر الى البيت ، ثم يعاود المسير .

ــ لكأنه قد ذاب ، ذاب في بنطاله . لقد نقص الى النصف يا شاليل .

لكن جيرانه لم يفكروا في اية لحظة من اللحظات بدعوته . وفي المنطقة المحيطة بغدير الضوء الذي صنعه حين أضاء مصباح الشرفة ــ وهي حادثة غير مألوفة لفتت نظر شاليل ــ كان يمثل خطر وشيك لاحظه الجميع حتى أوفي وزاشي اللذان لم يكونا من الحي . لكنهم انتظروا وهم يراقبون .

ــ قلت بأنك تستطيع استخدام البندقية ؟ قال شاليل وهو يلتفت الى أوفي .

ــ نعم .

ــ « نصف الدزينة » ترك لنا واحدة ذات طلقتين . انها معلقة في . . .

ــ نعم ، لقد رأيتها ، اتريد ان اذهب لاحضارها ؟

ــ اذا اردت . فأنا غير قادر على استعمالها . الطلقات في علبة الكرتون على الكرسي .

ــ لكن كيف يمكن لرجل ضخم كهذا أن يذوب على هذا النحو وفي عدة أيام ؟ قالت السيدة راماث وهي ما تزال تتحسر .

ــ ما الذي كان يصنعه هناك طيلة ذلك الوقت ، اريد معرفة ذلك ، كنت أعتقد انه رحل .

عاد أوفي بالبندقية ، وبيت الطلقات مفتوح تلمع فيه كبسولتان نحاسيتـان ثم بـدأ :

ـ قولوا لي ، فبودي أن تكون لدي فكرة ولو غامضة عما يجري .

فأشار شاليل باصبعه الى أشجار ونباتات متسلقة حول البيت .

ـ أنا نفسي لا اكاد أفهم الامر (وكانت بقع بيضاء تتحرك بين الاغصان الخضراء وعيون تلمع بوميض حي) . لكنني ، ما زلت لا أفهم ، لماذا لا يزال هنا ، أو لماذا اختار أن ينتحر ؟ ثم التفت الى أخته ، أتفهمين انت شيئا ؟ فقد كنت هنا عندما جاء لنا بحاجاته كي نحفظها له . ترى هل قال شيئا لم ألحظه ؟

ومن جديد رات تايلا المشهد كله ... الصوت الضخم المنفتح وهو يجرع الكأس تلو الكأس بانطلاق وراحة بال . كانت قد حاولت أن تكتشف دلائل خوف على محياه لكنها لم تجد شيئا منها . فقد كان يشرب بيرته بالطريقة المعتـادة ، مفرغا الزجاجة دفعة واحدة . كما كان يتوقف ، يتكلم ، يضحك وصوته الضخـم يرن في أرجاء البيت كله ، بينما كان كرشه الكبير يطفح من صدرته القصيرة التي يرتديها للمساء ... ترى ما الذي كان يمر في خاطره خلال تلك الزيارة الاخيرة ؟

ومن جديد رأته يدخـل عبر البوابة الامامية ، نشيطا ، صلبا ، واثقا مـن نفسـه ، لا كما هو الآن بهيئته الكاريكاتورية وهو يجر نفسـه نحو موت محقق بـين أشجار الكرتون (١) ...... « آها ـ ها ! ظننتم انني سافرت ، هـا ؟ انتم الآن في قبضتي ، آه ! نعم ، أراد أن يفاجئكم عجوزكم نصف الدزينة فانظروا بمـاذا شغل باله . انـه نصف الدزينة الوفي ، لا أكثر ولا أقل . لقد اتخذت احتياطاتي . جعلت الناس جميعا يعتقدون انني سافرت ، بعد ذلك تماوت بانتظار أن يمر ذلك الجنون المرعب . لكنني خرجت لانني شعرت بالوحدة ، اذ لا احد أتحدث اليه وانا أتناول وجبتي المسائية من الزجاجات الست . فأين الخلل » ؟ كذلك رات تايلا من جديد ذلك الكرش الرجراج الذي كان فخورا به كل الفخر ... لقد كان ينفجر بالقهقهات المدوية عندما كانت الحشرات تتجمهر بعد المطر ، ... « كلا ، لن تدور مدة طويلة حولي . فهي تعلم أنني أسبب لها دوار البحر عندما ابتلع زجاجة من زجاجاتي المسائية تلك . لا، لن تقرصني ، بل هي في إثرك يا طبيب ، فأنت هزيل الجسم الى درجة يمكنها ان تتخذ منك مهبطا » . كان صوته الراعد يجعل سقف الاميانت يهتز . وكانت الذبابة الضخمة التعسة ذات الابرة المعقوفة ، تجد نفسها معلقة بحافة موجة هائلة بلهـاء رجراجة فتهرب بحثا عن قاعدة أكثر أمنابالنسبة الى طلعاتها الليلية ... ترى هل كان ثمة احساس بالضيق في مرحه ذلك المساء ؟ هل كانت شدة النبرة توحي بدنوه من الانهيـار ؟

---

(١) نباتات حرجية برية .

« أوه ! دكتور شاليل ، أحس أن قلبي خفيف كل الخفة هذا المساء . أحس ، ان ذهني خفيف ، روحي ، بل احس ان معدتي خفيفة الى درجة لا تصدق . . . نعم ، ذهبت في رفقتهم هذا العصر ، رافقتهم جميعا الى مركز السفر بالسيارات . في هذه الساعة ينبغي أن يكونوا قد أصبحوا في منتصف الطريق الى البيت ، بعيدا عن الخطر . وغدا صباحا ، سأتبعهم . فعلي أن أهتم بآخر الترتيبات . انت متأكد انه لن يزعجك الاهتمام بهذه الصناديق الضخمة ، هل أضايقكم ، آ ؟ » .

« حسن . هذه آخر الزجاجات الست لهذا المساء . كلا ، ولا زجاجة أكثر من نصف دزينة . ذلك لان المشاكل تبدأ هنا . فأنا لا أتجاوز نصف الدزينة في المساء . آخذ حصتي الطبيعية ثم اتوقف ، بعد ذلك اعيد الكرة ، ها ، ها ، ها ها ! لكن ليس هذا المساء . فعلي أن اعد آخر الحاجات . . . » .

ثم رأى ادوين وقد رفع عينيه فجأة .

ارتعشت تايلا ثم أغمضت عينيها وقطبت حاجبيها وهي تتذكر الرعب الذي اجتاحهم لانهم لم يحسبوا حسابا للانذارات .

« أما يزال ادوين هنا ؟ » استعادت تايلا في ذهنها سؤال المهندس ، ثم جواب شاليل الراضي عن نفسه : « أوه ! نعم ، بالطبع هنا . فهو المكان الاكثر أمانا بالنسبة اليه » .

وكان « نصف الدزينة » يهز رأسه .

ــ لا لا لا لا ، أرسلوه من هنا بسرعة . ثمة جسر جوي جديد غدا . أرسلوه بالطائرة ، لا تدعوه يذهب بالسيارة . فقال شاليل : « باستطاعتنا أن نحمي ادوين ، لكنهم لن يأتوا بالتأكيد الى هنا . فهم لم يهاجموا أي حي من أحياء المغتربين والاجانب » .

« أنا . . . أنا سفرّت أسرتي » ، هذا ما كان يردده نصف الدزينة ، وهو يغمغم كما يفعل السكران ، بصوت ما عهدوه من قبل . « لقد أرسلتهم جميعا الى بيتي . . . في مكان أمين » .

وبصعوبة بالغة نهض الرجل الضخم ثم وضع يده على عينيه وخطا خطوات عدة وهو يترنح . نهض شاليل بقفزة واحدة معتقدا أنه على وشك الانهيار ، فدفعه بحركة سريعة من يده « انا بخير . . . بل أشعر أنني على ما يرام ، أعتقد أنني سأذهب كي أنام الآن » « سأرافقك حتى طرف المرجة » هذا ما اقترحه عليه شاليل فأبعده الرجل الضخم بفظاظة بادية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم عاد الى بيته وهو يترنح .

ــ لكن ، ما الذي يصنعه ؟ يا الهي ! قال زاشي الذي لم يكن قد فهم شيئا بعد . اذ كان الرجل الذي يرتدي سترة بيضاء مغبرة تفيض على صدرته ، قد توقف

عند الحاجز الصغير الذي يفضي الى بستانه . وكانت الظلال التي تلقيها أضواء الشرفة ، التي كان يبتعد عنها ، تحفر في خديه الواسعين اخاديد اعمق مما هو طبيعي على ما يبدو ، حتى بالنسبة الى اولئك الذين كانوا يرونه للمرة الاولى . حينذاك قفزوا من الرعب ، رغم أنهم كانوا في قاعة الطعام ـ اذ سقطت طيوف من الاغصان المتدلية ، رؤوس ، بعد ذلك أكتاف خرجت من الحرش ، وبرزت اشكال صامتة من الليل وهي تدنو منه .

نظر نصف الدزينة بعين محملقة بلهاء ، بعد ذلك قاوم وهو يتقهقر نحو البيت ، طارفا بعينيه . كانت تفصله عن أول مطارديه خطوتان أو ثلاث . وكان أولئك يحرصون ، على ما يبدو ، على أن يرعبوه ، فاكتفوا باغلاق دائرتهم حوله ، كي يستمتعوا بمنظر الرجل الضخم وهو يوشك على الانهيار متضرعا اليهم أن يحافظوا على حياته .

شرع نصف الدزينة يركض ، فرد مطاردوه بأن انتشروا حول المسكن الذي كانوا يحيطون به احاطة تامة ، فجرى نحو المكان الذي خمن انه سيجد فيه الملاذ ، هناك سمعوا المزالج والاقفال تنغلق بشدة ، ثم خيم الصمت .

ـ يا للأبله ! أفلتت الكلمة من شاليل بصوت مرتفع . اما زاشي فعقد يديه ثم انهار على الكرسي جائرا :

ـ لا ، لا يمكن تركه هناك . أنا أعرف هؤلاء الاوغاد ، سيحطمون الباب بين لحظة واخرى ثم يقتلونه .

كان أولئك المطاردون الذين انتظروا طويلا في الظل ، يعتقدون على ما يبدو ان الرجل خرج كي يسلمهم نفسه متيحا لهم أن يذبحوه طبقا للاصول المرعية ، لكن تغيرا حدث في موقفهم حينذاك ، وكأن اللعبة لم تجر حسب توقعاتهم . فجأة قطع حبل الصمت صوت حجر يرتطم بزجاج ويكسره : تبعته احجار أخرى . فبدأ أوفي يتلمس الزناد المزدوج .

ـ بصراحة ، انا لا اعلم ما الذي ينبغي فعله . ماذا ينبغي أن نفعله يا إلهي العظيم ؟ ! !

فقفز زاشي .

ـ الهاتف ! لماذا يا ترى لا نتصل بالشرطة ؟

فهز شاليل راسه .

ـ لا يوجد هاتف .

ـ لكنك طبيب . وهذا حي الاطباء . فكيف لا يوجد هاتف ؟

ـ كان يوجد هاتف واحد ، فسرت تايلا ، لكنهم نزعوا الخطوط في اليوم ذاته الذي اتوا يبحثون فيه عن ادوين ، خادم شاليل . قتلوه على العتبة ، ولم يكن

هناك خيار . لقد ارغموا شاليل على تسليمه . كانوا أكثر من مئة . ولم يكن بوسع احد أن يفعل شيئا .

ثم اخذت تنتحب ، فأكملت الام بوجهها الخالي من التعبير رغم عذاب الذكرى التي دمغته ، بقية القصة :

ـ كنا قد خبأناه طيلة النهار ، لكنهم انتظروا . وكنا لا نستطيع مغادرة المنزل . بذل شاليل المستحيل ، اعترض ، هدد ، بل تحداهم و . . . بسبب ذلك ، أجبرونا على البقاء هناك ، في الممر ، وعلى التطلع اليه في الوقت الذي كانوا يقطعون فيه عنقه .

ـ الوقت ليل ، ولا يتوقعون أن نأتي لاغاثته . لكنني لا أعرف جيدا الاماكن المجاورة . لو كان باستطاعتكم ، فقط ، أن تضعوا لي مخططا اذ أن علينا أن نصل الى ما وراء البيت . .

فقال شاليل :

ـ سآتي معك .

ـ كلا ! .

ـ يتعين علينا ان نعيقهم ، تابع الطبيب كلامه دون أن يسمح لنفسه بأن تضطرب . لقد سمعت للتو سقوط الحجر الرابع في البيت . والقذيفة المقبلة قد تكون شعلة ملتهبة . ومن المحتمل انهم سيحاولون تدخينه .

ـ لا يوجد لدينا الا بندقية واحدة ، لاحظ أوفي ، اضافة الى ذلك انت لا تحسن اطلاق النار .

لكن شاليل كان قد اختفى في الرواق ومن هناك ، مضى الى غرفة تطل عليه . بعد ذلك بثوان عدة سمعوا صوت واجهتين زجاجيتين وهما تتطايران . ثم عاد الطبيب الى الظهور يحمل بيده قوسا هي ، من حيث المظهر ، نسخة طبق الاصل عن نموذج يباع بالمئات للسائحين في المطارات وامام نوادي الاجانب . بعد ذلك بدأ يتفحص سهما حديديا ، كان قد استله من الجعبة المعلقة في كتفه ثم قال :

ـ هيا بنا ، لقد درست الرمي بالسهام باعتباره طريقة تأملية ، لكنني جعلت معلمي ييئس ، اذ كان عاجزا عن الاجابة على احد أسئلتي بصورة مقنعة : لماذا اللاهدف لا يكون هدفا ؟ وحيث أنني لم أتوصل الى اليقين فيما يتعلق بهذه النقطة ، فقد ظللت باستمرار مترددا بين الفرضيتين . فقد كانت كلتاهما تعجبني . هيا بنا ، لكن هل يعرف قائد الجوقة قيادة لسيارة ؟

ـ زاشي ؟ بالطبع .

ـ حسن ، اذن ربما ستضطر لاطلاق النار ، وفي هذه الحالة عليه أن يعتبر ذلك اشارة للذهاب والبحث عن نجدة .

وفي الحال صرخت امه .

ــ وتتركوننا هنا وحيدتين ؟ فطمأنها أوفي .

ــ كلا ، سيكون عليه أن يصطحبكما معه . كما أنهم سيكونون مشغولين كثيراً بعد مفاجأة اطلاق النار . فأنا لا اعتقد انهم يتوقعون شيئا من هذا القبيل !

فوافق شاليــل .

ــ ان كانت هي العصابة نفسها التي قتلت ادوين ، وانا متأكد من أنها هي ، فهم سيكونون على قناعة تامة بأننا لن نتدخل .

ــ لا تتوقف يا زاشي أيا كان السبب . واذا قفز أحدهم امام السيارة لا تكبحها .

فطمأنه زاشي .

ــ باستطاعتي القيادة والاطر الاربعة فارغة من الهواء .

ــ اوفي . . . وكانت تلك تايبلا .

ــ نعم ، سنكون متعقلين .

قال ، ثم تسللوا عبر الباب الخلفي الى الخارج .

* * *

أحــد ابواب البيت المحاصر اهتز اهتزازا عنيفاً ، فسأل شاليل الذي كان يجلس القرفصاء تحت السياج بقرب أوفي :

ــ الم يحن وقت اطلاق طلقتك الانذارية ؟

ــ لم يحن بعد . من جهة أخرى لا أعتقد أنه يجب اطلاق النار لارهابهم فقط .

ــ هل تستطيع الرؤية في هذه الظلمة ؟ أنا لا أستطيع ذلك .

ــ لا تحاول البحث عن الوجوه . عين مواقع البومات البيضاء ، فمعظمهم يلبس ثيابا ذات لون ابيض ، أبيض مغبر لكن في النهاية . . .

فاخذ شاليل يبحث في الظلمة .

ــ آه ! نعم ، رأيت ما تقصده .

ــ لنحاول ايجاد الباب الخلفي الذي حدثتني عنه .

انطلق شاليل امامه ثم اندفعا محنيي الظهرين . وعلى بعد امتــار عدة توقفا وقبالتهما طيف يلبس قفطانا أبيض ويجلس القرفصاء وفي يده خرقتان ووعاء معدني وضعه على الأرض .

وسرعان ما صدمت مناخيرهما ، في قلب الليل الساكن ، رائحة البنزين الحادة .

ــ قل لي الا تعتقد ان الوقت قد حان الآن ؟ همس شاليل .

ــ ربما كان علينا ان نجرب سلاحك أولا ؟ فهل أنت واثق من انك تجيد الرمي بالقوس ؟

لكن شاليل كان قد وضع سهما في القوس .
ـ انها المرة الاولى التي أسدد فيها الى هدف انساني .
ـ الا بالمبضع ، أليس كذلك ؟ حسن ، حاول أن تتصور أنك تفعل الشيء ذاته ، أطلق السهم لكي تشفي .
ـ انا معجب بمزاجك البريطاني ، قال شاليل ، وقد أرجع السهم حتى الكتف ، لكنني بحاجة الى بعض إلتدريب ، فأنا لا أستطيع اخراجه بشكل آخر ، رغم أن هذه اللحظة لا تحتمل التباسا أو غموضا . لكن أتريد القول انه ينبغي جرحه فقط ام ماذا ؟
ـ أريد القول ان المهندس مريضك أنت .

فصعد شاليل زفرة « آ ـ آه » ثم أطلق السهم ، تبع ذلك دوي بندقية صيد ولهب أحمر هائل شق ظلمة الليل .

وفي الحال ، عبرت ذهن أوفي فكرة جنونية قبل ان يستطيع قياس الاثر الناتج : ترى هل كانت تلك هي القوة السحرية لرامي السهام الشرقي ؟ فشاليل نفسه كان قد انحنى فجاة من التأثر ، ثم جلس القرفصاء ، وكان دوي الطلقة قد طمس صرخة المكلف باشعال الحريق عند الباب الخلفي ، كما كان واضحا أن تلك الطلقة صدرت من مكان آخر في البيت . في اللحظة التالية رأيا نافذة صغيرة تفتح في مكان غير بعيد عن الباب الذي كانا يحاولان بلوغه ، ثم وجه رجل قلق يفحص الاماكن المحيطة ، بعد ذلك أخرج الرجل ساقه ، وهو راض ثم شرع يزلق كتلته الثقيلة من الفتحة الصغيرة .

كان أوفي اول من رآه ، واشار اليه باصبعه .
ـ أهو هذا ؟
ـ اوه ! اجل . انه نصف الدزينة ، فهل هو من اطلق النار ؟
ـ هيا ، أسرع لمساعدته في الخروج وسأبقى هنا واغطيك .
ـ يا الهي ! يخيل للمرء أنك فعلا . .
ـ أسرع !

ثم بدأ أوفي يلقي نظرات قلقة حوله ، وهو يراقب المشهد المضحك الذي كان يجري في النافذة . اذ كان شاليل على ما يبدو ، قد تصرف تصرفا ذكيا بان غمغم لتعريف الرجل بنفسه قبل أن يمسكه من خصره ويحاول تمريره بالقوة عبر الفتحة الضيقة . تلا ذلك تبدل سريع صامت ، اذ راى أوفي شاليل وهو يقفز ثم يمسك بمسند النافذة ويختفي في الداخل . وكان ما يزال مستغرقا في سلسلة الحوادث العجيبة تلك عندما أحس بخشخشة الاوراق الميتة وراءه تماما ، فتجمد في مكانه اذ سمع تنفس صوت رجل قريب الى درجة بدا معها وكأنه سيعثر به لو خطا خطوة واحدة أخرى . كتم أنفاسه تماما اذ كان متأكدا ان الآخر يجهل وجوده ، وأن عينيه مشدودتان الى

النافذة . خطا الرجل خطوة الى الامام ، فاستدار أوفي على ركبتيه معتمدا على سمعه وحده ثم ضرب سبطانة البندقية في الاتجاه الذي اعتقد أن كتلة العدو موجودة فيه . سمع فواقا مكتوما فانحنى جانبا ، بينما كان الرجل المنحني ، بتأثير الألم ، ينهار منكبا على التراب . وبلا تردد أمسك أوفي بالبندقية من الطرف الآخر ثم ضربه بأخمصها على رقبته : فكف الرجل عن الحراك . ومن جديد توجه بنظره الى النافذة ، فرأى شاليل يستدير معطيا بندقية أخرى لنصف الدزينة ، قافزا بعد ذلك الى جانبه . ثم بدأا كلاهما يجريان ، وهما منحنيان . كان شاليل يبدو وكأنه يدفع الآخر بمرفقه كي يجعله يتقدم . بعدئذ التقط قوسه وجعبته ، وقد بدا عليه شيء من ضيق النفس ، ثم دفع نصف الدزينة باتجاه بيته مغمغما :

ــ هيا ، يا عزيزي . لقد تأخرنا كثيرا هنا .

في تلك اللحظة ، حدثت فرقعة عنيفة جعلتهما يدركان انه تم اقتحام الباب الرئيسي أخيرا . وخلف بيت راماث ، سمعا سيارة تقلع . فمن الواضح أن زاشي الذي خدعه مصدر الانفجار ، كان ينفذ الاوامر . هز راماث ، الذي فهم ما يجري ، راسه وقد بدا عليه الضيق ثم عادا الى البيت واغلقا الباب بالمفتاح . اما أوفي فقد اتجه الى نافذة تطل على الجهة التي قدم منها ، ثم انضم الى الآخرين في القاعة وهو مقتنع بأن أحدا لم يلمحهما .

كان شاليل في تلك اللحظة قرب صوان السفرة وبعد لحظة عاد ومعه ثلاثة اقداح .

ــ اعلم أنك تفضل شرب بيرتك المعتادة ، لكنني الآن وبصفتي طبيبا انصحك بشرب هذه .

فأطاع المهندس ، دون أن ينطق بكلمة ، ثم أفرغ كأسه دفعة واحدة ، بعد ذلك مكث وقد تدلى راسه على صدره ، يحملق الى الارض بنظرات بلهاء ، أشبه بقرد ثقيل الحركة ، نصف مخبول ، نصف واع ، يجهل مكان وجوده .

ــ هل تريد أن تغتسل ؟ هل انت بحاجة لشيء ؟ . .

لكن الامر المدهش أن الآخر كان يفهم ما يقال له . لقد هز رأسه ثم رفع عينيه للمرة الاولى فرأى الطاولة وعليها اطباق الطعام التي لم تمس . ولبرهة من الزمن تأملها بعينين نهمتين وكأنه يحاول استيعاب ما يعنيه ذلك . اخيرا نهض بهيئة المصمم ، ثم سحب كرسيا جلس عليه واخذ يأكل .

تطلع شاليل واوفي واحدهما الى الآخر ثم هزا أكتافهما وجلسا الى جانبه يأكلون بصمت .

كانت ضوضاء الخارج تكشف عن ان نهب البيت كان ما يزال مستمرا . فالمهاجمون كانوا قد دخلوا هناك يفتشون عن طريدتهم بغيظ متعاظم . اما الرجل الذي انقذ من الخطر فكان يأكل دون توقف ودون أن يبدو عليه إثر من خجل . وهكذا

بدات أفخاذ الدجاج وجبل الارز المشبع بالبهار الهندي تتلاشى كلها دون أثر ، اضافة الى دزينة من اشياء أخرى أخذت من صحون صغيرة ، وذلك كله دون أن ينطق بكلمة واحدة . أخيرا توقف ، مسح شفتيه ثم مد يده فجأة فأمسك بقبضة شاليل اليسرى . لكنه اكتفى بتفحص الساعة . بعد ذلك سمح لجشأة عالية ممطوطة بالافلات ثم دفع كرسيه واتخذ وضع من يصغي ، فنظر أوفي الى الطبيب نظرة المستقيم . لكن هذا هز كتفيه ، متفحصا الرجل بانتباه شديد ، مشيرا برأسه وكأنه توصل الى فهم الحالة قائلا : « صدمة » .

فوافق أوفي .

بعد ذلك بأربعين ثانية تقريبا ، سمعت آذانهم رجة أرضية ، أو على الاقل ، ذلك كان انطباعهم . فقد بدأ الامر بانفجار مرعب ، ثم ارتجت الارض تحت اقدامهم بعنف شديد ، انقذف على اثره التراب على النوافذ كما اندلع لهب هائل في السماء الليلية . كان شاليل واوفي يلتفتان الى كل الجهات باحثين عن مصدر ذلك الانفجار الذي بدا وكأنه انطلق من كل الجهات في وقت واحد ، فاحتارا في أي اتجاه يهربان . أما الرجل الضخم فكان ما يزال هادئا . لكنهما سمعا بعد لحظات ، عبر السكون الذي اعقب ذلك ، والذي كانت تعكره فرقعة الحريق المنتظمة فقط ، سمعا نصف الدزينة يزفر زفرة هائلة ، بدأ بعدها يتكلم بهدوء .

ــ لا تقلقا بالنسبة الى البيت . فليس فيه شيء ذو قيمة . لا شيء على الاطلاق . لقد كان لطفا منك أن تأتي يا دكتور لكنني بالحقيقة لم أكن اتمنى أن يأتي أحد لنجدتي . فكل ما كنت أبتغيه هو أن أجذبهم الى الداخل كي يختفوا عن الوجود معي .

* * *

كان المهندس نودى قد توقع الحوادث ، لكن دون أن يصدق تماما أن هناك خطرا يهدده ، لهذا عزم على القيام بالتسوية الاكثر شيوعا : ارسال الاسرة الى مكان آمن في الجنوب والثبات في المكان الى أن يزول الخطر . فهيئة المناجم كانت دولة ضمن دولة : لها محطتها الكهربائية الخاصة ، وشرطتها الخاصة التي تقوم بالدوريات على أراضيها .

كما كانت قد احتفظت بنظام رواتبها التعسفي الخاص دون ان تؤثر فيه الثورة الصناعية في بقية انحاء البلاد . وكانت بالطبع تدفع ضريبة متفقا عليها الى صاحب النفوذ المطلق في كروس ــ ريفر : زاكي آمورى . بالمقابل كان الكارتل يحرص على أن يجعل مشيري الفتن يختفون في الليل بل حتى في النهار ، ولم يكن أحد يجرؤ على التحقيق لمعرفة ما يجري . من حيث الشكل ، كان هناك سود مثل نودى ، يتمتعون بامتيازات الكوادر العليا وكان ذلك يناسب أصحاب الهجمات المستمرة والمخربين من

النقابيين القادمين من جنوب النهر ضد غطرسة هيئة المناجم . كما كان من السهل التنبؤ بالنتيجة دائما . فمثير القلاقل ، المدفوع من عملاء الكارتل ، كان يطرد ويبعد بناء على اتهامات مزورة أو يوجد مقتولا على طريق مقفر . أما انصار مبدأ الحماية فكانوا يوحدون بين مصلحتهم وبين الحفاظ على احتكار البيض لارضهم ، وكانوا يضمنون ، من خلال جشعهم الطاغي ، استقلال مشاريعهم الذاتي .

وهكذا ، وعلى نحو لا مفر منه ، باتت هيئة المناجم هدفا لرجال آيرو مع ذلك لم يكن نودى يفكر الا بأن تبقى أرض هيئة المناجم مصونة لا يمسها أحد ، وفي حال الخطر كان يعود في الحال الى حرم الشركة موقفا تنقيباته بعض الوقت . كان ، حتى في اماكن التنقيب يشعر وكأنه في بيته : لم يكن يفكر بالخطر بل كان يعتقد أن لديه كل الفرص للبقاء على قيد الحياة . وخلال بحثه عن الفلزات في المساحات المقفرة الشاسعة في كروس ـ ريفر ، كان عادة ، ينصب مخيما يقيم فيه أسابيع متتالية ، يعيش بصحبة ضيوف الجبال والغابات الهزيلة ، سامحا لعائلات قرود البابوان المتنقلة بالمرور ، متتبعا اثر قط برى قبل أن يقتله . كان قد ولد في كروس ـ ريفر رغم أن له اقارب في الجنوب بالاصل لكنه لم يكن يعرف وطنا آخر . فقد كان من أوائل السكان الاصليين الذين حصلوا على المؤهلات اللازمة كي يكونوا منقبين في هيئة المناجم ، كان قد ذهب الى كولورادو للحصول على شهادة في هندسة التعدين ، فالتحق لدى عودته بالكوادر العليا في الهيئة باعتباره مهندسا منقبا . لكن لم يكن باستطاعته أن يرضى بأن ينظر الناس اليه كأجنبي في كروس ـ ريفر ، ولم يكن يفهم ذاك الذي بدؤوا يلقونه في روعه ، فيما يتعلق بالعواقب التي يجرها عليه ذلك : نزع الملكية بالقوة أو الطرد أو اقلاق الراحة بل حتى رفض الجيران له.. وعندما انتشرت الاشاعات بأن العواقب قد تكون فاجعة على نحو أكبر ، اقتضى الامر من يشرح له ذلك شرحا بطيئا منهجيا . لكنه ظل كالأعمى الى درجة بدت تقارب البلادة ، يعيش في منزله بين انصار مبدأ الحماية التابعين لهيئة المناجم ، وضمن دائرة أصدقائه المهاجرين وشغفه الغريب بالصيد .

كان بعض أوغاد الوسط السياسي قد ماتوا . كما كان المدير الابيض قد دعا مرة أو مرتين لعقد اجتماع يناقش فيه خطر بعض العقائد الهدامة التي بدات تنتشر بين العمال المطواعين حتى حينه . أما المذنبون ، وكان نودى يتذكرهم ، فقد تم التعرف اليهم في هيئة المناجم ومن ثم طردهم . كان يتذكر ان اسم آيرو ، وهي البلدة التي لم يكن قد سمع بذكرها ابدا ، يثير المشاعر ، أما أن يمثل ذلك كله خطرا شخصيا عليه ، فقد ظل بالنسبة اليه امرا عجيبا ، مع ذلك أبعد اسرته عن المنطقة ، لدى بعض الاصدقاء . أما ما عدا ذلك فقد كان يرفض التسليم بامكانية أي تغير في وضعه كمستهلك عام ومسالم لبعض المتع العادية التي كان وضعه الاجتماعي الرفيع يتيحها له .

قاد نودى اسرته الى محطة الطرق البرية حيث استأجر لزوجته واولاده الاربعة مقصورة الدرجة الاولى كلها من حافلة جديدة ، وقد تفحص السائق بعين الخبير فتبين له انه شخص جدي ومعتدل وانه قد يكون لديه أسرة يحبها كما يحب هو نفسه أسرته . بعدئذ ظل الى جانب الحافلة الى أن امتلأت بالمسافرين ، حينذاك تساءل لماذا لم يفكر بارسال الجلد الرائع لقنيصته الاخيرة ، ذاك الذي تمت معالجته ، الى الزميل الذي كان سيستضيفهم في ايلوزا . سأل السائق ان كان لديه من الوقت ما يكفي للذهاب الى بيته مدة لا تزيد عن العشرين دقيقة، فطمأنه السائق بان لديه الوقت الكافي . لكنه ، وهو عائد ، احس ببداية ذعر . وعندما غدا على بعد ثمانمائة متر من المحطة تقريبا ، تأكد من ان مصيبة قد حصلت للتو ، أو ان هناك ما يهدد بوقوع مصيبة رهيبة حتى أن يديه تبللتا من العرق وهي تمسك بالمقود وبدأت السيارة تسير بسرعة جنونية . سلك المنعطف الاخير فرأى الطريق مسدودا بعربات الشرطة ، وسحابات دخان كثيفة ترتفع هنا وهناك من محطة السفر البري ، فيما كانت ثلاث سيارات مقلوبة رأسا على عقب . وكانت المحطة التي تركها قبل قليل وهي تعج بأناس صاخبين متزاحمين ، خالية تماما . فبدا له ذلك التحول ، الذي حدث في وقت قصير للغاية ، امرا عجيبا .

بعد ذلك لمح ، من بين سيارتي لاندروفر تعترضان مدخل المحطة ، وعبر عناصر الشرطة الكثيرة ، الحافلة التي كانت أسرته تستقلها . وكانت الشرطة تسحب منها جثثا تمددها على الأرض .

لوهلة من الزمن ظل يرجو بكثير من اللهفة أن تكون حافلته قد سافرت وأن تكون حافلة أخرى قد حلت محلها . فتلك التي كانوا يخرجون حمولتها المشؤومة ليست حافلته بالتأكيد . اذ كيف يمكن أن يكون الحال غير ذلك وهم لم يأتوا الى المحطة الا بحثا عن امنهم ! اي دلالة يمكن أن تكون لكل ما يجري هناك ان لم تكن أسرة نودى قد مضت سعيدة ، بعيدا عن الخطر ، في حافلة جديدة كل الجدة يقودها سائق متروٍ يحسن القيادة عند المنعطفات الخطيرة ولا يتجاوز السرعة عند المنحدرات ، كما يعلم اذا اقتضى الامر ، كيف يتخلى عن حقوقه كي يتحاشى التأخر غير المفيد ، ولا يجهل بأن بخشيشا بسيطا يبلغ عدة شلنات يمكنه أن يفتح أشد حواجز الشرطة احكاما . . نظر الى مقصورة الدرجة الاولى والى الحيز الضيق الذي يقع خلف حجيرة السائق حيث المقاعد التي يدير فيها المسافرون ظهورهم له ، فرأى انه كان مفحما مسودا ، ما يزال الدخان يتصاعد منه ربما بعد اعنف حريق التهم حافلة على الاطلاق . كانت الشرطة تخرجهم واحدا واحدا ، امراة ، فصبيا صغيرا . . . فاندفع نودى ، صارخا صرخة حيوان جريح ، مخترقا صف الشرطة جاريا الى المكان . .

تغلغلت ابخرة بنزين الى جسده كله ، كما سجل بطرف عينه وللمرة الاولى عراكا يجري بين الشرطة وبعض اعضاء العصابة التي هاجمت الحافلة . أخيرا تعرف عبر

موجات الدخان ، على الاجساد التي اخترقتها السهام ، أما الأم فكان يبدو على جسمها ما يشبه ضربات الساطور ، ووجه البنت الصغيرة شوهته طلقة بندقية قريبة . وفي اللحظة التي اخرجت فيها آخر جثة ، احس بأنها أشبه بلحظة اللا رجوع ، لحظة توقف فيها كل شيء : الشيطنات ، المشاجرات العائلية ، مصاريف التعليم ، الجلاءات المدرسية ، ليالي السهر بجانب طفل محموم ، لحظة النهاية للروابط المبهمة تلك التي رآها ، اخيرا وفي تلك اللحظة ، تشكل كلا متماسكا كان باستطاعته أن يحدده بكل ما في الدنيا من عبارات محبة .. « نصف دزينة ، يا دكتور شاليل ، انهم نصف دزينة وذلك حين تعدهم وتدرجني ، انا الوالد ، أيضا بينهم : فأنا أحب أن أفعل كل شيء بأنصاف الدزينات . انظر .. طبعا ، إذا شاءت الصدفة ان يأتي طفل آخر فسيكون المجموع نصف دزينة بدوني ، واذا أتى واحد آخر أيضا فسيكون المجموع نصف دزينة بغير الأم ... » وتوقفت نظرته على اطارات الحافلة المقطعة وزجاج السيارة المهشم . بعد ذلك لمح جثة السائق فتذكر انه هو الآخر لم يكن من كروس – ريفر بالاصل . وصل الى مسمعه صوت ثم حطت يد على كتفه ، التفت فوجد ضابط شرطة يسأله :

– هل كان لك احد في الحافلة ؟

ثم كرر الضابط سؤاله المرة تلو المرة ، أخيرا دهش نودى نفسه حين اجاب : « لا ، لا ، لا احد » . ثم انطلق عائدا الى سيارته .

بعد ذلك ببضع ساعات كان المهندس يغادر وحشة مسكنه ليزور آل راماث . سأله الطبيب ان كانت امراته وأولاده قد سافروا ، فأجاب بالايجاب ، وبأنهم باتوا خارج نطاق الخطر . ابدت الأم ارتياحها ثم قالت انه ، وفق ما رواه شاليل ، قد حدثت اضطرابات في المدينة ، فقال نصف الدزينة نعم ، نعم ، أعلم ذلك ، وسأسافر غدا صباحا ، فأنا لم اجيء الا لكي أودعكم وأشرب آخر نصف دزينة لي عندكم ، فأخذ الجميع يضحكون .

في ذلك المساء ذهب الى هيئة المناجم . كان معه مفتاح مستودع المتفجرات فملأ سيارته بالجيلينيت ، ثم ابلغ البواب وهو يخرج ، والبواب من كروس – ريفر ، بأنه ذاهب الى بيته في منطقة الاجانب والمغتربين وانه سيبقى هناك الى أن تنتهي الاضطرابات . « ببساطة ، انا ذاهب ، كي احبس نفسي داخل سور مضاعف ، بعد أن ملأت خزانا بالبيرة » ، قال ذلك وهو يضحك ضحكة عريضة ، « لسوف أشرب كي اقتل الضجر . وهكذا ، اذا أرادت الادارة او اي شخص آخر معرفة السبب في عدم وجودي في العمل ، فانهم يعلمون مكان وجودي » .

ثم عاد الى بيته وانتظر ، فقد كان مقتنعا قناعة مطلقة ، في تلك اللحظة ، انه سيتلقى الزيارة المألوفة قبل انقضاء أسبوع واحد .

رأى زاشي الانفجار وسمعه ، فأسرع كالمجنون الى الفندق الاضخم والاكثر مركزية في المدينة حيث طلب الى المراتين الانتظار في البهو المزدحم ، فيما كانت مخيلته ترسم

له أشد الصور قتامة للاحداث التي كانت تجري في مكان الكارثة وجوارها . كان يشعر انه ضائع ، عاجز انما صافي الذهن الى درجة غريبة . حجز غرفة لشخصين باسم السيدة راماث ، ثم اخذ المفتاح وعاد الى حيث ترك رفيقتيه ، وضع المفتاح في ايديهما وأوصاهما بأن تذهبا الى غرفتهما في الحال وان تغلقا عليهما الغرفة الى ان تأتي اللحظة التي تسمعان فيها صوته أو صوت شاليل او صوت أوفي . وقبل أن تستطيع المراتان الاحتجاج كان قد اختفى .

فترة طويلة من الزمن استغرقه الامر قبل ان يتخذ قرارا فيما اذا كان عليه ان يستدعي الشرطة أم لا ، وهكذا ، قبل أن يتوصل الى حل للمشكلة ، طبقا للسناريوهات الخيالية التي صنعها حول الانفجار غير المتوقع ، كان قد أصبح بعيدا عن مركز المدينة ، في طريقه الى منطقة الأجانب ، فبعد كل حساب ان كانت الدوريات العديدة لم تر تلك الاشارة التي تعمي الابصار فهذا لا يعني سوى أمر واحد هي أنها ترفض أن تراها . كذلك لم يكن يعلم جيداً أيها يشكل الخطر الاكبر : شراذم القتلة التي تنتقل بكل حرية أم الجيش الذي لا يقل دموية وصعوبة ضبط أم الشرطة التي كانت بمجملها تحمل النوايا الحسنة لكنها ترهب الفئتين الاخريين .

غادر السيارة قبل أن يصل الى مكان الحصار بثمانين متراً تقريباً وأخذ يزحف عبر الدغل ، اذ كان قد قرر وضع خطة عمل محددة ، وكان من الافضل أن يذهب فيستطلع . وبحذر شديد تقدم عبر ذلك المكان المألوف قليلا ، يستولي عليه الرعب ويتجمد في مكانه كلما سمع صوتا لا يمكنه تحديد طبيعته . وقد بلغ هدفه في الوقت الذي كان يتوقعه على الاقل . كهيكل عظمي ، كان ركام البيت يرتفع مشؤوما في السماء الدكناء أكبر بكثير مما بدا له وهو بيت سالم في وضح النهار . كان يمحو المناظر الطبيعية حوله ، مبان ، منشآت ... ورغم أن ذهن زاشي كان مستعدا لتقبل الكوارث الا انه وجد أن من الصعوبة بمكان كبير ان يقبل الحقيقة . لم يشك زاشي لحظة واحدة في أن الطبيب وأوفي ، بفعل مجموعة الاحداث الغريبة ، قد ابتلعتهما الكارثة ، فالجدران الفاغرة أفواهها والرعب المتقلقل ، ذلك الرعب الشامل والكلي ، كان لها اكثر من ظل مقنع في الليل . وكان ثقب غير مغر كثيراً ينفغر في جدار جانبي منفتحا على نوع من الجحيم لا يمكن وصفه ، فدار حول البناء متحاشيا تماما الخروج من الدغل .

بعد ذلك لمح الدلالة الاولى : ذراعا مفحمة منزوعة من كتف ، ومقذوفة ، بلا شك ، عبر ثقب في الجدار . كانت قد استولت عليه ، وهو متربص داخل تشعب اغصان منخفض ، روح دعابة مرعبة تصلح لبعض مشاهد السيرك . وكانت عدة كتب قد تبعثرت هنا وهناك على المرج . كما كانت هناك شظايا واعناق زجاجات هي بقايا ليال كثيرة من انصاف دزينات البيرة التي كان يشربها نصف الدزينة ، ذلك الشخص العجيب .

لم تكن ثمة نأمة او حركة ، بل كانت هناك كل الادلة على انه لم ينج احد قط . تقدم زاشي وهو يتخلى شيئاً فشيئاً عن تحفظه ، ثم شرع ينبش وسط الرفوف المترنحة ترنح السكران وبين الخزف المحطم ، بعدئذ تسلق طاولة حصرها الباب . كان يتساءل ان لم يكن هناك جدار على وشك الانهيار فجأة عليه . لكن ذلك بدا وكأنه بات عديم الاهمية . رأى زاشي جسما ممددا قرب خزانة فساتين ، فبدا له وكأنه مر على فرامة لحم ، اذ كان لحمه قد استحال الى خرقة ممزقة بفعل الآلاف من شظايا الزجاج . صدمت منخريه رائحة بارود حادة فتساءل فجأة ان كانت هناك عبوات لم تنفجر بعد ... ثم تعثر ... لا ، ليس هناك من اثر لذلك المخلوق الضخم صاحب الميول الانتحارية ولا لمنقذيه . كانت كثرة الزجاج تلفت النظر على نحو خاص ، اذ كان يخيل للمرء ان اعصارا شديدا قد مر على بيت من زجاج قاذفا في كل اتجاه طلقات رشاشات قوية ثقبت الجدران والسقوف والاجسام . حينذاك لمح شخصاً ناجيا ، رجلا يبذل قصارى جهده للخروج وهو يزحف من الحمام ، عبر ثقب في الباب . كانت قدماه مكسورتين ، وكان شج كبير دام يغطي جهة كاملة من وجهه ، حتى ليكاد لا يبصر . لكنه سمع زاشي فرفع يديه صوبه بحركة متضرعة . ظل زاشي برهة طويلة ينظر اليه ، وقد همد ذهنه وفقد احساسه . ثم راقبه وهو يستنزف قواه ببطء . وينهار من جديد منكباً على الأرض ، فتساءل أن كان قد مات . لكنه رآه بعد ذلك يرفع راسه محاولا متابعة الزحف خارجا .

فجأة تملكته رغبة جامحة في أن يعمل ويعمل ، فأخذ يجري في كل مكان من البيت ، يلقي نظرات على الاجساد ، يرفع الانقاض وحطام الاثاث عله يستطيع التعرف بسرعة على الرجال المدفونين . لما اقتنع بأنه لا اوفي ولا شاليل كانا وسط ذلك الرعب ولا حتى في أطرافه المباشرة ، اطمأن نوعا ما فعاد الى الجريح كما وكأنه اكبر المشكلات في ذلك الليل . حينذاك فقط بدأ يتساءل ان كان رفيقاه قد التجأ الى البيت .

مكث الى جانب الجريح ، مندهشا من انفلاق ذهنه على نحو غريب ودائم . كان يبدو له وكأنما من صنع الخيال أن يعرض نفسه لآلاف المخاطر دون جدوى وهو ينبش بين الركام والجثث ! تذكر المخاوف التي عانى منها وهو يفكر بأن قتلة آخرين كانوا يرصدون مكان الانفجار فبدأ يرتجف ارتجافا عنيفا . كان ذلك يتجاوز طاقاته بل الحقيقة انه رأى أن العنصر الاكثر ادهاشا في الامر انما هو اشتراكه في احداث الليل . حينذاك حمل الجريح على كتفه واتجه نحو البيت .

في الردهة ، نهض السيد نودى وهو يترنح ثم التفت الى الطبيب .

— هل استطيع التمدد على ديوانك ؟ فأنا نعسان وبودي أن أنام اسبوعا متواصلا ، اذ لم يغمض لي جفن منذ اربعة أيام . كنت انتظر زيارة هؤلاء القتلة .

— اصعد . ثمة غرفة للاصدقاء لا يشغلها أحد .

في تلك اللحظة حاول زاشي فتح الباب الخلفي فتجمد الجميع في امكنتهم . بعدئذ قفز أوفي الى بندقية صيد ثم اتجه نحو النافذة . وعلى الفور تغير وضع نودى فانطلق يبحث عن سلاح بعيني مجنون ، ثم قبض على البندقية الاخرى التي جعل شاليل يرجع من أجلها الى الداخل عند انقاذه . أطفأ أوفي النور . وحاول زاشي فتح الباب من جديد ، وقد تملكه الرعب هذه المرة اذ لم يكن باستطاعته أن يصرح باسمه ، فاطفاء النور المفاجيء أوحى له باحتمالات اخرى . إذ من المحتمل كثيرا أن يكون الناجون من الهجوم قد احتلوا المكان . وهكذا مكث في مكانه متحيرا عاجزا تماما عن تكوين أقل فكرة واضحة . حينذاك أضاء شاليل مصباح الباحة الخلفية وهو يجأر : « من هناك ؟ » فارتجف زاشي ارتجاف قصبة في مهب الريح اذ كان على ذلك النحو قد تعرض دفعة واحدة للنور الباهر ، وكان قد ارتاح كذلك . عرفهم زاشي بنفسه فانفتح الباب . حينذاك فقط أحس بركبتيه تخذلانه وما ان أصبح داخل المنزل حتى انهار مع الجريح المبلل بالدم مثله .

— زاشي ، ماذا حدث لك ؟

وكان كل من شاليل واوفي متلهفا لمعرفة ما حدث للمرأتين .

— ليس بي من شيء ، ليس بي من شيء . انه دم الجريح .

حينذاك سألا اين توجد الأم والاخت .

ثم انحنى الاسيوي بسرعة يتفحص الجريح ، فيما أخذ زاشي يروي مغامراته . كان أوفي اول من لاحظ التغير الذي حصل للرجل الضخم . اذ حدث بالحقيقة أن حلت اللحظة التي فهم فيها نودي أن ذلك الجريح الذي يهم الدكتور رماث بتضميده ليس الا واحدا من أولئك الذين ارادوا قتله . فحاول الاستيلاء على البندقية من جديد لكن أوفي كان أسرع منه ، وخلال الصراع الذي تلا ذلك خرجت طلقة من البندقية فهشمت ذراعين من اذرع شيفا(١) وانتزعت اطارا من الحائط ، بعد ذلك وحد الرجال الثلاثة جهودهم لتطويعه فيما كان يحاول القبض على الجريح من عنقه . كان يدفعهم بقوة هائلة كمن أصابه مس ، مجيلا عينيه في كل مكان وكان الرجل الذي يحاول الامساك به لا يكف عن طلب العون من السماء ، أعضاؤه كلها ترتجف والدم يعمي عينيه . أخيرا بدا وكأن نودي قد ضعفت قواه ، ثم ادهشهما انه أخذ يتخبط بحثا عن الوصول الى النافذة . تنبه أوفي الى ذلك التبدل فألقى نظرة سريعة على مسند النافذة ليرى ان كان ثمة سلاح ، حاول نودي أن يتكلم مشيرا الى حاجته الملحة ، لكن حلقه كان مسدودا . فجأة أخذ يتقيأ تقيؤا عنيفا ، وقبل أن تستولي عليه تشنجات جديدة قاده أوفي الى دورة المياه ، بينما ذهب الطبيب يفتش عن حقيبته ثم اخرج حقنة ، أما زاشي فقد تخلى عن محاولة معرفة الوضع وانهار منهك القوى على اقرب كرسي .

---

(١) تمثال كالي المنتصب على قدم الفيل وقد مر ذكره من قبل .

« ١٣ »

كانوا يعلمون أن الاحتمال ضئيل في أن يروا صليبا ضخما منتصبا علـى برج الكنيسة فالاحتمال الاكبر هو أن تكون الكنيسة مموهة في مكان كالمكان الذي قصدوه . مع ذلك ، هناك ، حيث البرج الذي كان واضحا تماما أنه أضيف حديثا ، كان يمتزج بهيكل الكنيسة قوس كبير مشنع مـن أحرف ضخمة ذات لون أحمر فاقـع تقول : مظلة الأمل .

ـ الامل ! غمغم اوفي ، فقالت تايبلا وهي تضع يدها على ركبته :

ـ تشجع .

بعدئذ ترجلوا من السيارة ثم تقدموا نحو السور ، كان شخص ما قد ترك داخل البوابة صرة من الخرق وعصا . القى اوفي نظرة حوله على أمـل أن يكشف مكـان صاحبها ، ثم تابعوا السير الى أن وصلوا خلف الكنيسة ـ هنا تشبثت تايبلا ، التي لم تكن تكف عن النظر من فوق كتفها ، بذراع أوفي . بعد ذلك انفرجت شفتاها :

ـ اوه ! اعذرني لابد أنني خائفة اكثر مما ظننت .

ـ انت ، بالتأكيد ، لا يمكن أن تكوني خائفة مثلي ، فلا تتصرفي أقل . . .

ـ انظر ! لقد تحركت أيضاً صرة الخرق !

فأطلق زاشي صفرة .

ـ ها ، ذاك الشيء الذي مررنا قربه للتو ! لقد رأيته أنا أيضاً .

راقبوه بضع لحظات لكن ما من شيء عاد الى الحركة فهز اوفي رأسه .

ـ عندي فكرة وهي أنكما كليكما تريان الرؤى ، أما انا فقد سمعت شيئا ما .

ـ شيئا ما . تريد أن تقول نوعا من الغمغمة الضعيفة ؟

فهز أوفي رأســه .

ـ اذن فقد سمعتها انت أيضا ؟

ـ يا معلم ، انا لا أؤمن بالاشباح ، لكن هذا المكان يفوح برائحة الاشباح .

لم ترفع تايبلا عينيها عن صرة الخرق .

ـ ربما هو الهواء ، قالت أخيرا .

ـ اي سكون ، اي سكون مقلق ؟

ولبرهة من الزمن ظلوا بلا حراك ، وهم يصيخون السمع مع ذلك لم يسمعوا شيئا ، لم يسمعوا حتى الغمغمة المكتومة التي بـدا لهم انهم سمعوهـا تتسرب من باطن الارض .

لم يعد باستطاعة زاشي البقاء في مكانه ، فقال :
ــ هيا بنا ، فليس هنا من شيء . لابد أننا اخطأنا المكان ، لكن أوفي تقدم .
ــ كلا ، لابد من وجود أحد هنا ، سأذهب وأحاول النظر من احدى النوافذ الخلفية ، فقالت تاييلا : انتبه . ان كان ثمة أحد وكان خائفا فقد يهاجمك .

في مؤخرة المبنى راى أول ما راى بابا بدا وكأنه يؤدي الى غرفة الامتعة المقدسة . قرع الباب قرعا لطيفا فلم يلق جوابا . حينذاك هجم على النافذة جاذبا حافتها السفلى قليلا عله يفتح شقـا . كان كل شيء مظلما في الداخل . بعد ذلك ، وحينما كان ينتصب واقفا من جديد أيقن أنه سمع شيئا يتحرك . دار على عقبيه فميز على نحو واضح صوت مفتاح يدور في قفل الباب الذي مر أمامه للتو . انفتح البـاب قليلا ، ثم خرج رجل ووقف قبالته. كان الرجل يلبس جبة سوداء مهلهلة حائلة اللون، فتفحص أوفي بنظرة سريعة وجهه ذا التقاطيع الدقيقة التي كانت أشبه بتقاطيع شخص أجنبي كما تفحص بشرته الناصعة وزغب شعره . انه الرجل نفسه ، بدوي كروس ــ ريفر .
ــ هل تحتاج الى مساعدة ؟ سأل الرجل ، اسمي آليهو ، وأنا أعلّم اصـول الدين المسيحي .

في تلك اللحظة وصل زاشي وتاييلا فخلصا أوفي من الارتباك المفاجيء الذي وقع فيه . حيا زاشي المعلم فصافح هذا الجميع ، بعد ذاك شرحت تاييلا مهمتهم ، وحين انتهت اضاف أوفي :
ــ لعلك تعرف الملازم سايي من القاعدة الجوية ، فهو الذي اقترح علينا ان نأتي للبحث في الكنائس الشبيهة بهذه الكنيسة ، ان كانت إيرييز موجودة فيها أم لا ، ولعل باستطاعتك أن تدلنا على كنائس غير هذه الكنيسة .

فبدا وكأن لاسم الملازم الاثر المرجو اذ هز المعلم رأسه .
ــ قد يكون من المستحسن ان تدخلوا غرفة الامتعة المقدسة وتنتظروا هناك. أما أنا فسأذهب كي استفسر لكم .

لكن الغرفة العارية لم تكن تحوي سوى كرسي واحد .
ــ ليس لدينا اثاث كما ترون . لكن بامكان السيدة أن تجلس على الكرسي ، أما السيدان .. فطمأنه أوفي .
ــ لا تشغل بالك ، سنكون على ما يرام ، هكذا .

للحظة من الزمن ، تردد المعلم ، وعيناه تنظران الى تاييلا ، اذ كان يود قول شيء ما على ما يبدو . اخيرا ابتسم ابتسامة خفيفة محت التوتر وثقل العناء الذي بدا وكأنه عقد زاوية عينيه ثم قال :
ــ انت جميلة جدا .

شكرته تايلا ، وهي مندهشة سعيدة ، فاستأنف :

ـ لست جميلة وحسب ، بل ممتلئة نورا (وألقى نظرة على الغرفة الرطبة حوله) . هذه الغرفة تشع ، ولعل هذا بسببك .

ثم استدار نحو الخارج ولدى وصوله الى الباب تردد قليلا ثم واجههم من جديد .

ـ اتساءل ان .. كنتم تودون المجيء بأنفسكم . بامكاني الاستعلام واخباركم . لكن ... انا أتمسك بشيء .. فأنا اتساءل ان كانت رؤية الزوار لا تجعل الجو هنا بهيجا بعض الشيء ، فهو كالح للغاية . وفي الحال نهضت تايلا :

ـ بالطبع سنأتي ، ان كنت تعتقد أنه سيكون لذلك تأثير حسن .

ـ منذ زمن طويل لم يدخل حياتهم شيء جميل او مضيء ... لكن تعالوا وانظروا بأنفسكم ، والرجاء أن تنتبهوا الى رؤوسكم ، بل الافضل أن تسيروا منحنين .

فتح الباب ، فحدث لديهم انطباع بأنهم اصيبوا بعمى مفاجيء أو أنهم دخلوا ظلمات غير قابلة للنفاذ . مع ذلك ، وصلت الى مسامعهم اصوات عرف فيها أوفي الغمغمة غير المحددة التي سمعها قبل ذلك ، رنين النشاط والانس البشري وقد كتم . بعد ذاك وصلتهم وشوشة طفل ثم جسم خشبي ثقيل ، هو مقعد ولا شك، يحتك بالارض ، وأقدام حافية تلامس الاسمنت .

لم تكن عيونهم قد اعتادت الظلمة بعد ، حين أحسوا ان دليلهم يتوقف أمام حاجز ويقرعه . بعدئذ ادركوا أنهم باتوا فيما يشبه غرفة أمامية ، هي عبارة عن صندوق مستطيل الشكل قليل الارتفاع ، حقيبة كبيرة الحجم ، منجدة ومبطنة . تلمس أوفي جوانبها فوجدها مصنوعة من الخشب ، ولا ريب ، وقد نقشت عليه نتوءات غريبة . رفع رأسه قليلا فمس السقف على ارتفاع لا يزيد حسب تقديره على متر ونصف . فتح الباب ردا على نداء الكاهن ، فأدرك أنهم كانوا ، بالحقيقة ، قد دخلوا جرم الكنيسة من منتصف المذبح . فهل كان « الباب » نفسه متراساً ضخماً يمكن لأيدٍ غير مرئية ان تسحبه ؟ كانت الضجة في الداخل قد اشتدت الى أن أصبحت اللغة الموقعة لقفير نحل . بعد ذلك غاصوا في ظلمة أقل حلكة بقليل ، فقال الكاهن :

ـ سيتعين عليكم أن تسيروا بانتباه شديد .

كانت أيديهم وأرجلهم تلامس المادة البشرية ، خطوط الكفاف للاجساد الفاترة، وكانت الاجسام تخلي لهم الممر لكن لم يكن باستطاعتهم تمييزها بعد . كانوا يتقدمون، وهم يتلمسون بحذر شديد ، طريقهم عبر حشية من أطراف بشرية كثيفة تفترش الارض ، وعيونهم لا تفارق قذال دليلهم الشاحب ـ فيما كانت النظرات تنبثق من هنا وهناك مالئة الحشية بحشد من الحباحب . فقد كانت هناك الف عين تدور

باتجاههم ، تلمع لحظة من الزمن ثم تضيع في الظلام . كان أوفي يتصور الخوف والامل والتحدي الغريزي في كل عين تتوهج وسط الظلام . اضافة الى ذلك كان هنالك أولئك الذين كانوا اكثر شبها بفراشات ضئيلة الحجم ، ترفرف بلا جدوى وبلا تعبير . انهم الاطفال .

سمعوا غناء ، اذ كف مرورهم عن اغتصاب الاحاسيس من قبور غير مرئية ملأى بأجساد ممددة جاهزة للنحت . ومن وراء تلك الاقدام المشدودة كلها ، من زاوية المعبد حيث الظلام يتكدس ، راحت تنتشر اصوات ثم تتقدم باتجاههم ، عميقة ، منفلقة ، مستغرقة في ذاتها . مع ذلك كانت ، هي الضعيفة الحذرة ، تشكل ما يشبه شالا واقيا فضفاضا ينفي الخوف واليأس . لكن كان بامكان المرء أن يشعر في ذلك كله بالتيقظ ، بالتنفس الخفيف لكلب توقف فور سماعه صوتا غير طبيعي كي يكشف الخطر فيه .

كان احدهم قد سمح للضوء بأن يدخل قليلا من كوى ضيقة . فاخترقت أشعة شاحبة القاعة بصورة موازية للارض لكنها أعلى منها قليلا ، وهكذا كانت رؤوسهم ، وهم يتقدمون ، تطفو فوقها وكأنها منفصلة عن اجسامها .

كانوا يرون النقطة التي يبدأ منها السقف والدعامات قبل أن تختفي في الظلمات العليا ، كما يرون الجدران ، التي كان قسم منها يطفو فيما يشبه الضباب الوهمي ، وبعض اللوحات البدائية لاطفال مجنحين وملائكة ذوي هالات عجيبة . أما البقية الملأى بظلال بشر مضطجعة أو جاثية أو جارة نفسها أو موشوشة ، فلم تكن سوى مدفن طويل تشكل الاشعة بالنسبة اليه سقفاً من نور شاحب يتراقص فيه الغبار .

— يخيل للمرء أنه في معسكر تحت الارض ، همست تايلا وقد صدمها الذهول، فأمامهم تماما ، ابتعدت ساق على مهل كما ارتفعت يد واهنة قبل أن تعاود السقوط . أما دليلهم فلم يكن يكف عن الانحناء وتوزيع تربيتاته الخفيفة وملاطفاته بل انه ذات مرة انتصب حاملا طفلا بين ذراعيه ثم توقف وهو يضع اصبعه تحت انفه مشاكسا اياه لكن الطفل ظل هادئاً هدوءاً غريباً ، بلا رد فعل ، بلا ضحك ، بل بلا ظل ابتسامة ، بعد ذاك أعاده الى اليدين اللتين كانتا ممتدتين ثم تابعوا طريقهم ، والنظرات الثاقبة تلاحقهم حينا من الزمن قبل ان تتحول عنهم .

اخيرا توقف المعلم امام شكل سداسي من الاسمنت مجهز بغطاء من الخشب .

كانت اجران المعمودية قد تحولت الى طناجر وكان الوقت ، على ما يبدو ، وقت تناول الطعام ، اذ كانت مغرفة تغوص في الاجران لتخرج منها بنوع من اليخنة تفرغها في طاسة تختفي بين الايدي الممتدة وهي تنتظر . راح الثلاثة ينظرون الى

الطاسات وهي تنتقل من يد الى اخرى على طول الصّف ، فحدث انطباع لدى أوفي بأن محتواها ساخن .

ـ أحد الرجال هنا كهربائي ، أوضح الكاهن حائلا بينهم وبين الاندهاش وقد اقام تحت الاجران جهازا كهربائيا يمكننا بواسطته اعداد وجبة ساخنة كل يوم على الاقل .

كانت الاشكال الساكنة تنتصب مجموعة بعد أخرى وكان الاطفال قد نشطوا اذ اعقب ذلك صرخات وتأنيبات وأصوات تهدىء ، فبدأ الزائرون ، وقد اعتادت عيونهم الظلمة ، بتمييز حشد كبير من الرؤوس والاذرع . كانت ثمة قطع من قماش معلقة بالضوء ، وكان بامكان المرء أن يلاحظ وجود اشياء استخدمت حتى ذلك الحين كمخدات . فالحقائب ، أكياس القماش ، علب الكرتون ، أجهزة الراديو ، اغطية آلات الخياطة ، وعلى وجه الخصوص الحزم اللينة والرخوة التي تشهد كلها على فجائية الكارثة والهرب ، كانت قد سويت كمخدات ومساند ، وكانت تلك الحزم تبدو في الظلمة غير الكاملة وكأنها تنبض بحياة صلبة ، عنيدة أما الكاسات التي كانت تتنقل بين الايدي والرؤوس ، سواء كانت من خزف أم المنيوم أم غضار أم تنك ، فكانت توزع الجوهر الدافىء ذاته ، جوهر النجاة .

لم تكن عينا الكاهن تكفان عن البحث ، حتى وهو يتحدث الى المراة التي كانت تقدم الطعام في اجران العمادة . اشارت بمرغفتها فاتجهوا نحو جناح ظلمات أخرى حيث كانت الاناشيد قد بدأت . لم تكن الظلمة هناك الا ضبابا رماديا يثقبه مائة شعاع مشوش ساقط من عاكس صوت الجرس . وهناك كانت أثداء تخرج من الصداري واطفال يرضعون محدثين ضجيجا . كما كانت هناك ظلال أجسام مقمطة بلفائف وسخة ترقد دون حراك ، ورؤوس تتدلى على المقاعد لمحها الزائرون بجلاء اكبر . فعلى تلك المقاعد كان ثمة شيوخ ممددون يحاول بعضهم قراءة بضعة اسطر من الانجيل على الضوء الضعيف . وكانوا من حين الى آخر ينشدون الاناشيد ، بصوت رزين مرتعش بتأثير السن . من أحد الجوانب ارتفعت همهمة رصينة : فقد كان اثنان منهم جالسين على أحد المقاعد ، الواحد بجانب الآخر ، وبين أيديهما كتاب الصلوات ، لكن أعينهما كانت ، تحدق امامهما مباشرة ، دون ان يكفا عن الترتيل .. « الرب راعيّ ، ولا ينقصني شيء . على مروج العشب الغض يريحني . فهل أجتاز هاوية الظلمات ... » .

ـ سيدي القس ..

فالتفتوا حيث برز وجه رجل من ذلك البحر الرمادي ثم بدا يقترب ، تخططه اشعة الضوء . كانت شفتاه المتألمتان تجدان صعوبة في تشكيل الكلمات . فوضع الكاهن يده على كتف الرجل .

ــ ما الامر ، يا ميخائيل ؟ هل يسوء حالها ؟
ــ أعتقد أنها تحتضر ، يا سيدي القس !

مر الكاهن أمامه ثم اختفى في الضباب ، حيث لحق به الآخرون للتو . ركعت تايبلا الى جانب هيكل بشري لامرأة ممددة على جانبها وقد ضُمَّت ركبتاها الى صدرها . كان نصف الوجه يختفي تحت غطاء قطني مثبت في مكانه بخيط يلتف حول الرأس ، وكانت المرأة تتنفس بصعوبة بالغة . رفعت تايبلا الرأس ثم وضعته على ركبتيها فيما أخذت المرأة تكف شيئا فشيئا عن مصارعة الموت .

وللتو ، وجد أوفي نفسه ، وجها لوجه ، أمام كائن بشري حطمه الالم والمعاناة، وجهه يتلوى وملامحه تتفكك ، هناك حيث كانت الكلمات تخرج مختنقة .
ــ الكل ماتوا ، كلهم يا أختي ، اطفالنا جميعا ماتوا . هي الوحيدة التي بقيت لي . فاذا رحلت لن يبقى لي أحد ، لا أحد على الاطلاق ... سيكون علي أن أموت. لقد تركوني للموت ، وسيكون علي أن أموت ...

سمعوا تايبلا تتحرك ، تضع رأس المرأة بكثير من اللطف على الارض ثم تنهض وبعد أن رفعت عينيها صوبهم قالت بصوت هادىء :
ــ لقد ماتت ...

انهار الرجل قرب الجسد الذي لا حراك به ثم بدا ينشج . بعد ذاك اقتربت بعض الظلال ، ثم بدت عبارات الكاهن وكأنها آتية من بعد سحيق .
ــ انها الوفاة الرابعة مذ بدؤوا بالوصول الى هنا ، فقد توفي الاطفال ، الواحد بعد الآخر . قبل ذلك توفي عجوز مسن ...

كانت مجموعة من الناس قد تجمعت حولهم . فبدا على الكاهن وكأنه عاد الى واجباته . اذ أحنى رأسه ثم غمغم : « الرب أعطى ، الرب أخذ ، فليبارك اسم الرب » . تسرب الخبر الى المدفن ، نفثة من الصقيع في الهواء الذي كان قد بدأ يدفأ ، فتحولت الظلال التي تقيم فيه تحولات مختلفة الدرجات وهي تتزاحم متقاربة ، متطهرة من مخاوفها الفردية وهي تغتسل بنبع حدادها المشترك،من هنا وهناك بدات الصلوات ترتفع بأصوات مخنوقة ، كما قبلت أم طفليها ، وقد استبد بها حب مفاجىء ثم ضمتهما الى درجة اوجعتهما بها ، فيما كانت دموعها تسيل على المرأة المجهولة . كان الموت قد مد مجساته الباردة في الظلمات الحالكة ، لكن دون أن يترك أثرا من خوف في القلوب ، اذ كانوا قد رأوا الكثير منه .

قدر الكاهن ولا شك الاحساس الذي راود الزوار بأنهم دخلاء فالتفت اليهم قائلا :

ــ لنعد الى غرفة الامتعة المقدسة . سأطلب الى من نحتاج رؤيته أن يتبعنا إلى هناك . فبدؤوا ، وقد شعروا بالارتياح ، يتبعون ظله الذي كان يرسم الطريق

عبر القاعة المحمومة ، قاعة الآلام . فتساءل أوفي في سره عن الانطباع الذي يمكن أن يتركوه لدى أولئك اللاجئين كلهم ، وخاصة تايلا الاجنبية الفائقة الجمال ، وهي وسط هذا الشقاء كله وسط هذه البأساء . مع ذلك ، عندما غادرت مهد الموت الصلب ذاك ، كان في عينيها بحار واسعة من الحزن ، وبريق معاناة لم يكن يعتقد أنه يمكن لفتاة في مثل سنها أن تعرفها .

رأى أوفي ، يعذبه احساس غامض بأن وجوده مزعج ، أن ضيقه يتحول الى سورة غضب حين كان الكاهن يتوقف المرة تلو المرة منحنيا لتهدئة طفل ثائر أو الهمس بكلمات المواساة لظل جديد يبرز من الظلمة أو الامساك ، بأصابع متيبسة لعجوز مريض نهض بجسمه الشديد الهزال قبل لحظة من الزمن كي يتلقى تحيتـه . هوى العجوز من جديد على الارض وقد ارتسمت على وجهه الشبيه بالمومياء ابتسامـة غبطة . كانت احدى ذراعيه قد فقدت ، يدل على مكانها غطاء من أسمال وغمـد من كاوتشوك ...

منذ متى وهـم يختبئون في هـذه المغارة ، كم سرداب آخر للموت ، كهـذا السرداب ، ينتظر أن يكتشفه قبل أن يوقف البحث والتفتيش ؟.. ميسّالا ... ميسّالا ؟ انبعث ذلك الاسم في ذهنه .. عفونة ، تأريخ بالفحم ١٤ ، مخطوطـات تتفتت ، كتابات تمحى عند أول تعرض للشمس .. تضحية شجاعة بالنفس ثم دفن ورقاد ألف من السنين . أهذه هي ماسادا ؟ هل تبـدأ الاشياء هكذا دائما ، وهل هكذا تولد الكنوز التي تجلب ماء المعرفـة الى أفواه الباحثين المتعطشين للمعرفة ؟ مخطوطات البحر الميت ، عظام الموتى الذين لم يحظوا بالراحة قط . فقد أدرك أنه كان يلقي نظرة لا ارادية الى أنحاء الملجأ الذي ترك لديه انطباعا بأنه ضعيف سيء الدفاعات . وفجأة خيل اليه أنه يرى حشدا ينقض عليه ، يفتح ثغرة في الجدران .. ثم حديد ونار ، سلب ونهب ، أسوار تتداعى تحت كتل النار . استخراج منهجي للانقاض آجرة آجرة ... ثم غبار ورماد ، تذروه رياح أفريقيا الغربية ...

بماذا يا ترى يشغلون انفسهم ، علماء الآثار أولئك الذين تقض أيديهم دائما مضاجع أشباح التاريخ ، الا يوجد ما يكفي من الادلة الكلية الوجود ؟ لماذا ترفـع الاحجار العتيقة للاتهام وتكشف العظام المغبرة للادانة ؟ دعوا ذلك كله هادئا مطمئنا. علّوا التراب فوقهم وحولهم عسى أن يغطيهم العشب ،وتغذي الذرة البيضاءالوافرة اطفال الناجين . ومن الآن وحتى مئة سنة ، حين تنقل البلاد منشآتها الخاصـة بصناعة الحديد ، وتبلع الفكوك الحديدية هذه التلة الغريبة المنسية ، لا تدعـوا المنقبين يدخلون بين كسرات الخزف ونثراته تلك التي طهرتها الآلام ، أو قرب أجران العمادة وتلك الاسلاك الكهربائية الملتفة حول قاعدتها التفافا غريبا . ففي نهايـة المطاف ماذا تجدي اعادة تمثيل الجريمة تلك التي لا طائل وراءها ما دامت لا تستطيع

منع تلك الاشياء من ان تتكرر ، بل ولا التحذير منها .. آه ! أجل ، تنقيب تنقيب تنقيب ... غرفه ساحرة ، ساحرة سحرا مطلقا .. تنقيب تنقيب تنقيب ... الا ترون هذا المزلاج المكسور ؟ انظروا اليه جيدا . كان على المحاصرين أن يدخلوا من هنا ، فما رأيك في ذلك ؟ تنقيب تنقيب تنقيب . هذا القطاع .. أقترح أن نحفر هنا ... تنقيب تنقيب تنقيب ... انظر ، يا للحظ ، حقا ! انه هيكل طفل لا عطب فيه . تنقصه قطعة من جمجمة ، ربما ضاعت بضربة فأس .. لننتبه ، ولنتابع عملنا بهدوء .. ما الذي كنت أقوله لكم ؟ انه تاريخ رائع تماما . مدهش حقا . حاولت الام ان تحمي طفلها بجسدها ، هذا جلي تماما ... مؤثر .. مع هذا الدهان الخزفي ، سيخيل للمرء أنه تمثال لهنري مور .. بالغ الجمال ! وهذا .. نعم ، هذا الوضع ، كان يصلي ولا شك عندما قتل . هذه الشخصيات الاثنتا عشرة ضمن ... لا .. لا بد أنها غرفة الامتعة المقدسة .. أنا لا أرى أي جرح ، وانتم ؟ ربما ماتوا مختنقين . هذا يذكرني ببرجوازية كاليه . هدوء الشهداء هذا ، حتى بعد الكثير من السنين . اما ذاك الذي يتمدد بجانب المذبح ، فيخيل للمرء انه جرح في مكان آخر لكنه زحف الى هنا كي يموت .. لا نستطيع ان نفتح أصابعه دون كسر عظم أو عظمين ، انني جد خائف . لكن من المستحسن الحفاظ على المذبح .

« أمر غريب حقا . هياكل ، عندنا هياكل أكثر مما يلزم .. قولوا لي اذن ، هل تتذكرون آلات الخياطة القديمة هذه ؟ انها للقية ، وافترض أن معظمها جلبه الى افريقيا المبشرون في العهد الفيكتوري . بالمصادفة انا أعرفها قليلا ، كما تعلمون ، لان واحدا من أجدادي المشهورين ...

أتعتقدون ان هذا رماد أجسام ؟ فحم اجسام ؟ فالفحم يتمتع حقا بخواص رائعة للحفظ .. سنتحدث بهذا مع ذلك الشاب حين يصل هنا . والفضل في ذلك يعود الى طبقات الرماد ، على ما أعتقد . رائعة حقا . لا بد ان هذا كان مرعبا . طائفة غريبة تماما ، لم أصادف شبيها لها قط . طراز من المسيحيين الاصوليين على ما اعتقد ... كانوا يحبون تصوير الملائكة بطريقة بدائية للغاية ، ذلك يذكرني قليلا بالفتى المسيحي الاثيوبي .. أناس قريبون جدا من اليونان الاورثوذكس ، هؤلاء . التاريخ غريب ... ولا بد من أن نحاول ايجاد الدلائل على وجود وسيط من ابناء النيل ....

كاروثر ! تعال بسرعة لـ انظر الى هذا ! الا ترى ؟ من المؤكد انه ليس طرازا زنجيا . انه امرأة ، انظر الى زينة الصدر هذه ! الى هذا العقد . بالتأكيد ليست هذه مصادفة ، فهي مجوهرات هندية . والعظام . امسك طرف المتر ، اذا اردت ... اترى ما أريد قوله ؟ عظام رائعة ، اطراف عجيبة تماما . جميلة ؟

يبدو انها كانت خارقة للعادة . انظر خط الفكين . الرجل من طراز زنجي ، بالتأكيد . انه تالف تماما نتيجة الضربات التي تلقاها . لا بد أنه قضى وقتا طويلا

حتى مات . متوحش ضخم . سنضع عليهما بطاقة باسم كازيمودو وازميرالدا ، ما قولك بهذا ؟ أوه ها هو ذا آخر . . .

من قلب الظلمة خرجت يد طفل وشدته من بنطاله ثم سمع أوفي ضحكة صغيرة فخفض عينيه وهناك على الارض ميز أوفي الرسوم التي كانت البنت الصغيرة قد خطتها . كان ثمة قليل من الضوء وكانت الطفلة قد رسمت على مساحة تقارب المتر المربع ، عصافير وبيوتا وحيوانات واشكالا مجردة وكانت تريد من أوفي أن يتأمل ذلك ، فتوقف ثم ادار الطفلة بيديه . نظر الى عينيها ، فرآهما يتحولان الى محجرين عاريين ، زالت منهما الى الابد سعادة الابداع ، حتى بالنسبة لاولئك الدخلاء أصحاب المعاول الذين لن يستطيع شيء منعهم من التنقيب في دهاليز المستقبل وقد اكتست بمعطف من رماد .

اجل ، ياكاروثر ، لك الحق . هو طفل فعلا من رسم هذه الرسوم على الحجر ، ما أهمية ذلك الآن ؟ بعد ذلك رأى أوفي مجموعة من الاشياء المتباينة ، تبدأ في زاوية من زوايا مربع الضوء وتمحي في مكان أعلى ، في ظلام الجدار . كانت البنت الصغيرة قد نحتت ذكرياتها المأساوية عن الكارثة في هذه الزاوية المظلمة : طفل رضيع بين السماء والارض غائص في الجمر . . . وشخص ملتف بعباءته ، يشرف على مكان المذبحة ورتل طويل من الضحايا ينتظر . . . كانت عينا أوفي قد تعودتا الظلمة تماما فرأى أن الطفلة أوصلت الرتل حتى الارض كما رسمت صورا على الجدار حتى أعلى مدى تستطيع يداها الصغيرتان بلوغه بعد ذلك كانت ثمة أشكال مدورة. خبز مقدس ؟ بصل ؟ أم هي بكل بساطة مجموعة صرر ؟ الحيز الذي لم تكن تشغله مشاهد الذبح والقتل كانت تغطيه أرغفة غير منتظمة من الخبز ، هل كان أحدهم قد اتى لتوزيع أرغفة الخبز ؟ أم هي الصرر التي كانت منتشرة في كل مكان رمزا للتشتت ، التفكك ، الاهمال النهائي للذات .

نهض أوفي ثم مد يده مداعبا رأس الطفلة لكنه توقف في الوقت المناسب ، فقد بدت حركته مفعمة بتعال بالغ الفظاظة . لحق بالآخرين بخطى سريعة ، ثم سحب صندوق الخشب من جديد فاجتازوا المذبح قبل أن يدخلوا غرفة الامتعة المقدسة . بعد ذلك أغلق معلم الدين الباب .

ــ أحد الاخوة الرهبان يسأل عنها ، فهم جميعا يعرفون السيدة بسبب ملصقات الاعلانات واذا كان احد منهم قد رأى أو سمع شيئا عنها فاننا سنعرفه في الحال (قال ذلك ثم التفت نحو تايلا) آمل أن لا يكون ذلك قد ارهقك كثيرا ، فربما كان علي ان لا اجعلك تدخلين . . . .

ــ انا لست ضعيفة كما يبدو علي ، طمانته تايلا .

ــ كلا ، لكن ، من المؤسف أن تموت تلك المرأة في هذه اللحظة بالذات ، اذ أن وضعنا ليس قاتما دائما على هذا النحو ، فسأله أوفي :

ـ كيف تجدون ما يلزم لتغذيتهم ؟ فابتسم الاب :

ـ الرب تكفل بذلك ، ولدينا امين توريدات صغير ممتاز ، زد على ذلك انه هو الذي أنذرنا باقترابكم ، واذا كنا لا نزال على قيد الحياة فالفضل في ذلك يعود اليه ، فسأل زاشي .

ـ أهو واحد من هنا ؟

ـ أجل ، وارى انكم لم تلمحوه عندما دخلتم . اما هو فلم يرفع نظره عنكم لحظة واحدة . انه كلب حراسة رهيب . قد يكون عليكم أن تتعرفوا اليه . انـه يجيد التخلص الى درجة كبيرة ، وقد يكون مفيدا لكم ذات يوم . (فتح الباب ونادى): آلييـو .

فتحرك ما كانوا قد حسبوه كومة خرق ثم أخذ يكبر ، بسلسلة حركات متقطعة كالحركات التي نقوم بها لتجميع دمية ، وهو يتمطى وينقبض افقيا ، الى الامـام ، الى الخلف ، الى الجنب متوصلا بذلك الى أن يرتفع في كل مرة عدة سنتمترات . لقد ميزوا شيئا فشيئا محورا مركزيا ، العصا التي كانوا قد لاحظوها وسـط الخرق . بعد ذلك راوا ساقا نحيلة ملتفة عليها مثل نبات معرش ، أما الاخرى فتكاد تكون أكثر نحولا ، مفككة الاوصال لكنها من حيث المظهر أمتن . ضرب الارض وهو يصنع زاوية غريبة . الذراعان وحدهما كانتا قويتين ، فذلك الرجل الميكانيكي العجيب لم يكن على ما يبدو ، قادرا على التنقل الا بقوة دفعهما . فوق تينك الذراعين وفوق الكتفين القويتين برز رأس مستطيل مرتب وفق محور افقي تماما ، وقـد خربه الجدري . كانت احدى عينيه مغلقة باستمرار ، وكان طول الجمجمة المدهش يزداد بفعل قبعة مخروطية الشكل مشكوكة في الخلف . أخيرا عندما انتهى الرجل من الانتشار اقترب منهم بعدة قفزات قوية الى اليمين . فتعرف الزائرون الى الشكل المألوف ، الى التجسيد الواضح لمقاومة الجسم الانساني ، اللعنة بيئة كروس ـ ريفر ، لتلك الاوبئة التي تعود باستمرار ، لتلك الجائحات التي تنشر العمى ، لتلك الامراض السارية التي تصيب النخاع الشوكي وللذباب الذي يصيب الذهن بالخمول . فجأة سأل أوفي وهو يواجه ذلك الظهور الذي يوشك أن يكون لا انسانيا ، فيما اذا لم يكن التعطش الى الدماء ذاك الذي يسيطر على أولئك الرعاع ، مجرد إرث من المناخ . فعلة كهذه تشبه عقابيل التهاب السحايا أو تسمم الدم الذي تسببه ذبابة التسي‌تسي . ونقص الشعور بالمسؤولية يمكن أن يعزى الى فيروس موجود في الهواء يغرق ضحاياه في لجة الحاجة الى اذلال انسانية أكثر حظا وذلك يجعلها تنسجم مع صورة المهـا الذاتي وامتهانها الذاتي ؟ أم ان هناك يا ترى حالة ميتافيزيكية فعلا تدعى الشر ، تنتشر مثل الوباء وتدعهم عرضة لان يتلاعب بهم رجال مهرة في التخطيط لكنهـم بلا شرف ؟ لا بد أن هناك سببا يتجاوز الحسـد المادي ، طالما انهم كانوا ، والى حد بعيد ، اندادا لهم في تجربة الحرمان . لا بد أن هناك سببا يتجاوز الحقد الذي

يشعرون به تجاه حق ضحاياهم في الحفاظ على عاداتهم وهم يعيشون بينهم ، اذ لم تحصل مذابح وحسب بل اختلطت المذابح بالتلذذ . كان التعطش الشديد الى التخريب يتجلى في اتساع نطاق المذبحة وفي الاساليب التي كانت تبتكر من أجل تنفيذها ، لكأنهم يفتشون عن تعويض لتحولاتهم الوحشية وتشوهاتهم الجسدية باهانات انتقامية تقذف في وجه الانسانية .

تطلع اوفي الى الحثالة الباقية من ذلك الرجل فذهل ازاء السعادة التي كان يطفح بها وجهه الموسوم بالجدري . كان ذلك الشيء ، الذي صبت الطبيعة عليه كل الشرور وبأقصى خبث مركز ، ذلك الكائن المتنف نصف الاعمى ، الاحدب ، المنفر ، ذلك الانسان المهزلة ، يستقبلهم بود وسرور صادقين . فقد وجه تحية اجلال الى معلم الدين وانتظر .

رد آليهو له تحيته ثم سأله :

ـ هل كل شيء على ما يرام يا آلييو ؟

فابتسم آلييو ابتسامة عريضة :

ـ ك شي رام (أي كل شيء على ما يرام) .

ـ ها هم أصدقاء ... وها هو آلييو ، الرقيب الاول وأمين التوريدات والحارس والرجل الصالح للقيام بكل شيء في معسكرنا .

مدت تايلا يدها بشيء من العصبية ، فحيا آلييو تحية جديدة واضعا عصاه بحيوية واضحة تحت ابطه متكئا عليها كي يحرر يده ويصافح اليد التي امتدت اليه ، بعدئذ صافحه زاشي ثم أوفي وأضاف زاشي الى المصافحة تحية . فبدا ذلك وكأنه وسيلة للتصالح مع الانسانية ، لعدم رؤية شيء سوى الرمز المشوه ، ذلك الهيكل الملعون الذي يفلح في الابتسام والنجاة رغم كل الجوائح . تابع آليهو اطراءه :

ـ اتعلمون ما هو الاسم الذي اطلقه عليه جماعتنا هنا ؟ اسد الظلمة .

فازدادت ابتسامة آلييو اتساعا أيضا . ومن جديد قدم التحيات لهم كاشفا عن اعوجاج فظيع في أسنانه الضخمة ، وسط وجهه التالف ، فقال له آليهو :

ـ ادخل وابحث عن السيد نفوزي واسأله عما اذا كان قد اكتشف شيئا .

لم يلبث وجه آلييو ان تكدر وهو يلقي نظرة ذات مغزى على مركز مراقبته فطمأنه معلم الدين .

ـ سيكون كل شيء على ما يرام ، فنحن سنبقى هنا للحراسة . ورغم انه بدت على المشوه هيئة الارتياب الا انه حيا ثم اطاعه .

ـ لقد قتلوا قسنا ، قال لهم آليهو ، لكنهم لم يذبحوا انسانا آخر . لقد خرج لمجابهتهم فقتلوه . كان آلييو قد جاء الينا منذ بعض الوقت ، يقيم أمام المعبد أيام

الاحد ويستجدي . ذات يوم سأله القس عما اذا كان يود ان يقوم بأعمال صغيرة ، أن يسهر على نظافة المكان ، أن يكنس من حين الى آخر ، فارتبط بنا بهذا الشكل . لكنه ما ان رأى رئيسنا يقتل حتى انقض عليهم بعصاه يضربهم ويشتمهم . كانوا جميعا من المنطقة المجاورة مثله وكانوا يعرفونه جيدا . قال لهم ان عليهم أن يقتلوه أولا ان كانوا يريدون مهاجمة المعبد . أجل ، كنا جميعا ننتظر في الداخل محبوسين، متمترسين ، خائفين ، مرتعدين ، وكان الرئيس قد أخذ منا وعدا بأن لا نتحرك ما دام هو لم يفشل ، رافضا أن يأخذ معه سوى آلييو .

احس اوفي بقناعة يقينية مفاجئة فسأل :

ــ أنت من كروس ــ ريفر ، أليس كذلك ؟

فوافق الآخر بابتسامة حزينة .

ــ لم يكن اسقفا من كروس ريفر وكان علي أنا أن أواجه الحشد ، فأنا أتحدث لغتهم . لكنه لم يرد الاصغاء الي . ربما كان لمخاوفه ما يبررها . اذ ماالجدوى من اننا ننتمي لمنطقة واحدة ، ذلك أن هناك فروقا كبيرة . فالمكان الذي أنتمي اليه ، ينزع الناس فيه الى النظر نظرة تعال الى سكان كانتوا . ولعلهم كانوا سيغضبون غضبا جنونيا لدى رؤيتي . (ثم أضاف وقد بدا عليه انشغال البال) : لكن من يدري ان كانوا سيهاجموننا عما قريب ؟ عندما يكون الاجانب المزعومون قد طوردوا وذبحوا أو طردوا ، ان كان التعطش للقتل لم يرتو بعد .. (وهز كتفيه). فسألت تايلا :

ــ ألم يمروا بعد ذلك أبدا ؟

ــ القتلة ؟ أوه ! بلى . مروا وهم عائدون من معسكر أسوأ حظا . كنا متمترسين وصامتين ، تماما كما وجدتمونا اليوم . وبالطبع اعتقدوا أننا هربنا ، هجرنا المكان. مع ذلك توقفوا ، وهم يتساءلون ان كانوا سيحرقون الكنيسة أم لا ، لكن آلييو توصل الى ابعادهم . قال لهم اننا هربنا وتركناه حارسا واننا ندفع له أجرا كبيرا. على كل حال الله وحده يعلم كيف توصل الى اقناعهم فقد اكتفوا بمناكدته قليلا ثم ولوا . لكن قبل ان يولوا ألقى أحدهم اليه رأسا مقطوعة كهدية ، وقد دفناها هناك، بجانب قسنا .

وصل المدعو نغوزي عبر غرفة الامتعة المقدسة ثم وقف على العتبة ، بهيئة المذعور ، غير المصدق . التفت اليه آلييو ، وحين رأى تعبير وجهه أخذ يضحك ..

ــ أعتقد أن من الخير لنا أن ندخل ، فالسيد نغوزي يظن انني مجنون بتعريض نفسي على هذا النحو ، رغم أنني لم أكف عن القول لهم انني لست عرضة للخطر ، لكنهم لا يرغبون حتى بالسماح لي بأن أذهب للتبضع مع آلييو ، ان لم يكن ذلك في الليل .

هز آلييو رأسه هزة قوية ثم ابتسم ابتسامة عريضة والتحق بمركزه وهو ينط . فتقدمهم آليهو الى الغرفة مغلقا الباب من جديد .

ـ سيد نفوزي ، هاهم الناس المعنيون ، ثم قام بالتعريف ، فصافحهم الرجل الضخم ، الذي لم يكن يكف عن النظر من فوق رأس الزائرين ، بشيء من التحفظ والتعاظم . بعد ذلك سعل ثم بلع ريقه ، وعيناه تحدقان الى الجدار باستمرار .

ـ ها ؟ سأله آليهو داعيا اياه الى التكلم .

ـ الاخبار ليست حسنة ، أخ آليهو . (ثم تردد) لكنها ليست أكيدة . فقال آليهو ، تشجيعا له :

ـ استمر . فهؤلاء الناس يبحثون عنها منذ بعض الوقت .

ـ نعتقد أنها موجودة في تيموكو وربما هي تحتضر أو ميتة . فقد ادخلت امراة داخل السور ، مع بذل كل الجهد ، على ما يبدو ، كي يظل الأمر سرا . حدث ذلك ليلا وقد أوصلتها سيارة اسعاف عسكرية ، حتى انهم ابعدوا الحراس الاعتياديين عن الحاجز . لكن كان بعض رجالنا مختبئين قرب جدران تيموكو حين اتت بها سيارة الاسعاف . وكانوا يتساءلون هل يقرعون الباب كي يسمحوا لهم بالدخول أم يتابعون سيرهم ، فرأوهم يخرجون نقالة من السيارة ، فيما كانت ممرضة تمسك بقارورة وانابيب كاوتشوك مثبتة بذراع المرأة ومنخريها . كان الظلام مخيما لكنهم استطاعوا أن يلمحوا وجهها . لم يكن يبدو عليها أنها تتنفس .

حل صمت طويل ، بعد ذلك صاغ اوفي طلبا :

ـ بودي ان اتحدث الى هؤلاء الشهود .

ـ استدعهم ، أمر معلم الدين .

فأحس اوفي بأصابع تايبلا المواسية تلامس ذراعه .

* * *

« ٥ »

الأبــــواغ

« ١٤ »

ـ حسن ، مهم للغاية أن تكونوا قد اهتممتم ... قرعون ، قرعون ، قرعون ...

ـ مهم للغاية أن تكونوا قد اهتممتم كل الاهتمام بتلك السيّدة ... قرعون ، قرعون ، قرعون ...

كان من العبث أن يحاول تثبيت ذهنه على موضوع بحثه . فقد بدأ يفكر بالقدم المشوهة لمدير تيموكو الذي كان يلمح ابتسامته العريضة امامه والذي كان يختفي قسم كبير منه خلف مكتب رحب ، ملمع ، مغطى بطبقات من المصنفات . اهو قزم ؟ وجعله ذلك يفكر ببيضة مدورة على ظهر نملة ، فتلك الرقبة المتصلبة البارزة فوق ذراعين متقاطعتين تجعل المرء يشك كل الشك في أن هناك حدبة في الظهر . ربما كان لقاؤه القريب مع آلييو قد بدأ يشوه رؤيته . كانت موسيقى الصنوج تصطدم بنخاع محدثه الشوكي ثم تنبو عن قذاله لتجلد سطح الطاولة ... قرعون ، قرعون ، قرعون . بعدئذ حدث توقف . قرعون قرعون قرعون ... وكان ذو القدم المشوهة يبدو وكأنه لا مبال بتلك الموسيقى مع ذلك كانت عباراته تبدو وكأنها تتابع الايقاع الطاغي على كل شيء .

ـ هل أنت غير موافق ؟

ـ أنا ... لماذا ؟

ـ لماذا ؟ تسألني لماذا ؟

قرعون قرعون قرعون ...

يجب أن يتوقف هذا . ركز تفكيرك . احتفظ بحضور ذهنك كله . فاذا تركت اشارة واحدة ، تفلت ، واذا لم تدرك حاستك السادسة الاشارة ...

ـ هذا المكان يبعث الفرح في النفس ، قال ذلك وكأنما هو مرغم عليه .

فأخذ الرجل الصغير يضحك كاشفا عن أسنان حمراء وثقوب سوداء ، فقد كانت لديه عادة مضغ الكولا .

ـ الناس في الخارج يعتقدون انه من معارض الموتى . ومن يدخل هنا يتخلى عن كل أمل أو شيء من هذا القبيل . لكن هذا غير صحيح . انه عالم منفصل ، هذا كل ما في الامر ، عالم منفصل .

ـ أ ... جل ...

كانت أفكار الرجل ذي القدم المشوهة تبتعد عن أقواله بقدر ابتعاد أفكار اوفي عن أقواله ، وقد احتاج الى وقت طويل كي يدرك ذلك . فالرأس الشبيهة بالقبة

كانت ملأى بأسئلة تتعلق بذلك الدخيل . والعينان اللتان كانتا مجرد شقوق خلفية لمحاجر ضئيلة الحجم الى درجة مضحكة ، كانتا تخفيان نوعا من التحذير . فالبحث الذي كان يبدو تافها تماما وخطرا تماما كان يمتلىء شيئا فشيئا باحساس داخلي بما سيقع . وتلك الاجوبة المزمورية على تحقيق عادي عن شخص اختفى ...

قرعون قرعون قرعون ..
ـ مهم للغاية أن تكونوا قد اهتممتم

قرعون قرعون قرعون ..
ـ كل الاهتمام بتلك السيدة ...

قرعون قرعون قرعون ..

حاول أوفي أن يطمئن نفسه : طز ! اخيرا ! فأنا لي الحق في أن أستعلم كأي شخص ! لكن ما كان يطمئنه بطريقة ملموسة اكثر هو أن يتذكر أنه ترك زاشي ينتظره عند الحاجز .

كان الرجل ، بيضة النمل الضخمة ، قد نهض لتوه متوجها نحو النافذة ، وهو يجر وراءه رجله اليسرى المخفية . وكان قصر قامته يظهر على نحو واضح كل الوضوح، رغم أنه ما من شيء كان يذكر أوفي ، ولو من بعيد ، بطيف آلييوغير الجذاب . دفع بذراعيه القصيرتين والمفتولتين النافذة ثم نبح .

ـ هـ .. ي ! انت ! هناك ! كف عن هذا القرعون قرعون قرعون . امض وافعل ذلك بعيدا من هنا .

وعلى الرغم من رغبة قدمه اليسرى بعدم الاسراع ، فقد كان يبدو قادرا على التنقل بسرعة . اخيرا ، عاد الى مكتبه ثم ابتسم .
ـ لاحظت أن الضجيج يزعجك ، اذ لم تكن تستطيع الانتباه جيدا لمحادثتنا .

محادثة ! هل يعني بذلك تهرباته التكتيكية ؟

فأخذ أوفي يعترض ، كلا ، الصنوج لم تكن تزعجه على الاطلاق ، فأصر ذو القدم المشوهة :
ـ الآن ، المكان اهدأ ، وبامكاننا ان نتفاهم .. أجل ، ما الامر ياترى ؟ وكان يقف عند الباب رجل ، حيا تحية لاعيب فيها .
ـ نعم ، نعم ، ماذا تريد ؟
ـ المعذرة ، يا معلم ... لم أسمع الامر الذي اعطيته يا معلم .
ـ ابتعد بجماعتك من هنا ، فهذا الـ : قرعون قرعون قرعون يزعجنا .
ـ طيب ، يا معلم . ثم حيا واختفى .

ــ كذاب ، قال ذو القدم المشوهة وهو يصعد آهة ، لقد سمعني جيدا ، (ثم حرك يديه ضجرا) . انها تسلية يتسلى بها على حسابي ، معتقدا انني لا أعرف شيئا عن ذلك ، لكن كل ما يريدونه مني هو أن يسمعوني أقول قرعون قرعون قرعون . وهذا لا يهمني على الاطلاق . فقد دخلت لعبتهم . وهم سعداء بهذا كما انه يريحهم ان اعاقبهم . . . أتدري ما هو القرعون ؟ . .

ــ القرعون ؟ . . انه القوقعة ، اليس كذلك ؟ فهوى بجمع يده على الطاولة

ــ تماما ! وهذا يعني أنهم يسمونني انا المعلم ! قرعون اغبين ! الحلزون الذي يجر قوقعته . لم اكن أعلم أنني أمنح نفسي لقبا يوم صرخت لاول مرة بجماعة السخرة كي يكفوا عن قولهم قرعون قرعون . أما الآن فلم يعد هذا يزعجني في شيء .

ــ لكن ذلك أثر فيك قليلا حينذاك ؟ قال اوفي وقد شعر أن عليه أن يتكلم .

ــ ما من احد يحب أن يسخر الناس منه . بل ان قومنا يعتبرون السخرية من التشوهات الطبيعية ضربا من الخطيئة : اذن ، ما الذي يجعلهم يفعلون ذلك بي ؟ لكنهم ليسوا منا ، بالطبع بل ان معظمهم من أماكن أخرى . أنا لا أريد التهجم عليكم ، الا أن قومكم تنقصهم الشفقة والاحترام ، بالمعنى الذي نفهمه . في البداية ، كنت أعتقد انهم يضحكون من طريقة لفظي . لكن لا ، كانوا يجدون تسلية في ان أصوغ بنفسي الشتائم التي يمكن أن يستخدموها ضدي . نهاية المطاف ، لم يعد لذلك أية أهمية لقد تعلمت كيف أتعود عليه . ترى هل كنت يوما من الايام عرضة للاستهزاء سيد اوفي ؟

ــ او . . ه . . هـ . . و . بالنتيجة . طبعا ، هذا يحدث باستمرار .

ــ فكر بتلك التسليات الخفيفة التي تتم على حسابك ، بتلك الحوادث التي تخلق لديك ، من حين الى آخر ، الاحساس بأنك أحمق . كلا ، ما أريد قوله هو : أن يكون الانسان هدفا مختارا للسخرية ، شأني أنا . باستطاعتك ان تتصور هذا بسهولة ، منذ طفولتي ، وطوال المدة التي بقيت فيها في المدرسة ، رغم انني لم أبق فيها مدة طويلة . فأنا بصورة خاصة عصامي . لم يكن لدي مال لاتمام دراستي ، كان علي أن أعمل كل شيء بنفسي ، أشتغل كل شيء . ليس كالاثرياء مثلكم ، آ ؟ أب غني ، عمات وأعمام أغنياء . كان علي أن أتدبر أمري وان أتابع الدراسة بالمراسلة ، وكانت مكلفة للغاية ، ليس فقط فيما يتعلق بالامتحانات بل بكل تلك الكراسات التي تراها تصرخ : كيف تصنع الاصدقاء وتكسب ثقة الناس ، كيف تنمي حس الدعابة ، كيف تشرب مائة نخب ونخب ، ثم تلقي خطبة في ختام وجبة العشاء . . . ليس ذلك لانني اذهب الى امسيات وأشياء أخرى ، بل لان ذلك أسهم ، في نهاية المطاف ، بايصالي الى حيث انا الآن (وتوقف فجأة) .

آه ! نعم ، أين وصلنا ؟ يجب ان اكف عن سرد قصة حياتي عليك . نعم ، نعم ، نعم ، نعم نعم ! أين وصلنا سيد اوفي ؟ .

غير أن الهاتف قاطعه هذه المرة .

ـ نعم ؟ آلو ! ... آلو ! ... (وغطى الجهاز بيده الضخمة مبتسما فجأة ابتسامة عريضة مشيرا برأسه الى اوفي) . اولئك البيض الذين كانوا هنا في السابق ، ثمة شيء يحظى باعجابهم الشديد ! اللباقة . لقد كنت شابا في غاية اللباقة . أنا لست بصدد الافتخار بنفسي ، فهي هبة من الله ، هكذا بكل بساطة ، اما أن تكون موجودة لدى الانسان أو غير موجودة ... رفاقي لم يفهموا قط لماذا اخترت أن اتابع دراسة تخصصي في انكلترا . والحقيقة لم يكن هناك سوى أربعة مقاعد دراسية متاحة لقسمنا في البلاد كلها ، وقد حصلت على واحد منها ... آلو ... نعم ، نعم ، الادارةالمركزية؟ هنا ، مكتب نائب المدير العام ، نعم ؟ قلت نائب المدير العام . نعم ؟ انا طلبت الادارة المركزية ، الادارة المركزية ! مصلحة المياه ؟ (وهز جهاز الهاتف غاضبا) . من تراه في مقسم الهاتف ؟ آلو ، آلو ، انت ! لماذا تعطيني مصلحة المياه ؟ منذ اكثر من ساعة طلبت منك الادارة المركزية . كفى سلامات ، بحق الله ، الاولى بك أن تعطيني ما طلبته منك .

ووضع السماعة بعنف ، ثم نزع نظارتيه وشرع يمسحهما ، شاوصا عينيه على نحو رهيب ، وكأنه لا يبصر . .

ـ أمر مخجل ، فالروس والامريكان يجرون المحادثات عبر القمر أما نحن فلا نستطيع حتى الاتصال بالهاتف داخل البلد (ومن جديد ظهرت الابتسامة العريضة على حين غرة) . اراهن بأن هذا المستخدم يقول للآخرين الآن ان فرعون أفلتت الكرة منه هذه المرة ايضا .

رد أوفي على ابتسامته بحركة تعاطف ثم تطلع الى الحائط حيث راى الراس مثل قنبلة مدفع تنفجر ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، وتتناثر المادة الرمادية في كل مكان . لكن الراس كانت ما تزال في مكانها ، وكان باستطاعة أوفي أن يتوقع ، وهو يرى النظارتين ترجعان الى مكانهما ، ما الذي سيقوله تماما :

ـ ماذا كنا نقول ؟

ـ انا ابحث عن ...

ـ آه ! نعم ، تلك السيدة ...

ـ لو تستطيعون فقط أن تدققوا في سجلاتكم وتقولوا لي ..

ـ سجلات ؟ آه ! لكنني لم أشرح بعد ، فانا لدي توجيهات بخصوص تلك السيدة . نعم ، نعم ، من اجل ذلك رايت الامر مثيرا جدا أن تأتي الى هنا بعد فترة وجيزة من وصول تلك التوجيهات الي .

ـ توجيهات ؟

ـ كلما يتعلق بهذه السيدة ، كله على الاطلاق ، يجب أن أقدم عنه تقريرا الى الادارة المركزية (وامسك بملف من الملفات) . هنا عدة مذكرات عن القضية . ها ، ها ، لابد أن تلك السيدة مهمة للغاية .

ـ اذن ، فهي هنـا ؟

حرك الرجل اصبعا مثيرة للسخرية ثم ابتسم ابتسامته المريضة :

ـ آه ! أنا لم أقل ذلك ، لا لا لا . يجب الا تجرني الى قول ما لم أرد قوله .

ـ لكن هذا واضح . لماذا يرسلون اليك تعليمـات بخصوص شخص لست مسؤولا عنه ؟

ـ يا صديقي ، هذا هو ما ندعوه بالمحاكمة المنطقية الرياضية الخاطئة . فليس لهذا علاقة حتمية بذاك ، بالحقيقة . بل أفكر أن علي أن أعيد عليك محاضرتي حول الفكر الواضح والمنطق ، وأنا أقترح عليك الحلول التالية : الاول ، أنها كانت هنا ثم نقلت . الثاني ، لم تكن هنا أبدا ، بل في مكان آخر من منشآتنا ، ولما كنا نتوقع القيام بتحقيقات ، فمن الطبيعي أن ترسل الادارة المركزية تعليمات الى الاقسام . الثالث ، لم توجد أبدا في أيـة منشأة من منشآتنا لكن ، بما أنها اختفت أو تعد مختفية ، فمن الطبيعي ان يرسـل لنا اشعـار بذلك مثلمـا يرسل الى المؤسسـات الاخرى من مستشفيات ، محطات ، مطارات وغير ذلك . الرابع ...

فرفع اوفي يديه مسلما :

ـ حسن جدا . أهي موجودة هنا ؟

ـ آ ـ آه ! هاهو ذا سؤال لا استطيع الاجابة عليه .

ـ من يستطيع الاجابة عليه اذن ؟

ـ الادارة المركزية .

استعد أوفي للنهوض لكن الهاتف بدأ يرن فجأة .

ـ نعم ، لست بحاجة لمعرفة أين توصلت أم تعتقد انني أرغب بأن اظل طوال اليوم أسمع رن .. رن .. كل دقيقتين ، لا لشيء الا لكي تقول لي انك لم تفلح حتى الآن ؟ أوه ، آلو ! آلو ! هل ستفصل الخط ؟ كم مرة ينبغي أن أكرر أن عليك أن تنتظر الى أن أقول لك : افصل . أنا لست بحاجة لاعتذاراتك . ابعث لي سوبودو . حسن ، افصل ! ثم غمز بعينه غمزة بدت هائلة بالنسبة الى شق بالغ الدقة كشق عينه ثم اكمل الراس البـاقي .

ـ انني أقدم لهم منوعات كما ترى ، فأقول رن ـ رن بالنسبة الى الهاتف ، انما قرعون قرعون عندما يقرع صنج المجموعة في الباحة ... (وفي الوقت نفسه امال رأسه جانبا ثم ابتسم . بعد ذلك فتح أحد الادراج فجأة ، أخذ منه مفكرة وشرع يكتب

باستغراق تام ..) صنج المجموعة يقرع .. هـ .. م .. بودي لو تكون هناك عندما اقدم هذا الى الاجتماع المقبل . فعلي أن أكلمهم عن هذا كله كل يوم نجتمع فيه ، أعطيهم التعليمات اليومية وما شابه . انه أمر حسن بالنسبة للمعنويات العامة أن يكون لديهم ما يجعلهم يندفعون بقية النهار كله . هزل وجد ، نعم ، هزل وجد ، ذلك هو سر الانضبـــاط .

نهض أوفي .

ـ اعتقد انني سأزور ادارتك المركزية .

ـ أوه ! يا الهي ! اتريد القول اننا لا نستطيع مساعدتك على الاطلاق ؟ خسارة! فهذه الهواتف لاتساوي شيئا ..

ـ لا أهمية لذلك . فانت ، لديك توجيهات .

ـ كنت اعلم انك ستفهم ، وانا أقول دائما انه ليس هناك ما يضاهي رجلاذكيا. فالمرء يمكنه التكلم معه ، واعلم انني احببت المحادثة التي جرت بيننـــا ، فعـــلا . فالمناقشة مع رجل مثلك تنعش المرء كثيرا ، اننا هنا نمل أحيانا ، بل يحدث انطباع لدي أحيانا بأن دماغي يلين ، يرتخي . أنا اتابع الدراسة بالمراسلة ، لكن ما جدوى ذلك ان كنا لا نستطيع استخدامه مع اناس من وزنك ؟ . .

وفي اللحظة التي كان أوفي يحرر يده فيها من يده ، ظهر ظل على الباب . ثـم سمع صوت حذاء يطرق بالارض وفرقعة عضلات تحيي .

ـ نعـــم ؟

ـ الهاتف يا سيدي .

ـ حسن ، اذن فاعطني المكالمة ، والا ما جدوى مجيئك الى هنا بخطا موزونة لتقول لي ذلك ؟

ـ انه الخط المباشر للادارة العامة يا سيدي . خط الادارة المركزية يا سيدي .

ـ الادارة المركزية ؟ اذن ، ربما واتاك الحظ يا سيد أوفي . انتظرني ، فسأذهب لاجراء المكالمـــة .

ـ حسن جـــدا .

ـ اشرب شيئاما وانت بالانتظار . هـ .. ي .. هات فنجان كاكاو للزائر . اتحب الكاكاو ؟ أرجو ذلك فقد أصبح الشراب الرسمي .

ـ اعلم ذلك ، قال أوفي مبتسما .

ـ حسن (قال الرجل وقد أصبح نصفه خارج الباب) لن اجعلك تنتظر طويلا .

وكانت له طريقة غريبة في السير يسحب رجليه سحبا وبكل حذر ، فتلك هي الطريقة الوحيدة لوصفها . القى أوفي نظرة على جدران المكتب فتوقف ناظراه على اعلان مألوف لشركة الكاكاو . كانت مضيفة سمينة « تمد فنجان المشروب الوطني »

الى اجنبي يبتسم . ومن جديد شرع يفكر بالجوقة ، بجولته الاخيرة المشؤومة ، بايريز . رفيق قديم حمل له الفنجان الذي كان البخار يتصاعد منه . انه الشخص نفسه الذي تصرف كحرس خاص أكثر من تصرفه كسجين متميز عندما أدخل أوفي الى مكتب المدير . فقد تباطأ خلفه وبدأ يتفحصه بامعان شديد ضايق أوفي الى درجة استدار معها نصف دورة على كرسيه كي يواجهه . لاحظ ذلك فرعون ، الذي لم تكن تخفى عليه خافية ، فألقى بكلبه الامين الى الخارج .

ـ لماذا أنت متسمر هنا كضريح موتى أو دوموتا ؟ اذهب وافعل شيئا ما ! (ثم اندفع يقدم اعتذارات لاتنتهي بعد أن خرج العملاق ، متأسفا ظاهريا ، مؤديا التحية .) انه لا يدري ما التفكير لكن في الشؤون الاخرى لا يشق له غبار . باستطاعة المرء ان يعتمد عليه كل الاعتماد ، شريطة ان يوجه اليه أوامر محددة . فهذا ليس كالمستخدمين الآخرين لدي . انهم لا يعرفون كيف يميزون بين المبادرة ومخالفة الاوامر ، خاصة ذلك الصنف الذي يجند تماما بعد تأهيله . فهو يعتقد أنه يعرف كل شيء ، انا ـ أعرف ـ كل شيء ، هذا هو ما يزعج فيهم . أما سوبورو فلم يتلق أي تعليم وهو يعتبر سجينا مع ذلك فهو ذراعي اليمنى . واذا حدث واصبت بمرض مفاجيء فسيكون بامكانه تسيير الامور بمفرده .

اخذ أوفي يتأمل سوبورو وهو في زيه الموحد المهترىء ، المبهم الشكل ، يعالج وعاء الكاكاو وفجأة أوقفه « بلا حليب ، شكرا . » فاستبدت المفاجأة بوجه سوبورو ثم حرك يديه حركات تعني بوضوح : كيف يمكن أن يكون ذلك ؟ استقر نظر أوفي على تينك اليدين ، كالمسحور . فقد كانت أصابعه جذورا مسودة ، مفتولة ، ممتلئةبنتوءات ثبتتها العقد . بل يمكن القول انه لم يكن للرجل راحة كفين . كانت الاصابع وقبضتا اليدين تبدو ملحومة بعضها بالبعض الآخر مشكلة جهاز سياط غريبا . وضع الصحف ثم انتصب ثانية فاعتقد أوفي حينذاك أن راسه ستصطدم بالسقف فابتسم شاكرا اياه مرة ثانية باشارة من رأسه .

تحركت العضلات في وجهه ، لكن كان من المستحيل على أوفي التفريق بين ندبة الجرح والعضلة . فالندوب والاخاديد الواقعة بين العضلات السوداء ، وكذلك طيات الجلد والاخاديد اللامعة كأرض متجلدة بفعل الاحتكاك المتكرر بالاقدام الحافية ، كل ذلك كان يختلط بالتفافات لا نهاية لها . فالوجه كان على صورة الجسم ، واسعا مستطيلا بندوبه السميكة وعينيه الحمراوين الكابيتين . حرك أوفي فنجانه ثم تطلع الى سوبورو وقد عاد الى موقعه المفضل قرب الباب .

بعد ذاك ، بدأت نظرات أوفي تشرد الى ما وراءه ، الى الباحة ، نحو السور البعيد الذي كان أعلاه مجهزا بأسلاك شائكة . هل هذا هو السور الاسطوري ؟ لفافة متصلة من الاسلاك الشائكة المثبتة بحدائد على شكل V . لعل ذلك هو السور الشهير . اذ

كان يتفق والوصف الذي وصفه به احدهم ذات يوم حين حلت الفوضى بحركة السـير وانعكست دونما نظام وحاول الناس الدخول الى قلعة المنفيين . كانت الجماهير قد أتت تدق أبواب تيموكو مذ فتحت سكور أخرى أمام موج الرعب والموت . فضجة الموت البهيمي والصرخات الشاكية لكلاب تصرع وهي تدق الباب الخلفي ثم تكتشف أنه مغلق أيضا ... كل ذلك كان واضحا في ذاكرته الى درجة خيل اليه معها انـه يستطيع لمسه . صوت جديد بدا وكأنه ينحدر من مروحة السقف ، هو أشبه بمزيج من انبهار الربو ولهاث الكلب .... التفت أوفي . لكن ذلـك لم يكن سـوى تنفس سوبورو ، الفريد من نوعه . بعد ذاك حرك أوفي الكاكاو شارد اللب ثم بدأ يرشـف الشـراب الفاتر .

* * *

قلة من الناس استطاعوا أن ينجوا من زوبعة الدم الاولى ، فتركوا انفسهم ، وهم ممتنون ، تمتصهم الزوبعة التالية ، سجن النسيان الهادىء حيث لم يكن يحدث شيء وحيث الزمان قد توقف . فالشاب الذي كان يسير وكأنه سجين الى الابد في نفق الاسلاك الشائكة ... كان يرحب بكل شيء ، وقد ترك تلك الكتلة الهائلة من الخوف وراءه ، كانوا قد جرحوا انفسهم بشظايا الزجاج المثبتة في أعلى الاسوار كما كانـوا يضربون بأجسامهم الابواب المسمرة . بل ان أحدى الامهات امسكت بطفلها من رجليه ثم قذفت به من فوق الجدار ، غير أن قوتها لم تكن كافية ، فبقي الطفل معلقا بكلاليب النفق ، لكنه لم يكن يملك الادراك الصحيح الذي يبقيه هادئا فكان آخر ما رأته الام قبل أن تلحق بها الجماهير الهائجة هو اللحم الغض وقد انفرزت فيه أشواك المعدن...

أصدر فرعون الاوامر بفتح الابواب ، فكانت تلك نهاية مملكة السلام التي كان يحكمها . لقد دخل الناس بلا شكليات ، بلا تفتيش ، بلا قيود ولا تصنيفات فملؤوا المكان من السور الى السور ساحقين الحديقة الجميلة مبعثرين الحجارة المبيضـة بالكلس . بعد ذاك ، انتزعوا اللوحة « ممنوع السير على العشب » وكمحاولة يائسـة أخيرة ، القوا بالاحجار البيضاء على المهاجمين ملطخين تلك الاحجار بالدماء الحمراء . اثر ذلك ، انقضت مجموعة من الحرس تغلق الابواب في وجه المهاجمين ، فأرجعت العوارض الى أماكنها واغلقت المزاليج . حينذاك اخذ الهاربون يجهشون بالبكاء .

لكن بعضهم لم ينهض من جديد .

وهكذا يوما بعد يوم ، وعلى شكل موج منظم أو سيل متدفق ، كان الباب الصغير الموجود ضمن الباب الكبير ينفتح ثم ينغلق كي يبتلع زمرا صغيرة تعود بلا انقطاع وهي تنظر وراءها نظرات مشحونة بالغم . كان المستخدمون يمرون بينهم ، يأخذون الاسماء ، وكان المتعهدون يذهبون ويجيئون . أما اطعامهم فكان يجري كيفما اتفق ، كسرة خبز ، حفنة من الفول السوداني ، فواكه . كان فرعون يرسل مستخدميه الى السوق .

كما اصر المرض لديه أن يشتري ضمادات من موازنة لا وجود لها . كذلك مزقت الشراشف لصنع الضمادات وصنعت ضمادات من ورق الصر ، وقرب باحة المقصلة انشئت مقبرة مرتجلة . . . ذلك الاجتياح لم يكن له مثيل ، كما لم يكن أي من المراسيم قد تنبأ بمثل ذلك الحدث ، ولم يكن في أنظمة تيموكو ما يبيح تلك الفوضى في الدخول والخروج . لقد أدرك فرعون أن عليه ، بعد كل حساب ، أن يبادر ، أيا كانت المبادرة . ولقد انتظر ، وهو يتصدى لمسؤولياته . اخيرا ، عندما تباطأ الموج ، أقيم نوع من المراقبة في الخارج ثم وجد نفسه بيروقراطيا يملأ أذونا بالخروج والدخول ، وفقا لما تطلبه منه قصاصات الورق والاصوات التي تتكلم هاتفيا ، اذ ظل منوطا به القرار النهائي حول من يجلى اولا ومن يظل حتى النهاية ، من يجلى جماعيا ومن يجلى افراديا . كذلك كانت ثمة تقارير ينبغي املاؤها وطلبات ينبغي تقديمها للحصول على موافقة الجهات المختصة على النفقات الاضافية التي كان يتحدى كائنا من كان أن يشك فيها حتى أولئك العاملين في الادارة المركزية المجيدة كل المجد . . .

بعدئذ حدثت هذه القصة الجديدة ، ففي اللحظة التي بدا فيها وكانه حكم عليه بأن يغرق من جديد في مستنقع ظلماته الاولى ، في تلك اللحظة تماما حدثت هذه القصة الجديدة .

كان قد انتهى من رتابة الاعمال اليومية : لا ، هو لم يكن يفهم تماما الا انه كان يملك حاسة شم نامية فيما يتعلق « باللحظات الحاسمة في مصير البشر » . كان يتملكه ذلك الاحساس الصحيح قبل اختياره لما يسمح له بأن يشق طريقه المهني : ساحة يخصصها لعدد صغير من المختارين . . . لقد كان واحدا من اربعة تم اختيارهم المهمة الدراسية . . . وكان في الوقت الحاضر ، يعيش ذلك الاحساس من جديد . فمن بين كل المخابىء الممكنة والموضوعة تحت تصرف الكارتل ، كان لا بد لهذا من أن يختار تيموكو : واذا لم تكن تلك هي اللحظة ـ الحاسمة ـ في ـ مصير البشر التي لم يكن كراسه يكف عن الحديث عنها وعن اللحظة المناسبة ، اذن ، فان كل ما أنفق من مال على الدراسة بالمراسلة هو محض خسارة وعليه أن يحال الى التقاعد .

« اعتمد على حنكتك »، هذا ما كان يقوله الصوت ، « فقد علمت أنك جدير بالثقة تماما وان بامكان المرء أن يعتمد عليك . » .

شخص مجهول كان قد تكلم معه ، بعد ان كان رئيسه قد استدعاه وأعلن له أن هناك « توجيهات سرية » عليه أن ينفذها حرفيا . بعدئذ مرر اليه المتحدث الهاتفي، ذلك المراسل المغفل ، فتلقى الاوامر مباشرة منه . لم يكن فضوليا ، لكنه صنف الصوت من بين ذوي المراتب السامية . ومنذئذ كانت جميع المكالمات الواردة من ذ.م.س. تصل اليه عبر الخط المباشر لمكتب المدير العام الذي لم يكن الا مديرا عاما بالوكالة ، والذي بات يعلم أن ذلك لن يدوم طويلا .

* * *

عاد فرعون من الهاتف وقد اشرق وجهه . وعند الباب ، عند العمود الاسود ذي التاج الرخامي الذي يعلو ركيزة مزمارية الشكل خاكية اللون بدا وكأنه يترنح محاولا جهده الاحتفاظ بهيئته ، كما لو أن الامر لم يكن الا نتيجة لتأثير ضوء على جلد لماع ، انتصب سوبورو فجأة بالغا ارتفاعا مذهلا ثم حيا .

ـ استرح ، يا سوبورو .

قال دون أن ينتظر ، كي يتكلم ، أن يجتاز الباب ويصل الى قبالته .

ـ عندي لك اخبار يا سوبورو . أنا لست مضطرا لان أوافق مباشرة على اعفائك من العقوبة ، حتى ولو انك تستحق ذلك مائة مرة . فالامور لا تسيرُ في مجراها الطبيعي كما كنا نأمل . كما أن لدينا مسألة صغيرة سأحتاج اليك فيها طالما ظلت بلا حل .

أبدى سوبورو طاعته بهزة من رأسه ، لكن تعبير وجهه ظل على حاله دون تغيير ، اراد فرعون ان يربت كتفيه المتيبستين تربيتة صغيرة تعبيرا عن الموافقة ، لكن يده لم ترتفع أعلى من الزنار القماشي الخشن .

ـ بعد كل حساب ، انت سعيد هنا ، لا ؟ الا ترغب حقا بالحصول على حريتك ، هاه ؟ لقد عشت بعيدا جدا عن هذا العالم الخارجي الغاشم لدرجة لا تستطيع معها ، بعد الآن ، تدبير أمورك فيه ، (والتفت الى أوفي) فصديقي الشجاع هذا نجا باعجوبة من حبل المشنقة . بعد ذلك غدا دعامة جماعتنا الصغيرة . انه سعيد ، سعيد جدا . وفي كل مرة نتلقى فيها أمر اخلاء سبيله يرفض التوقيع عليه . . . أترى ! (جلس على حافة الطاولة ثم وجه الى أوفي ابتسامة مشعة .) أخيرا قال : الاخبار ايجابية .

ـ الديك معلومـــات ؟

ـ تعـــال معي يا سيد أوفي .

* * *

اقتربا من الباب الضيق بممر حجري مبيض بالكلس . كان الفارون يتجمعون على بقع العشب النادرة الموجودة في الباحة ، مثل الحرادين التي تتشمس وينتظرون وهم في حالة من الشك . كانت مجموعات العمل قد بلغت حافة السور ، وكانت السكاكين الكبيرة المرنة تجز الاعشاب المجنونة بايقاع آلات معدنية يرتد من جديد على الجدران القريبة كل القرب ويملأالباحة بأصوات تحد تثير الشفقة . ما من شيء كان باستطاعته ، بالحقيقة أن يتجاوز فراغ تلك الجماجم المقصوصة الشعر ، ما من شيء كان باستطاعته تبديد حب الدعابة عندهم ، الدعابة المتملقة والمفعمة احتراما للسياط الموجودة في أيدي الحراس ، حتى في أشد تحليقاتهم الغنائية الايقاعية سخرية .

ـ أتفهم الكلمات ؟ سأل فرعون مرافقه الذي كان يعرج وكأنه يتعمد مطابقة ايقاع الصنج . فكذب أوفي .

ـ لا ، مـــاذا يقولون ؟

فشرع المشـوه يضحك .

ـ « أنت حارس وانا سجين ، لكننا كلينا الشيء ذاتـه » (ورفع الى أوفي عينين تعبران عن الخبث .) أتعتقد ان هناك شيئا من الحقيقة في ذلك ؟

ـ هذه وجهة نظر مواسية . ماذا يغنون أيضا ؟ فأجاب فرعون .

ـ اشياء أشد فظاعة بكثير من أن أستطيع تكرارها ، لكنني لا أحشر نفسي ابدا في اختراعاتهم ، مادام ذلك يساعد على القيام بالعمل .

ـ نعم . أفترض أنه الشيء الوحيد المهم .

ثم تابع بعد ان التفت الى أوفي ناظرا بعين المقدر الحساب :

ـ اليك مثالا آخر عن حكمتهم الشعبية : « انا اليوم ، أنت غدا ، وليكن السيد مرسيدس موضع ترحيب عندك . سطل شمبانيا ، سطل خراء ، فلا تكن خجولا ، يا سيد ، خذ الخط . . . » (وتفبشت عينا فرعون من الضحك لدى تفكيره بمزحة سرية .) ثم قال وهو يقهقه ، أظن أنك لا تخمن ما يريدون قوله بذلك .

فاعترف أوفي بأنه لا يخمن . حينذاك قال وهو يعيد وضع نظارتيه على عينيه :

ـ آه ! آمل أن لا تكتشفه أبدا ، فهم يحبون أن يطبقوا عد التهم الخاصة فيما بينهم ، كما أن لديهم عن العقاب أفكارا جد خاصة ، (غمز غمزة .) لقد رأيت بمحض الصدفة ما يدعونه مجلس قضائهم . طبعا لم يكونوا يعرفون أنني هناك ، فأنا أقوم بجولات سرية في الليل من حين الى آخر ، الامر الذي يجبر الحراس على أن يظلوا منتبهين . وهذه هي الطريقة الوحيدة لرؤية ما يجري .

ـ الا تثق بحراسك ؟ فزفر فرعون ثم قال :

ـ إنهم بشر ككل الناس ، ثم لا تنس اللازمه التي يرددهـا فريق العمـل ، فهؤلاء المجرمون ليسوا أغبياء تماما ، كما تعلم .

بعد ذلك اجتازا باحة مسورة الى باحة أخرى فتكشفت غرفة أهوال أمامهما ، غرفة فظاعات تكشفت ببطء ، انما دون سابق انذار . كانت صنوج ولازمات فريق العمل قد تلاشت منذ وقت طويل ، مبتعدة ، عندما وجد أوفي نفسه وجها لوجه ، وعلى مسافة لا تبلغ عدة امتار ، أمام نزلاء منتشرين ، فما لبث ان حصل لديه انطباع بأنهم ، وفق تعريفه الاول ، ناقصون . بنظرة واسعة رأت عينـه جدول العناصر الناقصة ، ثم أدرك، بعد لحظة واحدة انه موجود في باحة للمصابين بالجذام فاقترب غريزيا من السـور .

كان الحارس الذي فتح الباب يتبعهم عن كثب ، فلاحظ أوفي ان فرعون يمر وسط تلك المخلوقات دون وجل ، وبخطا لم تكن تختلف عن خطاه وهو في مكتبه . كذلك كان سوبورو الذي خرج لتوه من كوخ ، غالبية المصابين بالجذام متجمعون في ظله ، وهم يحركون بيادق على رقعة ضاما بأطرافهم المقطوعة ، بـل ويصنعون

سلالا . على احد الوجوه المخربة تخريبا رهيبا كان الدخان يخرج عبر ثقبين بسيطين . وكان هناك على الواح خشبية موضوعة على قاعدة يبدو أنها كانت تستخدم قبل وقت قصير من أجل الجلد ، شيء جاثم له وجه من غراء يتأمل المشهد بعينيه اللتين لا أجفان لهما ، وقد دفع ، لدى اقتراب الزائرين ، صرة تحت أسماله التي كانت تحتوي ولا ريب على بضاعة مهربة . بينما أبدى مصاب آخر كل التذلل بافراطه في مجاملة زائفة تضيق الانفاس الى حد انه كان يحاول الصراخ « مساء الخير يا سيد » بشفتين لا وجود لهما .

كان نظر أوفي يطوف على بقايا الاجسام البشرية تلك . ورغم الدرجات المختلفة لنقصانهم الجسدي الا انهم كانوا ينجحون في تقديم الدرجات المألوفة للسلم البشري من ودودين وعبوسين ، خبثاء وحكماء ، مفترسين وفرائس . كانوا جميعا يتفرسون الموكب الصغير بالعيون الفضولية نفسها لكن سرعان ما انطفأ أملهم الاولي عندما أدركوا من مشية المدير انه ليس قادما لتغيير رتابة حياتهم باعلانه بعض التدابير الشديدة . وفجأة خمدت داخل الكوخ الطويل ضجة المجادلات الوحيدة التي كان بالامكان سماعها ، ردا على الخبر الذي نقل اليهم خفية بأن السلطة بينهم . قطعوا الباحة بصمت حينذاك انقض سوبورو على الباب التالي قارعا ، ففتحه الحارس الذي كان في الجهة الاخرى .

كان فرعون قد لبس بكل عذوبة دوره كدليل للرحلة المنظمة .

ـ لقد اجتزنا لتونا ساحة المصابين بالجذام (وقد حمل له احساسه بالتنظيم المنصف ابتسامة راضية الى شفتيه .) أما هذه فتحتوي على زنزانات المحكومين بالاعدام . الناس عندنا يرهبون كل الرهبة منظر الجذام ، لهذا فان معظم السجناء ينظرون الى تلك الساحة مرتين قبل أن يفكروا بالهرب عبرها ، وهذا أفضل أشكال الأمن .

ـ والحراس . . . بدأ أوفي ، فطمأنه فرعون .

ـ لا خطر . من جهة أخرى ، نحن نخضعهم لزيارات طبية متكررة ، لا فائدة منها أبدا ، اذ ما من احد منهم أصيب بالعدوى . هم أيضا يخافون كما ترى . لهذا ، لا تمسك بأحد منهم يجازف الاقتراب كثيرا من ساكني هذه الباحة ، (وكتم ضحكة صغيرة .) غير أن الافكار التي يحملها الناس عن الجذام أفكار باطلة في معظمها . هذا ما يقوله لي طبيب السجن على كل حال ، وأنا أصدقه .

استدار أوفي ، المتيقظ على الدوام ، ثم ألقى نظرة أخيرة على جناح المصابين بالجذام قبل ان يعبر الباب فلمح الحركة المنكرة التي كانت تقوم بها يدان لا أصابع لهما تجمدتا للمباغتة ، فلم يشك في انها كانت موجهة الى ظهر سوبورو الذي كان يبتعد . خفض رأسه كي يعبر الباب الواطىء بينما كان فرعون يبتعد مفسحا الطريق له وقد لمح الحركة هو الآخر :

ـ من الواضح انهم يكرهون سجينيالمفضل هذا . فالحراس يرفضون الاشتباك معهم عندما يحدثون ضجيجا ويميلون لان يصعب مراسهم . لكن من حسن الحظ اننا نستطيع استدعاء سوبورو كي يتدبر أمرهم في كل الظروف . فهو لا يخاف هـذا المرض على الاطلاق .

ـ كاد يشنق ، قلت لي ؟

سأل أوفي وقد خفض صوته رغم أن سوبورو كان قد ابتعد عنهم الى الامام .

ـ نعم ، ثم ابدلت تلك العقوبة بالسجن مدى الحياة . لكنه ليس من النوع الذي يحب هؤلاء المجرمون الصغار الاحتكاك به .

فانتاب أوفي احساس مزعج فيما كان فرعون يتطلع اليه وهو يلفظ تلك الكلمات ، احساس بأنها تتضمن نوعا من الانذار . لكنه طرد ذلك الحدس بهزة من كتفيه ثم استولت عليه فكرة أخرى وهي أن ايريز مرت عبر ذلك الحاجز الذي أقيم عمدا ، من الامراض والمقرفات الجسدية . ومن جديد أحس بشيء من عدم التصديق : ترى ، هل يوجد أناس قادرون على تدبير أشياء مماثلة ، اذهان قادرة على تنفيذها ؟ وبصعوبة بالغة كظم الغيظ الذي كان يصعد الى حلقه ثم سأل :

ـ هل كان من الضروري المجيء الى ... الم تكن هنالك وسيلة لسلوك طريق آخـــر ؟

فربت فرعون كتفه بنوع من التحبب ، لكن ذلك لم يجد الا في اثارته أكثر وأكثر .

ـ هي لم تر شيئا من هذا كله . أؤكد لك . فقد كان ذلك في الليل ، اضافة الى انها كانت فاقدة الوعي .

كان الاحساس بالتدنيس ما يزال مستمرا . وكان ذهنه يغلي ، مرجلا مليئا بأحقاد عقيمة يحاول الطفو على سطحها علّه يبلغ الهواء الصافي للمخططات والقرارات الالف التي كانت بانتظاره خارج الجدران . ومن وراء ذهنه انبثق شيء اشبه بهمهمة حيوانية ، صوت حلقي خرج من شفتين مبرومتين ، شيء مثل : « وحش متشرد ! » .

تلك الصيحة جاءت من جناح المجذومين حيث كان قد حل وقت طعامهم . التفت فرأى سلسلة من طاسات الالمنيوم المليئة بالطعام مصفوفة على طاولة عمل ، وثلاثة اشخاص، أحدهم كان أوفي قد لاحظه سابقا ، بوجهه المتآكل الانف الذي لم يبق منه سوى كرتين صغيرتين من الغضار ألصقهما طفل بعد أن أرهقه التعب خلال درس لصنع الاشكال المجسمة في مدرسة حضانة . أما الثاني فيكاد يكون أعمى ، بينما أسند الثالث عكازه ، المزين بوسادة من الطين المجفف ، الى الحائط ، وقد أمسك طاسـة بيديه ، أو اذا شئت الدقة ما تبقى من يديه المجذومتين . ورغم ان تينك اليدين كانتا ملساوتين عند نهايتيهما كدبوس الحرس ، الا أن عشر أصابع كاملة لم تكن تستطيع الامساك بالطاسة على نحو أمتن . كان الرجل الاجدع الانف يحاول جاهدا انتزاعها

منه ، وكان من الجلي انه هو الذي لفظ ، وهو يزمجر ، صرخة المعركة تلك : « وحش متشرد » .

بحركة فجائية ومباغتة كادت تكلفه اختلال التوازن ، تمكن مجذوم اليدين من الافلات بالطاسة فأخذ عكازه ، وانطلق وهو يعرج ، وقد شد ابطه على غنيمته ، الى أن بلغ مكانا أمكنه الجلوس فيه بهدوء . فالحرب الصغيرة كانت قد انتهت على مايبدو. اذ راح ذو الانف ـ الكريتين يراقب خصمه لحظة من الزمان فرآه ينبش من تحت اسماله ملعقة غمسها في المعجون بيديه المبتورتين ، وشرع يأكل ، أما الآخرون فكانوا يقتربون من المنصة الخشبية بانتظام نسبي كي يأخذوا حصصهم . لاحظ أوفي ما بدا له وكأنه شكل من أشكال المقايضة : ملعقة طعام أو قطعة مختارة وهي تنتقل من رجل الى آخر ، أشياء تخرج من مخابئها لتنتقل الى أيد أخرى ، ومساومات تجري وصفقات تعقد في قلب الصمت ، والسكون .

كان ذو الانف الكريتين ما يزال ينظر الى مبتور اليدين . وبعد حين من الزمن لم يبق على المنصة الخشبية غير طاسته .

استدار قرعون بحركة عصبية ثم فرقع بأصابعه ، لكن سوبورو كان قد سبقهم وكان قد أصبح في الطرف الآخر من الباحة حيث كان ينتظرهم كي يفتح لهم الباب التالي .

رفع أبتر اليدين عينيه مرة واحدة فرأى أن خصمه لم يتحرك . حاول الحصول على المزيد من الطعام بملعقته ، ثم نهض بعصبية وانفعال ومضى وهو يعرج منسحبا الى مكان اكثر أمانا . التقط الآخر الذي كان يراقبه طاسته ، ثم شرع يلحق به بخطا بطيئة بدا عليها التصميم : لم يكن أي منهما قد لاحظ أن المدير ما يزال ضمن مدى النظر وانه يراقبهما عبر الاسلاك الشائكة ، وقد بدا عليه القلق . كانت الباحة قد امتلأت بأصوات الافواه وهي تمضغ ، بالهمهمات ، بالنخرات ، بالصفرات الساخطة . بعدئذ تقدم رجل الى ان بلغ الحاجز ثم رمى فوقه بالطاسة وما تحويها من طعام ، بعد ذلك عاد الى مكانه واخرج شيئا من دبره ، أخذ منه عقب سيكارة ثم أشعله . في البداية أشرق وجهه لكنه بعد ذاك بدأ يكيل اللعنات لجلاديه بصوت متمهل جاد ، ووفق نظام مراتبي يبدأ بطباخ السجن .

ـ هل سيحدث شجار هناك ؟ سأل أوفي ، فغمغم دون قناعة :

ـ يبدو ان الامر قد انتهى ، ثم فرقع من جديد أصابعه في الاتجاه الذي كان سوبورو قد سلكه ، كما لو ان صوته يهدد بتفاقم الوضع سوءا في الجهة الاخرى من الحاجز .

ـ لكن لماذا يحتفظون بالمصابين بالجذام في المنشأة نفسها التي يضعون فيها السجناء الاسوياء ؟

ـ لانهم ارتكبوا الجرائم نفسها التي ارتكبها الآخرون ، غمغم قرعون بنفاد صبر وقد طغى عليه شرود خفيف ، لكن دون أن يستطيع تحويل نظره عن الازمة التي لم تكن قد حلت بعد .

ـ أهؤلاء بشر ؟ كلا لا تشفق عليهم ! فهم يستفيدون من ذاك الذي يخشى معظم الناس مسه . الا ترى ذاك الواقف بجانب الحاجز تماما . كان اختصاصه الوحيد ان يخيف صغار البائعين المتجولين كي يتركوا بضائعهم ويهربوا ، حينذاك يستولي على ما كان يدعوه بـ « الملك المتروك » . صدقني ، هذه العبارة هي نفسها التي استخدمها في المحكمة : « الملك المتروك » . (هنا كان توتره قد خف فاستعاد قرعون بشاشته ، وعاود المسير) . لقد أوقفوا أحدهم ومعه ثلاثمائة ليرة مخبأة في اسماله، اكتشفوا فيما بعد أنها أموال مسروقة من مصرف ، اذ كان ، على ما يبدو ، قد ساعد اللصوص الذين قاموا بالعملية واعطوه نصيبه ، كمراقب . ها هو ذا ! انظر الى ذلك الوغد .

كان المراقب يتجه نحو الصنبور العام ، يسير وساقاه متباعدتان بمساعدة عكازيه الغارقين في لفائف القماش . كان يسير بخطا مهتزة ، غارسا عكازيه في الارض، الواحد تلو الآخر ، وكانت احدى عينيه تختفي في اللحم المخرب ، المثقب ، المتآكل . لكن الكتفين كانتا تبدوان قويتين على نحو عجيب ، وكانت عباءته المفرطة في الصغر تكاد تتمزق .

ـ انه محكوم بعشر سنوات ، تابع قرعون ، لكن ليس بسبب سرقة المصرف اذ لم يستطيعوا اثبات تهمته في هذه القضية قط . بل هو موجود هنا بسبب اغتصاب. لقد استطاع أن يدفع أجر افضل محام عندما اتهم بالتواطؤ في عملية السطو ، وقد تخلص من ذلك بسهولة . من ناحية اخرى ، لم تعد قصة السرقة الى احتلال المكانة الاولى الا بعد اتهامه بعملية الاغتصاب ، ففي تلك الفترة تم اكتشاف المال معه (وأطلق قرعون من جديد ضحكته الصغيرة المكبوتة) . آه ! لو تعلم ما الذي ينبغي عدم رؤيته هنا .

لقد توصل هذا المخلوق الى حد ارسال عريضة الى المدير العام للسجون يطلب فيها اطلاق سراحه . انني أعطيك ألف ليرة يا سيد أوفي : ان حزرت ماهو المبرر الذي قدمه لدعم طلبه ؟

فكر أوفي عدة لحظات ثم اجاب :

ـ سبب انساني ؟

ـ كلا ، حاول ايضا .

كان قرعون قد توقف في باحة المحكومين بالاعدام ، وقد رفع ناظريه الى أوفي ، يستشف سره . نظر أوفي خلفه الى تلك الحثالة من الجنس البشري في الطرف الآخر من السياج فلاحظ أن مقاتلي الفترة السابقة قد اختفيا على ما يبدو في الكوخ أو خلفه .

بعدئذ التفت ثم قال بأنه يعترف باندحاره .

ـ أنا بالحقيقة عاجز عن معرفة ذلك .

ـ كنت اعلم جيدا انك ستعجز ، لكنني سأقول لك . لدي نسخة ثانية في مكتبي ، لكن دعني ار ان كان بامكاني أن أسرده من الذاكرة ... نعم ، اسمع ... يا صاحب السمو اطلب اليك اعفائي التام من العقوبة التي بقي علي أن اقضيها . والواقع انه حكم علي بجرم اغتصاب ، والآن أعلم أن العسكريين يأخذون الفتيات ويغتصبونهن وأن فتيات أخريات يرسلن الى قرى المجذومين كي يغتصبهن المصابون بالجذام مثلي . اذن ، أطلب اليك بكل احترام أن ترسلني الى واحدة من قرى المجذومين تلك ، ذلك أنه لن يكون هناك عدالة على وجه الارض اذا استمروا بابقائي هنا في الوقت الذي يتسلى فيه جميع الناس والذي لم يعد الاغتصاب يعد جريمة ... وهكذا ، على نفس الوتيرة ملء ورقتين أو أكثر من الورق الكبير . فما رأيك في ذلك ، ياصديقي؟

ـ وهل رفعتم الكتاب ؟ سأل أوفي .

فبدا على قرعون وكأنه فوجيء بالسؤال .

ـ طبعا ، بل كنا حريصين على فعل ذلك . ذلك أن باستطاعتي أن أراقب أو أوقف الرسائل الموجهة الى أسر السجناء أو اصدقائهم ، لكن من واجبي ان أرفع جميع الالتماسات والعرائض الى السلطات . لقد أملاه على أحد أمنائي فكتب ثلاث نسخ منه على الآلة الكاتبة (وغمز بعينه غمزة سخرية وخبث) . لكن المشكلة الوحيدة التي ظلت قائمة ، هي انه كان عليه أن يبصم الى جانب اسمه .

فأحس أوفي بشيء من الغثيان لكنه ابتسم بعد ذلك مكرها .

ـ نعم ،وكيف حللتم تلك المشكلة ؟

ـ أوه ! وقعت بدلا منه ، اذ حتى لو كان له أصابع ، فأنا لا اعتقد أن الناس في الادارة المركزية يودون تلقي رسالة لمسها انسان مجذوم ، أيا كان رأي الاطباء الرسميين . فنحن ما نزال أناسا شديدي التطير يا سيد أوفي رغم كل مايمكن ان يقوله الوجيز الخاص بالسجون .

غير أن زمجرة جديدة جعلتهما يقفان فجأة ، اذ سمعا صرخة ثاقبة : « دع لحمتي ! » وسرعان ماخرج من وراء الكوخ شخص في اثره آخر يتكيء على عكاز ، هما نفساهما اللذان سبق وتقاتلا من أجل الطاسة في بدء الطعام . كانت قطعة اللحم ، موضوع الخلاف ، تبدو واضحة بين نصف الابهام وبترات الاصابع اذ كان قد أمسك بها من طاسة الآخر خلال مبارزة خفيفة جرت خلف الكوخ .

ارتد ذو الانف الكريتين الى الوراء مستعدا للدفاع عن نفسه . « بالامس أخذت سيكارتي بعد أن وعدتني أن تعطيني نصيبك من اللحم اليوم » ، ثم التفت الى الآخرين طالبا اليهم الدعم ، فبدت الآراء مختلفة . وهكذا دون الاستناد الى أي شكل آخر من أشكال المقاضاة أدخل قطعة اللحم في فمه .

ألقى الرجل المسروق بعكازه في الحال ثم قفز غارزا أسنانه في ذراع خصمه . باغت الهجوم ذا الانف الكريتين فأطلق صيحة ألم وسرعان ما ظهر اللحم وقد مضغ نصف مضغة من ثقب فمه ، ثم اختفى في اللحظة التالية ، اذ ان أبتر اليدين استرده ثم ابتلعه دفعة واحدة . قبض ذو الانف الكريتين على عنق عدوه ، وقد استشاط غيظا ، وبدأ يثنيه الى أن جعله يفقد اتزانه . لكن فجأة اجتازت طاسة من اليخنة الجو ، اسهاما من سجين آخر هدفه الوحيد توسيع نطاق الازمة واطالة أمد التسلية، فتناثر قسم من محتواها على المحكوم بجريمة الاغتصاب . نظر هذا الى ثيابه نظرة ذعر ، ثم نظر حوله ، طالبا الى الجميع أن يشهدوا وبدأ يصرخ « أترون قميصي الذي غسلته أمس فقط ؟ » .

كان ذوالانف الكريتين قد غرز بدوره أسنانه في كتف غريمه الممدد على الارض، ممزقا لحمه كما لو أنه قرر أن ينتزع ما يعادل كمية اللحم التي سرقت منه . اما المحكوم بجريمة الاغتصاب فقد انقض وهو يعرج عليهما مفترضا ان الطاسة القيت عليه من قبل أحد المتقاتلين ، ثم أمسك براسيهما وضرب الواحد بالآخر فانهارالرجلان وكفا عن الحراك .

لكن العراك كان قد اتسع في تلك اللحظة اذ كانت الطاسات والملاعق والعكاكيز والبيادق تتطاير . وكانت الابواب تهتز وهي تفتح وتغلق كما انضمت علب القمامة الى الجوقة متحولة الى قذائف تقذف ارتجالا فتجتاز الاجواء وتتجاوز السور في كل الاتجاهات . كان قد تصاعد مشهد الشجار الجهنمي ، وكانت العدوى عنيفة فجائية، اذ ترك السجناء كل شيء خلسة ، وخلال لحظة كان كل منهم يبحث عن الثأر لجروحه الطارئة من أقرب زملائه أو أضعفهم على ما يبدو . كانت قبضات الايدي البتراء قد تحولت الى أسلحة رهيبة ، والرؤوس مطارق .

أطلق حراس الباحات المجاورة صافرات الانذار فأسرع سوبورو الى المكان وهو يعدو دون أن يكون بحاجة الى أمر . أحد الحراس برز فجأة ثم صرخ : « السطول ! هيا ، هاتوا السطول ! » كما اقترب سجناء متميزون آخرون بهدف القيام بتمرين مألوف لديهم على ما يبدو . وهكذا شكلوا سلسلة ثم بدأوا يمررون سطول الماء الى سوبورو الذي وقف على رأس الصف وبدأ يرش المتقاتلين بغزارة ، صابا سطل الماء مباشرة على رأس كل من يعاند . وعندما بدا ذلك غير كاف ، بدأ يفرق بينهم بيديه ذاتهما . بعدئذ جيء بسطول أخرى وتشكلت سلسلة أخرى ، وسوبورو في طليعة الاثنتين ، يخوض ساحة الوغى مدمدما مزمجرا دون أدنى خوف ، مطلقا صرخات راحت ضراوتها تخنق الصراخ الجنوني الذي كان يتصاعد من حلوق المجذومين . اخيرا انتهى الى دحرهم وحده دون اية مساعدة ، ثم ردهم الى زنزاناتهم . كان أحد الحراس قد القى اليه دبوسا لكن سوبورو لم يكن بحاجة اليه . مرة أو مرتين سمع أوفي الدبوس يهوي على أصابع جموحة ، لكن لا شيء غير ذلك . اذ كان سوبورو يستعمل بصورة رئيسية

قدميـه ، وفي معظـم الاحيـان كان يكتفي صوته مع وقـع ظهوره المفاجيء فوق زوبعـة الاسمال واللحم .

القى اوفي نظرة قصيرة على دليله ، فبدا قرعون وقد هزه المشهد .

ـ انتهت المعركة ، قال فجاة ، فلنذهب من هنا .

ـ اما زلنا بعيدين ؟

ـ لم يبق الا جناح المجانين (وتردد) المعذرة عن هذا الاضطراب كله .

ـ لا ارى سببا للاعتذار ، فهذه الحوادث لا يمكن تفاديها ، حتى في الاطـار الاكثر هدوءا ، لكن قرعون الح :

ـ من المؤسف حقا أن يحدث ذلك ونحن هنا .

ـ ليس في نيتي ان اقدم تقريرا ، ان كان ذلك ما يقلقك ، فأنا لست موظفـا ولا صحفيـا .

بدا على قرعون وكأنه على وشك أن يقول شيئا ، لكنه ادار راسه ثم أسرع في سيره فجأة تلاحقه نوبات سعال المتبارزين المدحورين فمرضى الجذام كانوا في بعض اللحظات ، يشبهون كل الشبه متبارزي سيرك ممسوخين ، بعصيهم التي كانت تبدو وكانها جزء من أجسادهم ، وندوب جروحهم التي كانت تسرد قصة نضالهم الطويل ضد اعداء من اكلة لحوم البشر ، ومرافقهم التي كانوا يستخدمونها ككلابات رهيبة ، نادرا ما كانت ضحاياهم تستطيع مقاومتها . . ولعل تلك الضحايا نصف المختنقة هي التي كانت تلاحقهم في تلك اللحظة ، بفواقها . القى اوفي نظرة سريعة على الباحـة وراءه قبل أن تختفي تماما . كان ما يزال بعض المجذومين على الارض ، بلا حراك أو وهم يتلوون ألما . ومن فوق السور مـال ظل بجسمه ثم اخذ يتقيـأ في باحـة المحكومـين بالاعـدام .

في تلك اللحظة ، بدا وكأن الاضطراب اكتسى اجنحة ثم طار فوق رؤوسهم كي يتقدمهم الى المكـان الذي يقصـدونه . كان العنف ينتشر وكأنمـا ذلك بالعدوى ، فتوقف قرعون الى جانبه ، يعبر وجهه عن قلق ما انفك يشتد .

ـ غريب ، غمغم الرجل ، هذا النوع من الاشياء يملك خاصة الانتشار . لكن اذا ما وصل ذلك الى باحة المجانين كان لا بد من اتخاذ تدابير في غاية الصرامة .

ـ لماذا ؟ سال اوفي ثم انتبه الى ان سؤاله كان تافها ، فقد كان سهلا نسبيا على سوبورو ان يخترق صفوف المجذومين ، متخليا حتى عن استعمال سطول الماء ذلك أن راسه الصفير الصلب كان ينظر نظرات قاتلة ، كما كان سهلا عليه ان يفرق بيديه العاريتين حشود المتقاتلين وان ينتزعهم واحدا واحدا كما ينتزع الذباب عن قطعة لحم متعفنة ، فعندما كان يزيح طبقة تحس التالية بأنها غدت مكشوفة فتجري خارج المدى الذي يمكنه بلوغه وهي تتقهقر مرتعدة خشية تلقي الضرب ثم تحفر وتغوص في

اعماق الاكوام المتعفنة ، لكن كيف للمجانين ان يفهموا هذا التكتيك ؟ وفي الحال تذكر أوفي تصرفات الحشود الخبيثة البليدة ، في الساحات العامة والاسواق حيث يمكنك ان ترى مجنونا حوصر أو اسيئت معاملته أو ازعجه تصرف قاس ما ، وهو ينهال ضربا على مهاجميه ، دون أن يشعر بتفوقهم ، فهل يحدث ذلك بصورة أخرى بين هذه الجدران ؟ نظر باضطراب الى الظل الذي كان يسرع باتجاه مصدر الضجة الجديدة فسأل :

ـ كم يبلغ عدد المجانين في الجناح ؟

ـ ما يكفي لاثارة كارثة ، أجاب الآخر وقد أخذ يشعر بضيق تنفس اذ قد نضطر لان ننهال عليهم ضربا .

ـ أين هي أيريز ؟

لكن قرعون لم يجب على الفور .

ـ أهناك جناح للنساء خلف جناح المجانين ؟

ـ ما يكفي لاثارة كارثة ، أجاب الآخر وقد أخذ يشعر بضيق تنفس ، اذ قد أوفي . اظن انني شرحت لك ذلك من قبل .

ـ لكن الهاربين ، السجناء الطوعيين ، يخيمون قبل تلك الباحات الثلاثالاولى، وقد مررنا بهم حين تركنا مكتبك . .

ـ السيدة جدمريضة ، جد مريضة .

ـ المستوصف خلف مكتبك ، هناكحيث كان فريق العمال يقوم بجز العشب قبل طرده . رأيته من النافذة ، فقد كان واضحا تماما .

كان أوفي ، وهو يغذ السير للبقاء الى جانب قرعون الذي اخذ يسير بسرعةمذهلة يحاول أن يقرأ ما تخفيه ملامحه ، اذ بدا له فجأة أن من المهم للغاية أن يكتشف المكان والسبب الذي جعلهم يخفون أيريز داخل تلك المتاهة التي يشكلها جوف تيموكو . لكن لم يكن يبدو على وجه قرعون سوى ابتسامة متشنجة لم تكن على ما يبدو سوى رد فعل لضيق بيروقراطي ازاء حدس شخص أجنبي .

ـ الى أين تقودني بالضبط ؟ داخل ام خارج الاسوار ؟

ـ أنت على ما يبدو تعرف المكان خيرا مني ، سيد أوفي ، قال قرعون بلهجة ساخرة ، فأنت تعرف مكان المستوصف كما تعرف أين يسكن اللاجئون . حقا انت تعرف المكان خيرا مني .

أراد أوفي أن يتكلم لكنه اسكته :

ـ اسمع هـذه !

وكانت ضجة مختلفة عن الدمدمات المضطربة ، المشوهة ، المنتزعة من المجذومين وهم يتصارعون . لقد انفجرت امامهما على شكل أصوات مختلفة كتلك التي تصدر عن صفائح وعلب محفوظات وبقايا تذروها الرياح . في اللحظة نفسها ، قامت شرذمة من الحرس تسير حسب تشكيلة النظام المنضم ، بتجاوزهما وهي تسرع راكضة باتجاه مصدر الصوت وقد أشرعت دبابيسها للعمل ، فأحس أوفي بألم شديد يعقد احشاءه ، ألم يعرفه جيدا ، كما أحس بحاجة ملحة لافراغ ما في جوفه ، بينما كان احساس مسبق لديه يكنس كل أمل ويحول العالم الى حساء تافه الطعم منفر يقف في حلقه .

وفجأة رأى يديه تمسكان بكتفي الرجل الصغير في محاولة لارغامه على النظر اليه وجها لوجه ، كما رأى أنه يرتعد اشد الارتعاد .

ـ في باحة المجانين ، أليس كذلك ؟

سيل من الايضاحات والاعتذارات خرج من فم المدير تبريرا للظروف ، لكن أوفي لم يتمكن من ادراك الترابط بين الكل والاجزاء ، هذا ان كان هناك ترابط ، بينما كان محدثه يتأرجح بين أن يخاف وأن يتصرف كمسؤول . كان الحراس منشغلين بقمع الانتفاضة وسوبورو ما يزال مختفيا . وهكذا راح صوته يعلو ويهبط بصرخة تأوه .

ـ أؤكد لك ، الملحق معزول ، وهي لا احتكاك لها بالمجانين . لا احتكاك على الاطلاق !

ـ وسط المجانين .

صرخ أوفي فطغت صرخته الجنونية على الضجة التي كانت تشتد حولهم . كان يهز المدير وكأنه لعبة من خرق ، وكان يرى الدموع تترقرق في عينيه .

ـ أنا عبد مأمور سيد أوفي ، ارجوك . كف عن التصرف كالمجنون .

وعلى نحو مفاجيء تركه أوفي ثم اخذ يعدو مجتازا ساحة المعركة وهو يصرخ . كان ثمة جسم امرأة متقوقع على ذاته تحت وابل من ضربات الدبابيس ، فاندفع مسرعا ثم انحنى لالتقاطه . أهي ايريز التي كان يحملها بين ذراعيه ؟ أهي حقا بلحمها وشحمها ، بحرارتها وانفاسها ؟ لكن فجأة انثنت ركبتاه اذ لاحظ على نحو غامض اقتراب سوبورو ، لكنه لم يدرك الخطر الا وقد ثقلت جمجمته وانغلقت عيناه على سماء الشفق .

* * *

« ١٥ »

أضد هذا كانوا يناضلون ؟ ضد انهيار الارادة ، الاستسلام ، العطالة الاشبه بالموت ، حالة البين ـ بين حين يحس الانسان بالاشياء ولا يتأثر بها ، ضد الوضع الاخير للميت الحي ؟ تطلع من فوق جسد ايريز ، وهو يبحث عن عزاء ، فرأى عبر قضبان النافذة ، عبر الكوة الصغيرة قبة سماء ليست أكبر من منديل جيب . كانت نجوم عدة تثقب السماء فتساءل الى اية كوكبة تنتمي تلك النجوم ومن أية عوالم تنطلق حركتها البعيدة التي كانت تخالف ركوده الراهن ، وهو يجثم بين زاوية النافذة الاولى وزاويتها الاخرى تماما فوق حافة العـدم .

لم يكن قد تحرك من الموضع الذي استعاد فيه الوعي ، بل مكث ساكنا على الارض القاسية ، عيناه تنظران الى السرير العسكري الذي وضع جسد ايريز عليه من جديد . كانت المرضة قد غابت أم تراها ليست سوى حارسة ؟ لم يكن باستطاعته تذكر التفاصيل الخاصة بزيها الرسمي ، لم يكن باستطاعته تذكر اي شيء سوى شكل غامض لامرأة مذعورة تلبد تحت شجرة .

والساعة ؟ لا بد انها الثانية عشرة ليلا على الاقل كي ترتسم النجوم بتلك الشدة في تلك الزاوية الصغيرة من السماء . وربما ، بالحقيقة ، لم يكن الوقت متأخرا كثيرا . وفي الحال توقف عن الاهتمام بتلك المسألة . فثمة أشياء ، ينبغي تذكرها سريعا ، مثـل ....

مثـل مـاذا ؟

الجسد الممدد على السرير العسكري كان حقيقيا تماما ، فما الذي يعرفـه المجانين عن ذلك الشيءالذي جاء به عملاء الكارتل واخفوهفيالملحق؟ ذلك انهم في خضم هيجانهم المعدي كانوا قد اخترقوا الحاجز الاقرب وتغلغلوا داخل الكوخ ثم رموا الى الخارج بكل ما يحتويه : كرسي ، خزانة ، أدوية ، طاولة ، سرير ، مريضة . ذلـك ما رآه . وكان قد شعر بنوع من الراحة حين رأى أن ايريز سقطت على أرض طرية ، لكنه كان ارتياحا عابرا ، اذ انها لم تكن تتحرك ... رفـع بعد ذلك الشكل الـذي لا حراك به ، أو حاول ذلك ثم تذكر انه رأى سوبورو يقترب ، وانه انتابه ، في آخر لحظة ، الاحسـاس بالخطر . بعد ذلك وجد نفسه ممددا على ظهره في آخر درجة من درجات الوعي حيث كان ناظراه يتطلعان الى النجوم في سماء الشفق ، وذهنه المخلص للظواهر يردد : « مثل ذبابة طويلة الارجـل فوق التيار ، كانت روحـه تنزلق على الصمت » (١) فهل كانت تلك آخر أفكاره ؟ راح يتساءل ، وقد وضعه فوق الارضية

---

(١) من قصيدة للشـاعر الانكليزي ييتـز .

الاسمنتية الباردة شخص ما هو سوبورو بالتأكيد ، دون أن يدري ما اذا كان ، بذلك، يريد التحدث عن النجوم أم الحرارة الخامدة للمرأة التي يمسكها بين ذراعيه .

من جديد رفع عينيه نحو النافذة المجهزة بقضبان . ولديه انطباع بل قناعة تامة بأن الليل لم يبلغ منتصفه على الاطلاق ، بل انه بدأ لتوه . إذ بات من المؤكد لديه ان النجوم كانت قد غزت لتوها زاوية المساء المرئية بذلك الوضوح الشديد : الدب الاصغر ، الدب الاكبر ؟ حتى هذه السماء هي عبارة عن سيرك للا مبالاة ، فحملت له تلك الفكرة بعض العـزاء .

كانت ثمة صورة دمغت في ذهنه الى الابد بحديد حام ، صورة ذلك الجسد المرمي داخل الزوبعة تلك التي اكتسحت في طريقها الكلمة والسرير وكل شيء آخر . وصاحب القدم المشوهة ؟ أين تراه كان ذلك الرجل صاحب التوجيهات ؟ هل ذهب يسأل عن آخرين ؟ وفجأة انتصب اوفي اذ كان عقله يعود اليه شيئا فشيئا ، فرأى أن وضعه لا يمكن الا أن يكون مؤقتا . فعلى الاقل ، أجل ، على الاقل لا يمكن لوجوده ، في الملحق أن يكون ، ضمن مخططاتهم النهائية ، أيا كانت تلك المخططات ، بذي أهمية ، ولسوف ينقل دون ابطاء ، أما العصامي ، ابن مهنته ، فربما كان بصدد السهر عليه . وفجأة توقف اوفي . لكن لماذا جاؤوا بي الى هنا ، ان لم يكن من أجل ... ؟ لكن كان من الصعب عليه أن يفكر ، فبذل الجهد كان يسبب له الما في رأسه كما لاحظ انه لا يفعل شيئا سوى تحاشي السؤال . هكذا النساء في حالة الاغماء لا يتكلمن ، وكذلك الامـوات .

وبجهد بالغ نهض ، جلس على السرير ثم فتح أجفانه بأصابعه .

أحاول ... أحاول ... أن أصعد الى السطح ...

ثم فكر بأنه لا بد من أن توجد في تضاريس ذهنه ، عبارة من هذا النوع . لا بد من بذل كل جهد ضد سلطة الطغيان التي تكون هي نفسها ضحية . فهي ، بالتأكيد، تعلم بوجودي هنا ! ان لذراعيها ثقل الرصاص ، بلا شك ، وثمة ذلك الاحساس بالتجمد البطيء ، تلك الذكرى المتروكة على شاطىء الوعي وسط ثياب مهجورة ، ذلك النبض الذي يضعف ... لكن لا يمكن أن يكون هنا نقص في ذلك الجهد اللا مرئي ، وفوق البشري تقريبا ، ضد خطم الوحش الفاغر فكيه ، في الكفاح من أجل تحرير الفكر من فخ صمته ، آه ، لو كان بالامكان تحقيق تزاوج الهوائيات بلحظة سحرية ، بعملية استحضار متزامنة للافكار العديدة التي يشتركون بها ... حاول أوفي تركيز ذهنه على أفعاله ذاتها تلك التي لم تكن تشكل الا كلا واحدا مع ما ترمز اليه . بسط ذهنه في محاولة التركيز تلك ، لكنه لم يتحرك قط .

كان ما يزال مستمرا في الغوص بنظراتـه في العينين اللتين ابقاهما مفتوحتين بأصابعه ، مولفا نفسـه بذلك على شكل جهاز استقبال شامل ، مستخدما ملايين

الهوائيات ، مكتشفا، مبعدا التشوشات المعكرة ، دون أن يجرؤ على التحرك خشية أن تضيع منه اقل زفرة ألم ، أقل معاناة صامتة يمر بها ذلك الكون المضطرب المنكمش فوق السرير العسكري الصغير ذاك . رفع عينيه مضطربا حائرا نحو النافذة فلاحظ أن عليه أن يناضل ضد العين المغناطيسية للقمر الذي كان في تلك اللحظة ينحرف شيئا فشيئا خلفهما . وهكذا ، ترك راسه يهوي الى الخلف اعياء وتعبا ، كما كشر الما ومعاناة ، اخيرا حدد المكان الذي كان العملاق قد ضربه عليه ولا بد . حينذاك انحنى الى الامام محاولا جعل العضلة المتألمة ترتخي ، لكن بلا جدوى فقد اضطرب بصره ، واعماه برق ابيض . لا بد أن العملاق قد ضربه مرارا . مع ذلك لا يذكر انه تخبط .

اذن ، هل قام حارس آخر بتسديد رفسة من حذائه الى رأسه حين كان ممددا يعد النجوم خلال نوبات اغمائه ؟ هذا الاحتمال بدا وكأنه يفسر السبب في انه لم يفلح في التغلب على الضربة الاولى التي طرحته أرضا فاقد الوعي .

بدأ ينتصب جالسا فأخذت قاطرة تدور وتدور للحظات من الزمن على سكة الحديد التي نصبت في راسه ، بعد ذلك تخلت عن حركتها الدائرية لتفوص مطلقة ما يشبه النعيب داخل مستنقع غامض يقع عند قاعدة جمجمته . قال لنفسه ان جسمه كله معطل ثم عاد فرقد على ظهره بهدوء مستخدما يديه كمخدة تحت رأسه يتقي بها الارض الباردة . كان القمر يجذبه اليه مالئا محجريه ، ناقشا على الارض شكله المصلوب . لكن قبل وصوله اليه كان يرتعش على جسد ايرييز مبرزا حوافه المتجمدة . انقلب اوفي على جانبه عله يراها على نحو أفضل ، مرتعدا من فكرة الخراب الذي أدى بها الى الالتجاء لاعماق الزوال تلك .

أصوات ... أصوات ... لكن وسط ذلك كله وضوح الاحداث . تسلسلها وحده هو الذي كان ما يزال غير أكيد بعض الشيء . بالطبع كان قد التقط ايرييز بيديه .... أجل ... وكان هناك بركان الالم ذاك الذي حاول البيروقراطي الغبي أن يقاومه . فمن سيطر عليه يا ترى ؟ ليس هو بالتأكيد ، فقد كان هناك صوته الذي أصبح فجأة ، مضطربا ، ضعيفا ، لا يدري كيف يمكن ربط النتيجة النهائية بالمقدمات البسيطة انما المتعرجة التي سبقتها .

كم كان غريبا ذلك الرجل الذي اختار تلك اللحظة ليقول له : « انا اعرفك سيد اوفي . ليس فقط بوصفك الذهن الآمر الناهي في حملة الكاكاو ، بل بوصفك الرجل الذي جاء برجال آيرو الى كروس — ريفر ... » « هي ميتة ! » نعم ، هو يذكر أنه قال ذلك بكل لطف واصرار وأن الرجل الصغير كرر : « ليست ميتة ، قلت لك ، بل هي في حالة سبات » .

هل كان ذلك الاحتمال هو الذي أوصل المدير الى حافة الهستريا ؟ إذ كانت هناك تلك الكلمات التي صرخ بها صوت حاد : « لا علاقة لي بما حدث هنا ، بل رأيت بنفسك كيف حدث . لقد انتشر تماما كالوباء ، سيد أوفي ، تماما كالوباء . . . . » .

تماما كالجائحة التي انتشرت في البلد ، قرأ أوفي تلك الفكرة على محياه. « هي ميتة » . استعاد الى ذهنه بعدئذ تلك الكلمات الرتيبة وهي تسقط قطرة قطرة من شفتيه ، لكن الغريب في الامر أن الموظف الصغير كان قد سد الطريق في وجهه . فسواء كانت ميتة أم حية انما في حالة سبات ، كان بامكانه أن يأخذها ، أن يحملها بعيدا عن ذلك الجنون والعدوى العامة ، بعيدا عن الاجساد والارواح المشوهة التي كانت تنفرم كلحم نصف ممضوغ والتي كانوا يفرسون أسنانهم في جيفها النتنة. ما الذي كان يقوله ذلك الرجل الصغير يا ترى ؟ ما الذي كان يريد قوله ؟ لكن فرعون كان يسد طريقه متعتعا نادبا . كان يسد طريقه فيما كان الحراس مشغولين بقمع الجنون داخل السور ، وذلك باخماد انفاس ساكنيه .

« انت ترى بنفسك الثغرة التي أحدثوها ، يا سيد أوفي . . . لقد خرقوا السور، هاجموا الحرس من الخلف . بعد ذلك ، دخلوا بالقوة الى الغرفة التي كانت معزولة فيها . أقسم لك انها كانت محروسة حراسة جيدة ، أرجوك صدقني . لم يكن باستطاعة احد أن يتنبأ بهذا الشجار الفجائي . اضافة الى ذلك لم يصبها أي أذى بسببه ، فقد ظلت فاقدة الوعي تماما كما رأيتها .

مع ذلك كان يسد طريقه وهـذا ما لم يستطع فهمه . اوه ! أجـل لقد نطق باتهام ، اتهام وحيد : « انت من وضعها هنا . أنت من احتفظ بها هنا . انها ميتة . » اجل ، يتذكر ذلك . كما يتذكر انكار الموظف لذلك ، انكار الواثق من نفسه . « كلا ، هي ليست ميتة . كما لا يمكنك أن تلومني على ما حصل . كانت محروسة جيدا جدا . حارسة ممرضة كانت تسهر عليها ، وكان الطبيب يزورها كل يوم . » بعد ذلـك انطلقت الطلقات ، الصراخ ، الصدمـة . . .

انه يتذكر جيلدا ايريز بين ذراعيه ، وهو عند باحة المحكومين بالاعدام ونظارتا فرعون السميكتـان تدوران بكل حيويـة باتجاهـه ثـم باتجـاه المعركة التي تدور خلفه ثم باتجاهه من جديد فيما كانت الكلمات تتزاحم على شفتيه وهو يتكلم ، يتكلم. لقد انتهى به الامر الى أن فهم أن الرجل الصغير كان يتكلم لسبب محدد ، انه كان ينتظر شيئا ما ، كان ينتظر . لكن ذهنه لم يكن الا شرنقة هائلة من الالم حيث لم يكن بامكان فراشة منطق واحدة أن تخرج منها . ما الذي قاله يا ترى ، خلال تلك المـدة التي بدت وكأنما لا نهاية لها ، ذلك الرجل صاحب الجمجمة الشبيهة بقنبلة المدفع والذي كان يسد طريقه تماما ؟ العجيب ان وجه سوبورو كان يحشر نفسه كل مرة يبدأ فيها بفهم موعظة القزم الطويلة . سوبورو الذي كان يبرز من العدم . شيء ما نفذ

اخيرا الى الشرنقة عديمة الاحساس. كان أوفي قد استدار، ربما بسبب البريق الذي لمع فجاة في عيني صاحب القدم المشوهة ، بسبب التوسع الفجائي لحدقته ذاك الذي لم يكن له اية علاقة بسيل الكلمات الذي كان يتدفق من شفتيه . اجل ، لا يمكن ان يكون احدا سواه : سوبورو . لقد ضربه على قذاله وحين افاق ، وهو على الارض القاسية في الملحق الخاص بجناح المجانين ، لمح في الجانب الآخر من الفرفة شكل ايريز الذي لا حراك فيه ، ممددا على السرير العسكري .

كانت النافذةالعالية ذات القضبان تسمح بدخول ضوء القمر ، ذلك البدر المكتمل . اذن ، كان الليل في بدايته ، وكان هو قد عبر ابواب تيموكو ظهرا ، وماذا بعد ؟ لماذا تلك الادانة المتأخرة ؟ فبعد كل حساب كان قد بقي مع ذلك الرجل في مكتبه النهار بطوله ، دون أن يرد ذكر آيرو قط ، دون أن يشير اليها أحد قط . كان قد جاء من أجل تحقيق حول شخص اختفى ، فلماذا يا ترى ، وسط مشاحنات المسوخ ، وفي الوقت الذي كان فيه الهدف من تحقيقه ذاك محمولا على ذراعيه فاقدا الحياة ، لماذا اختار ان يصرخ : « لا تلوموا الا انفسكم ! فأنتم من جاء برجال آيرو الى كروس ـ ريفر . أم نحن الذين دعوناهم ؟ » ومن جديد انتصب أوفي وهو يقسر نفسه قسرا . قهقهة عالية طويلة كانت قد اخترقت تلافيف دماغه ، فتقدم بحذر وببطء الى أن بلغ النافذة وهو يستند الى الجدار . اصاخ السمع . كانت ثمة اصوات أخرى : صوت آمر ، ثم ضربة مطرقة دلال . بعد ذلك أخذ صوت آخر ، رقيق ومنهجي ، يشرح شكواه .

صعد أوفي السرير العسكري ثم تطلع الى الخارج .

بعدئذ فرك عينيه ، وهو يرى المشهد الذي يدور في الاسفل ، داعيا الله الا يحل به الجنون . فهناك كان نزلاء جناح المجانين ، يجلسون على شكل دائرة ، دائرة غير مغلقة تماما . في طرفها كان يجلس شخص كئيب عبوس ، تغطي كتفيه ملحفة ، ويعلو رأسه غطاء من الواضح انه اختير على نحو مرتجل وأن المراد منه أن يشبه العمامة أو الشعر المستعار ذاك الذي يلبسه القضاة ، انما كان من المستحيل الحكم عليه حكما قاطعا بالنظر اليه من أعلى . وهناك كان يقف شخص يستحوذ على سامعيه بسحر حركاته واشاراته الرشيقة اللطيفة وهو ينحني من حين الى آخر باتجاه ذلك الشخص الذي يمثل السلطة والذي يضع الغطاء النظامي على رأسه . في الطرف الآخر من السور كان ثمة حارسان ، يرقبان المشهد خفية . وأمام المقعد ـ اذ بات أوفي يميز اكثر ـ كان ثمة نزيل آخر ، راكع على الارض ، هو الضحية أو مجرد ممثل في تلك المهزلة الغامضة . بضع لحظات من الانتباه كانت كافية لان يزول من نفسه كل شك : فخلال تلك الساعة الاخيرة التي منحت لهم قبل أن تغلق عليهم الابواب طوال الليل ، كان المجانين قد شكلوا من انفسهم محكمة !

كان القمر يتلألأ ، وكان كل شخص من شخوص الدائرة يرتسم بوضوح ، كل تكشيرة ضحك ، كل نظرة تآمر ، اتضاع المتهم ، قوة النائب العام الخطابية المتغطرسة، الوجه المتجه نحو منصة القضاء هناك ، في أعلى الدائرة القمرية ، بينما كان صوت رنان يلخص شكواه . صفقت جماعة الحلقة ، فرفع القاضي رأسه ، بكل جلال ومهابة، مصححا بوقار كل تجاوز . أحس أوفي بأنه ينجذب الى تلك الحلقة ذات الجنون الهادىء، تستغرقه مجرياتها الى درجة احتاج معها الى وقت طويل قبل أن يلاحظ المطر بقطراته الناعمة وهي تدق الجدار وتنفذ حتى الى الزنزانة ، عبر القضبان . كان قد سمع صوتا قبل بضع لحظات ، لكنه كان قد عزاه الى الاصطدامات المجنونة لذباب ضخم ولحشرات أخرى مجنحة يجذبها مصباح الباحة الوحيد .

بيد أن استمرار الصوت أدى الى صدمه ، فنظر الى الحلقة بانتباه شديد ، وهو حريص كل الحرص على اكتشاف كل حركة خفية هناك ، غير أن العيون كلها كانت تحدق الى الممثلين الاساسيين في ذلك الطقس المسائي . بدأ ناظراه ينتقلان بمحاذاة الحاجز الى أن بلغا السور الذي تعلوه شظايا الزجاج وأنفاق الاسلاك الشائكة . هناك كانت شجرة كاريته تنتصب وهي تميل على الجدار من الخارج ، ورغم انه لم يكن في البداية قادرا على تصديق ما رأته عيناه الا انه استطاع تمييز وجه زاشي القمري وقد موهته الاوراق جزئيا . وجه زاشي اليه ، وقد رأى أنه انكشف أخيرا ، ابتسامة شقت وجهه حتى الاذنين ثم أشار اليه أن يبقى حيث هو . لم يختف وجهه سوى لحظات معدودات لكنه حين عاد كان يمسك بسلم من الحبال ، تركه يتدلى سنتيمرات عدة فوق الجدار ثم حركه بلطف وسحبه . أشار اليه أوفي أنه فهم . بعد ذلك نزل من مجثمه وجلس يفكر .

كانت الدوافع الرئيسية قد باتت واضحة في تلك اللحظة ، بل ان احدها ظهر له منذ النظرة الاولى وذلك عندما لمح من النافذة المشهد الذي كان يجري تحته . لم يكن ثمة أي خطر في أن تكشف ابريز المدفونة الى الابد ، وفي قلب الجنون إن كان ذلك سيبدو ضروريا ، العنف الذي تعرضت له أو تحديد هوية الجناة . كان من المحتمل أن تقع هي نفسها فريسة لاختلال العقل لدى رؤيتها للحقيقة الاولى حين تفيق ، ان كانت ستفيق . فشهادتها في المستقبل لن يكون لها أي وزن ، حين تدق ساعة الحساب .

نهض أوفي ثم دق الباب ونادى الحارس ، فجاء هذا واستند الى الحائط ثم سأله عما يبغيه .

ــ ماء ! اريد مــاء .

ــ لمـاذا ؟

ــ ماء ، كرر اوفي ، فقطب الحارس حاجبيه .

ــ انا لست هنا كي اذهب وافتش عن المـاء .

ـ انا مريض ، شكا اوفي ، وانت يمكنك ان ترسل سجينا للبحث عن قدح ماء ، فهل ذلــك كثير عليك ؟

سمــع أوفي الحــارس يتذمر ثم سمعــه يبتعــد وهو يهمهم ضــد المجرمــين الذين يتصورون انهم في فندق . لكن أخيرا ظهر سوبورو وهو يجر خطاه . رفــع عارضة الباب ثم أعطاه كأس الشفقة . أخذه أوفي ، جرع ما فيه ، بينما كان سوبورو ينتظر كي يسترده . مد أوفي القدح باتجاهه ، بعد ذاك سحب يــده دون أن يترك القــدح .

ـ لماذا لا تتكلم أبدا يا سوبورو ؟ لماذا ؟ انت تفهم كل شيء لكنك لا تتكلم أبدا . بودي أن أعلم لمــاذا .

مد سوبورو يده من جديد لاستعادة القدح ، ثم حرك مفاتيحه مشيرا الى ان عليه أن يقوم بجولة على الزنزانات كي يحبس السجناء .

ـ سيكارة ؟ طلب أوفي وهو يتلمس جيوبــه ، لكن تبين له أنهم أفرغوها حين كان فاقد الوعي . فقال وهــو يبتسم ابتسامــة بائسة ، آسف ، كنت أعتقد أن باستطاعتي أن أقدم سيكارة لك غير أنه لا يوجد معي سكائر .

ادخل السجين يده الى جيبه ثم أخرج علبة وأخرج منها سيكارتين ، قدمهما كلتيهما الى اوفي . بعدئذ أخرج الثقاب وأشعل واحدة لنفسه ، فصاح أوفي :

ـ كيف أشكرك ؟ أوه ، يؤسفني أنه ليس معي ما أقدمه لك مقابل ذلك .

هز سوبورو راسه ثم مد يده مرة أخرى ، فترك له أوفي القدح وهو يتأوه يائسا متخليا عن كل أمل في أن يخترق تلك الكتلة الصامتة المظلمة . مع ذلــك صرخ :

ـ بودي أن أسألك . لماذا سجنوني هنا ؟ لان هذا لصالحي ، يا صديقي ، لذلك سجنت آ ؟ كذلــك ، لماذا هذه المرأة هنــا بينما كان من الواجب أن تكــون في المستشفى قيد العناية الخاصة ؟ الا يبدو هذا غريبا في نظرك ، يا صديقي ؟ أم أن هذا ، بالنسبة اليك ، جزء لا يتجزأ من الحياة الطبيعية العادية ؟ انني أتساءل لكنك تظل ابكم ، ولو كان باستطاعتك أن تتظاهر بالصمم لفعلت ذلك على ما أعتقــد .

لكن لم يكن ثمة أمل . لهذا هز كتفيه وادار ظهره في اللحظة التي رأى فيها أن السجين شرع ينقب في احد الجيوب الداخلية لزيه الموحد . أخرج سوبورو من ذلك الجيب ورقة سميكة مطوية بعناية ثم جلس القرفصاء ونشرها على الارض ، فكانت اعلانا . أحد تلك الاعلانات الاولى عن ايريز ، تذكره أوفي وهو يقطب جبينه . كان الاعلان يصور ايريز المؤتزرة بازار شفاف المتظاهرة بأنها تستحضر القطارة الحليبية من لب بزر الكاكاو ، وهي تخرج من قوقعة مذهبة انشقت على شكل فلقتين متساويتين تمثل لوزة الهند . أشار سوبورو باصبعه الى المرأة الممددة على السرير وببطء بدأ يشرح بايماءات مضنية أن تلك المرأة والاعلان شيء واحد . نظر اوفي ، الذي اخذ على

حين غرة ، الى الرجل وهو يصور بالايماء اكتشافه الخاص . كانت حالة تلك المرأة تشبه تلك القوقعة وكان على أوفي أن ينتظر بصبر شديد ان تخرج منها. أعاد سوبورو الاعلان بكل رصانة ثم وضعه في الاعماق التي أخرجه منها واتجه نحو الباب .

تنحنح أوفي محاولا أن يستخدم نبرة مجردة قدر المستطاع .

ـ لماذا لا تبدا بسجن المجانين ؟ وسيكون باستطاعتي الاستفادة من هذه الدقائق المعدودة لاستنشاق الهواء في الباحة (ثم فرك رقبته على نحو واضح وكشر مبتسما .) آه ، يالراسي !! . . أنا لا ادري لماذا كان عليك أن تضربني ، لكن هذا آلمني . أنا مريض للغاية فدعني استنشق الهواء ، انك مدين لي بهذا على الاقل .

بدأ سوبورو يفكر ، فاقترب أوفي من العملاق غارزا نظراته في عينيه ، باحثا عن اقناعه بكل الوسائل .

ـ لا تذهب يا سوبورو ، استمع الي دقيقة واحدة . آه ! لو كان باستطاعتي ان اؤثر فيك ، انا أعلم ان هذا ممكن . لقد أثبت ذلك وانت تخرج ذلك الاعلان كي توصل الي رسالتك ، رسالة الامل : فمن تراه كان يصدق انك رجل ذو خيال ؟

انتاب أوفي احساس بالخوف وهو يرى سوبورو يتشنج ، فأخذ يبحث عن لغة جديدة يمكنه بها التغلب على عادة الارتياب لديه ، تلك العادة القديمة قدم عمره .

ـ هل تدري أن وصفي لك بأنك رجل ذو خيال هو اطراء ، فأنت ، بالطبع ، تظل رجلا تنفيذيا على نحو خاص . انك تتصدى للفوضى وتفرض النظام الذي تريده . مثلك مثل أولئك الرجال ذوي اللباس الموحد الذين يدعون انهم ينظمون حياة الآخرين الى الابد . كما انك تقمع ، كالثور ، قطيعا من الاناث الهائجة . لقد تأثرت باخلاصك الصامت ، شجاعتك التي تماثل شجاعة السياف وسط مرضى الجذام المعدي . ومن تراه لا يتأثر ؟ لكن المشكلة يا سوبورو هي هذه : لم يا ترى ما تزال هنا ؟ لقد انهيت عقوبتك . مضى وقت طويل مذ بات باستطاعتك الحصول على حريتك المشروطة ، فلماذا يحتفظون بك هنا ؟

لكن سوبورو بدأ يضرب الارض برجليه وقد نفد صبره ، وكان وجهه ما يزال يكتسي ذلك القناع الخالي من التعبير الذي عرف به اوفي منذ البداية . أخيرا همس أوفي في اذنه ، وقد بلغ حافة اليأس :

ـ أتدري ما معنى أن تكون مستغلا ؟ أن تظل طيلة حياتك بين المحكومين بالاعدام ؟ اسمع . لا ، انتظر . لا تأخذ المفاتيح على الفور . تعتقد انك قد تم العفو عنك ، لكن انظر ما يجري . انظر الى هذه المرأة الموضوعة على السرير العسكري ، فأنت بعد كل حساب بئر سرية للخيالات ، اذن ، لا بد أن باستطاعتك أن تفهمني ، فلماذا لا ترى انك سجين مثلها في كبسولة الموت ؟ ان الحليب يفسد في جوزةالهند حين يظل وقتا طويلا ، والطفل يتعفن في رحم امه اذا مكث فيها اكثر من تسعة

اشهر ، او يصبح مسخا ، أم ترى لا يقول قومك ذلك ؟ كما ان مح البيضة يفسد ان لم تفتح قبل فوات الاوان ، انه يخلق عالما متسمما بأبخرة تخنقه في القشرة التي غدت قفصا . الم تر الفراشة تتخبط تخبط المجنون كي تخرج من الشرنقة ، يا سوبورو ؟ ماذا يحصل اذا دفن عدوك تميمتك تحت الانقاض ؟ قل لي . ألا تدري أن لب لوزة الهند يزنخ عاجلا أم آجلا ؟ وان الجرثومة تكتشف أصغر ثقب في القشرة القاسية كي تنفذ الى الداخل وتفسد اللب ! ثم تضخم صوته الى أن أصبح صراخا :

ـ احقا ، لا أستطيع التأثير فيك يا سوبورو ؟ الا يمكنني الوصول اليك داخل ذلك النعش الذي أرغموك على الرقاد فيه منذ عشرين عاما من حياتك القصيرة ، دون أن يحركك حتى صوت المفاتيح التي تحركها ؟ هل كنا جميعا نضيع وقتنا ونحن نريد وضع حد للاستغلال القاتل الذي يسجن عقولا كعقلك ، يربطها بالعدم بعقد أبدي ، عقد مدى الحياة ؟ (ثم تنهد ، منفتلا على عقبيه) : حسن ، طابت ليلتك . أصحابك ينتظرونك وأنت العبد ذو الحظوة الذي يكبل بالحديد أيديهم الممتدة ، فبغير كلاب أمينة مثلك لم يكن باستطاعة آموريي(١) هذا العالم أن يدوسوا الانسانية بمثل تلك الصفاقة الوقحة . فلتعض أعقاب أولئك الذين يريدون مواجهتهم ولتدفن عظامهم بعد ذلك في أعماق الحديقة . لكن ، تذكر هذا يا سوبورو ... (وانفتل على عقبيه ثم غرز عينيه من جديد في عيني السجين) ... انت وحدك من يستطيع ايجاد الاثر الذي يقود الى المكان الذي طمرت فيه العظام وان يخبئها كي يوجه الاتهام . لكن لا تشك قط اذا ما انتهى الامر بآل آموري ، رغم لعقك لاقدامهم ولحسك لها ، الى القاء عظم مسموم اليك ، طابت ليلتك يا صديقي .

* * *

جلس أوفي على طرف السرير ، رأسه بين كفيه ، وقد انهكته تلك المحاولة التي ذهبت سدى ، بينما ظل سوبورو جامدا غائم العينين منجرفا نحو ماضيه الذي ولى . كان يحاول بكل ما لديه من جهد أن يمسك به ، غير أن مرحلة سابقة للوعي كانت ما تزال تفلت منه ، تلك المرحلة التي كانت الحياة فيها اكثر طوعية ، تلك المرحلة التي لم تكن تتسرب فيها الحياة حصرا عبر نظارتي معلمه السميكتين وروائح الدهاليز المظلمة لاناس يلجمون من بعيد . رغم عجزه ، كان الماضي البعيد ما يزال يتحرك ، عازلا الحاضر . من بعيد سمع صوت الحارس الذي كان ينادي باسمه ، ثم ، وهو يخرج من حالته التي كان فيها أشبه بالمنوّم مغناطيسيا ، بدأ يتحرك ببطء مديرا رأسه نحو الباب دون أن يفهم شيئا حقا . تردد النداء من جديد فأطاع اخيرا لكن برد فعل بطيء ، ثم بدأ ، وكأنه يسير في نومه ، يمشي نحو مصدر الصوت المألوف ، عائدا بمشقة كبيرة من أرضه الغريبة ، المجهولة .

---

(١) نسبة الى زاكي آموري ، احدى شخصيات الرواية .

سمع أوفي وقع خطاه يبتعد فأدار راسه بمزيج من الشــك واليقين . كـان سوبورو قد تجاوز الباب تاركا اياه مفتوحا بعض الشيء ، فألقى أوفي نظرة سريعـة على الشكل النائم في السرير ثم لامس جبينه ولحق بالسجين في ظلمة الليل . لكنه فجأة توقف حين راى طيفين يخرجان من الظل ، وعلى ضوء مصابيح الممر ظهر أمامه وجه طبيب الاسنان وقد لمع شعره القاسي النحاسي ببريق لا لبس فيه . كما تعرف الى شاليل ، لكن الطبيب لم يهمس الا بتحية مقتضبة ثم دخل الغرفة وهو يتحاشـاه ، بعدئذ فحص المريضة وهو منحن فوق السرير .

ـ التفاصيل فيما بعد ، وعد طبيب الاسنان ، أما الآن فلا وقت لدينا . قل لي هل راسك افضل ؟

ـ لكن ما الذي يجري ؟

ـ لا يهم . ببساطة لقد استفدنا من الفوضى لغاياتنا الخاصة ، اذ جاء زاشي يعلمنا أنك اختفيت في بطن تيموكو ، وهو يقوم بدور الراصد فوق واحدة من تلـك الاشجار . . .

ـ نعم ، لقد لمحته قبل لحظة . . .

ـ آه ! اذن فقد عاد الى مركزه . انه أمهر بكثير مما يظن المرء حين يراه . اوه ! علي أن اعترف أنني كنت أتنصت عند الباب منذ فترة وجيزة ، وقبل ان يلحق بي الطبيب . فهل تريد حقا التأثير بهذا الثور ؟

في تلك اللحظة اطلق أوفي ، مغتاظا ، صوت صفير .

ـ اخيرا ، هل ستقولان لي كيف . . .

فقام طبيب الاسنان بحركة اعتذار .

ـ لم يكن الامر معقدا ، فقد دخلنا بعد ان تسلقنا السور مستفيدين من انشغال الناس جميعا بالشجار . كنت أنت قد انطرحت أرضا ، فألقيت نظرة على المـراة وقررت عدم المخاطرة بأخذها من حيث دخلنا . لم يكن لدينا خيار ، بل لم يكـن هناك بد من وضع المدير تحت حمايتنا وجعله يطلب طبيبا و . . . اوه . . . اشيـاء اخرى . زاشي هو الذي أصر أن يكون هو (وأشار بيده الى شاليل ثم التفت الى أوفي مواجها نظرته الفاحصة) . نعم ، قال وهو يبتسم . انا اعلم انه أخوها .

لكن أوفي غير الموضوع .

ـ هل نجح هجومكم على مستودع الاسلحة ؟

ـ لم يكن باستطاعتنا أن نسمح لانفسنا بالفشل مرة اخرى ، فتم كل شيء على ما يرام .

اكمل الطبيب فحوصه ثم انضم اليهما ، لكنه لم يكن يفكر بالمريضة ، بل كانت نظراته تجول داخل الزنزانة .

ــ خبيث ، غمغم الطبيب ، خبيث جدا ، فما من أحد كان يفكر بتفحص غرفة الانتظـار .

ــ عم تتحدث ؟ سأله أوفي بلهجة من نفد صبره .

ــ اتحدث عن غرفة الانتظار هذه ، اذ كنا ندعوها هكذا ، فهي لا تستخـدم الا في أيام الاعدام . كنا نجتمع جميعا هنا : الشهود الرسميون ، القاضي ، ممثلو المدير ، الجلاد ، مساعدوه والطبيب المناوب . فأنت ، حين تعمل لدى الحكومة ، يمكنهم ارغامك على المجيء ، في أي وقت كان ، وفي مثل تلك المناسبات ، لا تجـد مكانا في العالم أكثر هدوءا .

فاثار فيهم ذلك احساسا بالقشعريرة ، الا أن أوفي أشار باصبعه الى الطيف الممدد في السرير ثم سأل :

ــ والمريضة ، يا دكتور ، المريضة ؟

ــ نعم ، لقد كان صديقك على حق فهي في سبات عميق للغاية . أما ما يتعلق بالطريق الطويل . . .

فأحس أوفي بضيقه يشتد وهو يفكر بعادة طبيب الاسنان في أن يتولى الامور بنفســه .

ــ لماذا استشرتم طبيبا ؟ سأل بلهجة جافة ، فنحن لم نقرر شيئا بعد .

ــ كلا ، ذلك واضح ، لكن المرء يكتسب بعض الوقت حين يطرح الاسئلة سلفا ، فماذا تقول يا دكتور ؟

نظر شاليل وقد بدا عليه الانزعاج الى الاول ثم الى الآخر .

ــ على كل حال ، قد لا يؤذيها ذلك ، بل ربما يساعد في إخراجها من حالة السبات ، فالطب غير قادر عموما على البت في مثل هذه الحالات .

ابتعد أوفي عنهما ثم توقف ونظر الى السماء خلف الاسوار . تركه طبيـب الاسنان يخلو الى نفسـه الى أن انتهى من مساعدة شاليل في فك جزء من السرير الذي كان يشكل محملا . بعد ذاك شد ابريز اليه شدا محكما ، ثم خرج مقتربا منه .

ــ علي أن أفكر تفكيرا عمليا ، فهامش امننا يتقلص بسرعة كبيرة ، وقد وعدت بأن ألحق بالجماعة قبل منتصف الليل . اذن عليك أن تفرر .

فاستدار أوفي .

ــ انت مخطىء ، فأنا لا انوي التردد . فقط كان الماضي يعذبني . انا جاهز ان كنت انت جاهزا .

وانضما الى الطبيب ثم رفعا المحمل ، اوفي من الامام وطبيب الاسنان مـن الخلف . أما سوبورو الذي كان ينتظرهم عند الباب الداخلي ، فقد سار امامهم الى

ان اجتاز الموكب الباحات الساكنة . لم يكن يبدو على وجه السجين شيء يدل على انه يعرف الاوامر الجديدة التي كان بصدد تنفيذها ، والتي كان معلمه قد أصدرها رغما عنه . اخيرا مروا امام المكتب حيث كان المدير التعس يجلس الى الطاولة ، وهو يؤلف ، ذهنيا ، تقريره حول أحداث الليل .

عند الباب ، لم يروا حتى الحارس .

ـ يبدو أنكم مسيطرون على الوضع بكل تفاصيله ، لاحظ الطبيب فهز طبيب الاسنان رأسه .

ـ ليس بالامر الصعب ان تثير شغبا ، فلدينا ما يكفي من الناس في جيش شانتال المسجونين هنا والذين لا ينتظرون الا الفرصة المواتية للرد على ضربات جلاديهم .

كانوا يعتقدون أن سوبورو سيقوم بنصف دورة ، لكنه خرج معهم ثم اغلق الباب خلفه سائرا في المقدمة بخطا ثابتة .

ـ الى اين يذهب ؟ سأل الطبيب ، فأجاب طبيب الاسنان :

ـ اعتقد أن من الافضل ان تسأل أوفي .

من قلب الظلمة خرج رجال آخرون سرعان ما انضموا الى الموكب، فترك أوفي وطبيب الاسنان بعضهم يأخذون المحمل عنهما وسارا مع شاليل في ظل السور . أما زاشي ، المكتوم الانفاس قليلا ، فسرعان ما وصل ثم بدت عليه هيئة المرغم وهو يسمع مجاملات اوفي .

ـ تذكروا أن عليكم الا تشغلوا بالكم بشأني ، وثقوا انني كنت مغطى ، قال الطبيب فرد طبيب الاسنان .

ـ خاصة ، ان لم تضع تعليمات المدير الخطية .

ـ كلا ، لن اخاطر بذلك ، خاصة بعد كل ما لقيتموه من عناء لانتزاعها منه .

ـ حسن ، الى اللقاء .

تصافحوا يدا بيد ، ثم ابتعد طبيب الاسنان بخطا كبيرة سريعة ، فلم يلبث أن لحق به سوبورو الذي كان بامكان المرء أن يميز ظهره بوضوح . سلك الرتل دربا فرعيا ، راحت الطيوف تتلاشى عليه واحدا فواحدا داخل الدغل الذي كان يحف به من كلا جانبيه . كانوا ينظرون الى طبيب الاسنان وهو يتغلغل في الدغل على الدرب الصغير . اخيرا لمع شعره النحاسي لحظة من الزمان ثم اختفى .

ـ كيف اشكرك ؟ بدا اوفي .

ـ لا ، لا .

ـ هل تابيلا على ما يرام ؟

ـ بل كانت تريد المجيء ، لكنني فكرت ان الامسية قد تكون خطيرة .

ـ اصبت . قل لها ... سنتلاقى في التقاطع المقبل ، وهي ستفهم .

ـ فهمت ، اجاب اخوها .

وكان تيموكو سيظل مغلقـا على العالم حتى الفجر ، فالطريق خلا اخـيرا ، والجدران والحواف تركت آخر ثمراتها المخبأة تسقط ، اما داخل الغابات فكانت الحياة تنتعش .

★ ★ ★

الفهرس